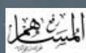
الأمة

أفكار الرواد





هذا الكتاب

من جال ببصره وفكره شرقاً وغرباً متجهاً لاستلهام مكمن شعلة النهضة وومضة الثورة، فسيجدها مخبوءة!

والسبب أنها إنما تشع وتتوهج في خلايا رواد النهضة وقادة التغيير وصناع التأثير ومفكرو التجديد.

والآلة الوحيدة لتحريك هذه الخلايا (الحفْز) لتتنشط، وإلا سمّيت خلايا ميتة!

هذا الكتاب هو ممارسة حقيقية (للحفز) النشط لخلايا أدمغة نخبة من المفكرين والفلاسفة والمثقفين العرب والمسلمين.

(ترتبط) خلايا أدمغتهم و (تتوهج) لصالح قضايا الأمة.

ميزة هذا الكتاب أنه يَضمُّ هذه الكوكبة المتنوعة والمخضرمة.

وجيل القراءة هنا أمام ثروة معرفية، وثورة فكرية، لا شعار لها سوى (النهضة).

تم استيداع هذه الأفكار في مشروع مجلة (الأمة) السعودية، سنوات طوال.

وآن الأوان لينال جيل النهضة والتغيير والتجديد، ثمرة هذا المشروع العملاق، الذي يحوي عصارة أفكار مجلة من رواد الأمة.

الناشر

افكار الرواد

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م





نتواجد

دار الأمة للنشر والتوزيع

009612784178

دار الأندلس الخضراء / جدة

02/6815027



للتواصل

00966563221022

alomah@gmail.com



الموزعون

00966563221022

00966554481905



الشيخ: راشد الغنوشي

مفكر إسلامي تونسي



إشكالية التغيير الديمقراطي في المنطقة العربية

مما غدت توصف به المنطقة العربية، أنها وضع استثنائي، مستعصٍ على كل ضروب التحول الديمقراطي؛ الذي اجتاحت رياحه كل القارات، عدا هذه المنطقة، وبالخصوص بعد انهيار المعسكر السوفييتي.

ذهب بعض عتاة الاستشراق، مثل برنارد لويس، إلى تفسير هذا الاستعصاء، بربطه بالإسلام؛ الذي رسَّخ - بحسبه- هذه الإعاقة، في الموروث الثقافي، ولا مستند له غير حجة الواقع؛ حيث ظل مسار الديمقراطية هنا لا يكاد يتقدم خطوة، حتى يتراجع خطوات، ضدًّا مع اتجاه سير العالم، وذلك بعد أن جُربت في هذه المنطقة كل أساليب العلاج، لداء حكم الفرد المستبد، فما أجدى شيء منها، في علاج هذا الداء المستفحل.

فلقد أحكمت الأنظمة القائمة إيصاد كل سبل التغيير، السلمي منها والعنيف: زيفت الانتخابات والتعددية، وأفرغتهما من كل محتوى تداولي للسلطة، ونجحت في قمع التمردات المسلحة، غير تاركة أمامها سوى سبيل التوب والاستسلام.

تلاعبت إلى حد العبث بمؤسسات المجتمع المدني، غير مترددة في هش عصاها في وجهها، وحتى ضربها على يافوخها؛ للإجهاز عليها، أو لإصابتها بشلل دائم.

أما الضغوط الخارجية؛ من أجل حملها على الانفتاح، فقد نجحت في مقايضتها بالمزيد من التنازلات، مما تبقى من الاستقلال، وبالمزيد من الاستعداد للتطبيع مع الصهاينة، كأضمن وأقصر طريق إلى القلب الغربي.

وبالأمس القريب، وصف الرئيس الفرنسي، أحد أبشع النظم البوليسية في المغرب العربي، بالمبدع في الحداثة والتصدي للأصولية.

انقلابات نفسها، رغم ما طالما بشرت به، من شعارات العدل والتحرير، قد انحسرت عن جبال وأهوال من المظالم، بعد أن خنقت أنفاس الشعوب، وأفسدت الأخلاق، ونهبت الثروات، وأضاعت الأوطان.

ولقد أوشك انقلاب الجنرال محمد ولد فال، منذ سنتين، وما بشر به من ديمقراطية، وما أنجزه من كسب ديمقراطي، أفرز برلمانًا ورئيسًا منتخبين، أن يمثل سابقة أخرى مغرية، بعد السابقة

اليتيمة للولي السوداني سوار الذهب، إلا أنه لم يمضِ بعيدًا، وسرعان ما عادت حليمة إلى عادتها القديمة، فما إن شرع الرئيس المنتخب في ممارسة صلاحياته الدستورية، فعزل رءوسًا كبيرة، في المؤسستين العسكرية والأمنية، حتى وجد نفسه يُساق إلى المعتقل، مكبل اليدين، على يد من عزلهم، وهكذا دخل المحاق آخر نجم للتحول الديمقراطي، تلألأ لوقت، في ليل العرب البهيم.

أما التدخل الخارجي؛ سبيلا للتحول الديمقراطي، فقد شهدت تجربة العراق وأفغانستان والصومال بألف لسان، على كارثيته وفساده، بما لا يُغري ذا حِجْر بالتفكير فيه، وولوج نفقه المظلم الآسن، الاحتلال داء، وليس دواءً.

ولا يتسع الموقف منه لغير المقاومة، أما التعاون معه فمسماه واضح، في مدونات تراث كفاح شعوبنا، فهل تكون كل سبل التحول الديمقراطي قد سُدت في وجوه شعوبنا، من دون شعوب العالم؟، كلا، فمراجل الشعوب يتصاعد غليانها، ضد أوضاع المهانة.

وهل الإسلام وتراثه المُعيق - كما يزعمون- أم وقود التغيير؟، أم التدخل الخارجي، هو الذي - كما حال بين شعوبنا وبين التوحد؛ الذي طالما ناضلت من أجله- حال بينها وبين اختيار حكامها بحرية؟، ولكن مسار الإسلام والحرية تحت القصف يتقدم، (وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) (يوسف: ٢١).



كشاف غزة

هل الحرب على سجن معزول، هو غزة، باعتلاء سمائها بأفتك القاصفات، ودك دورها وملاجئها ومدارسها ومشافيها ومساجدها بالدبابات والبوارج، وحرقها بالفسفور، وهي لا تملك من ذلك شيئًا ولا لمضاداته، هل يُعَد في عرف ومنطق العلم العسكري حربًا، والنجاح في قتل رضيع وامرأة وعجوز، ومدني جائع مجرد من السلاح، نصرًا؟. كلا... إنها الوحشية المنفلتة من أعماق الغرائز البهيمية، لوحوش مسعورة جريحة، تمتاح مما رسَّبته مواريث تلمودية وتوراتية، من أساطير مؤسسة للكيان الصهيوني، ولجهازه النفسي والقيمي، ومن فلسفة حلولية، حيث يحل الرب في شعب بني إسرائيل المدلل، بما يبيح لهم اجتراح أي شيء، إذ لا قيمة إنسانية خارج الشعب المختار، "وَقَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ". ولقد تكرر مرات كثيرة في التوراة الأمر الإلهي المزعوم، لقادة الشعب المختار، بإبادة السكان الأصليين لفلسطين، إلى حد الإبادة الشاملة، حتى تصفو لهم الأرض الموعودة (انظر مثلا سفر الخروج، الإصحاح ٢٣: ٣٤)، كما تغرف من الموروث الغربي، الوالغ في حروب الإبادة، المستلهمة من الفلسفات الحلولية. وهل من عجب أن يتعاطف الأمريكان مع الكيان الصهيوني، ويتقبلوا كل فظائعه، فضلا عن دعمه غير المشروط، وهم يرنه صورة مصغرة لتاريخهم، في إبادة شعوب بكاملها؛ لتأسيس مجدهم على أنقاضها؟، مضافة إلى ذلك المواريث المشتركة في عداوة الإسلام، وركوب المشروع الصهيوني - شأن معظم أنظمة الغرب- قطارَ الحرب على الإرهاب. إنه التعبير الأبلغ عن إفلاس المشروع الصهيوني الأخلاقي، ووصوله إلى الحدود القصوى، في استخدام القوة المنفلتة، بمنأى من كل خلق وقانون ودين، مدفوعًا بقوة بالمأزق الذي وصل إليه مشروعه الاحتلالي، في مواجهة شعب مصمم على الموت، دون القبول بمنطق المتغلب. إنه التصادم بين رفض الضحية المتصاعد الخضوع لمنطق القوة، مصممًا على المقاومة والظفر بإحدى الحسنيين، وبين الغرور الصهيوني المتصاعد، المنبعث من الأساطير المؤسسة للاحتلال، مثل أسطورة التفوق الموهوم، بما جعل "الشعب المختار" في حالة جنون وسعار كلب، وإلا فكيف يُفهم ارتفاع أسهم زعيم لديه بقدر ما يرتكب من مجازر؟، ماذا بقي من جرائم يمكن له اقترافها؟، وماذا بقي عنده من أسلحة يمكن له استخدامها لتطويع سجن غزة الثائر، بعد عشرين يومًا من جنون العنف المنفلت؟.

من رماد غزة ينبعث التحول العظيم

ومرة أخرى، بعد حرب تموز المجيدة، تتولى القوى الشعبية - بديلا عن جيوش صدِئت أسلحتها، ولم تعُد لها من وظيفة غير قمع الشعوب - بقيادة الحركة الإسلامية، شرف قيادة الأمة، في مواجهة المشروع الصهيوني. وكان ذلك - بعد فضل الله- عاملا آخر، من عوامل الصمود الأسطوري في غزة، وقوة زخم حركة الشارع، على امتداد الإقليم والعالم؛ بسبب امتداد وعمق هذا التيار، المرجح من خلال صمود النصر، صمود اللحم في مواجهة السكين، انتقال قيادة المشروع الوطني الفلسطيني إلى حماس، وهو المشروع المركزي في المنطقة؛ الذي طالما كان حامل لوائه مؤهلا لتسلّم قيادة المنطقة، منذ اندلاعه في نهاية الأربعينيات؛ حيث عصفت هزيمة ٤٨م، بالنظام العربي، وجاءت بأنظمة رفعت شعار تحرير فلسطين هدفًا، ومصدرًا لشرعيتها. ولأن الثقافة السياسية السائدة في العالم - يومئذ- كانت تنهل من الفلسفات الاشتراكية والقوميات العلمانية، فقد اصطبغت بها الأنظمة وحركات التحرير، حتى إذا اختُبِرَت على صخرة التحدي الصهيوني، المرة بعد المرة، فانكسرت، وقبلت نهج المساومة، والبحث عن الصلح مع العدو بدل طرده، فقد انصرفت عنها الشعوب، باحثة في مخزونها الروحي والفكري عن بديل، فكان الإسلام، المؤسس للأمة، وحادي مسيرتها، وصانع أمجادها. وهكذا، أخذت - تحت لهيب النيران والقصف والصمود- قيادةُ المشروع الوطني تنتقل إلى حماس، وإلى حلفائها، إسلاميين وقوميين ويساريين، على امتداد المنطقة والعالم، صانعة فرزًا جديدًا، فلسطينيًّا وإقليميًّا ودوليًّا، في المستويات الشعبية والرسمية، فرزًا بين قوى المقاومة وحلفائها وأنصارها، وبين القوى المتحالفة مع المشروع الصهيوني "والعاقبة للمتقين".



من دروس ملحمة غزة

العدوان الوحشي على غزة، بقدر ما هتك ما تبقى خافيًا من حقيقة المشروع الصهيوني العنصري وهمجيته، كما فضح مشاركة وتواطؤ النظام الدولي، وأنظمة ووسائل إعلام "عربية"، وهي إلى العبرية أقرب، بقدر ما مثل ملحمة من أعظم ملاحم تاريخ أمتنا المعاصر، خاضها أهل القطاع، اللحم في مواجهة السكين، طيلة ثلاثة أسابيع، صمدوا فيها صمود الأبطال، وما نال العدو شيئًا من عزمهم، ولا جاس خلال مواقعهم، بل أُجبر على النكوص عنها خائبًا مجللا بالعار، فائزًا بلقب قتلة الأطفال.

وخاضتها الأمة - ومعها أحرار العالم- بمجرد قلوب مقروحة، ودموع مسكوبة، وآهات حرَّى، وصراخ في الشوارع، في أحسن الأوضاع، وليس أكثر من ذلك، بما يكشف عن جملة من الدروس والعبر:-

١- اتساع الهوة بين الأنظمة والشعوب: مقابل حالة الاحتراق والغضب والأسى الشديد؛ التي بلغت حد ارتفاع حالات الموت بالأزمات القلبية، لم تفعل الأنظمة للتعبير عن اتجاه الرأي العام؛ الذي كان بكل كيانه في غزة، بينما الأنظمة كانها كانت في تل أبيب أو واشنطن، وضعت قواها في حالة طوارئ؛ لا لأن نخوة المعتصم تحركت في أحدهم، فصمم على غوث ثكالى غزة!، وإنما لقمع غضب شعوبها، فأعاقت حتى مطلب عقد اجتماع للقمة، ولم تجد في جعبتها - بعد أكثر من أسبوع على العدوان- من "سلاح" للدعم والنصرة غير الاتجاه إلى مجلس الأمن، في حالة استخذاء واستقالة، وتنكّب كامل عن مشاعر شعوبها، شاهدة بذلك على اغترابها عنها، وغياب الديمقراطية عن أنظمتها.

وكان واضحًا أنه على قدر غياب الديمقراطية في نظام، أو عمق التبعية للغرب وللصهاينة، بقدر ما كان قمعه للمسيرات أشد، وكان النظام المصري - وكذا النظام التونسي- على رأسها، بينما النظام التركي - رغم علاقته الوطيدة مع الكيان الصهيوني؛ لأنه نظام ديمقراطي- فقد تفاعل إيجابيًّا مع رايه العام، فتحرك بفعالية داعمًا للمقاومة، فارتفعت مكانة أردوجان، حتى رفعت صوره على امتداد الشارع العربي والإسلامي، فهل سيكون زلزال غزة عامل تغيير، يحمل الأنظمة حملا - عبر ضغط الشارع- إما على الانسجام معه، وإما تمضي في الغيّ والهلاك؟.

٢- حركة الشارع شريك في النصر: لقد كان لحركة الشارع؛ التي فجرتها مشاهد الصمود في غزة، في مواجهة الوحشية الصهيونية، دور مهم، فيما انعكس منها على أهل غزة، مزيدًا من الصمود والثبات، وكان الإعلام الحر هو جسر التواصل بين غزة والعالم، كل منهما يغذي الآخر.

وبقدر ما كان ذلك مجليًا لحقيقة القضية الفلسطينة، باعتبارها قضية تحرر وطني وإسلامي وانساني، بقدر ما جلّت من حقيقة المشروع الصهيوني، باعتباره مشروعًا استعماريًّا، أشد توحشًا من النازية والفاشية، متجردًا من كل خلق ودين، فكانت هزيمة أخلاقية مجلجلة للمشروع الصهيوني؛ الذي طالما قدم نفسه في العالم، أنه ضحية التوحش العربي والإسلامي!!، وإذا العالم يتكشّف على القوة المنفلتة الباطشة بالأطفال، وبمؤسسات الغوث للأمم المتحدة، فينفجر الشارع في أرجاء العالم، إن الباطل لا يزول حتى يتكشف بألوانه على حقيقتها.

كما فرض ضغط الشارع على النظام العربي حصول نوع من الفرز داخله، بين مناصرين للمقاومة وبين ضائقين بها ذرعًا، خضوعًا للضغوط الصهيونية الامريكية، وهو تطور مهم أتاح لقوى التغيير الفرصة - إذا أرادت- للإفادة من هذا الزخم، في تأسيس جبهات وطنية، ترفع شعار تغيير هذه الأنظمة البالية، بدل رفع المطالب إليها؛ جريًا وراء سراب إصلاحها، فلقد فضحت غزة ما بقي مستورًا من عوراتها، فكانت الفاضحة، مثل سورة التوبة.

****

العلاقة بين الشيعة العرب وإيران

لئن بدت الجمهورية الإسلامية أكبر دولة تضم أكبر عدد من أتباع المذهب الاثني عشري؛ إذ قد يشكل أتباع هذا المذهب ثلثي سكانها (الستين مليونًا)، ومع أن هذا العدد لا يمثل غير الجزء الأقل من شيعة العالم، إلا أن نظام الجمهورية الإسلامية يظل - على نحو أو آخر- الحاضن الأكبر لأتباع هذا المذهب، وهو ما يطرح السؤال عن طبيعة العلاقة، بين الشيعة العرب وبين الجمهورية الإسلامية بالتحديد؟. هذه العلاقة ملتبسة، ولا تأخذ سمتًا واحدًا، بل تترواح - كما ظهرت خاصة في العراق- بين الولاء المطلق دينيًا وسياسيًا، وبين التحالف مع أعدائها الأمريكان، مرورًا بعلاقة الصداقة والاستقلالية؛ فليس للشيعة العرب موقف واحد من المبدأ الذي تقوم عليه جمهورية إيران، مبدأ ولاية الفقيه، وليس لهم مرجعية واحدة، وهم موزعون على أوطان شتى، هم جزء منها، يتأثرون بأوضاعها. وقد تبلغ تناقضاتهم وخلافاتهم إلى حد هدر الدماء، كما حصل في لبنان، بين حزب الله وأمل، ويحصل اليوم بين الصدريين من جهة، وحزب الدعوة والمجلس الأعلى من الجهة المقابلة، فمن التبسيط بمكان اعتبار التشيع السياسي أو الديني شيئًا واحدًا، وكذا الأمر نفسه يصدق على التسنن، ولكن ذلك لا ينفي الدور الذي تقوم به الجمهورية، في دعم ونشر التشيع في العالم، باعتباره أيديولوجية الدولة، بما أحدث اختراقات في المجتمعات السنية، المفتقدة لدولة مماثلة، ترعى التسنن اليتيم، اختراقات غدت تثير حساسيات شديدة في المجتمعات السنية، وتؤجج تيارات التعصب - وحتى العداوة- للتشيع جملة، وللجمهورية خاصة، حتى في الأوساط التي طالما ناصرتها، وناصرت حزب الله، وهو ما جعل من ناحية أخرى كل شيعي مظنة شبهة ولاء لإيران. وأن هذه متهمة بالتدخل في الشئون الداخلية للمجتمعات السنية، عبر ما تقوم به سفاراتها وبعثاتها الثقافية، من نشر كتب تنال من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وتثير خلافات عفا عليها الزمن، كما تدعم مجموعات منسلخة عن نسيجها الديني، بما تفيض عليها من أموال، تغوي بها مجموعات أخرى، وقد تستغل حاجتها، وهو ما حدا بالشيخ البوطي - مثلا- إلى أن يتقدم بملف موثق، بنشاطات شيعية في سوريا، تسهر عليها السفارة الإيرانية، ما أفضى إلى تغيير السفير، كما أفضى الأمر في الجزائر إلى تبني البرلمان لقانون، يحظر عمل جمعيات غير مرخص لها. أما دولة المغرب؛ فمن أجل التصدي للاختراقات السلفية والشيعية، على حد سواء، لبنيته

المذهبية المالكية، فقد تبنى رسميًّا المذهب المالكي، وبلغ الأمر حد قطعه العلاقة مع الجمهورية الإسلامية، بشكل مفاجئ، حامت حوله الظنون. ولا يزال الشيخ القرضاوي ينبه إلى خطر هذه الاختراقات، وإن بدا في الأمر تضخيم، اعترض عليه حتى بعض المقربين من الشيخ، وكل ذلك يدل على مبلغ ما تُحدثه الدعاية المذهبية في داخل الأمة الإسلامية، من تباغض بين مكونات الأمة، هي في غنى عنه، وكان أحرى أن يعترف الجميع بالجميع، وأن يتجه كلٌّ بدعايته إلى أربعة أخماس البشرية، الواقعين خارج الإسلام؛ لدعوتهم إليه، بدل المناكفات الداخلية، وإضاعة وهدر الطاقات؛ من أجل إخراج آحاد من إحدى الغرف الواقعة داخل دار الإسلام لإدخالهم إلى أخرى مجاورة، بدل الالتفات إلى من هم خارج الدار. جدير بالملاحظة، أن مسئولين إيرانيين سألناهم خلال بعض المؤتمرات عما يُتهمون به، من استهداف المجتمعات السنية بالاختراق، عن طريق نشر التشيع، قد نفوا صدور ذلك عن الجمهورية؛ التي هي أعقل من أن تستبدل ولاء الشعوب الإسلامية لهم بولاء مجموعات صغيرة معزولة، ناسبين تلك الأعمال إلى جهات ومؤسسات ومرجعيات شيعية عربية، ذكروا منها الشيرازيين، وهو أمر مسيئ لعموم الشيعة، حتى وإن أتاه القليل منهم، مسيء مثلا لصورة حزب الله؛ الذي يتمتع بشعبية واسعة في الأمة، بأثر بلائه العظيم في كسر هيبة الجيش الذي لا يُقهر!!. وبالجملة، فإن الارتباط مهما بدا قويًّا بين دولة ومذهب يظل نسبيًّا؛ إذ للدولة مصالحها التي قد تتوافق مع المذهب فتشجعه، وقد لا تتوافق فتخذل أهله، كما حصل في الصراع بين أذربيجان الشيعية، وأرمينية النصرانية، فانحازت تركيا إلى الأولى بسبب العرق والمصلحة، وانحازت الثانية إلى الثانية بدافع مصلحة الدولة، بما يجعل المذهب مجرد عامل من عوامل أخرى، موجِّهة للسياسة الإيرانية، وليس الأوحد.



هل للعتب على مصر وجه مشروع؟

مما لوحظ خلال الثلاثة أسابيع العاصفة، وما انصبَّ فيها من أهوال صهيونية على غزة، وما فجره ذلك من ألم وغضب، في الشوارع العربية والإسلامية والإنسانية، أن نقمة تلك الشوارع على النظام المصري لم تقلّ عن الصهيوني، حتى حوصرت السفارات المصرية، احتجاجًا على ما ظل مصرّا عليه، من تطبيق حصار صارم على غزة، ليس وحسب بحرمانها من حق التزود بالسلاح والمتطوعين، بينما تواصلت الإمدادات الأمريكية للعدو المعربد والمسلح حتى الأسنان، بأحدث وأفدح وسائل الدمار، وإنما أيضًا بفرض الحصار على الأغذية، حتى تحولت العريش ورفح مستودعًا، ومحاصرة الأشخاص دخولا وخروجًا، وكله مصادم لقوانين الحرب والأخلاق والدين وحقوق الجوار. غير أن الأغرب من ذلك ما لوحظ من ارتفاع أصوات في المعارضة المصرية، مختلفة الاتجاهات، تبدي حساسية غريبة مفرطة تجاه كل نقد لمصر، بتعِلَّة أن مصر لا يجوز إلا لأهلها انتقاد نظامها!!؛ لماذا هذه النظرة القطرية المفرطة، وكأننا نقف مع التفسير الجاهلي للمأثور العربي: "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا"!، في حين أن الثقافة التي يتلقاها الإسلاميون والقوميون - على حد سواء- لا تعترف بهذه القطرية؛ التي فُرضت على الأمة، ولم تَرَ معها خيرًا، لا سيما إذا تعلق الأمر بسياسة قطر محوري، مثل مصر، يقود القافلة بمقتضى طبائع الأمور، إن إلى خصب وإن إلى جدب. وكل مصري يسره ويطرب لسماع "مصر أم الدنيا"، وللتسليم لها بالقيادة، وهي مستحقة لها، ولكن بشرط حسن القيام عليها، أوليس من حق الرعية أن تتوقع من القيادة موقفًا معينًا، فإذا لم يأتِ احتجت وغضبت وضغطت من أجل الاستجابة؟، ومن الذي ماهى بين أنظمتنا وشعوبنا، والحال أنها انتصبت بالحديد والنار فوق رءوسنا؟، أفإن وجّه أحد نقدًا لها، تورمت حتى أنوف معارضيها؟، الأمر الذي جعل كل انتقاد لمصر يحتاج صاحبه باستمرار أن يوضح أن نقده متجه للنظام لا للشعب، مع أن ذلك تحصيل حاصل. وهبْ أن النقد موجه للشعب ذاته، من منطلق حسن الظن، والرجاء فيه أن يبلغ ضغطه على حكومته حدَّ فك الخناق على غزة المسكينة؛ ليتركها تتنفس، بينما هو يبدو وكأنه قد سلّم مفتاح البوابة العربية الوحيدة مع غزة إلى الصهاينة!، إنه إذا جاز اعتبار كل دولة عربية مسئولة عن شعبها، وأنها لشعبها؛ فليس ذلك مقبولا مع دولة مصر، فهي شاءت أم أبت بحكم التاريخ والموقع والوزن، وحتى المصلحة الإستراتيجية لها، دولة للأمة،

باعتبار الهدف الإستراتيجي للقوى الغربية؛ التي زرعت الكيان الصهيوني في المنطقة، إنما هو أساسًا كبح مصر، ومنعها من القيام بدورها الطبيعي، فهي المُعوَّل عليها - بعد الله- في جمع شتاتها، والدفاع عنها، ولذلك هي توزن بغير الميزان الذي يوزن به غيرها، فهي تتحمل مسئولية عن الدماء والكوارث التي حلت بغزة، واستمرار العدوان طيلة تلك المدة، وتواصل الحصار حتى الآن. وربما تكون شرارة العنف الخبيث؛ التي أطلت برأسها في قلب القاهرة، بعد خمود طويل، كانت تعبيرًا عن الكبت الرهيب؛ الذي عاناه الشعب المصري، طيلة أيام العدوان، وفشلت قيادات الحركة الشعبية في اتخاذ القرار الضروري، بتقديم التضحيات الكافية، القمينة بحمل النظام على تنفيس ذلك الاحتقان، بفتح المعبر على الأقل، فجاء العنف جوابًا، بما يذكّر بدورات العنف السابقة؛ التي اندلعت في أعقاب كامب ديفيد، وردًّا عليها. وتمكّن نظام مبارك - بسحبه يومئذ لسفيره من الكيان الصهيوني، وعودة مصر إلى الصف العربي، وقيادتها له- بما أفشل الخطط الأمريكية الصهيونية في المنطقة، وقدم دعمًا سياسيًّا للمقاومة، فتمكن من احتواء العنف، إلا أنه قد نكص السنوات الأخيرة على عقِبه - إيثارًا لمصلحة الأسرة الحاكمة- فتمزق الصف العربي، وانكشف الظهر الفلسطيني، وتيتَّم العراق، وانفرط السودان والصومال، وخلَت الساحة للاعبين آخرين. وتهمَّشت مصر، وبدا كأن كل شيء فيها ينهار، فهي تنهض وتسطع شمسها بقدر ما تتقدم الصفوف، وتجمعها وراءها، متصدية للتحديات الكبرى، كما تَهمَّش العرب بالنتيجة، ولولا وجود المقاومة في العراق ولبنان وفلسطين لانهارت الأمة جملة، وصدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؛ إذ يقول: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، أو خذلهم، حتى يأتي وعد الله وهم على ذلك".



سعياً لتحقيق حلمه التاريخي المشروع الصهيوني يسابق الزمن!

تمثل القدس قلب الأسطورة الصهيونية "فلا معنى للصهيونية بدون القدس، ولا معنى للقدس دون الهيكل" (بن غوريون)، ورغم يأس الأثريين الصهاينة - بعد أن نقبوا في كل أرجاء القدس، وتحت المسجد الأقصى المبارك، مهددين أساساته بالانهيار- من العثور على أي أثر يهودي في القدس، يشهد لما صاغ شياطينهم من أساطير، عن تاريخ لهم وأمجاد، في القدس وهيكل مزعوم، إلا أن ذلك لم يوهن شيئًا من تصميمهم على المضي قُدُما - وبأقصى سرعة- في مشروع الاستيلاء الكامل على القدس.

ويقوم مشروعهم للاستيلاء على القدس على فرض التهجير على أهلها، وتدمير كل أثر إسلامي عربي فيها، وصبغها بصبغة يهودية، وعزلها عن امتدادها الجغرافي، وتتويج كل ذلك بهدم الأقصى المبارك، وإقامة هيكلهم المزعوم، تجسيدًا لحلمهم التاريخي؛ الذي تمركز حول أسطورة القدس، وجبل الهيكل. لماذا يبدو المشروع الصهيوني في حالة سباق محموم مع الزمن لإنجاز المهمة، بما يجعل الأقصى المبارك والقدس أمام خطر غير مسبوق؟.

أ- إن المشروع الصهيوني في لحظة قلق شديد من التحولات الدولية والإقليمية الجارية، وانعكاساتها السلبية على مشروعه، في تجسيد الأسطورة المؤسسة لكيانه، والقائمة على إعادة بناء الهيكل، على أنقاض الأقصى، وقد عبر المجتمع الإسرائيلي عن ذلك، بميله الكبير صوب الأحزاب اليمينية والدينية، الأشد تطرفًا في اعتناق أسطورة الهيكل، والحرص على تنجيزها في أسرع وقت ممكن، بما يجعل الأقصى حقيقة على حافة الكارثة.

ب- ولعل أهم التحولات السلبية التي يخشونها على مشروعهم:-

أولاً:التطور الديمغرافي لصالح الفلسطينين، بما أودع الله في هذه الأمة، من قوة في أصلابها.

ثانياً:ظهور مؤشرات على تراجع فعالية عنصر الردع؛ الذي تأسس عليه الكيان الصهيوني، رغم الدعم الأمريكي والغربي اللا محدود، وذلك راجع إلى تصاعد وتائر العلمنة، والضعف في شخصية الجندي الإسرائيلي، وفي المجتمع اليهودي عامة، فتدهورت استعداداته لبذل الدم من أجل المشروع، وذلك مقابل تصاعد الإقبال على الشهادة في الجانب المقابل، بأثر تصاعد مد الصحوة الإسلامية، وكانت حربهم على لبنان، وعلى غزة، وما مُنِيَت به من خيبة، بعد استنفاد

كل ما لديهم من أدوات البطش، مؤشرًا مفزِعًا.

ثالثاً: تصاعد مد الصحوة الإسلامية في المنطقة والعالم، وكلها تصب نهاية في مجرى المقاومة، خصوصاً بعد انتقال راية تحرير فلسطين من دول واهنة مخترقة، إلى أيد شعبية متوضئة، يملأها الشوق إلى الشهادة.

رابعاً: ظهور دول إسلامية في المنطقة، تطمح إلى امتلاك السلاح النووي، خلال بضعة سنوات، بما يفقد الكيان أهم مقوماته للردع، المتمثل في انفراده بامتلاك السلاح النووي، حصنًا أخيرًا للدفاع عن الكيان.

خامساً: تداعي أركان النظام العربي؛ الذي يمثل جزءًا من النظام الدولي الحامي للكيان، للسقوط، وبخاصة النظام المصري، بما يفتح عليه أبواب جهنم، بظهور أنظمة إسلامية معادية للكيان، ستمثل سندًا قويًّا للمقاومة.

سادساً: تدهور الشرعية الأخلاقية التي مثلت أساساً من أسس الكيان، باعتباره ثمرة للهولوكست، أي لما سلط على اليهود من مآسٍ، ولدت تعاطفاً غربياً معهم، بلغ حد عقدة الذنب تجاههم، فكان تمكينهم من أرض تُؤويهم في فلسطين نوعًا من إراحة للضمير الغربي، وخدمة لإستراتيجيته، غير أن هذه الصورة لليهودي المسكين قد تهلهلت، بما أخذ يتكشف عليه العالم من صور الوحشية الإسرائيلية، تجـــــــاه الفلسطينين واللبنانيين، عبرت عن هذا التحول انفجارات حركة الشوارع في العالم؛ احتجاجًا على تلك الفظائع، ما أدى إلى إحراج الكيان، وحلفائه، من أرباب السياسة والإعلام في الغرب، ومثّل إحياءً لما يُسمَّى باللا سامية، أي العداء لليهود، حتى الجماعات اليهودية في العالم أخذت تعبر عن قلقها، من الانعكاســـــات السلبية للسياسات الإسرائيلية عليها.

سابعاً: تراجع النفوذ الامريكي في العالم، بعد هزيمته في العراق، وتورطه في أفغانستان، باعتبار ذلك النفوذ أهم ضمانة لأمن إسرائيل، والغطاء الجاهز أبدًا لكل ما يقترفه الكيان من جرائم وحماقات، وبالخصوص بعدما حل بالاقتصاديات الراسمالية من كوارث، وظهور قيادة أمريكية لا تبدي الحماس المعتاد للكيان.

ثامناً:تنامي الوجود الإسلامي في الغرب، وبدايات تحوله إلى معطى مؤثر في سياسات الدول الغربية، وهو تطور نوعي غير مسبوق، بما سيفرض على صانع السياسة الغربي أن يأخذه بعين الاعتبار، في كل سياسة يتخذها تجاه العالم الإسلامي، كفلسطين والقدس، بما يتجه إلى تضييق مسالك الدعم الغربي، مصدر شرعية الكيان؛ التي أخذت تتهلهل.

كل ذلك يبرر إطلاق الشيخ رائد صلاح صرخته المدوية: الأقصى في خطر.

في التصور الإسلامي للحرية

إن إعلانات حقوق الإنسان عن الحريات، في إطار الفلسفة المادية والمذهب الراسمالي، لا تستند إلى مبادئ ثابتة مقدسة، بقدر ما هي تعبير عن موازين قوة متحولة، وقد تكشفت في النهاية عما تنطوي عليه، من شكلانية وعنصرية ومحدودية، أثرت في الحد من جشع الاقوياء، ونزوعاتهم العدوانية، العابثة بالاخلاق والقانون، وإمعانهم في نهب جمهرة المستضعفين حتى من شعوبهم، فضلا عن غيرها، وفي التدمير المتفاقم لمقومات الحياة: المادية، والروحية، والاجتماعية.

بينما التصوّر الإسلامي للحرية لا ينطلق من طبيعة للإنسان، تنبثق عنها بذاتها حقوق طبيعية -كما ادَّعَى الفكر الغربي- وإنما من الحقيقة التي ينطق باسمها كل شيء في هذا الكون: إنه الله خالق هذا الكون ومالكه، وهو أعلم بمخلوقاته، فهو المشرّع الأعلى، والآمر، والمستحق وحده للعبادة والخضوع والطاعة والاستخلاف والجزاء والعقاب، وإن الإنسان قد خُصّ من دون الكائنات بالاستخلاف، بما استُحفظ عليه، من أمانات العقل والإرادة والحرية والمسئولية، والمنهج الإلهي المنظّم لحياته.

إن آيات التسخير والتكريم، وتحميل الأمانة أو الأمانات للإنسان، تدور حول المعاني المتقدمة، بما يؤكد المساواة بين الناس، في أصل الخلق والكرامة، وأمام القانون، ويُحرّض على رفض الطغيان ومقاومته، بكل الوسائل المتاحة، إلى درجة الإقدام على خطر الموت شهيدًا، وذلك ما حدا ببعض علماء الإسلام إلى تلخيص الإسلام في أنه ثورة تحررية شاملة، ضد كل الصور المادية والمعنوية لتسلط الإنسان على أخيه.

إلا أنه ما ينبغي أن يُفهم من الحرية هنا معناها المتداول، أنها مجرد إذن أو إباحة، فليس واردًا في منطق الحق أن تتلخص رسالة الإسلام التحررية؛ التي حملها إلى البشر من أول الخليقة آلاف من الأنبياء والرسل، فضلا عن خلفائهم، في الإعلان العام للناس: إن الله إذ كرمكم دون كل مخلوقاته بحرية وإرادة، تُخولكم أن تفعلوا ما شئتم، وتتحملوا مسئولية أفعالكم، فإنه يرضى لكم أن تفعلوا ما تشاءون!!

كلا، فإن شعار تلك الرسالة على النقيض من ذلك تمامًا؛ إن الله خالقكم ينهاكم أن تتبعوا أهواءكم وجهالاتكم، ويأمركم أن تتبعوا - عن وعي وإرادة وقصد خالص إلى طاعة مولاكم ومحبته- النهج الذي ارتضاه لحياتكم، ففيه وحده سعادتكم ورقيكم في الدنيا والآخرة، وفي التنكّب عنه الشقاء

الأبدي، ولكنكم أحرار في أن تستجيبوا لنداءات العقل والفطرة، فتؤمنوا بربكم وتطيعوه، وأن تنظّموا حياتكم الخاصة والعامة وفق شريعته، فتفوزوا برضى خالقكم ومحبته، وبالسعادة في الدنيا والآخرة، أو أن تعرضوا عن صوت العقل والضمير، متبعين أهواءكم وإغراءات الشيطان، بما يعرضكم لغضب ربكم، والشقاء في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) (الكهف: ٢٩). وقال سبحانه: (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى × وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (طه: ١٢٣، ١٢٤).

إن الحرية في التصور الإسلامي أمانة، أي مسئولية، وعي بالحق، والتزام به، وإخلاص في طلبه، وتضحية من أجله، تبلغ حد الاستشهاد، نعم إن الحرية بالمعنى التكويني هي إباحة واختيار، أو هي فطرة، فقد اختصنا الله بخلقة تملك القدرة على فعل الخير والشر، والسير في أكثر من اتجاه.. وكانت تلك مسئولية، أما بالمعنى الأخلاقي أو التشريعي فهي "تكيّف" حسب عبارة الأصوليين، الحرية: أن نمارس مسئوليتنا ممارسة إيجابية، أن نفعل الواجب طوعًا.. بإتيان الأمر واجتناب النهي، فنستحق درجة الخلفاء وأولياء الله الصالحين.

وتحوم حول هذه المعاني جملة مواقف مفكري الإسلام من الحرية، ولعل أفضل من بلور مفاهيم الحرية في الإسلام - من المفكرين الإسلاميين المحدثين- العلامة التونسي الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، والعلامة الشيخ علال الفاسي، والمفكر السوداني حسن الترابي، والفيلسوف محمد إقبال، والمفكر الجزائري مالك بن نبي، والقانوني المصري محمد فتحي عثمان.

ومن ذلك ما ذهب إليه الأستاذ الفاسي، من أن الحرية "جعل قانوني، وليس حقًا طبيعيًا، فما كان الإنسان ليصل إلى حريته لولا نزول الوحي.. وأن الإنسان لم يخلق حرًا، وإنما ليكون حرًا" بقدر خضوعه لشرع الله، إن الحرية كدح ونضال في طريق عبودية الله، وليست انطلاقًا حيوانيًا.

ولقد تعجب الأستاذ الفاسي في كتابه "مقاصد الشريعة الإسلامية"، كيف أن علماء الإسلام لم يتفطنوا في آية البينة(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ) (إلى هذا المعنى اللطيف: أنه لا سبيل إلى الانفكاك والتحرر إلا بمنهج العبودية لله، منهج التكاليف، الأمر الذي يجعل الحرية خلقًا ذاتيًا، تتجلى آثاره في أعمال الإنسان الصادرة عن شعوره بالتكليف، إن الإنسان الجدير بصفة الحر هو المؤمن بالله.. وإن التكليف هو أساس الحرية وعلامتها.

****

لماذا لا يستبشرون؟

إن هذه العملية الحضارية - غير المسبوقة ولا الملحوقة- في صَهر الشعوب والحضارات في بوتقة الأمّة الواحدة، والأخوّة الإسلاميّة، ما كان لها سبيل للتحقق لو صح ما يقولون، من أن طريقها كان السيف، ولم يكن النموذج الحضاريّ الذي قدمه الفاتحون، نموذج الأخوّة والمساواة والعدل.
ومما يشهد لسلميّة وحضاريّة هذه العملية أن شعوبًا بكاملها انتقلت الى الإسلام، دون أن يصلها فاتح يحمل سيفًا، وإنما وصلها فاتح تاجر يحمل نموذجًا.
إن جهاد الإسلام القتاليّ لم يستهدف قطّ إكراه أحد على اعتناقه، وإنما فقط رفع العقبات من طريقه؛ التي كانت تضعها الأنظمة الطاغية المتجبّرة، تحجب بها عن شعوبها نور الشمس، تكبّل عقولها، وتحرمها من حق الاختيار والتفكير والاعتقاد.

كل ذلك جيّد، في زمن تتعرض فيه صورة الإسلام لحملات منظمة، تستهدف ربطه بكل ما يمثل تهديدًا للمنجـــزات الحضاريّة لعصرنا، من مثل التنويه بالسلام الدوليّ، وحريّات وحقوق الإنسان، ومنها حقه في اختيار معتقده، وحق الشعوب في تقرير مصيرها، واختيار نوع النظام الذي يحكمها.. ويأتي هذا التهديد لهذه المنجزات الحضارية الإنسانية لا مما تزدحم به ترسانات الغرب، من أسلحة دمار شامل، وما تزدحم به البحار والأجواء، من قاذفات صواريخ حاملة لرؤوس نووية، وحمم ملتهبة.. وإنما من جهاد الإسلام!!.

فلا جرم أن يتصدى حُرّاس الإسلام لهذه الهجمة؛ التي يشارك فيها أكاديميّون وكتّاب ينتسبون الى الإسلام، بلغت جرأة أحدهم (وزير تونسيّ سابق للتربية، في كتاب له، أن وصف سيف الإسلام، الصحابيّ الجليل خالد بن الوليد، بأنه مجرم حرب) ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ (الكهف: ٥).

وفي هذا السياق جاء كتاب علامة الإسلام، رأس الاتحاد العالميّ لعلماء المسلمين، شيخنا الدكتور يوسف القرضاويّ: "فقه الجهاد: دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة"، في

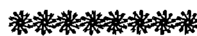
جزأين ضخمين، وهو من أعظم منجزات العلامة، جلّى فيه معاني الجهاد وأهدافه وضوابطه، ودفــع عنه الشبهات، من داخل الثقافة الإسلامية ومن خارجها.

ففنّد شبهة انتشــــار الإسلام بالسيف، ونسف ما استقرّ في الثقافة الإسلاميّة، من تمييز بين ما يُسمى بجهاد الدفع وبين ما يُسمى بجهاد الطلب، منتصرًا لمفهوم الجهاد الدفاعيّ، مؤسسًا ذلك على دراسة معمّقة لقضايا علميّة، تتعلق بالناسخ والمنسوخ، وبطبيعة غزوات النبيِّ (عليه السلام)، والفتوحات الإسلاميّة الكبرى؛ لينتهي ضمن منهاج علميّ محكم، إلى أصالة ومكانة الجهاد في الإسلام، وطبيعته الدفاعية.

وأنه إذا كان لجهاد الطلب من معنى في الأزمنة السابقة لرفع السدود من وجه الدعوة الإسلامية؛ فماذا يبقى له؟، لم يبقَ له - وقد غدا العالم مفتوحًا- إلا أن يحتاج لجيوش من الدعاة، متجهّزين بالمعارف العلمية والدينية، ناطقين بمختلف اللغات؛ حتى يقوموا بفرض الجهاد التبليغيّ.
والكتاب بمكان أن ينافس أعظم أعمال القرضاويّ "فقه الزكاة"، أو "الحلال والحرام"، ولــــربما يفوقهما، باعتبار "فقه الجهاد" - خلافًا لسابقيه- جاء وقد بلغ الرجل من العلم والسن والتجربة الأوج، بارك الله له في العمر، ومتعه بالمزيد من الصحة والعطاء.

ومن ثمار الصحوة المباركة امتداد حركات الإسلام، واندلاع سلسلة من المقاومات، قدّمت نماذج رائعة للجهاد المعاصر، في فلسطـــين ولبنان والعراق وأفغانستان.. على نحو دحر الجيش الصهيونيّ؛ الذي طالما نُعِت بأنه لا يُقهر، أكثر من مرّة، كما دحرت في العراق أضخم ترسانة عسكرية عرفها التاريخ، وفي أفغانستان تعمل على أرضه جيوش ٤٢ دولة، تتكبد يوميًّا خسائر ضخمة، ومتورّطة في حرب لا تعرف كيف ستخرج منها".

الثابت أن الأمّة تعمرها صحوة عارمة، تجعلها على طريق تحقيق موعودات الله، في إشراق شمس الإسلام على العالم، فلِمَ لا يستبشر المسلمون، ولا تهولنَّهم التضحيات الجسام، والدماء الطاهرة المسفوكة؛ فهي دماء الولادة (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّن اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (الصف: ١٣).



فكرة الإصلاح.. إلى أين؟

منذ أكثر من قرن بدأ الحديث في الدوائر الإسلاميّة عن مدى قابليّة الإسلام للتطوّر، ومجتمعاته للإصلاح، على غرار ما انخرطت فيه المجتمعات المسيحيّة، منذ القرنين الخامس والسادس عشر، من إصلاحات دينيّة، أفضت إلى تحوّلات ديمقراطيّة، نقلتها من حكم الفرد المطلق والعائلة إلى حكم الشعب، متفاعلة مع الحداثة، محرِّرة العقول والمجتمعات من حكم المؤسّسات الدينيّة، وهو ما أتاح لماكس فيبر الزعم بأنّ الإصلاح الدينيّ البروتستانتيّ هو الذي أسّس للحداثة في الغرب، وللرأسماليّة، بما أعطاه من أهميّة لقيم الربح والنجاح الدنيويّ، وهو ما كان مرفوضًا منكرًا في التفسيرات الدينيّة التقليديّة.

ولأنّ دعوات "إصلاح الإسلام" في العالم الإسلاميّ جاءت متأثّرة بنظائرها في المسيحيّة، مقترنة بالاحتلال، فكان من الطبيعيّ أن تقابَل بكثير من التجهّم والرفض من علماء الإسلام، إلا أنّ الأمر انتهى إلى أنه باستثناء التيّار المحافظ، المتمسّك بمواريث الفقه، والأنظمة المتوارثة، والخائف من كلّ تجديد؛ فإنّ هناك ما يشبه الاتفاق المتزايد - في عموم الدائرة الإسلاميّة- على ضرورة الإصلاح والتطوّر والتجديد، سبيلا لمعالجة واقع التخلّف؛ الذي تردّى فيه المسلمون منذ قرون، وأسلمهم إلى الضعف، وغلبة الأمم عليهم، مما يفرض تجديد التفكير في الإسلام - حسبما دعا إليه إقبال- باعتباره الشرط الضروريّ لكلّ تجديد وتطوّر في حياة المسلمين.

وفي هذا الصدد كثر في أدبيّات المصلحين - منذ قرنين على الأقلّ- الاستئناس بالحديث الشهير؛ الذي بشّر فيه صاحب الدعوة (عليه السلام) بـ"أن الله يبعث على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لهذه الأمّة أمر دينها" (أبو داود)، ورغم أنّ التأويل المتوارث لهذا الحديث اتجه إلى التركيز على شخصيّات علميّة كبيرة، فإنّ مفكّرين معاصرين - مثل القرضاويّ- ذهبوا إلى تجاوز التفسير الفرديّ لهذا الحديث، واعتبروه غير ملزم؛ فقد يكون المصلح فردًا، وقد يكون جماعة أو مدرسة. وذلك أنّ الإسلام باعتباره خاتم الديانات، وهو نصوص محدودة، بينما وقائع الحياة ومستجدّات العلوم ومشكلات البشر غير محدودة، لا مُغني لعلمائه عن ممارسة دائمة للاجتهاد؛ حتى يحيط المحدود باللا محدود، إفادة مما توفّرت عليه النصوص، من مرونة وقابليّات للتجدد، عبر الاجتهاد: إعمالا لمقاصد الشريعة في رعاية مصالح العباد، وتحقيق العدل والحريّة والمساواة،

والإفادة من كلّ حقيقة علميّة ثابتة، ومن كلّ تجربة بشريّة نافعة، من خلال نصوص الوحي قطعيّة الورود، قطعيّة الدلالة؛ التي قد لا تتجاوز ٥ أو ٦٪ من نصوص الدين.

وذلك ما يحفظ للإسلام الخلود والمرونة والتجدّد، ويجنّبه التردّي في وهدة الجمود، وهو ما حصل في عصور إسلاميّة مديدة، أو وهدة النسبيّة المطلقة؛ التي تردّى فيها العقل الغربيّ، بما قوّض كلّ أساس لليقين وللأخلاق، وللتمييز بين الخير والشرّ، ما أفضى إلى فوضى أخلاقيّة، سمحت لعديد البرلمانات في الغرب بإقرار الزواج المثليّ، حتى بين قساوسة، فضلا عمّا هو أنكى، من استباحة لحرمات الشعوب، بأثر هذه الفلسفة النسبيّة؛ التي يتولّه بها علمانيّو العالم الإسلاميّ، ويدفعون لها المسلمين دفعًا، تحت لافتة خادعة من الإصلاح والتطور، بما يؤكّد أنه لا مناص من الإصلاح والتجديد، إلا أنه لا إصلاح معتبرا لا يحمل في طيّاته نقيضه، إلا ما كان من موقع الاعتزاز بالذات، والالتزام بأسس الدين وثوابته، وإلا انخرم البناء جملة. أمّا عن المناهج العمليّة لهذا الإصلاح الضروريّ فمتعدّدة، بحسب ما تتيحه الأحوال المختلفة من فرص وإمكانات للتغيير، حسب قاعدة تغيير المنكر، الأيسر فالأيسر، ولقد تكشّفت أحوال المسلمين - وبخاصة منهم العرب- عن حالة من الانسداد العامّ، وجمود للحراك الاجتماعيّ والسياسيّ والثقافيّ، جعل من هذه المنطقة وضعًا استثنائيًا في العالم، بمقاييس الديمقراطيّة، فهي بين غياب للعمليّة الانتخابيّة وبين إخضاعها غالبًا للعبث والتزييف، أو بإدارتها باستبعاد القوى الأساسيّة، بما أشاع أجواء الاحتقان، ووفّر فرصًا للعنف الأهوج وللانقلابات، مما لم يأتِ بخير، بل وفّر فرصًا أكبر للاستبداد.

أمّا تجارب المشاركة في ظلّ أنظمة استبداديّة، فلم تُفلح شيئًا في اجتراح أيّ قدر من الإصلاح والتغيير، وهو ما رشّح كثيرًا من دول المنطقة للانفجارات الشعبيّة؛ احتجاجًا على الأوضاع الاجتماعيّة المهينة، أو على نكوصها عن واجب الدفاع عن قضايا الأمّة، مثل قضيّة فلسطين، وتهافتها بدل ذلك على التطبيع مع أعداء الأمّة والمحتلّين.. فهل ستفتح الانتفاضات الشعبيّة، بقيادة جبهات للإصلاح والتغيير، ثغرة في الجدار المسدود؟.



١١ سبتمبر فرصة أم ورطة؟!

لقد بدا وكأن الولايات المتحدة - عبر محافظيها المتصهينين- تعاملت مع ١١ سبتمبر على أنه فرصة أكثر منه كارثة، وأنه كنز ينبغي أن تستغله لأبعد مدى، وضرع تحتلبه، مع أن تجربة التاريخ تثبت، أن مثل هذا السلوك الاستسلامي لنشوة وغرور القوة، كان أبدًا مقتل الإمبراطوريات التي تذهلها القوة الغاشمة سبيلا لإخضاع الشعوب، عن حقيقة أن الناس إنما تحكمهم المعاني والقيم والعقائد أكثر مما يحكمهم التهديد والتخويف، وأنه على قدر إفلاس قوة دولية من هذا الرصيد - كما تبدو الإمبراطورية الأمريكية اليوم- بقدر ما يكون ذلك مؤشر شيخوخة، وأذانًا بالغروب، ودليل فشل في الامتحان.

لقد مثلت كارثة ١١ سبتمبر فرصة، لا للولايات المتحدة فحسب، بل أيضًا للقوى المتشابكة مع مسلمين؛ بسبب إصرارهم على التحرر من استعمارها واحتلالها لأراضيهم، ولقد تزعم الصهاينة - كالعادة- منذ اليوم الأول للحدث تبنّي هذا النهج؛ إذ اعتبروا عرفات صورة أخرى لابن لادن؛ لتبرير التخلص منه، وتعويضه بكارزاي فلسطيني، وأن جماعة القاعدة نسخة مطابقة لحماس والجهاد وحزب الله، فصعّدوا حملتهم الوحشية على كل شيء في فلسطين، واجدين دعمًا غير مجذوذ من الأمريكان، وحتى من الأوروبّيين، مسلّطين حجمًا لا يطاق من الضغوط على السلطة الفلسطينية؛ لقمع شعبها، والتورط في حرب أهلية، على أمل الحصول بعد ذلك على ثمن من اليهود والأمريكان.

وليس يختلف عن ذلك ما انتهجه الهنود في مواجهة ثوار كشمير؛ وسُلطت ضغوط هائلة على" مشرّف"؛ لحمله على قمع شعبه، وانتهجت روسيا نهجًا مماثلا، في حربها الوحشية على بلاد الشيشان، وحتى الصين لم تتردد - رغم حساسية علاقتها بالولايات المتحدة- في استغلال حدث ١١ سبتمبر ضد الأقلية المسلمة في بلاد التركستان الشرقية؛ وهو نفس ما فعلته حكومة الفلبين، في انقلابها على حركة تحرير مورو؛ والانقلاب على زعيم حركة مورو، والزج به في السجن، والاستعانة بالجيش الأمريكي لاستئصال شأفة حركات التحرير في المنطقة.

إثيوبيا نفسها لم تتردد في استعداء الأمريكان على جارتها المسكينة، الصومال؛ تصفية لحسابات قديمة معها، فضلا عن القوى اليمينية والصهيونية والشوفينية، المعادية للإسلام والمهاجرين في

أروبا والأمريكتين وأستراليا؛ فقد وجدت كلها الفرصة سانحة لتصعيد الحملة على المهاجرين - ولا سيما العرب والمسلمين- فتتالت أحداث العدوان على المساجد والمؤسسات الإسلامية، وتواترت القوانين الخانقة للحرية، ذات الخلفية التمييزية العنصرية السافرة، وكذا فعلت الأنظمة الدكتاتورية في المنطقة؛ للرد على كل محاولة للضغط عليها من أجل الانفتاح.

الخلاصة أن كل من كانت له مشكلات قديمة أم حديثة مع الإسلام والمسلمين، وجد في ٩/١١ فرصته التاريخية فاهتبلها، ولكن في غفلة عن كل حس تاريخي أو أخلاقي؛ إذ الاضطهاد لا يُفني العقائد، لا سيما في زمن صحوتها - حال عقيدة الإسلام اليوم- بقدر ما يقويها، ويصلب عودها، وقد يدفع إلى سطحها أشد قواها بأسًا، وهو ما يسمونه بمكر التاريخ، وهو عند المومنين "مكر الله" (سبحانه).

ومن ذلك فقد تحولت احداث ١١ سبتمبر من فرصة - كما تصورها المحافظون المتصهينون وحلفاؤهم من أعداء الإسلام في العالم، وأنصار الحل الأمني في التعامل مع الحركة الإسلامية- من فرصة للإجهاز على الإسلام، وفرض الهيمنة الأمريكية على العالم، تحولت إلى ورطة لهم، إلى سلسلة من الهزائم، في لبنان وفلسطين والعراق وأفغانستان، وهم اليوم في ورطة اقتصادية وعسكرية وقيمية، لا يدرون سبيلا للخروج منها، مصداقًا لسنة الله (تعالى): (وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ) (فاطر: ٤٣)، كما أن تيار الصحوة الإسلامية في تصاعد على امتداد العالم، أمام التمادي في التطاول على الأمة ودينها.

مخطئ من حسب ١١ سبتمبر فرصة للهيمنة العالمية أو المحلية أو الإقليمية، أو لتصفية حساب قديم أم جديد مع الإسلام، أو مع الإسلاميين، أو مع القوى المطالبة بالديمقراطية، دلالة تلك الكارثة واضحة على دخول عصر العولمة، بما في ذلك عولمة الكوارث والدمار الشامل، إذا ما استمرت الدول الكبرى في تجاهل أنّات الدول الصغرى والشعوب، ومطالبها في التحرر، وفي نظام اقتصادي دولي، وعلاقات دولية يسودهما العدل، أو استمرت الدول الصغرى في صم آذانها عن الاستماع لمطالب شعوبها، في العدل والديمقراطية.



الأقصى في خطر.. فماذا ننتظر؟!

ليس اليوم فقط الأقصى في خطر، بل ذلك كائن فعلا منذ زُرع الكيان الصهيوني في القلب من الأمة؛ لتفتيت اجتماعها، وتلغيم وحدتها، وتقطيع تواصلها الجغرافي، مذاك هو في خطر، واشتد الخطر بعد حرب ١٩٦٧م، المشئومة؛ التي كشفت عورات النظام العربي، والتواطؤ الدولي على أمتنا، ونقلت السيادة على الأقصى المبارك، وعلى القدس كلها، وعلى كل فلسطين، إلى الكيان الصهيوني اللقيط.

واليوم بلغ الخطر على الأقصى أعلى درجاته، وذلك:

- في ظل حكومات عربية متخاذلة، يتسابق معظمها إلى مد خيوط الود مع أعدى أعداء أمتنا؛ الذين أخرجونا من ديارنا، ولا يزالون يفعلون ذلك كل يوم، أمام سمع العالم وبصره، ومع الذين يدنسون أقصانا، ومع الذين يظاهرونهم على ذلك من الدول، في تحدٍّ سافر لتوجيهات ربنا، قال (تعالى): (لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (الممتحنة: ٧، ٨).

- وفي ظل عالم إسلامي ممزق الأوصال، تخنق شعوبه حكومات ضعيفة، معظمها متسلط، قامع لإرادتها وحريتها في التعبير، مع أنها تتحرق شوقًا إلى الجهاد في فلسطين، وحزنًا وغضبًا لما يلاقيه الأقصى المبارك.

- وفي ظل وضع دولي مناسب لحكومة صهيونية، تتخبطها الاساطير التلمودية، المتمحورة حول بناء هيكل مزعوم، على أنقاض الأقصى المبارك أو بتقسيمه، تجسيدًا لأسطورة مختلقة، لا تستند إلى أي أثر من علم التاريخ والآثار.

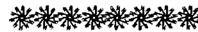
والسؤال: ماذا يمكن فعله لوقف مخطط صهيوني، هو قاب قوسين أو أدنى من مباشرة تنفيذه؟.

لا أمل - بعد الله- إلا في المقاومة، ومن ورائها شعوبنا وأحرار العالم، وذلك بالمبادرة إلى رفع مستويات الضغط على الحكام، على الصعيد الدولي والاقليمي؛ لحملهم - عبر الضغط الإعلامي والاحتجاج والمسيرات الشعبية- على دعم المقاومة: إعلاميًّا بفضح الجرائم والمخططات الصهيونية، ودعمها سياسيًّا وقانونيًّا في المحافل الدولية، بالكشف عن الطبيعة العنصرية الفاشستية النازية للعدو الصهيوني.

إلى جانب الضغط على الحكام؛ لاستخدام كل ما وهب الله هذه الأمة من أدوات فعل، وتسخيرها لصالح الأقصى والقدس وفلسطين.. من أموال، ودبلوماسية، وبترول، وممرات جوية وبحرية، بما يكيّف كل علاقاتنا الدولية وفق ما يخدم تحرير الأقصى المبارك، والأرض التي باركها الله من حوله، إن هذا النهج ليس كفيلا بتحرير فلسطين وحسب، بل هو سيضع الأمة على طريق النهوض، واستئناف مسيرتها الحضارية المعطلة.

ومما يعزز أهمية هذا النهج في إنقاذ الأقصى؛ الذي يقوم على دعم المقاومة بكل السبل، بدل ما هو قائم من الضيق بها، والكيد لها، والضغط عليها؛ من أجل الاعتراف بالكيان الصهيوني، المتربص بالأقصى المبارك، ويوشك أن يعلن هدمه، مما يعزز هذا النهج أن الكيان الصهيوني يتجه إلى مزيد من الضعف الداخلي، والتفكك، وبداية العزلة الدولية، ويوشك أن يُنظر إليه على أنه ليس حليفًا وحارسًا للمصالح الغربية في المنطقة، كما أُريدَ له، وكما يحرص على تقديم نفسه؛ لضمان الاستمرار في دعمه، بقدر ما هو عبء على المصالح الغربية، وعنصر تهديد للسلام الدولي، وحكم نازي متوحش.

وهو ما يؤكد أن اتجاه التطور ليس في صالح هذا الكيان المتوحش؛ الذي يضيق ذرعًا بثورة الإعلام؛ التي كشفته عاريًا نازيًا، إنه هلع ضائق ذرعًا من استيقاظ الضمير الإنساني، كما حصل خلال وفي أعقاب حملته الوحشية على غزة الصامدة،... ولو أن العدو الصهيوني في هستيريته وغطرسته أقدم على هدم الأقصى - لا سمح الله- لقرّب من أجله، ولجعل الأنظمة والقوى المتحالفة معه في وضعية لا تحسد عليها، وقد تفضي غضبة الشعوب إلى موجة من تساقط بناءات هرمة، وأعجاز نخل خاوية، ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: ٤٣).



آفاق الإسلام في الغرب

لقد جاء الاستفتاء الذي نظمته السلطات السويسرية حول تشييد المآذن في سويسرا بالنتيجة المنتظرة، الحظر، والتي تعبر عن أن تصاعد المد اليميني والفاشي في سويسرا، جزء من حالة أوروبية عامة، تضافرت على تشكيلها عوامل عدة، منها تنامي مشاعر الخوف من الإسلام، وغلبة النظرة السلبية إليه، أنه ليس رحمة وعدلا وأخوة انسانية، بل هو خطر على الأبواب!؛ يروج لها الإعلام ليلَ نهارَ، أن الإسلام يمثل تهديدًا ماحقًا لها، وبالخصوص بعد أحداث ١١ سبتمبر؛ التي خرجت صبيحتها اللوموند الفرنسية، بعنوان رئيسي: "كلنا أمريكان".

فالإسلام الذي لم يعُد - كما كان في التاريخ- عدوًّا نلاقيه عند الحدود، فينال منا وننال منه، يشهد الواقع أنه منذ ٢٠٠ سنة وحروب الغرب تدور عليه في أرضه، إلا أن الوجود الإسلامي المتنامي في الغرب، والرافض للاندماج والتماهي والذوبان، والمصر على التميز والظهور بهوية خاصة، في العمارة (المآذن) والأزياء والعادات، يمس - من وجهة نظر المتعصبين- بالمشهد العام لهذه المجتمعات وحضارتها.وهو ما أتاح الفرصة أمام تيارات أقصى اليمين، ذات الأصول المسيحية، وثيقة الصلة بالتراث النازي والفاشي، أن تتحالف لأول مرة في التاريخ مع الجماعات اليهودية، ذات النفوذ الواسع؛ التي طالما كان العداء بينها مستحكمًا مع جماعات أقصى اليمين، إلا أن التقارب البابوي مع اليهودية، وتبرئة اليهود من دم المسيح، إلى جانب ما يقوم به الإعلام اليهودي، صباحَ مساءَ، من غسل للأدمغة، نجح في تجسير الهوّة بين الطرفين، على خلفية حضارة مشتركة، يطلقون عليها الحضارة المسيحية اليهودية، في مواجهة عدو مشترك للجميع، هو الإسلام!.

الإسلام الذي رُشح - بعد سقوط الحرب الباردة، من طرف الدوائر الرأسمالية، بدعم إسرائيلي صريح وقوي- ليحتل موقع العدو والخطر الداهم، يزيد من هذه الخطورة، وبالخصوص بعد ١١سبتمبر، وبعد تفجير القطارات في لندن ومدريد، من قِبل عناصر تقيم بين ظهراني دول الغرب، وبعضها من مواليده، ويَحمل جنسياته، وتَعلَّم في مدارسه، بما يجعله مستحقًّا لصفة "العدو الذي يعيش بيننا"، وهو الوصف الذي أطلقه حزب أقصى اليمين في بريطانيا على الأقلية المسلمة، يزيد ولا شك من تأجيج هذه العداوة، وإذكاء نيرانها، فشو البطالة بأثر الأزمات الاقتصادية، ما يتيح الفرصة للدعاية المضادة للأقلية المسلمة في الغرب، أن تُقدَّم كبشَ فداء. وفي الانتخابات، غدت الحرب على المهاجرين- ومعظمهم مسلمون- تجارة رابحة لكسب الأصوات، عن طريق تحميل

المهاجرين كل المصائب، وهو ما يفتح باب المزايدات، تباريًا في الحملة على المهاجرين وعلى الإسلام والأقلية المسلمة، لا سيما وأنها - خلافًا لليهودية- ضعيفة، رحى الإعلام تدور عليها، ولا أثر لها فيها، كما أنها رغم كمّها المعتبر بالمقاييس الديمقراطية، إلا أنه قلّما يتحول إلى نصاب انتخابي مؤثر. يزيد الطين بلة أن المسلمين لا يكاد يجمعهم رباط، فمعظمهم لا يزالون متأثرين بمنابتهم في العالم الإسلامي، استوردوا منها كثيرًا من سلبياتها، مقارنة بالأقليات الاخرى، كاليهودية أو الأرمنية المنظمة، بما يؤهلها للدفاع عن مصالحها، لا سيما وأن وراءها دولا تدافع عنها، بينما المسلمون في الغرب يتامى، تكتفي منهم دول المصدر بما يضخون لها من مليارات، وقد تحرّض عليهم، وتكيد لهم!.

تلك أهم العوامل التي تلقي أضواءً على هذا التصويت السويسري، غير المعزول عن الروح العامة السارية في أرجاء الغرب، مجافاةً وعداوةً للإسلام والمسلمين، وتحريضًا عليهما، تحريضًا يتجه في حده الأدنى إلى فرض العزلة والانكماش على الإسلام وأهله؛ لمنع تحول كمّهم المتصاعد إلى كيف، إلى قوة انتخابية موحدة مؤثرة.

وفي حدها الاقصى تأليب كل القوى ضدهم، بما يبرر ويشجع العدوان عليهم، بما يولّد ردود أفعال عنيفة تصدر عنهم، تعطي مزيدًا من المشروعية للتأليب ضدهم، بما لا يُستبعد معه الوصول إلى تجدد قصص الطرد الجماعي، والاعتداء بالجملة (الأندلس، البوسنة..).

الثابت أن اللوبي الصهيوني شديد النفوذ، يرى بوضوح أن الوجود الإسلامي في الغرب يمثل أعظم تهديدٍ لمصالحه؛ التي اشتغل لتحصيلها مئات السنين، حتى اتخذ من الغرب، ذي السوابق العدائية المدمرة ضد اليهود، أداة من أدوات نفوذه العالمي، ومصدر قوة للكيان الإسرائيلي؛ الذي لا بقاء له مع تراجع أو نفاد نفوذه في الغرب. ورغم أنه في زمن ثورة الإعلام، وقوة الصورة، وتنامي سلطة الرأي العالمي، لم يعد ميسورًا الإقدام على مذابح جماعية تأتي على الملايين (في أوروبا ما لا يقل عن ٣٠ مليونًا مسلمًا)، إلا أنه إذا استمرت الأقليات المسلمة تغلب عليها الهامشية والانعزالية، وتفرّق صفوفها، بأثر ما يصلها من عالم الإسلام من ضروب تشدد وفكر عنيف، أو طائفي تكفيري يفرّق ولا يجمّع، إذا استمرت حالة اليتم والتوظيف والعزلة، فكل شيء يغدو ممكنًا، و"لله الأمر من قبل ومن بعد".

****



هل ستفلت إيران بالنار المقدسة؟!

ومع أن ميزان القوة الدولي المختل لصالح القوى الغربية قد نجح في تفتيت آخر شكل للاجتماع السياسي الإسلامي، وتجزئته إلى عشرات الدول الضعيفة، رسم لها بدورها خطوطًا حمراء لتقدمها، وحدودًا لاكتسابها القوة، فقد نجحت بعض الأجزاء - في ظل ظروف معينة، من انشغال الشياطين الكبار بصراعاتهم- أن تفلت، ولو لحين، فتحاول تخطي الخطوط الحمراء.

حاولت ذلك مِصرُ محمد علي، في القرن التاسع عشر، مستفيدة من الصراع الفرنسي البريطاني الروسي، إلا أنهم سَرعان ما جمعوا لها كيدهم، فأجهضوا التجربة؛ وكَررت المحاولة مع عبد الناصر، مستفيدة من ظروف الحرب الباردة، فنزَوا عليها واغتالوها؛ وفي ظرف معين من الحرب الباردة أفلتت إيران، فأطاحت بحكم تابع، وأرست حكمًا ممتلئًا طموحًا إلى اكتساب القوة ومقومات العظمة، فدفعوا لإجهاضها النظامَ العراقي بزعامة البعث، واضعين تحت تصرفه أحدث المعدَّات، ممولة بالنفط العربي.

حاول بعث العراق بدوره الإفادة من الظرف؛ لبناء تقدم علمي، يتجاوز الخطوط الحمراء المرسومة لأهل المنطقة؛ ضمانًا لاستمرار ضعفها، وابتزاز مواردها، ولتفوق الصهيوني، إلا أنه ما إن أنجزت المهمة، وأُنهِكت إيران، وتفجر سرطان الطائفية في المنطقة، حتى استداروا لحكم البعث؛ لتجريده من الإمكانات التي أتيحت له، وحاول الإفلات بها، فجمعوا كيدهم وسحقوه، ومزقوا بلده تمزيقًا؛ ليكون عبرة لمن يجرؤ على سَرِقة النار المقدسة، أعني اكتساب ناصية التقدم العلمي، مصدر السيطرة الغربية، فلم يوفروا في العراق حتى المتاحف والمكتبات.

أما إيران فلم يكتفوا بإنهاكها، بل فرضوا عليها حصارًا خانقًا، ومراقبة دؤوبة؛ لشل طموحها لاكتساب المعرفة والتقنية النووية، ولو للأغراض السلمية، حتى لكأن الوكالة الدولية لمراقبة انتشار الأسلحة النووية لم تُخلق إلا لمنع الدول الإسلامية من اكتساب هذه التقنية؛ ولا يزال نادي العمالقة يوالي خنق إيران، واضعًا فوق رأسها سيف التهديد والوعيد، بتكرار تجربة العراق معها، باحثًا عن كل ثغرة في بنيتها المجتمعية لتفجيرها، مثل البنية العرقية والطائفية، وهو ما حصل وتكرر حصوله السنوات الأخيرة.

لقد حاولت إيران الإفادة مما فعله التحالف الدولي وحلفاؤه العرب، من إزاحة حكم العراق المعادي لها، وتوفير الفرصة لها أن تتغلغل وتقوّي نفوذها داخل العراق وأفغانستان، إلا أن الأخطبوط

الإسرائيلي المصرّ على أن يظل القوة الوحيدة في المنطقة، المنفردة بامتلاك أسلحة الدمار الشامل، حرّك آلة حربه الممتدة في العالم، بكل فعاليتها ونفوذها؛ لشيطنة نظام الجمهورية، وتكثيف الضغوط عليه؛ من أجل عزله وخنقه، وحتى تفكيكه من الداخل، كل ذلك من أجل تجريده من قدراته العلمية، وبخاصة تصميمه على امتلاك التقنية النووية، القابلة للتحول سلاحًا نوويًّا، يجعل من إيران قوة إقليمية قادرة على موازنة الكيان الصهيوني، بما يضع حدًّا لتفرده بالقوة في المنطقة، وهو خط أحمر، ممنوع على أية دولة من دول المنطقة تخطيه.

وهكذا، كما جردت السياسة الغربية محمد علي، حاكم مصر في النصف الأول من القرن التاسعَ عشرَ، من مشروعه النهضوي؛ الذي أوشك أن يجعل من مصر قوة كبرى في المنطقة، تكرر نفس الكيد الغربي مع مصر الناصرية، وتكرر مع عراق صدام، ومع محاولة القذافي؛ وها هي السنوات الأخيرة تتكرر في مواجهة نظام الجمهورية الإسلامية، والكيد لباكستان على قدم وساق؛ لوضع أيديهم على تقنيّاتها النووية.

إن اكتساب القدرة العلمية التقنية المتقدمة، وكذا الوحدة، خطوط حمراء، وسياسة غربية ثابتة منذ القرن التاسع عشر، في مواجهة محاولات الأمة النهضوية لإجهاضها، بصرف النظر عن فريق الأمة الذي يقود هذه المحاولة، عربيًّا أم أعجميًّا، إسلاميًّا أم علمانيًّا، سنيًّا أم شيعيًّا؛ هذه تفاصيل لا يلقي لها بالا الإستراتيجي الغربي؛ الذي يضع على طاولة التخطيط خريطة العالم الإسلامي، فتنصبّ خططه على هدف واحد، هو ضمان استمرار وضع يده على موارد المنطقة، وعناصر القوة فيها، فكل ما يحقق هذا الهدف مشروع ومطلوب؛ لشلّ محاولات النهوض والتوحد، والدفع إلى المزيد من التمزق والتخلف.

وفي هذه السياق جاء زرع الكيان الإسرائيلي في قلب الأمة؛ لتفتيت الجسم، وشل عوامل نهوضه، وعناصر المقاومة فيه؛ ونصيحتي لشباب الأمة ودعاتها ألا يذهلوا لحظة، وهم يتعاملون مع الخلافات والتناقضات في صفوف الأمة، مهما عظمت، عن هذه المخططات الغربية الثابتة، في نظرتها الشمولية للأمة؛ بما يوجب علينا أن نرتفع فوق خلافاتنا، ونفكر بمنطق الأمة لا بمنطق الطائفة؛ منطق الأمة الواحدة هو الترجمة العملية لعقيدة التوحيد؛ التي تنص على أن من نطق بالشهادتين فقد اندرج في سلك الأمة "من قال لا إله إلا الله دخل الجنة"، والباقي تفاصيل.



منظمة المؤتمر الإسلامي... الحلم؟

ما داهمت الأمة مصيبة إلا والتفتت إلى المؤسسات التي لا تزال تحمل عنوانًا تمثيليًّا لها، مثل الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي، تستصرخها، فإذا لم تجد لاستغاثاتها صدى، صبّت جام غضبها على تلك المؤسسات، وعلى القائمين عليها، ونادت بحلّها، وطيّ صفحتها، فما دلالات ذلك؟، وما الجدوى منه؟.

الحقيقة أنه لم يكن منتظرًا من مجموع دول تابعة ضعيفة أن تلد كيانًا دوليًّا عملاقًا، فاقد الشيء لا يعطيه، لا سيما وأن موازين القوة الدولية مختلة لصالح القوى الغربية، منذ قرنين على الأقل، وكان من ثمار ذلك هدم آخر شكل للوحدة الإسلامية السياسية (١٩٢٤)م، وتمزيق شمل المسلمين، وفرض التجزئة على القلب العربي للجسم الإسلامي، وحراسة تلك التجزئة بقوة الأساطيل، وبأنظمة يغلب عليها الفساد والعزلة عن شعوبها، تولت القوى الغربية دعمها وتسليطها على شعوبها؛ للقيام بمهمة الوكيل على حراسة المصالح الغربية في عالم الإسلام، وقمع كل توجه لدى تلك الشعوب صوبَ نهوضٍ حقيقي، يتأسس على إحياء مقومات الشخصية الإسلامية، واستعادة الوحدة المغتالة؛ فذلك خطٌ أحمر، دونه خرط القتاد.

وتأبيدًا لهذه التجزئة تم تصدير نموذج الدولة القطرية إلى العالم الإسلامي؛ لتقويض كل توجه صوب الوحدة مجددًا، فتم استيراد وترسيخ مفاهيم جديدة للأمة، على أنقاض المفهوم الإسلامي الجامع، تم تأثيث فراغاتها بتواريخ وثقافات وأمجاد مستمدة خاصة مما قبل الإسلام، آشوريين وفنيقيين وفراعنة.. غير مترددين حتى في اختلاق تلك التواريخ؛ لملء فراغات الأمة المستحدثة.. التونسية والمغربية والقطرية والسودانية.. لها رموزها وراياتها وتاريخها الخاص بها، وحتى إسلامها ورزناماتها للأعياد الدينية..!!.

إلا أنه مع كل الجهود التي بُذلت من قوى التبعية والتخريب داخل عالم الإسلام، مدعومة بالقوى الأجنبية؛ لاجتثاث مفهوم الأمة الجامع - أمة العرب والمسلمين- من القلوب، وزرع المفاهيم القطرية المستحدثة للأمة بديلا، لا يزال العرب والمسلمون ينظرون إلى أنفسهم أنهم أمة واحدة، تخترق كلَّ الجدران المصطنعة، مهما سمقت أو غاصت في أعماق الأرض، ويشتد ويتأجج ذلك الشعور بالانتماء إلى جسم واحد، خاصة كلما داهمت المصائب قطرًا من أقطار الأمة، فترى الأمة

وكأن ما يحدث في البوسنة أو الشيشان أو غزة أو كشمير أو التركستان يحدث في كل بيت مسلم، وليس في دولة وأمة أخرى.

وذلك هو الذي حدث مثلا سنة ١٩٦٩م، عندما أقدم الصهاينة - بعد احتلالهم القدس- على إحراق المسجد الاقصى المبارك، فانتفض عالم الإسلام وكأنه جسم واحد، الأمر الذي حرك جلاميد الصخر الحاكمة، واضطرها إلى الاجتماع، وتأسيس رمز للوحدة الإسلامية "منظمة المؤتمر الإسلامي".

ولأنها منظمة تترجم إرادة حكومات، لا تترجم هي بدورها شعوبها، إلا بشكل جزئي جدًّا، فكذلك هي المنظمة، وإن عبَّرت عن أشواق شعوب أمتنا إلى الوحدة فهي عاجزة أن يكون ذلك التعبير حارًّا قويًّا سريعًا، كما يعتمل في أفئدة الشعوب، ولذلك لم تفعل تلك المنظمة شيئًا مذكورًا، في القضية التي تأسست من أجلها، قضية القدس، ولا كان فعل اللجنة المنبثقة عن هذه المنظمة "لجنة القدس" فعلا مشهودًا، يوقف المخطط الصهيوني؛ الذي يجري على قدم وساق لتهويد القدس، والاستيلاء على المسجد المبارك، تمهيدًا لهدمه أو اقتسامه؛ لزرع أسطورة هيكل مزعوم على أنقاضه.

بل إن رئيس لجنة القدس كان إسهامه في عملية التطبيع الغاصب كاملا غير منقوص، وليس ذلك وحسب، بل إن أعظم دول العرب التي كان معولا عليها قيادة الأمة لتحرير فلسطين، ورد الهجمة الغربية الجديدة، كما فعلت أيام الصليبيين والتتر، هي أول المتخاذلين "ولا تكونوا أول كافر به"، بما فتح أبوابًا للشر على الأمة، وأبوابًا للتمدد الصهيوني في المنطقة والعالم.



منظمة المؤتمر الإسلامي.. الواقع!

قلنا في المقال السابق: إن تلك المنظمة - منظمة المؤتمر الإسلامي- لم تفعل شيئًا مذكورًا، في القضية التي تأسست من أجلها، وهي قضية القدس، ولا كان فعل اللجنة المنبثقة عن هذه المنظمة "لجنة القدس" فعلا مشهودًا، يوقف المخطط الصهيوني؛ الذي يجري على قدم وساق لتهويد القدس، والاستيلاء على المسجد المبارك، تمهيدًا لهدمه أو اقتسامه؛ لزرع أسطورة هيكل مزعوم على أنقاضه، بل إن رئيس لجنة القدس كان إسهامه في عملية التطبيع الغاصب كاملا غير منقوص.

وليس ذلك وحسب، بل إن أعظم دول العرب التي كان معولا عليها قيادة الأمة لتحرير فلسطين، ورد الهجمة الغربية الجديدة، كما فعلت أيام الصليبيين والتتر، هي أول المتخاذلين "ولا تكونوا أول كافر به"، بما فتح أبوابًا للشر على الأمة، وأبوابًا للتمدد الصهيوني في المنطقة والعالم.

ولولا فضل الله، ثم ما تفجر في الأمة من قوى المقاومة الشعبية والمسلحة، تصدت بصدور عارية لجحافل الأطالسة والصهاينة، المدججة أحقادهم وأطماعهم بأشرس الأسلحة، لكانت الأمة مجرد أحاديث؛ ذلك أن معظم ما أصدرته منظمة المؤتمر الإسلامي من قرارات ظلَّ حبرًا على ورق؛ بسبب عجز الحكومات وتخاذلها، وخوفها المَرَضِيّ من كل ما يمكن أن يُغضِبَ عليها أولياءَها الغربيين، وهم من زرع في القلب من الأمة هذا الكيان اللقيط، وقام على حراسته، وتمهيد جسم المنطقة للقبول به، بل حتى الاستعداد للانصياع له.

وهو ما أغرى الذئب الصهيوني، في المؤتمر الاقتصادي التطبيعي، في الدار البيضاء، خلال أوْج صعود موجة التطبيع، قبل أن تنكسر وتتراجع، إلى أن يدعو العرب لتجريب قيادة إسرائيل بعد أن جربوا قيادة مصر، ودعا بعضُهم إلى ضم الكيان للجامعة، وبلغ الوهن بمنظمة المؤتمر الإسلامي أن أسقطت فريضة الجهاد، وأفتت مؤسسات دينية بشرعية فرض الحصار على غزة المجاهدة، وعرضت جامعة العرب على العدو الاعتراف به، مقابل استعادة فُتات من الأرض، ومع ذلك أعرض ونأى بجانبه، مستكبرًا محتقِرًا.

لا أحد يدعو هذه المؤسسات - ولا الدول التي تتكون منها- إلى إعلان الحرب لتحرير الأرض؛ فالخائف من شعبه لا يمكن أن يرفع عينًا حمراء إلى عدوه، لا نريد منها ذلك حتى لا تفضحنا

مرة أخرى، حسبها أن تترك للشعوب حرية المبادرة، ولا تقوم حارسًا للكيان اللقيط، إذا كان لا يسعها أن تدعم المقاومة، كما دعمت باكستانُ حربَ تحرير أفغانستان، وكما دعمت المغرب وتونس ومصر حرب تحرير الجزائر، إذا كان لا يسعها شيء من ذلك، فهل الذي بقي يسعها فقط هو خنق المجاهدين، والكيد لهم مع العدو، وإمداده بكل ما يحتاج إليه؛ ابتغاءَ شهادةٍ منه حسنةٍ فينا، لدى السيد الأمريكي.

بلغ الوهن إلى حد أن يُصرِّح مسئول كبير، أن شرطًا أساسيًّا ينبغي أن يتوفر في الحاكم القادم لدولته، أن يكون حائزًا على رضى الولايات المتحدة والكيان الصهيوني، كيف يُنتظر من مؤسسات الأمة أن تعبر عن إرادتها ومكوناتها الأساسية على مثل هذا الضعف؟، ليس يعني ذلك نفض اليد من هذه المؤسسات، والمشاركة في الإجهاز عليها؛ فالعدو حريص على القضاء على كل شيء يرمز إلى وحدة الأمة، فالشكل الفارغ اليوم يمكن أن يُملأ غدًا، ولكن ما ينبغي أن ننتظر منها، وهي على ما هي عليه، شيئًا كثيرًا.

- نحن موعودون وعدًا صادقًا، بأن الأمة ستستعيد بالإسلام مجدها، ويظهر دينها ولو كره الكافرون، فلنعمل على ترسيخ أواصر الوحدة في الأمة، على اختلاف مذاهبها وطوائفها، باحثين عن المشترك وهو كثير، حتى إذا تعدّل الميزان الدولي لصالحنا انتزعنا واستعدنا وحدة بلاد العرب والمسلمين، ورياح التاريخ تهب في هذا الاتجاه، بإذن ملكِ المُلك.



الإسلام هو الحلّ

واضحٌ اليوم كالشمس تراجع الفكر العلماني المتطرف، وفشله وفشل الجماعات القائمة عليه ، في الحلول محل الإسلام أو تطويعه، أو تحقيق إنجاز مما وعدت به على مستوى الحكم، فلا تحققت في ظلها وَحدةٌ للعرب، ولا تحريرٌ لفلسطينَ، ولا ديمقراطيةٌ، ولا تنميةٌ اقتصاديةٌ، وهو ما أعطى مشروعية قوية للتبشير مجددًا بالمشروع الإسلامي منقذًا، تحت شعار "الإسلام هو الحلّ".

وما حصل في تركيا خلال زُهاءِ قرنٍ من ضياع - جريًا وراء سراب تقدُّم على خُطا أوروبا، واتخاذ الإسلام وأمته ظهريًّا، بل عدوًّا- شاهدٌ على فشل ذريع للمشروع العلماني، مقابل ما حققه - في سنوات معدودات- أبناء المشروع الإسلامي، عودًا إلى قيم الإسلام، وارتباطًا بأمته.

وتمثّل حركة حماس في المستوى العربي - وكذا حزب الله- نموذجًا لما يمكن للحل الإسلامي أن ينجزه في مستوى مواجهة العدو، في ظل موازين قوة مختلة لصالحه، خضعت لها الدول والجماعات العلمانية، وآخرها منظمة التحرير.

ولا يعني شعار "الإسلام هو الحلّ" أن المشروع الإسلامي يمتلك حلولا جاهزة كاملة لكل المعضلات المطروحة على أمتنا وعلى البشرية، ولو كان الإسلام كذلك ما كان صالحًا لكل زمان ومكان، ولطوى الزمنُ حلولَه منذ العصر الأول، ولانتفت الحاجة للاجتهاد المتجدد في كل عصر ومصر وحال، ولا يقول بذلك من له علم بالإسلام وتراثه.

نعم، الإسلام هو الحل الوحيد لمشكلاتنا ومشكلات البشرية، إذا توفرت الشروط، ومنها الإيمان والعلم، والعمل بعقائده وشرائعه وشعائره وأخلاقيّاته ومقاصده، واستيعاب تراثه، وكذا العلم بالواقعِ المرادِ البحثُ له في الإسلام عن حلول، هي بالضرورة متوفرة لديه، إن لم تكن بالنص الصريح، وهي الأقل عددًا، فمتضمَّنة في المقاصد.

وإن أحدٌ سأل مثلا: هل في الإسلام حل للأزمة الاقتصادية التي تجتاح العالم، بقيادة الفلسفة الرأسمالية العلمانية الملحدة؛ التي حولت الحياة بكل جوانبها إلى ساحة لسيطرة حفنة من المرابين، عبر شركات عابرة للقارات، وَظَّفَت - في خدمتها- الدول والجيوش والإعلام والثقافة والسياسة، ودمرت البيئة، بما هدد بالفناءِ الحياةَ والأحياءَ؟، لقلنا: نعم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ (الملك: ١٤).

ففي فلسفة الإسلام وشرائعه ومقاصده - القائمة على العدل واقتسام الرزق بين كل الأحياء- حلول.

ولو أن هذا المُتهِم للإسلام بالقصور عن حل مشكلات البشرية الاقتصادية مثلا كلّف نفسه عناء مطالعة كتيب صغير للعلامة القرضاوي "مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام"، دون حاجة للمطولات مثل موسوعة الاقتصاد الإسلامي (٤ مجلدات) وغيرها، لانزاحت عنه غُمَّة هذا الشك.

****

رمضان والتنمية

لقد تجاهلت تجارب التنمية في بلاد العرب خاصة، الاعتماد على ما يتوفر عليه الإسلام من طاقات للنمو لا تنفد، بل عمل بعضها على تهميشه بل ناصبه بعضها العداء، فولدت تلك التجارب هياكل بلا روح وبنيانا بلا أساس، بينما نهضت التجارب التنموية الناجحة على أساس إحياء مواريث شعوبها الثقافية، واعتمادها روحا عامة لتحديث أصيل، كما فعلت اليابان والهند وماليزيا ودول الغرب ذاتها. وهل يخفى على دارس الأثر الديني الفاعل على بنية وسياسات الولايات المتحدة، الدولة الاعظم، بينما تعاملت أكثر من تجربة عربية تنموية مع الاسلام على أنه عقبة، مطلوب إزاحتها، حتى بلغ الامر حد الانتهاك الرسمي لحرمة الصوم واستباحة الخمور والربا والزنى وتعطيل مقاصد الاسلام وفرائضه في الشورى والحرية والعدل وكرامة الانسان، أساسا للحكم، وتجاهل معظم شرائع الاسلام الاخرى؛ فحظر بعضهم زي الحشمة.

وفرض بعضهم الحصار على غزة مقابل التطبيع مع كيان صهيوني مجرم غاصب ينتهك مقدسات الامة ويهدد كيانها بالتمزيق والدمار. فضلا عن ترك بلد اسلامي يغرق في الطوفان، ولا تعبئة لمناصرته، بل انشغال بمسلسلات معظمها تافه ماجن ينتهك حرمات الشهر الفضيل، ويعبث بمال الامة وطاقاتها التنموية، فأي صيام هو صومنا؟ وبينما يعتبر ما حققته المقاومة الاسلامية في فلسطين ولبنان والعراق وافغانستان وغزة من إنجازات تنموية على صعيد الدفاع عن الأوطان في وجه صائلين عجزت عن دفعهم جيوش التحديث المنبتّ عن العمق الإسلامي، رغم ما استهلكته، يحمل رمزية مهمة لما يمكن للإسلام فعله لو وظفت طاقاته فاعتمدت أساسا لمشروع تنموي شامل. وهل من عجب أن كان شهر رمضان شهر الفتوحات الإسلامية الكبرى، وهو ما ابرزه صاحب "الظلال" بصدد تفسيره لآيات الصوم فقال: "كان مفهوما أن يفرض الصوم على الأمة التي فرض عليها الجهاد".

أوليست الجيوش هي أحوج إلى القوة المعنوية الدافعة لها صوب بذل النفس والانضباط وتعميق الروح الجمعية والإيثار، منها إلى السلاح المتطور؟

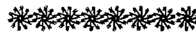
إن الصوم ككل أركان الإسلام عبادة، والعبادة هي الأظهر فيه، ولكن قوة الإسلام إنما هي في نقطة التلاقي بين السماء والأرض بين الروح والجسد بين الدنيا والآخرة بين الروحي والمادي بين الفردي والجماعي بين المصلحة والمبدأ، بما يجعل العبادة تؤسس للحضارة إذا أديت على وجهها الصحيح.

مشكلة الإسلام مع مناهج العلمنة لا تختلف كثيرا عن مشكلته مع التصوف الاغنوصي كلاهما يجرّد

الإسلام من نقطة قوته وعبقريته: هذا التركيب العجيب بين العبادة والمصلحة. ورغم أن المصلحة في ركن الزكاة تبدو أظهر بينما عنصر التعبد يبدو أجلى في أركان الصلاة والصوم والحج ولكن الزكاة تفقد كل قيمة دينية إذا تحولت إلى مجرد ضريبة مقطوعة عن العقيدة، سندها فقط "ما دمت عليه قائما"، بينما المؤمن يؤديها في حضور الرقيب وغيابه.

ومع أن بقية الأركان إلى التعبد أقرب، ولكنها لا تنفصل عن المشروع التنموي الشامل، فالصلاة الحق "تنهى عن الفحشاء والمنكر و"من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له". كل الفواحش والمنكرات: الكذب والخيانة والغش والظلم.. . إلخ. والحج عبادة، ولكن تبتغى منها منافع. لا يستنفد منها حج اليوم غير منافع شخصية كالبيع والشراء. أما مدرسة الثلاثين يوما، فهي مدرسة التدرب على التقوى حيث يتشبه هذا الكائن الشهواني الضعيف بسمة الملائكة: ضبطا لشهواته فيحكمها ولا تحكمه، متجاوزا الضرورة: مفرق الطريق بين الإنسان والحيوان، وتلك الحرية الحق. فضلا عن ما يورثه الصوم من وعي عميق بالزمن والخروج من حالة السيولة، فأوقات الطعام والشراب محددة يراقبها الجميع. وهو معنى حضاري هام جدا تعمقه كل العبادات الإسلامية مرتبط بدورة الأفلاك.

في الحديث "إذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق، فإذا سابّه أحد فليقل إني صائم" و"من لم ينهه صيامه عن قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه"، ولا يقتصر الزور على بعده الفردي. أبشع منه وأخطر تزوير إرادة شعب بانتخابات زائفة وإعلام مضلل وسلعة مغشوشة. هذا دون الحديث عن ما تحتاجه التنمية المركبة من ما يحققه الصوم الصحيح من اقتصاد في النفقات بدل زيادتها لدرجة اضطرار الدول للاستيراد حتى بالفوائض، ثم تقرض مواطنيها بمثل ذلك.



د. محمد عمارة

مفكر إسلامي مصري.



سبحان الله عما يصفون

لقد صدق الله العظيم إذ يقول: (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ) (البقرة: ٧٩).

وإلا، فهل يصدق من يعتقد في الله - سبحانه وتعالى- صفات العدل والرحمة والكمال والجلال: أن يقول الله- جل وعلا- لنبيه موسى- عليه السلام- هذا الذي كتب الأحبار، ونسبوه إلى ربهم؟!.. لقد كتبوا: "وكلم الرب موسى في عرباح موآب، على أردنّ أريحا، قائلا: كلِّم بني إسرائيل، وقل لهم: إنكم عابرون للأردن، إلى أرض كنعان، فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم.. تملكون الأرض، وتسكنون فيها، وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم، يكون الذين تستبقون منهم أشواكًا في أعينكم، ومناخس في جوانبكم"، ويضايقونكم في الأرض التي أنتم ساكنون فيها، فيكون أن أفعل بكم كما هممتُ أن أفعل بهم"! (سفر العدد، إصحاح ٣٣/-٥٠ ٥٣، ٥٥، ٥٦).

"وحين تقترب من مدينة لكي تحاربها، استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح، وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لله؛ للتسخير، ويُستَعْبَدُ لله، وإن لم تسالمك، بل عملت معك حربًا، حاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، أما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك؛ التي أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن، فلا تستبقِ منها ما نسمة ما، بل تحرمها أي "تهلكها".

(سفر التثنية، إصحاح ٢/-١٠ ١٦).

فالذين يصالحون ويُسلِّمون لهم العبودية والاستعباد، والذين لا يصالحون ولا يسلمون لهم الإبادة والدمار!.

وتمضي هذه النصوص العنصرية لتنسب إلى الرب - تعالى عن ذلك-، بأنه قد جعل كل الاغيار خدمًا وعبيدًا، مسخرين لليهود، فتقول لبني إسرائيل: (لا يقف الأجانب، ويرعون غنمكم، ويكون بنو الغريب حراثيكم وكرّاميكم، أما أنتم فتُدْعَوْن كهنة الرب، تأكلون ثروة الأمم، وعلى مجدها تتأمَّرُون).

(سفر أشعيا/ إصحاح ٦١ /٥).

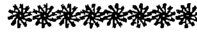
فكل الأجانب، وجميع الغرباء، وسائر الأغيار، خدم وعبيد، مسخرون عند اليهود؛ الذين يأكلون ثروة كل الأمم، ويتملَّكون ويتأَمَّرُون على سائر الشعوب!.

بل لقد تجاوزت عنصرية هذه النصوص "المقدسة"، الدعوة إلى أكل اليهود لثروات كل الأمم، إلى دعوتهم لأكل كل الشعوب أكلا؛ لأنهم الشعب المقدس، دون جميع الشعوب، وفوق جميع الشعوب.. والمأساة "الملهاة" أنهم جعلوا ذلك وصية الرب، وتشريعًا لبني إسرائيل!.. "سبع شعوب دفعهم

الرب إلهك أمامك، وضربتهم، فإنك تحرمهم "تهلكهم".. لا تقطعْ لهم عهدًا، ولا تُشفقْ عليهم، ولا تصاهرْهم؛ لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك، إياك قد اختار الرب إلهك؛ لتكون له شعبًا أخصَّ من جميع الشعوب؛ الذين على وجه الأرض.. مباركًا تكون فوق جميع الشعوب، لا يكون عقيم ولا عاقر فيك، ولا في بهائمك، ويرد الرب عنك كل مرض، وكل أدواء مصر الرديئة؛ التي عرفتها، لا يضعها عليك، بل يجعلها على مبغضيك، وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك، لا تشفق عيناك عليهم"!!.

(سفر التثنية/ إصحاح ١/٧ – ٣، ٦،٧،١٤ – ١٦).

إنها ذروة العنصرية الدموية.. توضع اليوم في الممارسة والتطبيق، ويحميها الفيتو الأمريكي حتى من الانتقاد!؟.



التراث الدموي.. في التطبيق

يتصور بعض السذج أو المنافقين، أن الفكر العنصري الدموي؛ الذي طفحت به أسفار العهد القديم، ومجلدات التلمود، والذي يدعو اليهود إلى تدمير كل الشعوب، وأكل ثرواتهم، واستعباد من يقول لهم "قولا"!، يتصورون أن ذلك الفكر هو مجرد "تراث"، قد طُوِيت صفحته، فلم يعُد فاعلا في الثقافة المعاصرة للكيان الصهيوني، على أرض فلسطين، وفي التعامل الصهيوني مع الأغيار. لكن الحقيقة تفضح هذا الزعم الساذج والمنافق، فلقد ذهب هذا "التراث العنصري الدموي" إلى تأبيد هذه العنصرية الدموية، باعتبارها حكمًا إلهيًا، ومن ثمَّ، تأبيد تأثيراتها العنصرية، على امتداد الدهور. فبعد أن جعلوا إلههم هذا - "يهوه"- "الرب الذي لا يبرئ، بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء" - سفر العدد، إصحاح ١٤: ١٨، امتدوا بهذه العنصرية، وهذه الكراهية للأغيار، وهذه الإبادة لتفعل فعلها، في واقع الممارسات التي يمارسها الكيان الصهيوني ضد الفلسطينيين، في واقعنا المعاصر والمعيش، وذلك بدعم من الصليبية الغربية، شريكتهم في ثقافة العهد القديم". فالحاخام "العقيد أ. فيدان "زيمبل" يفتي - في سبعينيات القرن العشرين- فتوى، تنشرها القيادة العسكرية للمنطقة الوسطى في الجيش الصهيوني؛ التي تقع الضفة الغربية تحت سلطتها، يجدد فيها ويطبق هذه النصوص العنصرية الدموية؛ التي كُتِبت في العهد القديم، والداعية إلى إبادة جميع الأغيار، حتى المدنيين الطيبين من هؤلاء الأغيار!. فيقول: في حالة احتكاك قواتها بمدنيين خلال الحرب، أو مطاردة حامية أو غارة، إذ لم يتوافر دليل بعدم إلحاقهم الأذى بقواتهم، هناك إمكانية بقتلهم، أو حتى ضرورة للقيام بذلك، حسب الهالاكاه "الشريعة"، بل تحض الهالاكاه على قتل حتى المدنيين الطيبين. فالقتل واجب وضروري للمدنيين الطيبين، بمقتضى الشريعة الحاكمة والمكونة لهذه الثقافة العنصرية. أما الحاخام "شمعون وايزر" فإنه يفسر لأحد الجنود الصهاينة؛ الذين يخدمون في فلسطين المحتلة ١٩٦٧م، نص العهد القديم: "ولتمح ذكرى العماليق من تحت السماء" سفر التثنية إصحاح ٢٥ : ١٩، فيجعل الفلسطينيين وكل الأغيار المعاصرين مثل "العماليق، المطلوب دائمًا وأبدًا، كلما أمكن، محو ذكراهم من تحت السماء، فيقول هذا الحاخام: "إنه لا يُسمح في زمن الحرب بقتل كل عربي أو امرأة فحسب، بل يجب القيام بذلك أيضًا. أما الحاخام "ديفيد دود كفيتن" فإنه يجعل نهب مزارع الفلسطينيين أمرًا شرعيًّا، بمقتضى التوراة وأوامر الرب "فيزود المستوطنين اليهود بالتعليمات المفصلة؛ التي تبيح لهم، بل تحضهم على سرقة المحاصيل الزراعية للفلسطينيين"، مبررًا السرقة والاستيطان بقوله: "إنني لا أرى أن هذا الأمر غير شرعي من ناحية التوراة، هذه أوامر الرب؟!!!.

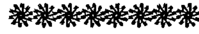
فثقافة العنصرية الدموية، هذه، ليست مجرد تراث في كتاب قديم، وإنما هي المكون الأساسي لثقافة الكراهية السوداء، والإبادة التي تُمارَس على أرض فلسطين، في القرن الواحد والعشرين" .



مخطط التفتيت لعالم الإسلام

في مقدمة القضايا التي تشغلني هذه الأيام، بل منذ أعوام، مخطط إعادة التفتيت لأقطار الأمة الإسلامية. لقد بدأ الاستعمار تفتيت العالم الإسلامي باتفاقية "سيكس بيكو" ١٩١٦م؛ التي كان تنفيذها المقدمة لإسقاط الخلافة الإسلامية ١٩٢٤م، وإزالة رمز الوحدة؛ الذي ظل قائمًا منذ ظهور الإسلام، وحتى ذلك التاريخ. ومنذ سقوط الخلافة الإسلامية تبعثر العالم الإسلامي إلى كيانات قطرية هزيلة، يقترب عددها من الستين، لكن قيام الكيان الصهيوني في قلب العالم العربي ١٩٤٨م، قد فتح الباب لمرحلة أكبر وأخطر، في تفتيت عالم الإسلام، فالمستشرق الصهيوني "برنارد لويس"، قد دعا - منذ قيام إسرائيل- إلى إعادة تفتيت بلاد المسلمين، على أسس دينية وعرقية ومذهبية، وذلك بإضافة أكثر من ثلاثين كيانًا سياسيًا جديدًا؛ حتى يقترب عالم الإسلام، إلى تسعين كيانًا؛ وذلك "لضمان أمن إسرائيل"!. لقد بدأ تنفيذ هذا المخطط منذ خمسينيات القرن العشرين - وكتب عنه "موشية شاريت"- رئيس وزراء إسرائيل، في مذكراته ١٩٥٤م، يقول: "إن تقوية الميول الانعزالية للأقليات في العالم العربي، وإذكاء النار في مشاعرها، وتوجيهها للمطالبة بالاستقلال والتحرر من الاضطهاد الإسلامي، هو عمل إيجابي، يدمر الاستقرار في تلك المجتمعات. وفي ثمانينيات القرن العشرين نشرت المنظمة الصهيونية العالمية "إستراتيجية إسرائيل في الثمانينيات"، وفيها تفصيل لمخطط هذا التفتيت، ولقد جاء في هذه الإستراتيجية - عن العراق مثلا-: "إن العراق أقوى من سوريا، وخطره العاجل على إسرائيل أكبر؛ ولذلك فإن تفتيت العراق أكثر أهمية من تفتيت سوريا". أما مصر؛ فقالوا عنها: "إنه إذا تفتتت مصر تفتت الباقون، وهذا هو الضمان الحقيقي لبقاء إسرائيل"، وفي ١٩٩٢م، عُقدت ندوة متخصصة في إسرائيل، حول الأقليات في العالم العربي، وجاء في توصياتها: "إن هذه الأقليات هي شريكة إسرائيل في المصير، وهي حليف لإسرائيل في مراجعة الإسلام والقومية العربية"!. وطوال هذه العقود الستة نشأت مؤسسات لإحياء لغات ميتة؛ كي تحل محل اللغة القومية - كما صنع اليهود!- وتحركت مؤسسات كهنوتية لتتحول إلى مشاريع دول وكيانات سياسية - كما صنعت الحركة الصهيونية-!، وانخرطت "لوبيات" طائفية وعرقية، في نشاط محموم، وتحالف إستراتيجي مع دوائر الاستعمار الغربي - والأمريكي بوجه خاص - كما سبق وصنعت الصهيونية!-؛ وذلك لتغيير خريطة وطن العروبة، وعالم الإسلام. إن المخطط مكتوب ومنشور - بكل اللغات-، وتنفيذه قائم على قدم وساق، أمام أسماعنا وأبصارنا، ونحن طوال هذه العقود نكتب، ونخطب، ونحاضر؛ لننبة قومنا إلى خطره المدمر لنهضتها، بل لوجودنا، ومع هذا يتهمنا عملاء الغرب من الصهاينة العرب والمتأمركين- بأننا ضحايا "نظرية المؤامرة"!، فهل تفيق، قبل أن نفاجأ بالكيانات

الطائفية والعرقية، فهي تطالب - في ظلال حراب الاستعمار- "بحق" تقرير المصير؛ لتغيير خرائط وطن العروبة، وعالم الإسلام، كما سبق وفوجئنا بمخطط إقامة الكيان الصهيوني؛ الذي لم ننتبه له إلا بعد فوات الأوان؟!. تلك هي القضية الكبرى التي تشغلني هذه الأيام!.



فقدان المِلك يفقدنا المُلك!!

في عدد المنار الصادر في شهر يونية (حزيران) عام ١٩٣٣م- أصدر الشيخ رشيد رضا (١٢٨٢هـ-١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥م - ١٩٣٥م) ونشر فتوى، في تحريم بيع العربي والمسلم أرضه لليهود في فلسطين.. لأن بيع الأرض أخطر من الهزيمة في الغزو الحربي؛ إذ انتصار العدو في الغزو الحربي يفقدنا المُلك (بضم الميم)، بينما بيع الأرض يفقدنا المِلك (بكسر الميم) أيضًا.. فيتعذر التحرير من هذا الاستعمار الاستيطاني، أكثر من تعذره في حالة الاستعمار السياسي والعسكري!.

وفي هذه الفتوى التي تكشف عن الوعي السياسي، والعمق الديني قال الشيخ رشيد رضا: "إن الحكم في عمل الإنكليز واليهود الصهيونيين في فلسطين، حكم قوم من أهل الحرب أغاروا على وطن من دار الإسلام، فاستولوا عليه بالقوة، واستبدوا بأمر الملك فيه، وشرعوا في انتزاع رقبة أرضه من أهله بتدابير منظمة، ليسلبوهم المِلك كما سلبوهم المُلك.. وإن حكم من يساعدهم على عملهم هذا، بأي نوع من المساعدة، وأية صورة من صورها الرسمية (كالبيع)، أو غير الرسمية (كالترغيب)، حكمُ الخائن لأمته وملته، العدو لله ولرسوله وللمؤمنين، الموالي لأعدائهم وخصومهم في مِلكهم ومُلكهم، لا فرق بينه وبين المجاهد معهم للمسلمين بماله ونفسه.

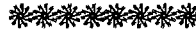
فالذي يبيع أرضه لليهود والصهيونيين في فلسطين، والذي يسعى في شراء أرض غيره لهم، من سمسار وغيره، كالذي يساعد أي قوم من الأجانب على قومه، فيما يحاولون من فتح بلادهم بالسيف والنار، وامتلاك أوطانهم، بل أقول، ولا أخاف في الله لومةَ لائم، ولا إيذاءَ ظالم: إن هذا النوع من فتح الأجنبي لدار الإسلام هو أشر من كل ما سبقه من أمثاله، من الفتوح الحربية السياسية والدينية، على اختلاف أسمائها في هذا العصر؛ لأنه سلب لحق أهل الوطن في مُلك بلادهم وحكمها، ولحقهم في مِلك أرضها لأجل طردهم منها، ومن المعلوم بالبداهة أنه إذا بقي لنا مِلك الأرض تيسر لنا إعادة مُلك الحكم، وإلا فقدناهما معًا.

هذا؛ وإن فقد فلسطين خطر على بلاد أمتنا المجاورة لهذا الوطن، فقد صار من المعلوم من الضرورة لأهل فلسطين والمجاورين لهم، ولكل العارفين لما يجري فيها، من عزم اليهود على تأسيس الوطن القومي الإسرائيلي، واستعادة مُلك سليمان بقوة المال، وبقوة الدولة البريطانية الحربية، إن هذا الخطر سيسري إلى شرق الأردن وسوريا والحجاز والعراق، بل هو خطر سينتقل من سَيناء إلى مصر!.

وجملة القول؛ أن الصهيونية البريطانية خطر على الأمة العربية في جميع أوطانها، وفي دينها ودنياها، فلا يُعقل أن يساعدهم عليه عربي غير خائن لوطنه وقومه، ولا مسلم يؤمن بالله وبكتابه وبرسوله (صلى الله عليه وسلم)، بل يجب على كل مسلم أن يبذل كل ما يستطيع من جهد في مقاومة هذا

الفتح، ووجوبه آكد على الأقرب فالأقرب، وأهون أسباب المقاومة وطرقها؛ المقاومة السلبية؛ وأسهلها: الامتناع عن بيع أرض الوطن لليهود، فإنه دون كل ما يجب من الجهاد بالمال والنفس؛ الذي يبذلونه هم في سلب بلادنا وملكنا منا... فالذي يبيع أرضه لليهود في فلسطين أو في شرق الأردن يُعَد جانيًا على الأمة العربية كلها، لا على فلسطين وحدها".

وهكذا؛ تألق الوعي السياسي.. والاقتصادي.. والديني، في هذه الفتوى؛ التي اقتبسنا منها هذه السطور المضيئة.



محمد عبده والنموذج المادي الغربي

لقد أعلن الشيخ محمد عبده أن مقصده الأول هو "تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلطان الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتبار الدين من ضمن موازين العقل البشري".

وفي إطار النقد للتقليد والجمود؛ لم يقف الأستاذ الإمام عند نقد طلاب علوم الدين فقط؛ وإنما وجه النقد للمتغربين أيضًا.. وفي هذا الإطار جاء نقده لمذاهب الغرب المادية واللادينية.. وعلى عكس الأكذوبة الشائعة التي يرددها الكثيرون؛ عندما يقولون إن محمد عبده قد امتدح النموذج الحضاري الغربي قائلا: "لقد رأيت في أوروبا إسلامًا بلا مسلمين، ورأيت في بلادنا مسلمين بلا إسلام!".

على عكس هذه المقولة المكذوبة كان نقد محمد عبده للنموذج المادي الغربي.. ففي حواره مع وزير خارجية فرنسا "جابريل هانوتو" (١٨٥٣- ١٩٤٤) انتقد المدنية الأوروبية؛ فقال: "إن هذه المدنية هي مدنية الملك السلطان (القوة)، مدنية الذهب والفضة، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق، وحاكمها الأعلى هو (الجنيه)، عند قوم، و(الليرة) عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل في شيء من ذلك!".

كذلك علق الأستاذ الإمام على لقائه بالفيلسوف الإنجليزي "سبنسر" (١٨٢٠- ١٩٠٣)، وحواره معه، وما شعر به من يأس "سبنسر" من مستقبل الحضارة الأوروبية؛ بسبب سقوطها في النزعة المادية.

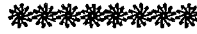
وعلق محمد عبده على ذلك بقوله: "هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيرًا مما يفيد في راحة الإنسان، وتوفير راحته، وتعزيز نعمته، أعجزهم أن يكتشفوا طبيعة الإنسان، ويعرضوها على الإنسان، حتى يعرف فيعود إليها!. هؤلاء الذين صقلوا المعادلة حتى كان من الحديد اللامع المضيء، أفلا يتيسر لهم أن يجلوا ذلك الصدأ الذي غشى الفطرة الإنسانية، ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحي؟!.

لقد حار الفيلسوف "سبنسر" في حال أوروبا، وأظهر عجزه، مع قوة العلم!. فأين الدواء؟.. إنه الرجوع إلى الدين"، الدين هو الذي كشف الطبيعة الإنسانية، وعرفها إلى أربابها في كل زمان، لكنهم يعودون فيجهلونها!..".

وانطلاقا من نقده للنموذج المادي الغربي، كان نقده للمتغربين من أبناء المسلمين، الذين كتب عنهم فقال: "يوجد في كل أمة، وفي كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص في العلم إلى ما وراء ساحل اليقين، فيسقطون في غمرات من الشك في كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس، بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها.. فإذا عرض عليهم شيء من الكلام في النبوات والأديان، وهم من أنفسهم هام

بالإصفاء، دافعوه بما أوتوا من الاختيار في النظر، وانصرفوا عنه، وجعلوا أصابعهم في آذانهم حذر أن يخالط الدليل أذهانهم فيلزمهم العقيدة، وتتبعها الشريعة، فيحرموا لذة ما ذاقوا، وهو مرض في الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم، إن شاء الله"[1].

وهكذا من موقع الوسطية الإسلامية الجامعة انتقد محمد عبده تيار الغلو.. الغلو الديني والغلو اللاديني!



د.طه جابر العلواني

فقيه أصولي ومفكر إسلامي عراقي.



وحدة الأمة

إنَّ الواقع التاريخيّ الإسلاميّ والمعاصر قد حفلا بكثير من محاولات الإصلاح والتجديد؛ التي كانت تقطع أشواطًا هامَّة نحو أهدافها، ثم تبدأ بالتراجع لأسباب عديدة، منها أسباب فكريّة، وأسباب سياسيَّة، وثالثة أخلاقيّة، ومنها تعارض وتضارب اتجاهات الإصلاح في تحديد الأولويّات.

فلعل الأولويَّة الأولى بعد التوحيد هي وحدة الأمَّة، وما تقتضيه هذه الوحدة من فكر سليم، واعتقاد قويم، وسلوك مستقيم،لقد وردت كلمة أمّة في القرآن الكريم في مواضع عديدة، وأريد بها الجماعة من الناس الذين تجمعهم طريقة واحدة، ورؤية واحدة، وتسود بينهم معرفة وثقافة واحدة، كما يراد بها الأصل والمرجع والقصد، وما إلى ذلك، فهي اسم لمن يجتمعون على أمر هام، ويشتركون في رؤية ومنهج وغاية، وما إلى ذلك من أمور هامة، وأطلقت مرة على إبراهيم عليه السلام؛ للإشارة إلى فضله وأهميته، وأنّه أصل يتجمع حوله فقال تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) (النحل:١٢٠).

وأمّتنا المسلمة شكّلها القرآن الكريم، فهو الَّذي أسس رابطتها، وبنى دعائمها، وأوضح منهاجها؛ لتكون الأمّة التي تنظر البشريّة إليها على أنّها نموذج ومثال وقطب؛ لتلتف حوله، لا لتلتف عليه؛ ولذلك فقد ضمَّن الإسلام مفهوم الأمّة أبعادًا كثيرة، لا يمكن لها أن تقوم بها إلّا إذا كانت أمّة موحدة، لا تطرأ عليها الفرقة.

ومن تلك المفاهيم والأبعاد؛ التي تضمنها مفهوم الأمّة، في لسان القرآن واللسان العربيّ "الأمانة، والاستخلاف، والشهود الحضاريّ، والخيريّة، والوسطيّة، والابتلاء، والعمران، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير، وتكريم الإنسان وعدم استعباده، وتوحيد الله بالإلهيّة والربوبيّة والصفات، والإيمان بالأنبياء كافّة، وحماية الضعفاء فيها من الأقوياء المعتدين، والإحسان إلى الناس كافة"، وهذه كلها لا يمكن القيام بها والأمّة مفرقة إلى طوائف ومذاهب وفئات وأحزاب، وما إلى ذلك.

ولذلك كانت "وحدة الأمّة" ركنًا أساسًا من أركان إيمانها، ودعامة هامّة من دعائم وجودها، فإذا تفرقت كلمتها فإنّها تتحول عن كل تلك المعاني؛ لتصبح غثاءً كغثاء السيل، لا تنفع ولا تدفع عن أجزائها شرًا، ولا تجلب لها نفعًا، وهذه الأمّة في حاجة دائمة إلى المحافظة على وحدتها، وعلى قوتها ومعرفتها وعلمها، وقابليّة التجدّد والحيويّة فيها، وتجاوز العجز، ويأبى مفهوم الأمّة الظلم والطغيان والخيانة ومجافاة الأمانة والتطرف والتعصب، وممارسة أي شيء يفرق كلمة الأمّة، ويفسد ذات بينها.

ومن المؤسف أنّ مفهوم الأمّة في عصرنا هذا قد جهله الكثيرون، فأدى إلى ضعفه في قلوب الناس،

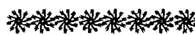
وأوجد لديهم استعدادًا للتفرق والتمزق، ومجافاة الأخ لأخيه لأتفه الأسباب، فصارت الأمراض المختلفة والاختلاف والفرقة هيَ السمة الغالبة، فتراجع دورها، وصارت كما في الحديث الشريف؛ الذي أخرجه أحْمَد، عن ثوبان، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه (صلى الله عليه وآله وسلّم): "يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟، قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟، قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ".

فقد صارت بمثابة قصعة تداعى الأمم إلى أكلها، كما أصبحت هينة على خصومها وأعدائها، يجترئ عليها وعلى النيل منها من لا يدفع عن نفسه، فلم يعُد لها في قلوب الدول والبشر ذلك الاحترام أو التقدير؛ الَّذي حظيت به حين كانت أمّة موحدة، فضاعت فلسطين والعراق وأفغانستان وغيرها، وحدث لما بقي ومن بقي الشيء الكثير، والتهديد والخطر دائم مستمر حتى تستيقظ الأمَّة، وتوحّد كلمتها.

ولقد كتب السيد جمال الدين الأفغاني مقالة (عام ١٣٠٠هـ)، وصف فيها حالة الأمَّة قبل (١٣٠) عامًا، جاء فيها: "إنّ الشرق بعد أن كان له من الجاه الرفيع سقط عن مكانته، واستولى الفقر والفاقة على ساكنيه، وغلب الذل والاستكانة على عامريه، وتسلطت عليه الأجانب، واستبدت بأهله الأباعد؛ لإعراض الشرقيّين عن الاستنارة بعقولهم، وتطرق الفساد إلى أخلاقهم.

لا يتدبّرون أمرًا، ولا يتقون في أعمالهم شرًا، طرأ على عقولهم السبات، ووقفت أفكارهم عن إصلاح شئونهم، وعميت أبصارهم عن إدراك النوازل التي أحاطت بهم، لا يُحِسُّون المصائب قبل أن تقضم أجسادهم، وينسونها بعد زوال آلامها، لا تحملهم نفوسهم على طلب المجد والعزة وبقاء الذكر؛ لا يدرون عواقبهم، ولا يدركون مآل أمرهم، ولا يحذرون مَا يتربص بهم، ولا يفقهون مَا يُضمره الدهر لهم من الشدائد. ألفوا الصَّغار، وانقادوا للعبوديّة، ونسوا مَا كان لهم من المجد المؤثّل، والمقام الأمثل.

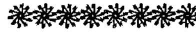
لقد انهمكوا في الشهوات الدنيويّة، وغاصوا في اللذات البدنيّة، وتخلقوا بالأخلاق البهيميّة، يفترس قويُّهم ضعيفَهم، ويستعبد عزيزُهم ذليلَهم، يخونون أوطانهم، ويستلبون أموال ضعفائهم، ويخيسون بعهودهم، ويسعون في خراب بلادهم، ويُمكّنون الأجانب من ديارهم، لا يحمون غمارًا، ولا يخشون عارًا، ثم حاول الأفغاني أن يصف أهم ما يخرجهم من المشكلات التي يعانونها، فأكد على ضرورة توحيد كلمتهم، وإعادة بناء الأمَّة من جديد. ثم قال كلامًا كثيرًا عن انقسامات حكومات المسلمين، واستعانة بعضهم بأعدائهم على إخوانهم، وغير ذلك من مآسٍ، لو رفعنا الأسماء السالفة في عصره، وأبدلناها بأسماء المعاصرين، لما تغير شيء، وها نحن - بعد مائة وثلاثين عامًا- لا نجد لمآسينا ومصائبنا المعاصرة، وهواننا على الناس، إلا وحدة أمتنا علاجًا ودواءً، اللهم ألف بين قلوبنا، ووحد على سبيلك أمتنا، فإنّك المرجّى لذلك، إنك سميع مجيب.



تجديد الثقافة الإسلاميّة فريضة وضرورة

منذ التاسع من سبتمبر وهناك دراسات وندوات، ربما تجاوزت في أعدادها الآلاف، لم يكد يخلو أيّ ركن من العالم من هذه الندوات، وكلّها تنادي بتجديد الثقافة الإسلاميّة، باعتبارها المسئولة عن سيادة روح العنف، ونبذ التعدد، ونفي الآخر، ورفض الحداثة، والحيلولة دون تغلغل اللبراليّة، وبناء الديمقراطيّة، وتأسيس المجتمع المدنيّ لا الدينيّ ولا العسكري... إلى آخر تلك الأهداف. وقد لاحظنا أن مصطلح الغزو الفكريّ؛ الَّذي كان يتردد في الأوساط الثقافيّة المسلمة منذ القرن الماضي، لم يعُد يُستخدم أو يتداول إلّا نادرًا، وأصبحت الأبواب كلّها مشرعة بأشكال مختلفة؛ لإيجاد حال تغيير ثقافيّ، تأخذ أحيانًا اسم "التجديد"، وهو مفهوم إسلاميّ هام، ولكنها محاولة لمسخ بعض المفاهيم الإسلاميّة، وتحميلها بمعانٍ لم توضع لها، ولم تكن تشتمل عليها، فصرنا نسمع هذا المفهوم يتردد في ندوات السياسيّين والإعلاميّين والتربويّين، وسائر فصائل المثقفين. وفي السنوات الثلاث الماضية، وهذه السنة، لم يخلُ بلد من ندوات أو مؤتمرات في التجديد والاجتهاد والتغيير والإصلاح، وما إلى ذلك، ولا شك أن التجديد مطلوب، ولكن التجديد الحقيقيّ تقوم الرغبة فيه وتنطلق من ضمير الأمّة، وعقول وضمائر مفكّريها ونخبتها. أمّا التجديد الَّذي ينجم تحت ضغوط خارجيّة، لها ظروفها، ولها أوضاعها، وقد يعمل على تحقيق أجندة أخرى، لا بد لنا من الوقوف عنده، والتحقق من هويّة ذلك التجديد أو الإصلاح أو التغيير، ومدى جديته واتصاله بأصولنا. إنّ مفهوم التجديد والنهوض عندنا، وفي حقيقته المجردة، تعبير عن التطلع الدائم لدى الإنسان، في زمانه ومكانه؛ لأن يستوعب خطابه كل مَا يمثل له الواقع الَّذي يعيشه، ويبرز الإمكانات التوليديّة لتحقيق ذلك الاستيعاب في خطابه؛ ليكون قادرًا على التعامل مع مستجدات الحياة وتحديّاتها، وهذا النوع من التجديد الإسلاميّ الذاتيّ يقتضي أن تكون أول خطوة في طريق التجديد والإصلاح والتغيير خطوة لتصحيح الفكر، وتجديد الرؤية؛ بحيث تؤدي تلك المحاولات كلّها إلى إصلاح مناهج التفكير لدى الأمّة، وتصحيح عالم أفكارها، وإعادة ربط أفكارها ومناهج تفكيرها ونماذجها المعرفيّة، ومن ثم ثقافتها، بأصولها. وفي حالة أمّتنا تلك الأصول هِيَ كتاب الله وهدي وسنّة وسيرة وتطبيقات وتأويلات سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم)؛ فلقد أدى سوء فهم البعض لتلك الأصول، وهجر بعض آخر لها، إلى اغتيال قدرات الأمّة وطاقاتها، وفتح أبواب عقولها وقلوبها إلى مجموعة من الأفكار السامّة والقاتلة والمميتة، منها على سبيل المثال "الجبريّة والتواكل"، وعدم فهم "وظائف الأسباب"، "والعجز عن إدراك طبائع السنن الإلهيّة، في الكون والحياة والإنسان"، فقتلت في أمّتنا روح الاجتهاد والإبداع، وأضعفت العقل البرهانيّ لصالح

عقليّة التقليد، فتوقفت في أمّتنا الدافعيّة الحضاريّة، فعجزت عن النهوض، وتحقيق حالة الشهود الحضاريّ، في أيّ مستوى من المستويات. فالتجديد الحقيقيّ يبدأ في البحث عن جذور تلك الأفكار السامّة المميتة، والأفكار الميتة والمريضة، والتراكمات المعرفيّة التي بُنيت عليها، وحفل بها تراثنا النقليّ والعقليّ، وظلت متوارثة تستعصي على التغيير والتعديل، بحماية مجموعة من العوامل، لعلّ من أبرزها عجز العلماء، وجهل الأبناء، وتكاتف أصحاب الشهوات مع الأعداء. ولذلك؛ فإنّ هذه الأمّة مطالبة اليوم- بإعادة النظر في منظومتها الفكريّة والمعرفيّة والثقافيّة، والتصديق عليها بكتاب ربها، والهيمنة عليها به، وإنارة سبيل التجديد والإصلاح والتغيير بهدي سيد المرسلين، فذلك هُوَ التجديد الَّذِي يمكن أن يؤتي أكله، ويحقق ثماره، لكن لذلك شروط كثيرة، لا بد من استيفائها لبناء مشروع حضاريّ، يمكن أن يفجر طاقات الأمّة، ويجعلها تقف وراء مشاريعه، أمّا المشاريع المقترحة من الخارج فلن تكون قادرة على تفجير طاقات الأمّة، ولا إيجاد روح الإبداع والاجتهاد والمبادرة عند نخبها.



التجديد لا يتحقق بالتأويلات والتعديلات الجزئيَّة

سبق أن كتبت دراسة في "حقوق المواطنة"، حاولت أن أبيّن فيها: أنَّ الجوانب المختلفة "للمشروع العمرانيّ الإسلاميّ المعاصر" ستظل تتردد بين مأزق وآخر، حتى تتبيّن لقادة الرأي من المسلمين جملة من القضايا المهمة والخطيرة؛ التي حفل بها تراثنا، وتتم تنقيته بعد ذلك منها، وأنَّه لن تغني عن قيادات هذا المشروع تلك الاجتهادات الجزئيّة، في المسائل والقضايا التي يعارضهم خصومهم بها، أو يثيرونها في وجودهم، ولا حلول المقاربات والمقارنات والتأويلات التوفيقيّة. فلن يخدم الإسلامَ كثيرًا أن يجتهد من يجتهد لينتهي إلى التنازل عن مذاهب فقهاء الجمهور؛ التي تقسم المواطنين في "دار الإسلام" إلى "مسلمين"، يعيشون في دار الإسلام بأمان الإسلام، و"ذمّيين" يعيشون في "ديار الإسلام"، بأمان المسلمين؛ ليأخذ بمفهوم "المواطنة" المعاصر، ويعززه بكل مَا قد يستدعيه من قضايا معاصرة [١]؛ وذلك لإفساح المجال أمام العقل المسلم ليبني مفهوم المواطنة، الَّذِي وُلد في إطار الدولة القوميّة الغربيّة الحديثة، وصدَّره الغرب جاهزًا إلينا، وبدأ يفرض نفسه علينا، لنتحول إلى اللبراليَّة القائمة على العلمانيَّة. ولن يعالج مشاكل الأمّة المستعصية حاليًا- أن يجتهد من يجتهد ليأخذ بمفهوم "الديمقراطيّة"، وبكل تداعياتها، وبجذورها اللبراليّة - أيضًا- دون تصحيح لمنظومة الأفكار الموروثة؛ التي أدت إلى تفشي ظاهرة الفرديّة والطغيان والاستبداد في أمتنا، لا في الحاضر فقط؛ بل في الماضي كذلك، والله (تعالى) أعلم إلى أيّ مدى سوف تستمر في تدمير أو مصادرة مستقبلنا [٢].

كذلك لن يغني عن المسلمين شيئًا أن يأخذوا بمفهوم "التعدديّة" بكل أنواعها، قبل تصحيح تلك المنظومة الفكريّة الثقافيّة؛ التي أدت إلى ذلك التعصب البغيض، والعودة إلى بدائيّة نفي الآخر؛ التي أنقذنا الإسلام منها، ورفض التعايش مع المخالف أيًّا كان، حتى لو كان الاختلاف معه في بعض الفروع، ولعلّ ظاهرة التحايل على الديمقراطيّة وتزيفها في كثير من بلاد المسلمين سببه ثقافة الفرديّة، وأفكار الاستبداد والطغيان ونفي الآخر، الكامنة في فكر وثقافة العقل الباطن، لدى كثير من المسلمين. إنَّه لم يعد من الممكن معالجة مشاكل المسلمين بالأخذ بأساليب المقاربة أو المقارنة أو التأويل أو التعديل الجزئيّ، حتى لو كان ذلك ممكنًا على المستوى النظريّ، فإنّ هذا النوع من الجهود الجزئيّة لن يؤدّي إلى حل مشكلات المسلمين المعاصرة، وإن الاستمرار في هذا الأسلوب سوف يؤدّي بأصحاب المشاريع السياسيّة - من الإسلاميّين خاصّة- إلى مآزق قد لا تختلف عن مآزق الآخرين. فإنهم إن استمروا في عمليّات التعديل الجزئيّ المتتابع في القضايا الفقهيّة الموروثة فسوف يكتشفون أنّهم إذا أقاموا نظمًا فإنهم قد يصبحون في إطار نظام كبقيَّة النظم، وعلاقته بالإسلام قد لا تتجاوز علاقة الاشتراكيّين

واللبراليّين الغرب والمسلمين بالديمقراطيّة والحريّة، وبقيّة منظومة الشعارات التي يرفعونها في فترات النضال من أجل السلطة، حتى إذا بلغوها أعادوا تفسيرها وقراءتها، وتقييد مطلقها، وتفصيل مجملها، بشكل يسمح لديمقراطيّتهم وحريّتهم بفتح أبواب السجون والمعتقلات على مصاريعها، ومصادرة الحريّات على تعددها، وممارسة كل أنواع الاستلاب والامتهان والاضطهاد والتعذيب للإنسان. والإسلاميّون قبل غيرهم مطالبون أن ينزّهوا أنفسهم، وأن يحتاطوا لئلا يقعوا في مثل هذا النوع من الممارسات، وما كانت غاية الإسلام يومًا أن يسلط بعض الناس على بعض؛ بل غايته أن تتلى على الناس آيات الله (تبارك وتعالى)، ويُعلَّموا الكتاب والحكمة ليطهروا، وتزكو نفوسهم، ويُحرَّروا من نزغات الطغيان والشيطان، ويكونوا معمرين في الأرض، وتتحقق عبادتهم وعبوديتهم لله (تبارك وتعالى) وحده، لا شريك له.



(١) نلاحظ اليوم درجة الضغوط الخارجيّة على المسلمين لتنقية تراثهم، وتغيير برامج التعليم لديهم؛ فلماذا لم يقم المسلمون بذلك قبل أن يُفرض عليهم من الخارج فرضًا؟، ومن الغريب أنّ الأمّة ما تزال تعيش حالة من الاستقالة الفكريّة، فلا تقوم إلّا بعد أزمة تقع، وردود الأفعال دائمًا لصالح من أطلق الفعل الأول، لا لصالح أصحاب رد الفعل.

(٢) صدر للصديق الأستاذ الأديب الشاعر زيد بن علي الوزير كتاب (قيم في الفرديّة) بحث في أزمة الفقه الفرديّ السياسيّ عند المسلمين، صنعاء: مركز التراث والبحوث اليمنيّ (سنّة ٢٠٠٠م)، وأعتبر هذا الكتاب امتدادًا طبيعيًا لكتاب (طبائع الاستبداد) للكواكبي، يأتي بعد ما يزيد عن مائة عام على صدور كتاب الكواكبي وكتاب النائيني (تنبيه الأمّة) ليجد طبائع الاستبداد لا تزال كما هي، والفرديّة أكثر تفشيًا وانتشارًا، والأمّة في نوم أعمق، وإنا لله، وإنا إليه راجعون.

نحو فلسفة إسلاميَّة في العمران

منذ ثلاثينيات القرن الماضي بدأت عمليات الهجرة من الريف إلى المدينة، في مختلف أقطار العالم الثالث، وفي مقدمتها عالمنا العربي والإسلامي، والأسباب كثيرة، أهمها إهمال الريف من قِبل معظم الحكومات؛ والتركيز على المدن، وخاصة العواصم، فكأن تلك الحكومات عكست تلك النفسية المحتاجة لكثير من التسديد والترشيد، ألا وهي نفسية العناية بالمظهر، وليكن المخبر ما يكون. وهذا النوع من الانحراف الثقافي والمزاجي؛ يفتقر إلى تسوية وتعديل، فكثير من حكومات العالم العربي لم تلتفت إلى أرياف أو بادية، ولم تولِها أية عناية، وركزت جميع الخدمات في العواصم، وإذا فاض شيء فربما يجودون به على عواصم المحافظات والأقاليم، هذا في الخدمات الطبية، والأمنية والاجتماعية والثقافية، فالجامعات والمستشفيات وإدارات الأحوال المدنية والمطارات - وما إلى ذلك- التي لا تتوافر إلا في العواصم. ولما بدأت بعض الحكومات تُعنَى ببناء جيوش حديثة، وأجهزة أمنية، فإن المنابع الرئيسة للأفراد من جنود أو شرطة، لم تكن مصادرها في الغالب إلا الأرياف؛ ولذلك فإن من وجد فرصة للعيش في المدينة ترك الريف، وكأنه هارب من جحيم، صحيح أنه يحبه، ويحتفظ بأجمل الذكريات عنه، ويتمنى لو أتيح له العيش فيه، بتوفير ولو نصف الخدمات التي يجدها في المدينة! كما أن مدننا حين بُنيت لم تُجرَ أية دراسات حول استيعابها، وتقدير الخدمات ووسائلها، فقد تُبنى المدينة وتنظم شوارعها وخدماتها لتستوعب مليونًا من البشر، وبعد سنوات قليلة تجدها وقد جاءها ثلاثة ملايين أو خمسة أو عشرة!!، فيبدأ بناء ما يُعرف بالعشوائيات؛ التي تتحول فيما بعدُ إلى حزام من الفقر والجهل والمرض، وتصبح عبئًا لا تحتمله المدينة؛ التي يعمل فيها (٩٥٪) من سكان العشوائيات! هنا تصبح عملية بناء ثقافة موحدة للشعب وذوق عام ورأي عام ومجتمع تسوده علاقات التواصل والتكافل والتضامن أقرب إلى المستحيل، وهؤلاء الذين اقتُلعوا من الأرياف، ووجدوا أنفسهم في محيطات المدن، لو وُفرت لهم الحكومات أبسط الخدمات، وأحسنت توزيع الخدمات، وربطت الريف والمدينة بشبكة مواصلات متميزة، وحققت الأمن، لما تركوا الريف، ولبنوا لأنفسهم مسكنًا لائقًا، وربوا بجواره ما يستطيعون من ماشية أو دواجن. وإذا أراد الشاب السفر فإنه يستطيع أن يستخرج وثائق السفر في قريته، وإذا أراد أن يعلم ابنه أو ابنته بالجامعة وجدها قريبة منه، أو تكون مدينة جامعية تضم إضافة إلى الجامعة وسائل عيش، تسمح لأبناء الريف أن يعيشوا في أريافهم، ويحققوا ذواتهم، ويصلوا إلى طموحاتهم، لو حدث ذلك لما وقعنا في مشاكل أخشى أن أقول: إن كثيرًا منها أصبحت معالجته في غاية الصعوبة، إن لم تكن متعذرة. إننا بحاجة ماسة لإعادة بناء المفاهيم التي جاء بها الإسلام، وتأسست

حضارتنا وعمراننا على قوائمها وقواعدها، حين عُني الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، أول ما عُني بالمدينة، ومن قبل ذلك نجد القرآن قد حدد حدود أم القرى "مكة"، وبين حدود الحرم، وأشار إلى آثار البيئة في الخلق والسلوك، فقال (سبحانه وتعالى) عن الأعراب: (الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (التوبة: ٧٩ - ٨٩).

وقد حفل كتاب الله (عز وجل)، وسنة رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) بكثير من الإشارات؛ التي لو اعتنينا بها لخرجنا بتصور قرآني نبوي، نتحدى به العالم، في قضية العمران الممزوج بالقيم، ولاستطعنا أن ننقذ شعوبنا من كثير من الأزمات الهائلة؛ التي صار بعضها يهدد الوجود، مثل المخدرات، والزنا، والجرائم التي سادت بأنواعها. إن لدينا عناصر معمارية وهندسية كثيرة، يعج بها العالم العربي الإسلامي، لا يُعجزها أن تؤسس منظومة عمرانية إسلامية، فيها كل آداب السكن المناسب للأسرة المسلمة، وللمجتمع المسلم؛ الذي يمكن أن يعتمد في عمليات بنائه وإعداده على المواد المتوافرة في البيئة، فليت قادة الرأي والفكر، ورؤساء الدول والحكومات، يلتفتون لهذا قبل وقوع الطوفان!.



الإسراء مفهومًا وحقيقة

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ (الإسراء: ١).

و"السُّرى" سير الليل، يقال: "سَرَى يَسري" و"أسرى يُسرى" و"سُراة الليل" هم الذين يحقّقون ما يريدون ليلا؛ فإذا أصبح الصبح كان ما سرَوا من أجله أمرًا واقعًا، لا يُزال أو يغيّر بسهولة.

والله (تعالى) أسرى بعبده ورسوله ونبيّه الخاتم، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، بعد أن أمضى سنين عددًا في دعوة عرب الجاهليّة إلى نبذها، والانتقال من "الأميّة إلى الكتابيَّة" القرآنيَّة، فكأنّ "الإسراء" إيذانًا بالانتقال نحو مرحلة العالميّة، بعد مرحلة دعوة "الأميّين".

ولكي نفهم "الإسراء" -حقيقة ومفهومًا- لا بد من استحضار كثير من الأمور، منها: هبوط آدم وموقعه، وهبوط إبليس كذلك: وهو ما جاء في الآيات الثلاثة من سورة البقرة (٢٥ - ٢٧) وآيات سورة الأعراف (١١ - ٢٥)، ومنها قصة الطوفان، ونجاة نوح (عليه السلام)، ومن معه في الفلك، وآيات سورة يونس (٧١ - ٧٤)، وآيات سورة هود (٢٥ - ٤٩)، وآيات سورة الشعراء (١٠٥ - ١٢٢)، ثم سورة نوح كلّها، ثم العودة إلى سورة الإسراء؛ لتحديد نسب وعلاقة بني إسرائيل بأولئك الذين حملهم الله مع نوح في السفينة ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الآية: ٣) من السورة، ثم نحاول أن نكتشف بالقرآن ومنه العلاقة بين إبراهيم (عليه السلام) وذريّة من حمل مع نوح، ثم نتتبع إبراهيم (عليه السلام) في منطقة تجواله؛ التي شملت الموقع الذي وُلد فيه، في مدينة "أور" أو "الناصريَّة" في العراق، ثم بلاد الشام، ومنها فلسطين، ثم مصر والحجاز".

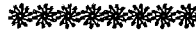
فمنطقة التجوال الإبراهيميّ هي التي أنجب فيها إبراهيم أبناءه الأنبياء: من سارة إسحاق ويعقوب، ومن هاجر إسماعيل، وبنى لله (تعالى) أول بيت وُضع للناس بأمره (سبحانه)، كما أسّس معبدًا يَعبد الله فيه هو وبنوه، هو بيت المقدس؛ لبعد بيت الله عنهم – الذي ببكة- ولأنّه بواد غير ذي زرع، ولأنّه لم يؤمر أن يُسكن فيه من ذريّته إلا هاجر وابنها، فكان يذهب إلى البيت العتيق ليؤدي مناسكه، ويزور من أهله وبنيه ذلك الشطر؛ الذي تركه عند بيت الله المحرّم، وكان يسأل الله أن يبارك له في ذريّته وأهله، والأرض التي يعيشون فيها، ويجعل العهد الذي منّ الله عليه به متوارثًا في عقبه، فقال (تعالى) له: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤)، وجعل الأرض التي أقام فيها مع الشطر الآخر من أسرته، والأرض التي يسكنها – وفيها مسجده- مباركة.

أمّا بيت الله فهو "محرّم"، والمحرّم أعلى رتبة من المقدّس والمبارك؛ لاتصال المحرّم بالله وإضافته إليه، "بيتي المحرّم".

إنّ عودة بني إسرائيل إلى "المسجد الأقصى، وإنشائهم الدولة اليهوديَّة، وإعلانهم هذه الأيام عن تهويد كل شيء فيها، وتسميتها "بالدولة اليهوديَّة"، إيذانٌ بدخول منطقة "التجوال الإبراهيمي" كلّها مرحلة جديدة، لن تشهد فيها المنطقة - كلّها- سلمًا أو استقرارًا؛ لأنّ بني إسرائيل يؤمنون بأنّ "سيادة يهود" يجب أن تشمل "منطقة التجوال الإبراهيميّ كلها" ولن يقبلوا من أيّ عربيّ - مسلم أو نصرانيّ- أي شيء أقل من العيش في ظل سيادة يهوديَّة كاملة، وستكون رؤوفة ورحيمة جدًا إذا قبلت من أي منّا الجزية.

تحاول إسرائيل الآن - بتمردها على أمريكا وأوروبا في وقف بناء المستوطنات- أن تتداخل مع عالميَّة الحضارة القائمة، في إطار فلسفة الصـــــــراع، المنافية للاستقـرار العالميّ.

وهي تكاد تُعلن للرئيس الأمريكي وللمجموعة الأوروبيّة، أنّ حكام إسرائيل هم الأمناء على فلسفة الحضارة الغربيَّة المعاصرة، وأنّ القـــــادة الأمـريكان والأوروبيّين الحاليّين لا يعلمون؛ لذلك فهي ماضية في طريقها، لن تتوقف، ولن يوقفها أحد إلا نهضة عربيَّة إسلاميَّة موازية لنهضتها، فيا ليت قومي يعلمون!!.



العالميّتان الإسلاميّتان وخصائصهما

في منتصف القرن السابع الميلاديّ، كانت الإنسانيّة على موعدٍ مع العالميّة الإسلاميّة الأولى، فحين نزل القرآن المجيد في جزيرة العرب، المسكونة بقبائل متفرّقة، متشرذمة، وثنيّة، أميّة ، أخرجَ العرب من جاهليّتهم، وهداهم "ليكونوا خير أمّة أخرجت للناس".

وقاد حركة فتوحاتهم للشعوب والقبائل التي ضلّت وأضلّت، ثمّ حظِيت بالهداية، ونجت بالفتح الإسلاميّ في الدنيا والآخرة؛ ولذلك فإنّ العروبة – منذ ميلادها- تشكّلت عالميًا، ولم تتكوّن إقليميًّا أو عنصريًّا. ونلمس هذا الفهم في كلمات الفاتح طارق بن زياد، عندما قال للبحر: "لو أعلم أنَّ وراءك بشرًا لعبرتك إليهم لإيصال رسالة الله"، وفي تلك العالميّة الأولى فهِم العرب القرآن في إطار البناء اللفظيّ، والنظم، والأسلوب، والإعجاز البياني، واجتهدوا في الاقتداء برسول الله (صلى الله عليه وسلم)، والتأسّي به، واتّباعه منهجًا وسبيلا؛ لفهم القرآن، وفقه الإسلام، واتّخذوا الجيل الأوّل بمثابة (الإطار المرجعيّ)؛ الذي قام على (التطبيق التحوُّلي)، في إطار الخصائص المحليّة.

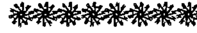
إنَّ عناصر إطلاقيّة الكتاب الكونيّ؛ الذي أخرج العالميّة الإسلاميّة الأولى، تكمن في الوحدة المنهجيّة الكامنة في نصوصه؛ التي ستجعل مكنون معانيه يتكشّف عبر العصور والأزمان، ومن ثَمّ تقع الإمكانيّة التاريخيّة الممكنة والكامنة لانبعاث عالميّة إسلاميّة ثانية، إنّ إنسان العالميّة الإسلاميّة الثانية سيكتشف المنهج القرآنيّ الكامن؛ بالتدبّر العميق للقرآن الكريم.

وبالجمع بين القراءتين، بحيث يصبح الكون وحركته من أهمّ وسائل تفسير القرآن بالقرآن، وآنذاك لن يعاني الإنسان من الانقسام الحادّ بين (الغيب والطبيعة والإنسان)، بل إنّ الاتصال الوثيق الواضح بين العناصر الثلاثة، سيجعل الإنسان قادرًا على البحث عن (الناظم المنهجيّ) في سور القرآن وآياته؛ ليقترب من فهم (منهجيّة القرآن المعرفيَّة)، ومجـــابهة الحضارة الوضعيّة العالميّة الراهنة بها.

وأيضًا؛ فإنّ إنسان العالميّة الإسلاميّة المرتقبة لن ينظر إلى الإسلام على أنّه مصطلح خاصّ بالدعوة المحمديَّة – وحدها-؛ ولكنّه سيدرك أنّها حلقة واحدة من حلقاته، فالإسلام هو الدين الحق؛ الذي جاء به الأنبياء كافّة، وفي مقدّمتهم أبو الأنبياء إبراهيم: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: ٩٥)، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلا﴾ (النساء: ١٢٥).

فالبُعد التاريخيّ للإسلام يضرب بجذوره بعيدًا؛ ليتّصل بالإبراهيميّة، دون مرور بالعصبيّات والاتجاهات الحصريّة القوميّة والعنصريّة ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا

مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (آل عمران: ٦٧)؛ فالإسلام هو الدين - كلّه- ذو البعد العالميّ، الذي يأخذ بأيدي الناس - كافَّة- باتجاه الجوهر الأصليّ للدين، متمثّلاً "بالحنيفيَّة الإبراهيميّة"؛ ليكون الدين - كلّه- لله وينتفي عن الدين ما يؤدّي إلى الصراع، بل يدخل المؤمنون في السِّلم كافّة: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (البقرة: ٢٠٨).



المسجد والإمام وخطب لا تُنسى

حاجة الناس إلى معرفة الأحكام الفقهيَّة لتصرُّفاتهم وأفعالهم وسائر شئون حياتهم، حاجة ملحة، تتراوح بين مستويات الضرورة والحاجة، وقد تنزل إلى مستوى دون ذلك، لكنّها تبقى في دائرة ما هو مطلوب، كالأمور التي يحتاجها الإنسان في أحوال دائمة أو طارئة، فكلٌ من الجنسين إذا ناهز البلوغ لا بد له من معرفة أحكام الغسل وموجباته، وكيفيّاته، وهي الأمور التي يبحثها الفقهاء عادة في "أبواب الطهارة من كتب الفقه"، وتترتب عليها أحكام أخرى، مثل: الطلاق، وحِل المعاشرة بين الزوجين وحرمتها، فهذا النوع من الفقهاء لا يستغني المجتمع عنه، ولا بد من وجود القادرين على تعليم تلك الأحكام، إذا لم تهتم نظم التعليم بإدخالها في البرامج التعليميَّة العامَّة؛ كي يعيش أبناء المجتمع حياة إسلاميَّة، في ممارساتهم اليوميَّة.

إنَّ كثيرًا من الكاتبين في المجالات الفكريَّة لا يرون الفقيه فقيهًا إلا إذا اهتم بقضايا السياسة، وتصدّر أروقة المعارضة الحزبيَّة، ولا شك أنَّ الفقيه واحد من متعلمي الأُمَّة، لا بد أن تكون له رؤية واهتمام في مختلف "قضايا الأمَّة"، ولكن ينبغي للفقيه أن يتذكر على الدوام أن "المسجد" مؤسَّسة عامّة، ينبغي أن يكون مثابةً وأمنًا لكل فصائله.

والإمام أو الفقيه مطالب بأن يذكّر نفسه - باستمرار- برسالة المسجد، ومسئـوليَّته عن المحـافظة على "حياد المسجد"، وجعله لله وحده، ولنفع الأمة كلّها، وأن ينأى بنفسه وبالمسجد أن يكون لفئة أو طائفة أو مذهب؛ لأن المساجد لله، فلا تدعوا مع الله أحدًا.

ولقد برزت ظواهر كثيرة في العقود الأخيرة، لم تُراعَ فيها أحكام المساجد، ولم يُلتفت فيها إلى رسالة المسجد، منها أنَّ بعضًا من أولئك الذين تبنّوا رؤى سياسيَّة، خاصة تلك التي تستند إلى مرجعيّة "الدين"، حيل بينهم وبين الوسائل الإعلاميَّة، وأدوات التعبير العامّة، فوجدوا في "المسجد" ميدانًا للتعبير الجزئيّ المحدود عن برامجهم، ومواقفهم السياسيّة والاجتماعيّة، فأخذوا يشرحون فيه أهدافهم السياسيَّة، وبرامجهم الفئويّة.

ولما أحسَّت الفئات الأخرى وبعض السلطات بذلك أخذت تضع قيودًا على المساجد، لم تكن تضعها من قبلُ، وربّما انتهك بعضهم حرمات المسجد، وتجاوز أحكامه، مما أحدث آثارًا سلبيَّة، أثّرت كثيرًا على رسالة المسجد، وبالمقابل لوحظ أن بعض الفئات في بعض ديار المسلمين بدأت تعمل على جعل المسجد ميدانًا لاستغلال الحاكمين، ونيل المدح والثناء على أفعالهم وما إلى ذلك. يا قومنا اتفقوا على ميثاق يجعل المساجد لله، وتعاونوا على المحافظة على رسالتها في خدمة الأمَّة كلّها- والمجتمع بكل فصائله.

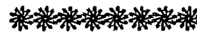
أمّا الخطبتان اللّتان لا أنساهما: فقد كانت إحداهما في أحد الجوامع الكبرى بالجزائر العاصمة، قبل ما يزيد عن عقد من السنين وكانت "الجبهة الإسلاميَّة للإنقاذ" تسعى للفوز بأغلبيَّة برلمانيَّة توصلها إلى السلطة، ارتقى الخطيب المنبر، وبدأ الخطبة، وبعد المقدمة شرع في الحديث عن "جبهة الإنقاذ" وبرامجها السياسيّة، انقضت الساعة الأولى والخطيب لم يتوقف، وبدأ الناس يتململون، ولكنهم يعرفون أنّ "من لغا فلا جمعة له" والخطيب مستفيد من هذا الحديث؛ لمنع المصلين من الإنكار عليه!.

ثم بدأت بعض الأصوات ترتفع، بعد مرور ما يزيد عن ساعة ونصف، والخطيب ماضٍ؛ حتى قام بعضهم للخروج من المسجد، وهنا قال الخطيب منفعلا: "ماذا نفعل؟، الحكومة لم تعطِنا أيَّة مساحة إعلاميّة لعرض برامجنا على الناخبين، وليس بين أيدينا سوى المساجد؛ فعليكم أن تصبروا علينا، ثم قال: "لكنّني أعدكم أنّنا بعد أن نفوز في الانتخابات، ونستلم السلطة، سوف نجعل خطبة الجمعة "زوز دقيقة" يعني دقيقتين!!، فهل ألام إذا لم أنسَ هذه الخطبة؟!.

أمّا الخطبة الثانية فكانت في مركز إسلاميّ كبير قريب من واشنطن، يرتاده عدد كبير من المسلمين، صعد أحد الخطباء المنبر، وكانت هناك واقعة اعتداء إسرائيلي في ذلك الأسبوع، فتحدث الخطيب عن إسرائيل واليهود، كما لو كان في بلد إسلامي معادٍ لإسرائيل، ونسي أنه يتحدث في أمريكا، أو جرّأه على قول ما قال تصوُّره أنَّ "الحريَّة" في البلاد مطلقة؛ فكانت خطبته مليئة بالحماس، والدعوة للثأر تحت شعار ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ مقطوعة عن سياقها، كان ذلك قبل ٩/١١، وبعد ٩/١١ إذا بهذا المركز يتعرض لعدوان عرّض أرواح مرتاديه للخطر. لولا لطف الله.

وأمثال هذه الخطب ما تزال تُستغَل للتنديد بالوجود الإسلامي في أمريكا، والغرب بصفة عامة، ودعوة شرائح المجتمعات الغربية وحكوماتها إلى إدراك خطر الوجود الإسلامي بينهم.

إن الذي يحفظ لمساجدنا حرمتها ومكانتها في الداخل والخارج هو الوعي "برسالة المسجد"، وتدعيمها، والمحافظة عليها، وعدم تعريض حرمتها ومكانتها في قلوب المسلمين - حكامًا ومحكومين- للاهتزاز والخطر.



الاجتهاد من ضيق الفقه إلى رحابة القرآن

كثيرون هم الذين تحدثوا عن الاجتهاد والتجديد، وكثيرون أبدأوا وأعادوا في كل منهما، وقل أن تجد كاتبًا ليس له في الاجتهاد أو التجديد كلمة. دعوة إليه، أو مناداة به، أو الاعتماد عليه في تفسير أسباب تراجعنا، أو وضعًا له بين شروط تقدمنا، ولكن القليل من هؤلاء التفتوا إلى الأسباب الحقيقية لتوقف حاسّة الاجتهاد في أمّتنا؛ ولذلك فقد وجدنا أن هذه الناحية هِيَ من أجدر النواحي بالتناول والمعالجة؛ إذ إن من المستحيل على الأمّة أن تمارس مَا لا تعرف. ولذلك فقد أعددنا هذه الدراسة، محاولين بيان أهم الأسباب التي أدت إلى احتواء حالة الاجتهاد في العقل المسلم، وصرفها عن وجهتها، والانحراف بها عن الطريق الَّذِي رسمه القرآن لها، مما أدى إلى تحول أمّتنا، بعد عقود قليلة من وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، إلى أمّة صدق عليها قول من قال: "إنها أمّة صارت تحمل بجملتها عقليّة عوامّ، ونفسيّة عبيد، وطبيعة قطيع"، منذ بدايات القرن الثاني والأمّة تتردى في تلك المهاوي؛ فالعوامّ والعبيد لا يمكن أن يمارسوا اجتهادًا، اللهم إلا في البحث عن الكلأ وملء البطون، وهذه أمور بينها وبين الاجتهاد مسافات شاسعة. ولذلك وجدنا الأمّة بعد ذلك التألق تفقد الدوافع لمعاناة الاجتهاد، إلا في مجالات محدّدة؛ ذلك لأنّ المسلم لم يعُد يجد ما يدفعه للتدبّر أو التفكر، وقد أسلم قياده إلى قيادات قبائليّة، كل مؤهلاتها انتماؤها إلى بيت من بيوت الشرف الأمويّ، أو العباسيّ، أو العثمانيّ فيما بعدُ؛ مما ساعد على تجهيل جماهير الناس، ودفعهم إلى تجنب المكابدة، إلا أفرادًا قلائل حاولوا تجاوز ذلك، وفي مجالات لم تتجاوز كثيرًا مجالات التدين.

وأمّا سواد الأمّة فقد أصاب قواها العقليّة الخمولُ، وضمرت طاقتها، واستسلمت للجهل والتهويل، بعبقريّات وجودها يغلب عليه الصنعة، فاستسلمت جمهرة الأمّة لتلك الحالة الشاذة، ومارست استقالة عقليّة، يعبر عنها بعض الشعراء بقوله:

والعيش خير في ظلال الـ

نوك ممن عاش كدًّا

فآثروا العيش في ظلال الاستقالة، واستبدلوا الاجتهاد إلى المجالات الفقهيّة خاصّة، وصار العالم هُوَ الفقيه، وحُصر الاجتهاد في الأطر الفرديّة، فشكل ذلك كارثة عقليّة ونفسيّة، شلت قوى التفكير، وأصابتها بالتوقف. تمت مصادرة الاجتهاد الَّذِي أراد الله أن يجعل منه حالة عقليّة ونفسيّة لأمّة الشهادة، لتلك القضايا الفرديّة، وحين برز الشافعيّ (رحمه الله)، كرس ذلك في رسالته الأصوليّة، بعد أن أكد حصر الاجتهاد في الجانب الفقهيّ، وأخرجه من الجانب الاستخلافيّ كلّه، عاد ليحصره

مرة أخرى بالقياس الأصوليّ وحده، فصار الاجتهاد عنده مرادفًا للقياس؛ فقال مَا لفظه: "والاجتهاد القياس"؛ فإذا علمنا أن رسالة الشافعيّ - وما طرح فيها من أفكار- بقيت مسيطرة على الاتجاهات الأصوليّة لمقلديه ومخالفيه، ندرك كيف تمت مصادرة هذه الآلية المنهجيّة "الاجتهاد"، وحصرها في أضيق الدوائر، طيلة قرون عديدة، هيَ القرون التي سيطرت فيها تلك الأفكار على العقليّة الإسلاميّة.

إنَّ دراستنا للاجتهاد كما عُرض في كتب الأصوليّين تساعد على بيان كيف جرت عمليّة مصادرة المفهوم، والاتجاه به نحو وجهة مغايرة لبناء عقليّة الأمّة الآمرة بالمعروف، الناهية عن المنكر، الوسط، الشاهدة على الناس؛ التي لا تغيب عن قضاياهم، والتي لا يمكن أن تتصف بكل هذه الصفات - على سبيل الحقيقة- بدون أن تكون أمّة يشكل الاجتهاد فيها ظاهرة عامّة؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، إن القرآن قدم للبشريّة بصائر لا تحصى، ولعلّ من أهمها أن جعل المعرفة - التي اشتمل القرآن عليها- معرفة شائعة، ينالها الناس على اختلاف مستوياتهم، ودون تقيد بمكان أو زمان.

فالناس يُصلّون بالقرآن أوقاتًا خمسة، ويذكرون الله به قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ويتعلمون من آياته مَا يتيحه الله لهم، ويتدبّرون فيه فيوجد بينهم علمًا ومعرفة وعواطف وثقافات بمستويات عديدة، لا يستطيع أيّ مصدر آخر أن يتيحها غير القرآن، والتقليد يذهب بهذه الفائدة، ويصادر ذلك النور؛ إذ إن المقلّدة لا يستطيعون أن يمارسوا تدبّرًا ولا تعقلا ولا تبصرًا، وبالتالي فلن يستطيعوا أن يكونوا بصائر تجعلهم مؤهلين للشهادة، كما أراد القرآن أن يؤسس لها، ويوجد أمّة يُتأسّى بها كما يُتأسى بالنبيّين؛ فمجرد تحويل دفة الاجتهاد إلى يد قلة من الفقهاء، لا يمارسونه إلا لاستنباط الفتاوى، وبيان الرأي في مسائل فقهيّة، انتهى دوره في بناء الأمة.

وجعل المجتمع الإسلاميّ يتحول من مجتمع شهادة، لا تمايز فيه، إلى أن يكون مجتمع نخبة ومجتمع عامّة؛ فأولو الأمر السياسيّ نخبة وهم الحكام، وأولو الأمر الفقهيّ نخبة، وفيهم ينحصر الفقه، وبقيّة الأمّة ليس لها إلا التقليد؛ وهو "قبول قول الغير بلا حجة"، وتبعيّة للحكام، وقبول مَا يقومون به، أو السكوت خوفًا من الفتنة، أو عدم الاعتراض عليهم وترك حسابهم لله، وكل ذلك انحراف لم يعُد يسمح لهذه الأمّة بممارسة عمليّة الشهادة والوسطية والخيرية.



الإسلاميون بين المصحف والسيف

كلمة "إسلاميّ" نسبة على غير قياس إلى الإسلام، وهى كلمة لم تَشِع ولم تنتشر في الصدر الأول، وبدأ تداولها أولا بين علماء الفرق، بعد فرقة المسلمين، وظهور المقالات والمذاهب والفرق والطوائف، وكأن علماء الفرق والمؤرخين لها حينما رأوا حدّة الاختلاف، والتعصب، ورجم كل من الفرق لمخالفيها بشتى الألقاب، ومنها ألقاب "البدعة والفسق والخروج عن الملّة والكفر"، أرادوا أن يشعروا جميع تلك الفرق المتناحرة، وسائر أصحاب المقالات، بأنهم – جميعًا- مهما اختلفوا فإن "عباءة الإسلام" الواسعة قادرة على ضمهم جميعًا في ثناياها، فلا داعي للتشبّث بالأسماء الخاصّة المميّزة الحادثة، لكل فرقة أو نحلة أو مقولة أو مذهب.

فكلكم إسلاميون في منطلقاتكم، وإسلاميون في غاياتكم، فلا ينبغي أن يكفر بعضكم بعضًا، ولذلك كتب الإمام أبو الحسن الأشعريّ كتابه المشهور "مقالات الإسلاميين".

أمّا في عصرنا هذا؛ فقد شاع استعمال مفهوم "الإسلاميّين" للإشارة إلى العناصر التي انخرطت في أعمال ونشاطات ذات صبغة سياسية، وصار يطلق عليهم "دعاة أو حملة الإسلام السياسيّ"، ويطلق عليهم الإعلاميّون لقب "الإسلاميين"، تميزًا لهم عن بقية الناس؛ الذين يحملون التسميّة القرآنيّة الإبراهيميّة: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٨)، وهى ترجمة حرفيّة لكلمة "Islamist" الإنكليزية، انطلاقًا من أنّ الإسلام يمثل مرجعًا "أيديولوجيًّا" لهؤلاء، في نظر الغربيين.

وأيًا كان الأمر؛ فإنّ الإسلام أكبر كثيرًا من كل تلك التصورات؛ فالإسلام دين الأنبياء كافةً، وأمّة الأنبياء أمّة واحدة بهذا الدين العالميّ، وبه واجه الأنبياء كافة مشاريع إبليس وجنده لإضلال البشرية، وإبعادها عن التوحيد النقيّ الخالص، والحيلولة دون عودة أي منهم إلى الجنة، بعد أن أخرج أبوي البشريّة منها.

"فالمرجعيّة الإسلاميّة" - في نظر البعض- يمكن اختزالها في برنامج سياسيّ أو اجتماعيّ محدود، لإقليم محدود، في إطار جغرافيّ بشريّ، فذلك يجعل أصحاب ذلك المشروع ينوءون بثقل ذلك المشروع، الأوسع والأكبر من قدراتهم، وسوف يجدون أنفسهم أمام أنواع هائلة من ضغوط الفهم والتأويل، والصيغ التطبيقية المختلفة، في واقع تاريخي متغيّر متنوع.

لكن المطلوب هو تجريد القيم القرآنيّة والإسلاميّة الكبرى، والعمل على تبنيّها، والاجتهاد في الآليّات والوسائل المتطورة لتحقيق تلك القيم؛ فهناك قيم "التوحيد، والتزكية، والعمران، والعدالة في التوزيع،

ودرء المفاسد، وتحقيق المصالح...إلخ"؛ فهذه القيم هي التي ينبغي أن تكون المرجعية، وهي التي ينبغى أن تجري توعية الناس بها، وقياس أداء الجميع إليها، حكامًا ومحكومين، إسلاميين وغيرهم. والمرجعية القـــــرآنية والإسلامية تصبح مصدرًا لايجاد الفاعلية لدى الأمة، وهي تحاول تنفيذ هذه القيم، وإحاطتها بسياج من الشرعية، يقلل من احتمالات انتهاكها، وتوحيد الأمة بها وحولها؛ إذ إن البديل عن ذلك هو التعلق بالشكليّات، وتوظيف فكر "المخارج والتحايل والحيل"؛ لتجنيد الجماهير حول مشروع ينتهي إلى تلك النهايات؛ التي حفل بها واقعنا التاريخيّ، وتاريخنا الحديث كذلك.

إن القرآن المجيد يحمل خطابا كونيًّا يحمل كل مواصفات وخصائص الخطاب الكونيّ؛ الذي يسع الكون وأزماته - كلّها-، ومشكلاته جميعها، إذ هو - وحدّه- المعادل للوجود الكونيّ وحركته، القادر على استيعاب مشكلاته وتجاوزها، وإخراج البشريّة - كلّها- من الظلمات إلى النور: ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: ١).

وحمّلة القرآن مطالبون أن يحملوا هذا القرآن إلى البشريّة، ويستوعبوا به سقفها المعرفيّ، ونسقها الثقافيّ، ويعالجون به أزماتها؛ ولذلك أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يجاهدهم به جهادًا كبيرًا: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٢).

أما السيف فله حديث آخر، والله (تعالى) الهادي إلى سواء السبيل.



درسٌ من الهجرة

الهجرة مفهوم صاغه القرآن المجيد بلسانه، وأثنى عليه ووقَّت له، ومهَّد له كثيرًا، وأعاد القرآن تنظيم الزمان ليُعطي لهذا الحدث العظيم أبعاده - كلَّها- فكأنَّ الله (تبارك وتعالى) أراد أن يُشعر البشريَّة كلَّها بأنَّها - ببعثة رسول الله وخاتم النبيّين محمد ﷺ- قد دخلت طورًا جديدًا، بل إنّها قد وُلدت من جديد، فمنطلق هذا الدين ومهبط الوحي كان الحرم، حيث أوَّل بيت وُضع للناس ببكة، والزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض.

أرأيت حين يكون لديك عدَّاد تُعيده إلى الصفر ليبدأ العدَّ من جديد كأنَّ شيئًا مماثلاً حدث عند بعثة خاتم النبيِّين ﷺ على مستوى الكون، قال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أنفسكم﴾ (التوبة: ٣٦)، فهناك تغيير في المكان، وتغيير في الزمان، وهناك إشارة إلى تغيير جذريٍّ إلى الأحسن والأفضل وإلى التي هي أقوم في الإنسان، فهذه الرسالة لم تقتصر على استبدال «جاهلية العرب» بالإسلام، بل فكَّكت العالم القديم - كلَّه- لتُعيد بناءه.

فكانت هناك إمبراطوريتان عظيمتان تتحكمان في مصير العالم، إمبراطورية فارس ودولتها وقيادتها الكسرويَّة المهيمنة على الشرق، تُقابلها إمبراطوريَّة الروم المهيمنة على الغرب، والمنتشرة في أصقاع كثيرة، منها بلاد الشام، فخلال وقت قصير حرَّر رسول الله ﷺ شبه الجزيرة العربيَّة من الجاهليّة والشرك وعبادة الأصنام، وتم تحرير العرب المَنَاذرة من سلطان الفرس، وحرَّر العرب الغساسنة من سلطان الروم، وهزَّ أركان الإمبراطوريَّتين، وضعضع قواعدهما؛ ليترك لخلفائه الراشدين من بعده استكمال عمليات تفكيك الإمبراطوريّتين، فتنتهي فارس، ولا تقوم لفارس الكسرويَّة قائمة بعد ذلك، وقد انتهت فارس بالفعل، وذابت في كيان الأُمَّة المسلمة، وأما الروم - وقد ألف العرب إطلاق كلمة الروم على الغرب وكل ما هو غربي- فكما ورد في صحيح مسلم عن الْمُسْتَوْرِدِ الْقُرَشِيِّ أنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ».

فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالاً أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ، وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ»، وأستطيع أن أُضيف إلى ما قاله عمرو بن العاص ﵁ ونحن نشهد ذلك الصراع التداوليَّ بيننا وبين الغرب: إن الفرس كانوا من الشعوب الأُميَّة حضارتهم على ضخامتها لم تكرّسها نبوة، ولم تُعطها النسيج الذي يُعزز وجودها

وكيانها، ويفتح أمامها الآفاق المختلفة، فكانت عملية استيعابها في الإسلام من قِبل المسلمين ميسَّرة، كسائر الشعوب الأُميّة.

أما الإمبراطوريَّة الرومانيَّة والدولة البيزنطيَّة فهي كيانات اعتمدت على إرثٍ حضاريٍّ، وعصبيَّة دينيَّة تمثلت في النصرانيَّة، جعلتها تستعصي على الإذابة والاستيعاب، بحيث تبقى عنصر تحدٍّ للإسلام والمسلمين يحفّزهم إلى اليقظة الدائمة والتوتر المستمر لئلا يتراخوا ويتّكلوا وينغمسوا في مظاهر الحضارة والدعة والسكون، ويتركوا الدعوة، ويفقدوا روح المبادرة، فينتهوا إلى ما انتهوا إليه، فهل نستطيع اليوم أن نأخذ الدرس والعبرة من الهجرة؟!.

ونستعيد حيويّتنا وطاقاتنا، ونعلم أننا أُمَّة رسالة، وأُمَّة لا بد لها أن تكون في موضع القطبيَّة إن تمسّكت بمقومات وجودها، وفي مقدّمتها الكتاب الكريم، أو الانسحاق تحت أقدام الغازي المتحدِّي؛ الذي سوف تستمر الحياة سجالاً بيننا وبينه، خاصّةً بعد أن تقدَّم علينا في المجالات التقنيَّة بقرون، ولم يعد من السهل علينا الوصول إلى مستواه في هذا المجال؛ فهناك مَن يقدِّر المسافة الزمنيَّة بيننا وبينه بستة قرون، وهناك من يقدّرها بأقل من ذلك بكثير أو قليل، فيبقى ميدان السباق بيننا وبينه منحصرًا في استحياء قدرتنا الرساليَّة على استيعاب الأُمم برسالة الإسلام، واستقبالها وهي تُقبِل على دين الله أفواجًا؛ إذ إنَّه لا سبيل إلى تصحيح الأوضاع وتحقيق أهداف الحق من الخلق، ودخول الناس في السلم كافّة، بالدخول في مسابقات للقوة أو محاولات، فشلت أو نجحت.

لا شيء يمنع من أن يستمر بعض العلماء بمحاولة فهم التقنيَّة وتفكيكها، لكنَّ الواجب يقضي بضرورة القيام بواجب إيصال الرسالة العالميَّة الخاتمة إلى الناس جميعًا، واستيعابهم بها، مهما كان مستوى تقدُّمهم العلميّ والتقنيّ، وإدخالهم وضمّهم إلى أُمَّة الإجابة بوسائل الدعوة، فإنَّ المسلمين لن يسَعوا الناس اليوم بقوّتهم مهما كانت فليسَعوهم بدعوتهم.



مفاهيم الإصلاح والتجديد

ما داهمت الأمة مصيبة إلا والتفتت إلى المؤسسات التي لا تزال تحمل عنوانًا تمثيليًّا لها، مثل الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي، تستصرخها، فإذا لم تجد لاستغاثاتها صدى، صبّت جام غضبها على تلك المؤسسات، وعلى القائمين عليها، ونادت بحلّها، وطيّ صفحتها، فما دلالات ذلك؟، وما الجدوى منه؟.

الحقيقة أنه لم يكن منتظرًا من مجموع دول تابعة ضعيفة أن تلد كيانًا دوليًّا عملاقًا، ففاقد الشيء لا يعطيه، لا سيما وأن موازين القوة الدولية مختلة لصالح القوى الغربية، منذ قرنين على الأقل، وكان من ثمار ذلك هدم آخر شكل للوحدة الإسلامية السياسية (١٩٢٤)م، وتمزيق شمل المسلمين، وفرض التجزئة على القلب العربي للجسم الإسلامي، وحراسة تلك التجزئة بقوة الأساطيل، وبأنظمة يغلب عليها الفساد والعزلة عن شعوبها، تولت القوى الغربية دعمها وتسليطها على شعوبها؛ للقيام بمهمة الوكيل على حراسة المصالح الغربية في عالم الإسلام، وقمع كل توجه لدى تلك الشعوب صوبَ نهوضٍ حقيقي، يتأسس على إحياء مقومات الشخصية الإسلامية، واستعادة الوحدة المغتالة؛ فذلك خط أحمر، دونه خرط القتاد.

وتأبيدًا لهذه التجزئة تم تصدير نموذج الدولة القطرية إلى العالم الإسلامي؛ لتقويض كل توجه صوب الوحدة مجددًا، فتم استيراد وترسيخ مفاهيم جديدة للأمة، على أنقاض المفهوم الإسلامي الجامع، تم تأثيث فراغاتها بتواريخ وثقافات وأمجاد مستمدة خاصة مما قبل الإسلام، آشوريين وفنيقيين وفراعنة.. غير مترددين حتى في اختلاق تلك التواريخ؛ لملء فراغات الأمة المستحدثة.. التونسية والمغربية والقطرية والسودانية.. لها رموزها وراياتها وتاريخها الخاص بها، وحتى إسلامها ورزناماتها للأعياد الدينية..!!.

إلا أنه مع كل الجهود التي بُذِلت من قوى التبعية والتخريب داخل عالم الإسلام، مدعومة بالقوى الأجنبية؛ لاجتثاث مفهوم الأمة الجامع - أمة العرب والمسلمين- من القلوب، وزرع المفاهيم القطرية المستحدثة للأمة بديلا، لا يزال العرب والمسلمون ينظرون إلى أنفسهم أنهم أمة واحدة، تخترق كلَّ الجدران المصطنعة، مهما سمقت أو غاصت في أعماق الأرض، ويشتد ويتأجج ذلك الشعور بالانتماء إلى جسم واحد، خاصة كلما داهمت المصائب قطرًا من أقطار الأمة، فترى الأمة وكأن ما يحدث في البوسنة أو الشيشان أو غزة أو كشمير أو التركستان يحدث في كل بيت مسلم، وليس في دولة وأمة أخرى.

وذلك هو الذي حدث مثلا سنة ١٩٦٩م، عندما أقدم الصهاينة - بعد احتلالهم القدس- على إحراق

المسجد الاقصى المبارك، فانتفض عالم الإسلام وكأنه جسم واحد، الأمر الذي حرك جلاميد الصخر الحاكمة، واضطرها إلى الاجتماع، وتأسيس رمز للوحدة الإسلامية "منظمة المؤتمر الإسلامي".

ولأنها منظمة تترجم إرادة حكومات، لا تترجم هي بدورها شعوبها، إلا بشكل جزئي جدًّا، فكذلك هي المنظمة، وإن عبَّرت عن أشواق شعوب أمتنا إلى الوحدة فهي عاجزة أن يكون ذلك التعبير حارًّا قويًّا سريعًا، كما يعتمل في أفئدة الشعوب، ولذلك لم تفعل تلك المنظمة شيئًا مذكورًا، في القضية التي تأسست من أجلها، قضية القدس، ولا كان فعل اللجنة المنبثقة عن هذه المنظمة "لجنة القدس" فعلا مشهودًا، يوقف المخطط الصهيوني؛ الذي يجري على قدم وساق لتهويد القدس، والاستيلاء على المسجد المبارك، تمهيدًا لهدمه أو اقتسامه؛ لزرع أسطورة هيكل مزعوم على أنقاضه.

بل إن رئيس لجنة القدس كان إسهامه في عملية التطبيع الغاصب كاملا غير منقوص، وليس ذلك وحسب، بل إن أعظم دول العرب التي كان معولا عليها قيادة الأمة لتحرير فلسطين، ورد الهجمة الغربية الجديدة، كما فعلت أيام الصليبيين والتتر، هي أول المتخاذلين "ولا تكونوا أول كافر به"، بما فتح أبوابًا للشر على الأمة، وأبوابًا للتمدد الصهيوني في المنطقة والعالم.



فروض الأمة

لعلماء أصول الفقه مصطلحات دقيقة، إلا أنَّ بعض تلك المصطلحات كانت لها ظلال سلبية. ومن تلك المصطلحات "فروض الكفايات"، وقد نجمت الظلال السلبيَّة عن هذا المفهوم حين فسر المصطلح بكونه: "الفروض التي إذا قام بها البعض سقطت عن الباقين"، ومثَّلوا لها بصلاة الجنازة، وقد أدَّى هذا التعريف إلى التواكل؛ لأنَّ كل واحد يرى أن الآخرين سوف يفعلون ذلك الأمر، والحق أن هذه الفروض لا تتعلق بالأعيان والأشخاص، بل تتعلق بالأمة بوصفها شخصيَّة معنويَّة؛ ولذلك فإنَّ هذه الفروض إذا قامت بها الأمة - ممثلة في بعض أبنائها- أجزأ ذلك، ورفع عنها الإثم، وكسب القائمون بذلك ثواب تلك الفريضة.

ومن هذه الفرائض الكفائيَّة ما لا يقوم بناء الأمة إلا بها؛ نحو أن يكون في الأمة أطباء وممرضون ومهندسون وصيادلة وعلماء في سائر فنون الحياة، ومتخصصون في الكهرباء والميكانيكا والحدادة والنجارة وقيادة السيارات والطائرات، وإتقان الصناعات النافعة على اختلافها، والفلاحون القادرون على زراعة الأرض، والمهندسون الزراعيون، والعلماء القادرون على مقاومة الآفات الزراعية، والمهندسون الذين يبنون الجسور والقناطر، ويعبِّدون الطرق.

فهذه الأمور كلها تُعدُّ من فروض الأمَّة، ولذلك فعلى الأمَّة أن توفِّر من أبنائها من يقوم بكل هذه الكفاءات والمهارات، فإذا خلت أقطارها من هؤلاء فإنَّ الأمة تكون مسئولة وآثمة - كلها- أمام الله تعالى؛ لأنَّها لم توفِّر القادرين على سدِّ هذه الثغور، كما لو أنَّها لم تبنِ المساجد التي تُرفع لله ويُذكر فيها اسمه، والمدارس التي يتعلم الناس فيها - باسم ربهم- القراءة والكتابة والحساب، وسائر العلوم والفنون النافعة.

ولقد نصَّ كثير من فقهائنا على وجوب الهجرة من البلاد التي لا تتوافر فيها المستشفيات والأطباء والمهندسون والبنَّاءُون والقضاة؛ لأنَّها لا تتوافر فيها شروط العمران، ويتعرَّض الإنسان فيها للخطر، والبلدان التي تقصِّر في توفير ضروريات الحياة للذين يعيشون فيها يُعدُّ ساكنوها مسئولين مسئوليَّة تضامنيَّة أمام الله حتى يوفروا هذه الاحتياجات.

ومن المؤسف أنَّ كثيرًا من بلدان المسلمين تعتمد - في غذائها وكسائها وضرورياتها- على أقطار أخرى، مع وفرة الأرض والمياه والأموال والطاقات البشرية... إلخ، فقط لو وُجد الوعي الكافي، والتضامن اللازم، والإرادة لدى تلك الشعوب لإنجاز هذه المشروعات الضرورية لأمكن سد تلك الثغرة، وما أجمل ما قاله فقهاؤنا في تقسيم هذه الاحتياجات إلى "ضروريَّات وحاجيَّات وتحسينيَّات"، فإذا تعلَّقت الحاجة بواحد من الضروريَّات، فإنَّ مسئولية الأمة تكون مسئولية مضاعفة، والإثم عن التفريط يكون كبيرًا.

إنَّ العبادة مفهوم شامل، يبدأ بـ"لا إله إلا الله محمد رسول الله" ولا ينتهي إلا بإماطة الأذى عن الطريق، وتنظيف الشوارع، وتطهير البيئة أطعمةً ومياهًا وهواءً وزرعًا وضرعًا، فليت المسلمين ينتبهون ويلتفتون إلى هذه الأمور، وينظرون إليها على أنَّها أمور تندرج في "مفهوم العبادة".

إنَّ "الحسَّ الحضاريّ" جزء لا ينفصل عن "الحسِّ الإيمانيِّ"، و"الجمع بين القراءتين" أول الوحي وبدايته، ومن لا يجمع بينهما فإنَّه ينظر بعين واحدة ويعطِّل عينًا أخرى: (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (الزخرف:٣٦).

وليت الفضائيات - التي تشغل الناس بالفنون الهابطة، والدعوة إلى الخرافة، والترويج للشعوذة- توجِّه عنايتها، أو شيئًا منها، إلى التوعية بـ"فروض الأمَّة"، والدعوة إلى إحيائها، والترويج لها، والحضِّ على القيام بها!!

لقد أُقنعت شعوب الأرض- في فترة وجيزة- أنَّ "الانتصارات الرياضيَّة" في الملاعب هي بمثابة "الانتصارات القوميَّة"، تُدَقُّ لها الطبول، وتُرفرف على صانعيها البنود، فماذا لو علَّمنا الناس أنَّ الانتصار على مرض من الأمراض، أو تحقيق الكفاية في سلعة ضروريَّة - مثل القمح أو القطن- انتصار قوميٌّ، وكرَّمنا مَنْ يحققون إنجازات في هذه المجالات تكريمًا مثل تكريمنا للاعبين البارزين؟!

ألا يدفع ذلك الآلاف إلى الالتفات إلى هذه الفرائض والعناية بها؟ وإعطائها ما هي جديرة به من الاهتمام؟!! لعلَّ الإعلام والتعليم يصنعان شيئًا في هذا المجال، قبل أن نتحول - رغم ثرواتنا وإمكاناتنا كلِّها- إلى شعوب من المتسوِّلين العالميِّين، وبذلك نحفظ كراماتنا وماء وجوهنا، ليت... ليت!!



الهزائم النفسية

المحترفون في الحروب النفسيَّة إذا أرادوا هزيمة أحد نفسيًّا، فإنَّ الأمر قد لا يُكلِّفهم سوى إعداد قائمة طويلة بأسماء وعناوين وقائع أو أحداث أو معلومات أو إمكانات من أيِّ نوع كانت؛ لينزلوا بها على دماغه كالمطارق، في صيغة أسئلة لا يملك أن يُجيب عنها إلا بـ"لا"، فقد يأتي أحدهم إلى إنسان ناجح، فيقول له مثلا: هل تستطيع أن تطير؟ والجواب: لا، هل تستطيع أن تعبر المحيط الأطلسي سباحة؟ لا، هل تستطيع أن ترقى في السماء؟ لا، هل تستطيع أن تنقل جبال الألب، وتجعلها في جنوب السودان مثلا؟ لا، هل تستطيع أن تقيم دولة في القمر؟ لا؛ وتستمرُّ الأسئلة تضرب دماغه بهذا الشكل، حتى يقتنع بأنَّه لا يقدر على شيء، ويُسيطر عليه الإحساس بالكآبة القائمة على الشعور بعدم القدرة على إنجاز شيء.

قد يكون عالمًا متخصصًا في مجال معيَّن، مبرَّزًا فيه، ولكنَّهم لا يذكرون ما يحسنه بل ما لا يحسنه، فقد يكون "آينشتاين" عالم زمانه في الفيزياء، فتسأله: هل تتقن علم اللاهوت؟ هل تعرف الشريعة الإسلامية؟ هل تستطيع أن تمارس الاجتهاد لاستنباط أحكام فقهية؟ أتعرف كيف تصنع حاملة الطائرات في مستوى "إنتربرايز"؟ أتستطيع أن تنتمي إلى القبيلة الفلانية؟ أتستطيع أن تضع حدًّا للصراع العربيِّ الإسرائيليِّ؟ أتستطيع أن تحمل طالبان والقاعدة على أن يتحوَّلوا إلى مجرد فرق رياضية أو كشفية تمارس المسابقات الرياضية والمعسكرات الكشفية؟ وتستمر في طرح أسئلة من هذا النوع على ذلك العبقريِّ حتى يشعر بالعجز، ويقتنع بالهزيمة، ويُصاب بالإحباط.

ذلك بعض ما أشار إليه المعلم الأول "أرسطو" في فن "الخطابة"، وكيفيَّة إقناع عُشَّاق العسل بأنَّه مجرد طعام مقرف، مؤلَّف من فضلات دبابير، أو يُقنع العازفين عنه وغير الراغبين به بأنَّه العسل المصفى، والشهد والرحيق، يشفي الأمراض، ويُزيل العلل، ويغذِّي البدن، ويقضي على الأمراض وما إلى ذلك... ويبدو أنَّ المسلمين يتعرَّضون اليوم - بمهارة شديدة- لعملية تكريس الهزيمة النفسيَّة، وتدمير كل ما بقي لهم من حصون العزة والكرامة.

ولذلك فإنَّ مئات، بل آلاف الأسئلة كل يوم تسقط على أدمغتهم، وكأنَّها شواكيش أو مطارق تضرب العقل المسلم، ليُقال له: هل لديك ديمقراطية؟ هل لديك حرية؟ هل تراعي حقوق الإنسان؟ هل تكفيك مواردك؟ هل تستطيع أن تأكل من كدِّ يدك، وتلبس من صناعة بلدك وأقطان وطنك وأصوافها وأوبارها وأشعارها؟ هل تستطيع صناعة أدويتك؟ هل تستطيع أن تلبِّي احتياجاتك؟ هل تستطيع أن تصنع أسلحتك؟ هل تستطيع أن تحمي سمعة دينك؟ هل تُعطي المرأة حقوقها؟ هل أقمت مجتمع الكفاية والعدل؟ هل القيم التي تُنادي بها لها في واقعك وجود؟ هل تستطيع أن تستغني عن الغير؟ كل هذه الأسئلة وآلاف غيرها

تساقط - صباح مساء- من الفضائيات والصحافة ووسائل الإعلام المختلفة على رأس هذا العربي المسلم، بحيث لا يملك إلا أن ينهزم نفسيًا، ويشعر بكم هائل من الإحباط لا يسمح له بالتفكير أو بالنهوض. والإسلام احتاط لهذه الحالة ووضع لها العلاج، فإذا أصاب طائفة من المؤمنين هزيمةٌ فإنَّ القرآن المجيد يرفع عنهم الإحساس بمرارة ذلك بقوله: (إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ) (النساء: ١٠٤)، فيُبَيِّن ميزة ترفع ذلك المقروح إلى مستوى المتفوِّق على من تسبَّب في هزيمته أو في جرحه، ويقول: (إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ) (الأنفال: ٦٥)، وبهذا المنهج الربانيّ يُعيد إلى عباد الله الصالحين حالة التوازن النفسيِّ، ويُبيِّن لهم ما يمتازون به عن أعدائهم وخصومهم، فتنمو قدراتهم وتتفجر طاقاتهم، ويدركون ما لهم من مزايا على خصومهم وأعدائهم، ويواصلون السير.

ولذلك فإنَّ الوضع الراهن لأمتنا يقتضي من خطباء المساجد والدعاة والواعظين والإعلاميين والمعلمين أن يحافظوا على ما قد يكون بقي للأمة من ثقة بنفسها وبأمتها وطاقتها، فإنَّ جراحات الشعور قد بلغت المدى، وأفقدتها الثقة في نفسها والإحساس بأيِّة قدرة على العودة إلى فاعليتها وطاقتها، وإذا استمرَّت هذه الحالة فقد تصبح الدعوة إلى النهوض مدعاة للسخريَّة؛ لأنَّ الأمَّة تكون قد فقدت فاعليَّتها كلها، وسقطت دافعيَّتُها تمامًا لا سمح الله.

ونسأله - تعالى- لهذه الأمَّة المحمديَّة الرحمة... إنَّه سميع مجيب.



العلوُّ الكبير

لا أحد يجهل "العلوَّ" باعتباره مفردة لغويَّة من المفردات المعبِّرة عن الجهة، فهناك الجهات التي عُرفت بـ"الجهات الست"؛ (أمام، خلف، يمين، يسار، فوق، تحت)، و"العلوُّ" تعبير عن "الفوقيَّة"، وهذه الفوقيَّة قد تكون ماديَّة حسيَّة، وقد تكون معنويَّة نفسيَّة.

ولكنَّ "علا" أكثر استعمالا في الأجسام والأماكن: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾(الإنسان:٢١)، وهناك علوٌّ محمود، وهو قليل: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٩)، و"علوٌّ" أو "استعلاء" مذموم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص:٨٣).

وقد أخبر الله (سبحانه وتعالى) بني إسرائيل - وهو العليم بعباده واستعدادهم للإصلاح والإفساد- أنَّهم سيُفسدون في الأرض مرتين؛ أي: شهيرتين وعامَّتين؛ ذلك لأنَّهم أفسدوا قبل المرتين وبعدهما مرات؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ (الإسراء: ٨)، ولكنه (سبحانه) قد قرن ذكر المرتين بقوله: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٤)، فما هو هذا العلوُّ الكبير الذي وُعدوا به؟!

"العلوُّ الكبير" يكمن في قدرة فكريَّة وعقليَّة ونفسيَّة وثقافيَّة، يستطيعون توظيفها بكفاءة عالية في تسخير الظروف الواقعيَّة والموضوعيَّة - مهما كانت- وفقًا لرؤيتهم وأهدافهم المحدَّدة سابقًا بشكل دقيق، ونستطيع أن نعبر بعبارة مستمدة من القرآن المجيد، فنقول: قدرة على توظيف السنن والقوانين الكونيَّة والاجتماعيَّة، بل توظيف الاتجاهات الفرديَّة - أيضًا- لتكون طوع أيديهم في تحقيق أهدافهم.

إنَّ مما لا شك فيه أنَّ العرب يملكون من الإمكانات الماديَّة أضعاف ما يملك الآخرون، ولكنَّهم لا يملكون ذلك الحسَّ الذي ذكرنا.

إنَّ الثقافة العبرانيَّة القديمة فيها ما أُحبُّ تسميته بـ"الفقه البقريِّ" نسبة إلى البقرة، وفقه وفكر "العجل الجسد الذي له خوار"، وفقه "المخارج والحيل"، وفقه "اللُّهاث أو الإصرار الذي لا يتوقف"، وهذه الأمور - وكثير غيرها- ممَّا نجده في التوراة والتلمود والمشناة وسواها من مصادرهم الدينيَّة، قد ينظر إليها مفكرونا المحدثون الحداثيُّون على أنَّها نوع من "الخيال الشعبيِّ المندثر".

أمَّا أنا فأراها - بفضل "نور القرآن"- ماثلةً شاخصةً أمامي، لا تزال تشكِّل دعائم أساسية لثقافتهم، فالذين فُتنوا وأضلهم السامري بعجل ذهبيٍّ فارغ من داخله، لا يملك إلا المظهر اللامع الذهبيِّ، و"الخوار" الذي تُحدثه الريح في الأجساد الفارغة، قرَّر قادة الصهيونيَّة أن يجعلوه نموذجًا لـ"عالم اليوم" ليتحكَّموا فيه؛ فالعالم اليوم — بالعولمة، والديمقراطيَّة الزائفة، والاقتصاد الحر أو المقيَّد، والشرعيَّة الدوليَّة، وما

إليها من موضوعات "الخوار لا الحوار"- لا يعدو أن يكون "عجلاً جسدًا له خوار" بما ذكر، فمظهره ذهبيٌّ خلاب برَّاق، يكاد يأخذ الأبصار والألباب.

وأجهزة الإعلام العملاقة تقوم بعمليَّة "الخوار" الذي لا ينقطع؛ لتجعل من الإنسان حيوانًا إعلاميًّا يستهلك الإعلام طاقاته، يفرِّغه ويملؤه بما يشاء.

لقد تحوَّلت الشعوب - في ظل ثقافة "العجل الجسد"- إلى قطعان من الأفراد لا تستطيع بناء علاقاتها، ولا المحافظة على خصوصيَّاتها، ولا إعادة بناء هويَّاتها.

لقد استطاعوا تحويل حدث تاريخيٍّ سلبيٍّ - أدى بهم إلى "الردَّة الجماعيَّة"- إلى نموذج مكَّنهم من بناء خطط وإستراتيجيَّات ومؤسَّسات؛ ليكون العالم - كلّه- أقل منهم، بحيث يعبد عجلا وهميًّا بنَوه هم - وفق نموذج السامريِّ- في خيال العالم إعلاميًّا، أمَّا هم فقد عبدوا عجلاً ذهبيًّا جسدًا له خوار، استعمل السامريُّ فيه أمانات المصريين من الذهب ليجعل منه العجل الشهير.

فمتى نتمكَّن - وخاصة أولئك الذين يجلسون في مواقع إدارة معركتنا مع أصحاب العجل- من دراسة عقليَّاتهم ونفسيَّاتهم بعمق؟، ومعرفة ثقافتهم الموروثة، وتأثيراتها الشديدة في إدارتهم للصراع مع سائر أمم الأرض؟، ومتى يستطيع المسلمون أن يخرجوا من حالة "الغثائيَّة" التي يترنَّحون فيها؛ ليتمكَّنوا من فرض احترامهم على العالم، وتوظيف إمكاناتهم الهائلة لصالح عمليَّات الصراع مع الآخر؛ ليتمكنوا - آنذاك- من القيام "بالحوار المتكافئ" لا "بالخوار".

نسأل الله أن يُهيِّء لهذه الأمة أمر رشد، إنَّه سميع مجيب.



د.أحمد الريسوني

فقيه أصولي ومفكر إسلامي مغربي.



العمل الإسلامي بين المؤسسية العامة والمبادرة الخاصة

مما لا يخفى على أحد، أن العمل الإصلاحي والدعوي في إطار الجماعات المنضبطة، له قوته ووزنه وتأثيره الكبير، في تحقيق الأهداف المتوخاة. كما أن له من الصلابة والقدرة على الصمود في وجه الزوابع والأعاصير المضادة، ما ليس للأعمال الصغيرة والمحدودة أو الفردية. بل إن العمل في إطار التنظيم وضمن انتماء تنظيمي، يجعل حتى الأفراد - في ذاتهم- أكثر عطاء، وأكثر قدرة على التحمل، وعلى الأداء المنتظم الطويل الأمد.

فهذه كلها أمور معلومة، ولا غبار عليها. ولكن أيضًا، لا ينكر أن للتنظيم الإداري آفاته المتعددة.

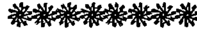
ولذلك نجد كثيرًا من الناس، حين تكثر معاناتهم مع التنظيم وآفاته وسلبياته، ينسلخون منه، ويعتنقون مذهب الحرية والعفوية واللا تنظيم، ويجدون في هذا المذهب راحة وطلاقة في العمل. وليس هذا - كما قد يظن- خاصًا بمن يستثقلون التكاليف، ويضجرون من الانضباط، ويتخوفون من الابتلاءات، بل يقع هذا حتى لبعض أولي العزم، والبذل والصبر. وقد وصل الأمر ببعض الدعاة، وحتى ببعض القياديين السابقين في حركات إسلامية، إلى حد الدعوة إلى التخلي كلية عن المؤسسية ، باعتبار أن ذلك هو ما يضمن لنا تحرير العمل الإسلامي من القوالب، والقيود، والتبعات التنظيمية، ويحقق تخليصه من الآفات الحزبية الطائفية، ويخرجه من حلبة المنافسات والصراعات السياسية، ويزيح من طريقه العديد من العوائق والتحديات.

فهل الأصوب والأجدى هو القبول والتمسك بالتنظيم وبالعمل التنظيمي، على عِلَّاته وسلبياته، حرصاً على مردوديته الكبيرة وفوائده الأكيدة؟ وهل التنظيم الإداري .. ضرورة لا بد منها، أم هو خيار من بين الخيارات الممكنة؟ وهل البدائل المفترضة أو حتى المجربة تغني تمامًا عنه؟

وهل هذه الصيغ والأساليب البديلة المقترحة، بريئة من الآفات والسلبيات التنظيمية، ومستعصية عنها أو عما يماثلها أو يفوقها؟ أم هي أيضًا لها آفاتها وسلبياتها؟ الخيار الثالث والرابع: تناوُل القضية على النحو السابق يوهم أننا أمام خيارين لا ثالث لهما، وعلينا أن نوازن بينهما ونختار أحدهما.

وهذا النوع من الوهم يعد من أكثر المزالق - أو المضايق - التي يقع فيها كثير من الناس، في تفكيرهم وتدبيرهم للأمور. وأنا أقول: إن القضايا العملية، وأكثر القضايا النظرية، لا يمكن ولا يصح حصرها بين "خيارين لا ثالث لهما"، بل هي دائمًا لها خيار ثالث ورابع، وربما أكثر. فإذا تقرر أن العمل من خلال الجماعات والحركات المنظمة، له ما له من أهمية قصوى ومردودية كبرى، وأنه الأشبه بوحدة المسلمين والأقرب إليها، ولو نسبيًّا، يبقى أن نجيب على سؤالين: الأول: هل العمل الدعوي والإصلاحي على هذا

النمط، أضراره وسلبياته على الإسلام والمسلمين أكثر وأكبر، أم منافعه وإيجابياته أكبر وأكثر؟ الثاني: هل الآفات والسلبيات التي تكتنف الجماعات والتنظيمات، لازمة لها لزومًا ذاتيًّا وحتميًّا، أم هي ككل العلل والأمراض والأخطاء، قابلة للتلافي والعلاج؟ فمن يرون - افتراضًا - أن هذه الجماعات والحركات ضررها أكبر من نفعها، وأن عيوبها وآفاتها غير قابلة للعلاج، فهؤلاء قد حُقَّ لهم أن يتركوا هذا النهج إلى ما هو خير منه. وأما إذا رأينا الأمور على حقيقتها وطبيعتها، واعترفنا أن هذه الآفات والمساوئ العرضية، لا تساوي ولا تداني المصالح والمحاسن والمنجزات، وأن كثيرًا من هذه المصالح والمحاسن والمكاسب، لا يمكن تحقيقها وصيانتها إلا على هذا النحو، وأن العيوب والآفات هي دائمًا قابلة للتلافي والعلاج والتخفيف، فالرجحان واضح والخيار لائح. وهنا يأتي الخيار الثالث والرابع... فإلى العدد المقبل إن شاء الله تعالى.



الآفات المؤسسية والخيارات الممكنة

مما لا يخفى على أحد، أن العمل الإصلاحي والدعوي في إطار الجماعات المنضبطة، له قوته ووزنه وتأثيره الكبير، في تحقيق الأهداف المتوخاة. كما أن له من الصلابة والقدرة على الصمود في وجه الزوابع والأعاصير المضادة، ما ليس للأعمال الصغيرة والمحدودة أو الفردية. بل إن العمل في إطار التنظيم وضمن انتماء تنظيمي، يجعل حتى الأفراد - في ذاتهم- أكثر عطاء، وأكثر قدرة على التحمل، وعلى الأداء المنتظم الطويل الأمد. فهذه كلها أمور معلومة، ولا غبار عليها. ولكن أيضًا، لا ينكر أن للتنظيم الإداري آفاته المتعددة. ولذلك نجد كثيرًا من الناس، حين تكثر معاناتهم مع التنظيم وآفاته وسلبياته، ينسلخون منه، ويعتنقون مذهب الحرية والعفوية واللا تنظيم، ويجدون في هذا المذهب راحة وطلاقة في العمل. وليس هذا - كما قد يظن- خاصًا بمن يستثقلون التكاليف، ويضجرون من الانضباط، ويتخوفون من الابتلاءات، بل يقع هذا حتى لبعض أولي العزم، والبذل والصبر. وقد وصل الأمر ببعض الدعاة، وحتى ببعض القياديين السابقين في حركات إسلامية، إلى حد الدعوة إلى التخلي كلية عن المؤسسية ، باعتبار أن ذلك هو ما يضمن لنا تحرير العمل الإسلامي من القوالب، والقيود، والتبعات التنظيمية، ويحقق تخليصه من الآفات الحزبية الطائفية، ويخرجه من حلبة المنافسات والصراعات السياسية، ويزيح من طريقه العديد من العوائق والتحديات.

فهل الأصوب والأجدى هو القبول والتمسك بالتنظيم وبالعمل التنظيمي، على علاته وسلبياته، حرصاً على مردوديته الكبيرة وفوائده الأكيدة؟ وهل التنظيم الإداري .. ضرورة لا بد منها، أم هو خيار من بين الخيارات الممكنة؟ وهل البدائل المفترضة أو حتى المجربة تغني تمامًا عنه؟ وهل هذه الصيغ والأساليب البديلة المقترحة، بريئة من الآفات والسلبيات التنظيمية، ومستعصية عنها أو عما يماثلها أو يفوقها؟ أم هي أيضًا لها آفاتها وسلبياتها؟ الخيار الثالث والرابع: تناولُ القضية على النحو السابق يوهم أننا أمام خيارين لا ثالث لهما، وعلينا أن نوازن بينهما ونختار أحدهما. وهذا النوع من الوهم يعد من أكثر المزالق - أو المضايق - التي يقع فيها كثير من الناس، في تفكيرهم وتدبيرهم للأمور. وأنا أقول: إن القضايا العملية، وأكثر القضايا النظرية، لا يمكن ولا يصح حصرها بين "خيارين لا ثالث لهما"، بل هي دائمًا لها خيار ثالث ورابع، وربما أكثر. فإذا تقرر أن العمل من خلال الجماعات والحركات المنظمة، له ما له من أهمية قصوى ومردودية كبرى، وأنه الأشبه بوحدة المسلمين والأقرب إليها، ولو نسبيًا، يبقى أن نجيب على سؤالين: الأول: هل العمل الدعوي والإصلاحي على هذا النمط، أضراره وسلبياته على الإسلام والمسلمين أكثر وأكبر، أم منافعه وإيجابياته أكبر وأكثر؟ الثاني: هل الآفات والسلبيات التي

تكتنف الجماعات والتنظيمات، لازمة لها لزومًا ذاتيًا وحتميًا، أم هي ككل العِلل والأمراض والأخطاء، قابلة للتلافي والعلاج؟ فمن يرون - افتراضًا - أن هذه الجماعات والحركات ضررها أكبر من نفعها، وأن عيوبها وآفاتها غير قابلة للعلاج، فهؤلاء قد حُقَّ لهم أن يتركوا هذا النهج إلى ما هو خير منه. وأما إذا رأينا الأمور على حقيقتها وطبيعتها، واعترفنا أن هذه الآفات والمساوئ العرضية، لا تساوي ولا تداني المصالح والمحاسن والمنجزات، وأن كثيرًا من هذه المصالح والمحاسن والمكاسب، لا يمكن تحقيقها وصيانتها إلا على هذا النحو، وأن العيوب والآفات هي دائمًا قابلة للتلافي والعلاج والتخفيف، فالرجحان واضح والخيار لائح. وهنا يأتي الخيار الثالث والرابع... فإلى العدد المقبل إن شاء الله تعالى.



معركة الوسائل والبدائل

ذكرت في المقال السابق، أن العمل الإسلامي اليوم تتوزع أعمالُه وجهوده على جبهتين مختلفتين، هما: جبهة الانحطاط، وجبهة الانحلال.

وذكرت أن جبهة الانحطاط تحتاج إلى عناية أكبر، وكلام أكثر؛ لأنها هي أصل الداء، وسبب البلاء.

وقبل أن أنتقل إلى الحديث عن جبهة الانحطاط، أضيف هذه الحلقة للحديث عن جبهة الانحلال؛ التي وصفتها في الحلقة السابقة.

فرغم أن الحركات والجهود الدعوية الإسلامية قد أبلت البلاء الحسن على صعيد هذه الجبهة، ونجحت في إنقاذ الملايين من المسلمين، ومن شباب المسلمين، من آثار الطوفان الإباحي الانحلالي؛ الذي يكتسح العالم، فإن هناك اختلالا مخيفًا لا بد من معالجته، على صعيد هذه الجبهة.

هذا الخلل يتمثل في التفاوت الكبير، والهوة السحيقة، بين الأساليب والوسائل المستعملة من دعاة الانحلال ومروجيه، وتلك المستعملة لدى مقاوميه في الجهة الإسلامية، فبينما العمل الإسلامي - في غالب أحيانه- يشتغل بواسطة الدعوة الفردية، أو بواسطة الدعوة الجماعية؛ التي تخاطب العشرة والعشرات، نجد الوسيلة الواحدة من وسائل الانحلال والتمييع تجتاح العالم، وتحصد الملايين، في ساعة واحدة.

وبينما تخضع الأنشطة الإسلامية - في غالب بلدان العالم- لأنظمة الترخيص والتقييد والرقابة والتضييق والحجر والمنع...، فإن الأنشطة الأخرى تتمتع بالحرية والدعم والتشجيع، هذا مع كون العمل الإسلامي يدعو الناس إلى التعقل والتعفف، وإلى الجدية والاستقامة، وهذا طريق مكلف ثقيل على النفوس، بينما الآخرون يدعونهم إلى الأهواء والشهوات، وإلى التحرر والتحلل، وهذا طريق شهي يستهوي النفوس، وفي الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "حُفَّتِ الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات" متفق عليه.

معالجة هذا الاختلال وتضييق هوته، تستدعي تغييرًا وتطويرًا وتوسيعًا في الوسائل والبدائل، الدعوية والتربوية والتثقيفية، والحقيقة أنني لو أردت أن أضع عنوانًا جامعًا لعناصر الضعف والقصور لدى الحركات الإسلامية ولدى دعاة الإسلام في هذا العصر، لكان هو "ضعف الوسائل وتخلفها"؛ لأجل ذلك عمومًا، ولأجل قضيتنا الآن خصوصًا:

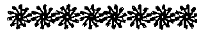
- لا بد من الاستعمال المتزايد للوسائل التي تخاطب وتثقف الآلاف والملايين دفعة واحدة، دون أن يعني ذلك أي زهد أو تفريط في الخطاب الفردي والجماعي المحدود، وهنا تبرز العوائق والصعوبات مع الدول والحكومات، وهنا يأتي شبح المنع والردع والتحكم... وهنا لا بد أن أقول: إن توسيع العمل الدعوي

والوسائل الدعوية والمساحات الدعوية، أولى وأهم بكثير من المواقف والمكاسب والمنافسات السياسية.. على أن ما لا يتأتى في مكان يتأتى في غيره، وما لا يتأتى في زمان يتأتى في غيره.

- لا بد من اعتماد مبدأ الدخول والمرور والعمل، عبر جميع المداخل والمسالك والوسائل الممكنة والمقدورة: الإعلام بجميع أشكاله ووسائله، والتعليم بجميع تخصصاته ومراحله، والشوارع والشواطئ، والملاعب والساحات، والمنتزهات والمنتديات، والفنون التمثيلية والإنشادية.

- فتح الباب على مصراعيه للاحتفالات الجماعية المبدعة والبناءة، في الأعياد والمناسبات الإسلامية، بما في ذلك ذكرى المولد النبوي، ورأس السنة الهجرية، وبما فيها المناسبات الإسلامية الوطنية... وكذلك الاحتفاء والاحتفال بالمناسبات العالمية؛ التي تحمل معانيَ وقيمًا نبيلة، كعيد الأم، واليوم العالمي للبيئة، واليوم العالمي لمحاربة التدخين.

وعلى العموم، فإن مواجهة مخططات الانحلال ومَوجاته الكاسحة، لن تكون بالانكماش والانغلاق، ولن تكون بالمحاضن المحروسة، ولا بالجزر المعزولة، بل تكون بالإقدام والاقتحام، وتكون بمنهج (ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (المائدة/٢٣)، وبمنهج (لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ) (يوسف/٦٧).



جبهة الانحطاط أصل الداء وسبب البلاء

معركة الحركة الإسلامية المعاصرة ليست منحصرة في مواجهة ما يغزو عالمنا من انحلال واحتلال، أو من فساد وإلحاد ....، بل هذه الجبهة - أو الجبهات- ليست سوى فرع ونتيجة لوجود جبهة أخرى، هي أصل الداء، وسبب البلاء. وأعني بها جبهة الانحطاط الذاتي للمسلمين. فمما لا شك فيه أن انحطاط المسلمين في دينهم ودنياهم وكل مجالاتِ حياتهم، وتراكمَ هذا الانحطاط وتجذره، لا شك أن هذا هو منبع الداء، ومصدر البلاء، أي هو السبب، وهو الأصل لكل ما لحقهم وغزاهم (آل عمران: ١٦٥).

فانحطاطنا هو السبب الرئيس لبلائنا وسوء حالنا، وانحطاطنا إنما هو كسبنا ومن ذاتنا، وأعني بالانحطاط الركون إلى المستويات والمراتب الهابطة والرديئة والضعيفة والوضيعة، فيما فيه مجال وإمكان للتعالي والترقي، والقوة والجودة. فالانحطاط - كما في أصله اللغوي- هو الهبوط والانحدار والتدني إلى، قال الأَزهري: ويقال للهَبُوط حَطُوطٌ، وفي (اللسان) أيضًا: وحَطَّ السِّعْرُ يَحُطُّ حَطّاً وحُطوطاً رَخُصَ، وكذلك انْحَطَّ حُطوطاً ... فَتَر. وأسوأ درجاته وأخطرها هي المعبَّر عنها في القرآن الكريم بـ(الدرك الأسفل) و (أسفل سافلين)، بمعنى أن ينحط الإنسان، وينزل إلى حيث لا مزيد، فكل ما كان من الأفعال والصفات والأفكار، متدنيًا ومنخفضًا وضعيفًا ورديئًا ورخيصًا ومتأخرًا، في مكانته ورتبته وقيمته وفائدته وفاعليته، فهو داخل عندي في دائرة الانحطاط. ومما لا شك فيه أن أحوال المسلمين - منذ زمن طويل- متسمة بكثير من معاني الانحطاط المذكورة، وإذا كان الأثر الأجنبي الخارجي السلبي لا يمكن إنكاره، ولا التقليل من شأنه، فمما لا يمكن إنكاره أيضًا، أن انحطاط المسلمين هو أساسا من كسبهم، ومن عند أنفسهم، وأن ذلك هو ما مهد الطريق، وفتح الأبواب للتسلط الأجنبي. ومنذ ما يزيد عن ستين عامًا، ألف العلامة أبو الحسن الندوي كتابه الشهير (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟)، وهو عنوان يتضمن أن انحطاط المسلمين مسألة مسلَّمة لا تردد فيها، كما يتضمن كون الخسارة الناجمة عن هذا الانحطاط لم يقف أثرها عند المسلمين، بل أصابت العالم كله بشرها وضررها. وإذا كان العالم كله قد (خَسِر بانحطاط المسلمين)، فمن باب أولى أن يكون المسلمون هم أول الخاسرين بهذا الاتحطاط. ما أريد قوله الآن هو أن كل عمل دعوي، وكل جهد إصلاحي أو مشروع نهضوي، إذا لم يركز على معالجة الانحطاط الذاتي للمسلمين، والأدواء الذاتية للمسلمين، فلن تكون له إلا آثار سطحية ومحدودة ومؤقتة. والذي نراه فعلا هو أن الحركات الإسلامية، وهي المرجوة لبعث نهضتنا، وإصلاح أحوالنا، لم تولِ جبهات الانحطاط والتخلف، ما تستحقه وما تحتاجه من مواجهة وجهد وجهاد، وأن جبهات الاحتلال والانحلال هي التي استفزت الغيورين، واجتذبت الجهاد والمجاهدين. وليست هذه دعوة للتخلي عن

مواجهة الانحلال والاحتلال، وما في طياتهما من مفاسد وكوارث وانحرافات جديدة، ولكنها دعوة إلى إيلاء مزيد من العناية والأسبقية لمعالجة آفاتنا الذاتية، ومواجهة الأسباب والمظاهر الذاتية لانحطاطنا وضعفنا وتخلفنا، ولو كان ذلك على حساب العمل والإنجاز في الجبهات الأخرى. ويأتي في مقدمة آفاتنا الذاتية: الانحطاط المستشري في فهم الدين، وفي ممارسته، وهو ما سأعود إليه في حلقات قادمة، إن شاء الله (تعالى) وبعونه.



التدين المغشوش

أتابع إلقاء الأضواء على جوانب من جبهة الانحطاط في تديننا، وفي مجتمعاتنا الإسلامية، باعتبار أن هذه الجبهة عمومًا لا تحظى بما تتطلبه، من العناية والجهد والجهاد، الدعوي والتربوي والإصلاحي، ساعيًا وراجيًا بذلك تصحيح هذا الوضع، وتغيير أولوياتنا، من جبهة التفسخ والانحلال، إلى جبهة التخلف والانحطاط. ومن جوانب الانحطاط وأسبابه في حياتنا: بعض الظواهر السلبية؛ التي يمكن إدراجها تحت اسم: (التدين المغشوش). ولعل الصفة الأساسية الجامعة لما أعنيه بالتدين المغشوش، أو الغش في التدين، هي صفة الاعتناء بالظاهر مع إهمال الباطن، أو هي المبالغة والإفراط فيما يظهر وينتشر، مع الإهمال والتفريط فيما يخفى ويستتر. بمعنى أن المتدين يعتني- في تدينه- بتحسين الأعمال والصفات الظاهرة والمرئية والملموسة، ويحرص على الالتزام بأحكام الشرع وآدابه فيها، بينما لا يبالي بعكسها مما لا يراه الناس، ولا يَظهر للعيان. فكل عمل أو سلوك ظاهره أفضل من باطنه، وباطنه أقل من ظاهره، ففيه غشّ، وهو عمل مغشوش. وكل ما يخفيه صاحبه، من تطفيف أو نقص أو رداءة في أعماله وواجباته، فهو غش. فمثلا، محافظة المصلين على الصلاة في أوقاتها وبهيئاتها وسننها وجماعاتها، نجد له من الاهتمام والعناية أضعاف العناية والاهتمام بباطن الصلاة، أي بحالة القلب، وتعظيم الرب، ونباهة العقل، وخشوع النفس، فتجد كثيرًا من المصلين في حالة تحفز وحرص بالغ، ورصد دائم لمواقيت الصلاة، مع المسارعة إلى الصفوف الأولى، والمواظبة على صلاة الفجر، مع تمسك ظاهر بسنن الوضوء، وتسوية الصفوف... وكل هذا جيّد ومحمود، ولكن الفرائض الباطنية للصلاة، والثمار الخلقية والسلوكية لها، قلّما يؤبه لها، وقلما يُعتنَى بها، مع أنها أنفس وأهم بكثير؛ فهذه صلاة مغشوشة، وتدين مغشوش. وتجد عامة المتدينين مهمومين مشغولين بمدى محافظة المرأة والبنت - القريبة منهم والبعيدة- على حجابها ولباسها وتسترها، ومدى قربها أو بعدها من مظاهر السفور والتبرج وما جاورهما، حتى إن ذلك ليعدُّ هو المعيار الحاسم لتدينها وتقواها وصلاحها، وقد يُتخذ معيارًا حتى لتدين أبيها وأخيها وزوجها... ولكن قلما يأبه أحد لما هي عليه، في أحوال إيمانها وتفقهها وصلاتها وصيامها وأخلاقها، ومن تضييعها لأوقاتها، ومن سوء علاقاتها مع أقاربها وبنات جنسها. وقد نرى صنفًا من المتدينين- من الرجال والنساء- في بعض علاقاتهم يتمتعون بقدر كبير من اللطافة واللياقة والأدب والإحسان... لا يسبون ولا يشتمون، ولا يتكبرون ولا يعتدون... ولكنهم في داخل بيوتهم ومع أهلهم وأقاربهم، على خلاف ذلك كله، وقد تجد متدينين من هذا الصنف لا يتحرجون في ممارسة كثير من الانتهاكات والإساءات الخلقية المنحطة والمخزية، مع خَدَمهم وعمالهم وزبنائهم وشركائهم. التدين المغشوش على هذا النحو،

يسهِّل التعايش و"التطبيع" مع ثقافة الغش، وممارسة الغش، في كافة المجالات والأعمال. ومن هنا نجد الغش والتطفيف مسلكًا متبعًا في الدراسة والتدريس والامتحانات، على جميع المستويات، ونجد الغش في الصناعات والتجارات، صغيرها وكبيرها، ونجد الغش في كافة الحرف والوظائف والمسئوليات، وقد نجد الغش حتى عند أئمة المساجد، والقيمين عليها، وربما أيضًا عند المكلفين بالأعمال الدعوية والوعظية والعلمية. وهكذا نجد الغش يعشش ويتعايش مع الصلاة والصيام، ومع الدراسة والدعوة، ومع الذِّكر والحج .. وحتى مع قوله (صلى الله عليه وسلم): "من غشَّ فليس منا"!!.



الانحطاط السياسي.. قاطرة التخلف العام للمسلمين

تحدث العلامة أبو الحسن الندوي عما سماه "بداية التدلي والانحطاط في حياة الأمة الإسلامية"، فقال (رحمه الله): "ولو أردنا أن نضع إصبعنا على الحد الفاصل بين الكمال والزوال، لوضعناه على ذلك الخط التاريخي؛ الذي يفصل بين الخلافة الراشدة والملوكية العربية، أو ملوكية المسلمين" (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - ص ١٤٣).

وهذا لا يعني أن مسيرة الارتقاء والازدهار الإسلامي قد توقفت أو انعكست وجهتها عند هذه النقطة؛ بل إن قوة الدفع الرسالي والحضاري التي أرستها وأطلقتها الرسالة المحمدية والتأسيس المحمدي، كانت أكبر وأقوى من أن يوقفها شيئ؛ فحتى نظام الحكم الذي كبا ونكص في وقت مبكر، ظل يتمتع بكثير من عناصر القوة والحيوية والتفوق، ولكنْ إلى جانب هذه العناصر الإيجابية المشرقة، كانت عناصر المرض والفساد والانحطاط قد زرعت في جسمه، بل في دماغه.

ويمكن إجمال أبرز هذه العناصر المرضية، التي أضحت مرتكزات للانحطاط السياسي، ومولدات للانحطاط العام، فيما يلي:-

١. الانقضاض على الحكم باعتباره حقًّا وغنمًا للأقوياء المتغلبين، وهكذا انتقل الحكم من منطق الشورى والاختيار والتعاقد والشرعية، إلى منطق القوة والغلبة والاستيلاء، مع الاحتفاظ - إن اقتضى الحال- ببعض الشكليات والرموز والألقاب الشرعية.

التصرف في الحكم ومسئولياته وإمكاناته، باعتباره حريمًا ومتاعًا خاصًا، مثلما يفعل أي متَمَلِّك مع أملاكه وحِماه، وهذا هو المنطق الذي استبيح به توريث الدولة بكل مناصبها ومرافقها واختصاصاتها، كما تورَّث الأمتعة والتركات، واستبيح به الاستيلاء على الأموال والممتلكات العامة، والتصرف فيها بالتشهي والمآرب الخاصة، وإطلاقُ أيدي الأقارب والأصدقاء والأعوان فيها، نهبًا وإسرافًا وتبذيرًا.

٢. إحاطة الحكام بهالة أسطورية من التعظيم والتقديس والعصمة، يجند - أو "يتطوع"- لنسجها وتفخيمها شعراء وفقهاء، وكتاب وخطباء، وأعوان ووزراء، وغيرهم من المسترزقين، حتى بلغ الخبال بأحدهم إلى حد مخاطبة "الخليفة" بقوله:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد   وكأنما أنصارك الأنصار

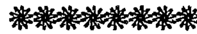
وبالمقابل خنق الأصوات الناقدة، والفئات المعارضة، وإن أمكن استئصالها فهو الحل المفضل والأمثل.

٣. إعطاء الأولوية المطلقة للبقاء في الحكم وتأمينه والدوام فيه بأي ثمن، وبأية وسيلة ممكنة، وجعْلُ ذلك كله الهدفَ الأول والأسمى للدولة، تُسَخَّرُ له كل المتطلبات البشرية والمالية والسياسية اللازمة.

والحقيقة أن هذه العناصر والمظاهر كلها، ليست سوى استنساخ ومحاكاة للأعراف الكسروية والقيصرية في الحكم، ولقد حذر النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم)، من الانزلاق في هذا ا المنحدر، في عدد من أحاديثه الشريفة، أذكر منها حديث أبي أمامة (رضي الله عنه) قال: خرج علينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) متوكئًا على عصا، فقمنا إليه، فقال: "لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضًا".

وحينما انتصر المسلمون في بعض فتوحاتهم، حمل أحدهم معه رؤوس بعض القتلى من أعدائهم، بحجة أن الأعداء يفعلون ذلك بالمسلمين، فأنكر ذلك الخليفة أبو بكر (رضي الله عنه) ونهى عنه، وقال: "أَسْتنانٌ بفارسَ والروم!؟".

ولما أدرك ولدُه عبد الرحمن بوادر الانحراف السياسي، في أوائل العهد الأموي، قال (رضي الله عنه) رافضًا ومحذرًا : "إنما يريدون أن يجعلوها كسروية أو هرقلية".



الحركة الإسلامية.. بين جبهتي الانحطاط والانحلال

الحركة الإسلامية - بكل مكوناتها واتجاهاتها- تمارس أعمالها وجهودها ومحاولاتها الدعوية والإصلاحية، على جبهات كثيرة شاسعة، ويمكن القول باختصار: إنها تعمل على جميع الجبهات، وفي جميع المجالات، عبر العالم الإسلامي كله، بل عبر العالم كله.

وسعيًا وراء تحقيق ما يمكن من ترشيد للجهود والطاقات، ومن تحديد للأولويات، لا بد من تصنيف الأعمال والمجالات وترتيبها، بناءً على قيمتها ومردوديتها القريبة والبعيدة.

ومن ذلك أن جهود العمل الإسلامي والعمل الإصلاحي اليوم، تتوزع وتنصب على جبهتين مختلفتين، لا بد من التمييز بينهما، ليُعطَى كل منهما ما يناسبه، ويكافئ أهميته، ومردودية العمل فيه.

والجبهتان هما:

١. جبهة الانحطاط، وهي في مجملها قديمة وموروثة وذاتية.

٢. جبهة الانحلال، وهي في مجملها دخيلة وحديثة ومفروضة.

وسأتحدث أولا عن جبهة الانحلال، وجهود الحركة الإسلامية فيها، تاركًا الحديث عن جبهة الانحطاط لحلقات قادمة، حتى أتناولها بتفصيل أكثر، وعناية أكبر؛ لكونها هي أصل الداء، وسبب البلاء، ولأن تقصيرنا وتقاعسنا فيها أكبر وأظهر.

أما الانحلال، فأعني به: السلوك المنسلخ أو المنفلت من القيم الدينية والأخلاقية المتسامية، والمنخرط في نمط حياة شهوانية استمتاعية، بلا حدود، ولا ضوابط.

في قديم الزمان، كان الفساد والانحلال سلوكًا فرديًّا، وانزلاقًا عفويًّا، أما في هذا الزمان فالفساد والانحلال، له إستراتيجيته ومخططاته، وله مؤسساته ومنظماته، وله شركاته وقنواته، وله إعلاناته وتظاهراته، وله فلاسفته ومنظروه، وله حُماته ومُحاموه.

لقد سخر الانحلاليون الإباحيون - لخدمة مذهبهم وفلسفتهم- كثيرًا من التخصصات والمنتجات الفنية، من غناء وموسيقى وسينما ومسرح، واختلقوا أصنافًا أخرى من أشكال الاستعراضات والممارسات الإغوائية، باسم الفن تارة، ومن باب الرياضة تارة، وتحت غطاء السياحة تارة، وباسم الإشهار التجاري تارة، وباسم عرض الأزياء تارة، وباسم الرقص الشرقي والغربي تارة، وتحت شعار الحرية وحقوق الإنسان تارة.

الانحلال والإباحية اليوم عبارة عن فلسفة وأيديولوجية، وصناعة وتجارة، وسياسة وإستراتيجية.

وما أريد قوله، والوصول إليه، هو أن الحركة الإسلامية عبر العالم كله، هي أقوى متصدٍّ، وأكبر صادٍّ لهذا الطوفان المدمر للبشرية، ولأنبل ما عندها.

والحركة الإسلامية تواجه هذا الطوفان بطريقتين:

-الطريقة الأولى واضحة، وهي النقد والضغط والإنكار والاعتراض والاحتجاج، مما يؤدي إلى كبح بعض الأنشطة الإباحية، وإلى توعية جماهير من الناس بأهدافها ومخاطرها، وهو ما يجعل بعض المسئولين - هنا أو هناك- يخففون ويخفضون من مسايرتهم لهذا التيار، في تطرفه واستفزازاته.

-وأما الطريقة الثانية، فهي الاحتضان الدعوي والتربوي لملايين من المسلمين، وخاصة من الشباب والأطفال، وتكوينُهم على الاستقامة والتعفف وعلو الهمة، وإنقاذُهم من وباء الفساد والإلحاد، وإعطاؤهم المناعة ضد فيروساته الفتاكة.

ولو جاز لي أن أصف شيئًا من إنجازات الحركة الإسلامية بالمعجزة، وأن أخصه بأكبر جائزة، لكان هو هذا الإنجاز بالذات، بأبعاده الدنيوية والأخروية.

ولقد بلغت هذه المعجزة ذروتها مع الشباب المسلم عمومًا، ومع أبناء المسلمين المهاجرين في الدول الغربية خصوصًا، وهم الذين يعيشون تحت ظروف الذل والقهر والاغتراب والدونية، وفي مناخات انحلالية إباحية، لا حدود لها.

فنجاح الحركة الإسلامية في إنقاذ مئات الآلاف من هؤلاء، من طاحونة التغريب والتمييع والتذويب، ونجاحها في أن تجعل منهم عفيفات ومتحجبات ومستقيمات، وأن تنشر فيهم الالتزام الإسلامي، والانتماء الإسلامي، والفكر الإسلامي، إن هذا لشيء خارق للعادة، وتلك هي المعجزة، معجزة الإسلام والحركة الإسلامية!!.

نعم، إنه إنجاز خارق، ولكنه غير كاف، أو لم يَعُد كافيًا.

وللحديث بقية تأتي، بإذن الله (تعالى).

د.عصام البشير

الوزير السابق للأوقاف والإرشاد السوداني.



عوائق النهوض الحضاري

ثمة أسسٌ ومبادئُ إن لم يقم عليها خطاب النهضة المنشود ؛ فسيكون تكراراً لما سبق ، ولعل من أهم الأسس التشخيص الحقيقي لأدواء الأمة .. فهذا هو المدخل الأساسي لوضع اليد على مكامن الداء الحقيقي الذي عطل الأمة عن مسير الأمم ورمى بها بعيداً للوراء . والحقيقة أن الأدواء كثيرة ، وليست داءً واحداً . ولعل أحد أهم أسباب إخفاق مشروعات النهضة - طَوالَ العقود الماضية - هو التشخيص الخاطئ ، فالعقلية الببغائية (التي كانت مجرد صدى لما يطرح في الغرب) حصرت سبب التخلف في الدين ، وبعضهم خففها في العقلية الدينية ، والبعض حصرها في الجانب السياسي أو الاقتصادي . لذلك .. كانت خطوات العلاج ناقصة ومبتورة ، وربما ضرت أكثر مما نفعت. ونحن قد لا نجادل في أن الأمة تمر الآن في أسوا مراحلها ، وقد ضربت جسدَها الهزيل أمراضٌ عديدة أصبحت مزمنة وكأنه استحال إيجاد علاج لها ، بالإضافة إلى أن هذه الأمراض أعقد من أن يشخصها أو يصل إلى أعماقها فردٌ واحدٌ أو مجموعةٌ منفردةٌ وبإمكانيات محدودة من النظر والبحث. الأمة في أشد الحاجة إلى صفوة عقولها الصادقة المخلصة الواعية بطبيعة واقعها وتعدد مشكلاتها في جميع التخصصات ؛ لتقوم بدراسة واقع الأمة كما هو ، وتستعرض مشكلاته جميعها بالتفصيل الدقيق (لا يطغى جانب على جانب) . ويجب ألا تتطاول بنا - فوق المعقول - فترةُ مثل هذه الدراسة .. فكم أهدرنا من أعمارٍ وجهودٍ ولم ننجز شيئاً ! وفي حال التشخيص المتكامل وبيان الأسباب الحقيقية أو ما كان عرضاً لسببٍ ونظنه سبباً ؛ تقدم الحلول المبنية كذلك على دراسات متخصصة ومعمقة . وقد تحتاج بعض الأمراض زماناً طويلاً لعلاجها ، ولكن طريق الألف ميل يبدأ بخطوة واحدة ، ومشروع النهضة مشروع يقاس بعمر التاريخ لا بعمر الأفراد ، فغالباً لا ينجز في حياة جيل واحد . وما أكثر ما تضررنا من استعجال الثمرة ! وإذا كان لابد لنا - وإن في مثل هذا المدخل - أن نرصد أهم أمَّات المشكلات والأدواء التي هي العوائق في طريق نهضة أمتنا ؛ فإننا يمكن أن نكثفها في هذه السبعة ..

الاستبداد : الذي يقمع الناس ويقسرهم على أهواء الحكام وما يشتهون من الحكم المطلق في البلاد والعباد ! والاستبداد كله - ما ظهر منه وما استتر - شرٌّ ، ولا سبيل إلى نهضة حقيقية دون الحرية الكاملة ، فقديماً قال عنترة لسيده إذ طلب منه الكَرَّ : العبد لا يَكُرّ ! ومن هنا .. فلا عجب أن يتفطن علماؤنا إلى أن يجعلوا الحرية من أهم مقاصد الشرع العليا .

غياب العدالة : فالعدل أساس الملك ، كما يتغنى الجميع من غير جدوى ! وما أذكى ابنَ تيمية - رحمه الله - حين قال : إن الله ينصر الدولة العادلة .. وإن كانت كافرة ، على الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة ! .

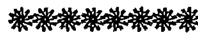
التسيب الأخلاقي : فالأمم ـ كما يقول أمير الشعراء ـ الأخلاقُ ما بقيت ، فإن ذهبت أخلاقهم ؛ ذهبوا ! وقد حصر النبي الأكرم ـ صلوات الله عليه ـ الغاية من إرساله في إتمام مكارم الأخلاق ، وكذلك أشارت الآية الكريمة :(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧) .. وهل الرحمةُ إلا جُمَّاع الأخلاق الكريمة !؟ .التخلف التنموي : الذي أوصلنا إلى الحال التي وصفها الشيخ محمد الغزالي بقوله : إنني أخشى إن قيل لكل شيءٍ في بلادنا : عُدْ من حيث أتيت ؛ أن نمشي حفاةً عراةً راجلين !(أو كما قال .. رحمه الله) . وهذا التخلف عميقٌ في بنية حياتنا اليومية ، حتى وإن تبهرجنا بكثيرٍ أو قليلٍ من مظاهر الحداثة .. فهي مصطنعةٌ زائفة ، على حد ما قال نزار قباني : خلاصة القضيةْ/توجز في عبارةْ/لقد لبسنا قشرة الحضارةْ/والروح جاهليةْ! .

التخلف التِّقْني : وهذا جزءٌ مما سبق ، لكنه قد يكون الجزءَ الأهم والأفدحَ أثراً والأظهرَ أثراً ! فنحن نكاد نكون خارج سياق الحضارة المعاصرة ، إلا أن نكون مستهلكين ! .

الجمود والتقليد : على صعيد الفكر والثقافة والعلم ، فيما يخص أمور الدين وشؤون الدنيا جميعاً! لا نزال نجتر ماضينا اجتراراً ، أو نقلد مناهج شرقيةً أو غربيةً تقليداً غير مستبصر.

التمزق والتدابر: على صعيد السياسة والاقتصاد .. فلا نزال عاجزين عن تحقيق الحد الأدنى من التنسيق السياسي (مجرد التنسيق لا الوحدة المتكاملة !) ، كم أننا عاجزون عن تطبيق أبسط صور التعاون الاقتصادي (مجرد التعاون لا التكامل وصولاً للاكتفاء الذاتي في محيطنا !).

الاستلاب والتبعية : على مستوى القرار السياسي والسيادة على الأوطان .. وهذا سببٌ فيما سبق من وجه ، ونتيجةٌ له من وجهٍ آخر . فالطغيان والظلم والانحلال والتخلف والجمود .. كلها كوارثُ تجلب الطغاة ، والغزاة لا يدخلون قريةً إلا جعلوا أعزةَ أهلها أذلَّةً !



أسئلةُ نهضتنا : المواجهةُ الواجبةُ مع الذات

أدرك المثقلون بالهمّ الدعوي والإصلاحي ، منذ بدايات محاولات النهوض الحديثة ، أن التدقيق في طرح الأسئلة حول هذه النهضة (أسبابها ، معوقاتها ، طريقها ...) يعني بداية إدراك الطبقات الأكثر عمقاً في مسائل التخلف والنهوض الحضاري ..

فهذا عبدالرحمن الكواكبي (١٨٥٤-١٩٠٢) يعقد في كتابه «أمُّ القرى» مؤتمراً وهميًّا في مكة المكرمة ، حيث يتخيل قدوم وفود من كل أصقاع العالم الإسلامي من أجل التداول والتفاكر في الأزمة الحضارية التي يعاني منها المسلمون . وقد رأى المؤتمرون أن تتركز مداولاتهم في العثور على أجوبة عن سؤالين أساسيين ، هما:

- ما العلل والأدواء التي تفتك بالأمة الإسلامية حتى انتهت إلى الوضعية التي هي فيها ؟
- ما الأدوية والعلاجات التي تحتاجها الأمة حتى تبرأ من أدوائها ؟

وقد ذكر الكواكبي - على ألسنة المؤتمرين - الكثير من العلل ، ووصف الكثير من العلاجات. والذي يبعث الأسى في النفس أن يظل معظم ما نطرحه اليوم من أسئلة ، وما نقدمه من الأجوبة ، قريباً جدًّا مما ذكرته تلك الوفودُ الإسلامية قبل ما يزيد على قرن من الزمان !

هذا يعني أن قدرتنا على حسم الأسئلة والنزاع حول كثير من الأجوبة لا تزال - حتى اليوم - محدودة !

ونحن هنا (في نهايات العقد الأول من القرن الحادي والعشرين) نريد أن نطرح بعض الأسئلة التي نظن أنها ستحرض الوعي لدينا على الانتقال من الإدراك العام إلى إدراكٍ أكثرَ عمقاً وتفصيلاً :

- حين نتحدث عن نهضة الأمة الإسلامية وعن الدور الحضاري الذي يمكن أن تقوم به ..

هل نريد أن نحسِّن مواقعنا داخل المنظومة الحضارية السائدة ، فنتحول في إطار الأصول والشروط الحضارية التي وضعها الغرب من أمة تستهلك المنتجات الحضارية إلى أمة تسهم في إنتاجها ، مما يعني تدعيم الحضارة الحالية وتعزيز استمرارها مع إنكارنا القواعدَ التي قامت عليها وإنكارنا أدبياتِها ورمزياتِها - ؟

- إذا كان هذا غير ملائم لنا ؛ لأنه يوقعنا في نوع من التناقض المنهجي ..

فهل نريد إذاً أن نؤسس حضارة جديدة تحاكي ، في أصولها ومنطلقاتها وأهدافها ، الحضارةَ الإسلاميةَ التي وضع لبنتها الأولى نبينا صلى الله عليه وسلم - ؟

- إذا كان هذا هو المقصود ..

هل يتم هذا في ظل الحضارة الغربية الراهنة ، مما يعني إنشاء حضارة منافسة تستلهم عقائد ومبادئ ومُثُلاً مغايرةً لما فيها ؟

أو أن المقصود هو دورة حضارية جديدة تعم العالم ، يكون للعرب والمسلمين فيها دور الريادة والقيادة ، مما يعني أن الحضارة التي نريد لها أن تقوم لن تقوم إلا على أنقاض الحضارة الغربية؟

الخيار الأول يعني أن علينا أن ننشئ نُظُماً جديدة في المجالات السياسية والاقتصادية والتعليمية والتربوية والصناعية والإدارية ؛ لأن ما لدينا من نُظُم تراثية موروثة في هذه المجالات غير كاف لتسيير دفة الحياة العصرية، وبعضه غير ملائم ولا صالح . فهل نملك إمكانات مثل هذا العمل الكبير؟ ومن أين تكون البداية ؟

أما الخيار الثاني ؛ فإنه يعني أن المطلوب منا الآن هو العمل على هزيمة الحضارة الغربية وهدم أركانها تمهيداً لتشييد حضارة إسلامية تحل محلها . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل مثل هذا العمل ممكن ؟ أم أنه من الأمور شبه المستحيلة بالنسبة إلينا وإلى غيرنا ؟

وفي كل الأحوال : هل يمكن للعالم الإسلامي أن ينشئ حضارة منافسة أو بديلة عن الحضارة الغربية وهو مشرذم وموزع على ما يزيد على خمسين دولة ؟

وبالتالي : هل يكون علينا أولاً أن نسعى إلى توحيد المسلمين وجمع كلمتهم قبل أن نفكر في إنشاء حضارة بديلة أو منافسة ؟ وإلى أي حد يمكن القيام بهذا الأمر في ظل التخلف الموجود الآن وفي ظل الارتباطات الوثيقة القائمة بين معظم الدول الإسلامية والدول الغربية ، حيث إن العلاقات التجارية بين الدول الإسلامية أضعف بكثير من العلاقات القائمة بينها وبين الدول الغربية ؟

.علينا بعد هذا أن نتساءل : لماذا لم نستطع عبر ما يقرب من قرن ونصف من الزمان استيعابَ التطورات الحضارية والتقنية والصناعية التي حدثت في العالم من حولنا ؟ وما العوامل التي أدت إلى بقائنا على هامش الحضارة عوضاً عن أن نكون في لُجَّتها ؟

أيكون سببَ هذا بُعدُنا عن الإسلام؟ أم أنه الاستعمار وتآمره علينا ؟ أم عدمُ وقوفنا من الغرب موقف التلميذ النجيب ـ كما فعلت اليابان مثلاً ـ ؟ أم تمسكُنا بعادات وتقاليد بالية وموروثة عن عصور الانحطاط؟

إذا كان الجواب : إن واحداً منها هو السبب ؛ فكيف يتم التغلب عليه ؟

وإذا كانت هذه الأسباب تقف مجتمعة وراء ما نحن فيه ؛ فما وزن كل سبب منها في تعثر النهضة ؟

المنطق يقضي أن نطرح أولاً الأسئلة الكبرى ، ثم نتدرج نحو الأسئلة الصغرى .

وفي مجال التخلف والنهوض يبقى السؤالان الكبيران هما :

.لماذا تخلف المسلمون ؟ أو(كما عنون أمير البيان شكيب أرسلان (١٨٦٩ـ١٩٤٦) رسالتَه الشهيرة قبل

نحو ثمانين عاماً!) : «لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟» .

ـ ما الذي علينا أن نقوم به من أجل النهوض بالأمة؟

وفي إطار هذين السؤالين لدينا بحرٌ من الأسئلة الصغيرة .

وفي كل الأحوال .. يظل التساؤل قائماً :

كيف يمكننا أن نعمم هذه الأسئلة وأشباهها ؟

وكيف يمكن إيصال ما يتبلور من أجوبة عليها إلى أمة تشكل اليوم أكثر من خمس سكان العالم؟

إننا من وراء طرح مزيد من الأسئلة لا نطمع في قطع دابر الخلاف حول تحديد جوهر مشكلاتنا أو تحديد أكثرها خطورةً ؛ فذاك أمر قد يكون عسير المنال في المدى المنظور .. لكن الذي نطمح إليه هو إيجاد أسس متينة للخلاف ، وبناء معقوليات وأُطُر تتحرك خلالها أقوالُ المتحاورين والمنظِّرين والمشخِّصين ؛ مما قد يضيِّق بدوره دائرةَ الخلاف ، ويقرِّب بين الأقوال المتباينة .

وقد يكون من المفيد أن نعقد لكل مشكلة كبرى جلسات لعصف الأفكار ، لا تُقدَّم فيها الحلول ، ولكن تثار فيها التساؤلات ، وتُتداول فيها التعليلات .. بغية فهم أعمق لطبيعة المشكلات والأزمات التي تعاني منها الأمة .

في جلسات عصف الأفكار يطرح كل واحد من المشاركين ما شاء من أسئلة وتعليلات دون أن ينقده أو يرد عليه أحد ، ويقوم أحد المشاركين بتلخيص كل ما قيل وتوزيعه على الحاضرين . وفي جلسة تالية تُناقَش حصيلة الجلسة السابقة ويُغربَل ما قيل فيها ، من أجل تحديد الأسئلة والتعليلات الأكثر محورية ، وتلك التي لاقت استحسان معظم المشاركين ، واستبعادِ غير الجوهري .

وإذا تم التحضير الجيد للموضوعات التي سيتم التساؤل حولها ؛ فإن ما يمكن أن نحصل عليه قد يكون أكبر بكثير مما نظن .

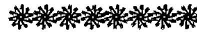


منطلقات شرعية في العلاقات الدولية

واجه الإسلام منذ نشأته أوضاعًا سياسية، وأحوالا اقتصادية بالغة التعقيد، ونجح في أن يتعامل معها بأسلوب متميز، يختلف عن أساليب الدول السابقة، فعقد المعاهدات، واستقبل المستأمنين، وأعان الضعفاء، وراسل الملوك، وبعث الوفود، وتحالف مع القبائل، وفاوض، وأقام العلاقات الخارجية، كل ذلك بتصور إسلامي، مستمد من كتاب الله، وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم)، وحري بالمسلمين في كل عصر وزمان أن يلتزموا تلك الفاعلية المنتجة، المنضبطة بهدي الرسول (صلى الله عليه وسلم). العلاقات الدولية في الإسلام هي والعلاقات والصلات الخارجية التي تقيمها الدولة الإسلامية، مع غيرها من الدول والجماعات والأفراد؛ لتحقيق أهداف معينة، وفقًا للشريعة الإسلامية. الإسلام الرسالة الخاتمة، دين أُنزل للبشرية جمعاء، تبدت عالميته في قدرته على التعايش مع كل الجماعات البشرية غير المحاربة من نصارى ويهود .. ملوك وفقراء .. سود وبيض ..إلخ- وفق ضوابط معلومة، وقواعد محددة، من أهمها: - الاعتراف أن الاختلاف بين بني البشر في الدين واقع بمشيئة الله (تعالى)، فقد منح الله البشر الحرية والاختيار في أن يفعل ويدع، أن يؤمن أو يكفر. - وحدة الأصل الإنساني، والكرامة الآدمية: انطلاقًا من قوله (سبحانه وتعالى): (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم) (الحجرات/ ١٣)، وقوله: (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيّبات) . - التعارف: لقوله (سبحانه وتعالى): (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم) (الإسراء/ ٧٠)، وكما ورد في الحديث: "وأشهد أن العباد - كلهم إخوة" (سنن أبي داود ، ج ٢ ، ص ٨٣)، فالتعارف أساس دعا إليه القرآن، وضرورة أملتها ظروف المشاركة في الدار أو الوطن، بالتعبير العصري، وإعمال لروح الأخوة الإنسانية، بدلًا من إهمالها. - التعايش: إذ أن حياة المتشاركين لا تقوم بغير تعايش سمح: بيعًا وشراءً ..قضاءً واقتضاءً ..ظعنًا وإقامة..، وتاريخ المسلمين حافل بصور التعامل الراقي مع غير المسلمين، وقد حدّد الله (سبحانه وتعالى) أساس هذا التعايش، بقوله: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحب المقسطين). - التعاون: كثير من القضايا العامة تشكل قاسمًا مشتركًا بين المسلمين وغيرهم، ويمكن التعاون فيها، كما أن الأخطار التي تتهددهم معًا ليست قليلة، ويمكن أن تشكل هذه القواسم المشتركة منطلقًا للتعايش والتعاون، وأهم هذه القواسم المشتركة ما يلي: -الإعلاء من شأن القيم الإنسانية والأخلاق الأساسية فالعدل والحرية والمساواة

والصدق والعفة كلها قيم حضارية، تشترك فيها الأديان والحضارات، وترسيخها في المجتمعات هدف مشترك، يمكن التعاون عليه.

-مناصرة المستضعفين في الأرض، وقضايا العدل والحرية، ومحاربة الظلم، ومن ذلك اضطهاد السود والملونين في أمريكا، واضطهاد الأقليات الدينية، وسائر الشعوب المقهورة، في فلسطين وكوسوفا والشيشان ونحوه، فالإسلام يناصر المظلومين من أي جنس ودين، والرسول (صلى الله عليه وسلم) قد قال عن "حلف الفضول" ؛ الذي تم في الجاهلية: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا، ما أحبّ أنّ لي به حُمُر النَّعَم، ولو أُدعَى به في الإسلام لأجبت" .



الوسطية.. مقتضياتها ودواعيها

الوسطية طريق التعبد الأصيل، التزامًا بموثوق الله (عز وجل) لعباده؛ الذين أمرهم أن يسلكوا هذا السبيل، وأن يستقيموا على هذا السنن، باعتبار أن مناط الشهادة على الأمم كلها قائم على تحقق هذه الوسطية، في العقيدة والشعائر والشرائع والقيم والنهوض الحضاري، فالوسطية قيمة أصلية، نتعامل بها من منطلق الإيمان بهذا الدين العظيم. والوسطية من أقوى السبل والطرائق التي من خلالها يصوّب الفكر، ويرشد الخطاب، إما من ناحية الغلو والاعتداء؛ الذي يؤرقنا، ويقض مضاجعنا، ويستخف بالدماء التي اتفقت الشرائع على صونها: "أيها الناس، إن دماءكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا)، وإما من ناحية الاهتراء الأخلاقي؛ الذي يجرد الأمة من قيمها ومبادئها؛ التي من أجلها أناط الله بها الخيرية، والشهود الحضاري على العالم أجمع، إلى أن يرث الأرض وما عليها: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ).

لقد أصبحت الحاجة ملحة إلى إبراز الوسطية؛ لأن المرحلة التي يمر بها المسلمون الآن، تقتضي منهم العودة إلى الوسطية - منهاجًا وممارسة- والنفرة خفافًا وثقالًا، في الميادين المختلفة؛ من أجل مواجهة الهجمة الشرسة التي تواجههم، وإدراك أبعاد وسائل الغزو الفكري، وأهدافه؛ التي يعمل لها في بلاد المسلمين، وذلك حتى يحقق المسلمون الحصانة الحضارية، والمناعة الفكرية للأمة، والحيلولة دون سقوطها، بما يُراد لها في هذا الزمن؛ الذي يتعاظم فيه أجر الالتزام بالقيم الإسلامية، بتعاظم الفتن، التي لا بد من مبادرتها بالوسطية، كمسالك، ونماذج عملية، تحقق الحماية، وتحمي نسيج الأمة، وتحول دون الذوبان. ووسطية الإسلام تقر بفريضة الجهاد، وأنه من أفضل القربات، وأعظم الطاعات، غير أن تفهمه يجب أن يكون في إطار عدد معتبر من القواعد والمقررات، فمن الإجحاف البين حصر معاني الجهاد ومضامينها في مباشرة القتال والقتل، وامتشاق الحسام في وجه الخصوم، فمفهوم الجهاد أوسع مدى، وأكثر رحابة. والمتأمل في الدلالة اللغوية والشرعية للجهاد لا بد أن ينتهي إلى أنه يشمل معاني عديدة متنوعة، منها: الجهاد بالحجة والبيان، وبكلمة الحق، وبرعاية الأبوين، كما يشمل القتال ردًّا على عدوان المعتدي، ودرءًا للفتنة، ونصرة للمستضعفين، وفي ذلك يقول ابن تيمية: "الجهاد إما أن يكون بالقلب كالعزم عليه، أو بالدعوة إلى الإسلام وشرائعه، أو بإقامة الحجة على المبطلِ، أو ببيان الحقِ، وإزالة الشبهة، أو بالرأي والتدبير فيما فيه نفع المسلمين، أو بالقتال بنفسه". ونخلص من تعدد صور الجهاد السابقة إلى عدم انحصاره في ميدان بعينه، كما أن النظرة إلى الجهاد في واقعنا المعاصر يجب أن تكون متجددة على ميادينه؛ التي اتسعت بتطور الزمن، وتسارع إيقاع الحياة، وبالنظر أيضًا

إلى ما يقتضيه حال المسلمين اليوم، من وعي حضاري بطبيعة المعارك المعاصرة، ومن أهم أشكال الجهاد المعاصر: الجهاد العلمي والحضاري والروحي والإعلامي والفكري والتنموي والسياسي، إضافة إلى القتال؛ الذي من أبهى صوره المقاومة؛ التي تتصدى لمواجهة المحتل، المغتصب للأرض، المنتهك للحرمات. وعلى ذلك، فإن كل مسلم يجب أن يكون مجاهدًا، وليس بالضرورة مقاتلا؛ إذ إن مجاهدة النفس والشيطان، والمنكرات، والمشركين بالقلم واللسان، والمال والسنان، لا يتصور ألا يكون للمسلم فيها نصيب، بخلاف القتال؛ الذي لا يتأتى إلا عندما تتهيأ أسبابه.



من معالم الوسطية في الإسلام

للوسطية في الإسلام معالم واضحة؛ أولها وسطية في الفكرة والحركة، وهي تتمثل في وسطية العقيدة الموافقة للفطرة، ووسطية الشعائر الدافعة للعمارة. فعقيدة الإسلام هي عقيدة الفطرة: سماحة ووضوحًا واستقامة وعدالة وبساطة، ومعالم الوسطية في العقيدة الإسلامية ترتكز على: اعتماد منهج القرآن الكريم والسنة المطهرة والسلف الصالح في أمر العقيدة؛ وذلك بالبعد عن اصطلاحات الجدليين والكلاميين، واعتماد القرآن ومنهج القرون الفاضلة، المشهود لها بالخير والإيمان، ثم الاهتمام ببيان أثر العقيدة على النفوس: ليعلم المسلم أين نفسه من درجة استيلاء العقيدة الإسلامية عليه، فإن كانت متأثرة بها حمد الله على نعمته، وإن كانت هذه الآثار ضعيفة في نفسه عمل على علاجها، وتقوية إيمانه. كما أن وسطية الشعائر في الإسلام يجسدها قوله (تعالى): (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)، فالتكاليف ليست كثيرة ولا شاقة، كما أنها لا تتعارض مع متطلبات الحياة، وهي وسطية ماثلة في قواعد التشريع أيضًا؛ إذ إن العديد من القواعد الفقهية جاءت معبرةً بشكل واضح عن هذه الوسطية، ومنها على سبيل المثال: المشقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحظورات، وارتكاب أخف الضررين. ومن معالم الوسطية في الإسلام أيضًا، وسطية المنهج: وقد تبدت في أمور منها كثيرة:- .

أسبقيات في الفهم: فالتصور الإسلامي الصحيح يدرك أن تكاليف الإسلام ليست كلها على درجة واحدة من الأهمية بل فيها ما هو فرض، وما هو نافلة، والنظرة الوسطية تقتضي أن نقدم الفرض على النافلة، والمتعدي النفع على اللازم، والكلي على الجزئي.

.مرحليات في البناء: والمرحلية تتطلب تنزيل ما هو أزلي مطلق على ما هو عصري حادث؛ حتى لا يكون السعي بعيدًا عن الواقع، عديم التأثير، صادًّا عن سبيل الله، بعيدًا عن هدي الإسلام ومقاصده، ومما قرره العلماء أن التطبيق العملي للشريعة الإسلامية يجب أن يراعى فيه التدرج، بخلاف الفكرة؛ التي يُطلب فيها الشمول والإحاطة.

تكامل في السلوك: والإنسان إنما هو قبضة من طين، ونفخة من روح، أودع الله فيه عقلًا وجسدًا وروحًا، وجعل غذاء العقل المعرفة، وغذاء الجسد الطعام، وغذاء الروح التزكية، وغذاء الوجدان الفن الراقي. ومن معالم الوسطية في الإسلام كذلك، وسطية التجديد والاجتهاد، وهنا يجب أن نعلم أنه لن يكون للمرونة والسعة أي معنى إذا تحول النص الظني - دلالة أو ثبوتًا، أو دلالة وثبوتًا- بسبب اجتهاد إلى نص قطعي في حق غير المجتهد، وبالمقابل ينبغي الإبقاء على النصوص القطعية قطعيةً، فلا تنالها يد التغيير

والتبديل، يتحول بسبب اجتهاد إلى نصوص ظنية، بعد أن كانت في أصلها قطعية. ومن معالم الوسطية في الإسلام كذلك، وسطية الأحكام، فوسطية الإسلام تُعظم الأصول التي يقوم عليها بناؤه، وتصونها عن أن تمتد لها يد التلاعب بتبديل وتحريف، أو بمحاولة إفراغها من معانيها ودلالات مضمونها، وعلى النقيض من تعظيم الأصول ترعى الوسطية التيسير في الفروع، دفعًا للحرج، ورفعًا للأغلال والآصار، وهو منهج نبوي قائم على مبدأ، ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما. ومن معالم الوسطية أيضًا، وسطية التفاعل الحضاري، فالإسلام دين تبدت قدرته على التعايش مع كل الجماعات البشرية غير المحاربة، على مر الدهور والأيام، بما شهد له العدو قبل الصديق، لكن ذلك التعايش كان محكومًا على الدوام بضوابط، منها: أنه يؤمن بالتعددية الحضارية الثقـــافية التشريعية والسيـــاسية والاجتماعية (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)، وأنه يعمل على تنمية آفاق التواصل الحضاري، ومن ذلك الإفادة من الآخر في المنهج العلمي في الكونيات، والنظم الإدارية المتقدمة، وتجديد الإحساس بقيمة الوقت، وقيمة العدل. وختاماً؛ نوضح أن الوسطية اعتزاز بلا استعلاء، وتسامح بلا هوان، فالمسلمون ما فتئوا- في وقت الاستضعاف، وشيوع الظلم والإجحاف- يرتكزون على اعتزازهم بهذا الدين، وما به من قيم حق وعدل وفضيلة، فإذا أورثهم الله الأرض ومن عليها، لم يُر منهم استعلاء ولا تكبر، ولا بطر للحق ولا غمط للناس، ولا "تصفية لحسابات قديمة"، والتاريخ يشهد بذلك، غير أن هذا التسامح الكريم، والتعامل الشريف، والمخالقة النبيلة؛ التي يبديها الإسلام للمخالف، لا يجوز أن ينظر إليها في إطار غير إطارها، فيظن بالإسلام وأهله ضعفًا وهوانًا، يفضي بهم إلى أن يذوبوا في غيرهم من الكيانات البشرية.



من سلبيات الخطاب الإسلامي المعاصر

مما ينبغي أن يكون في صلب أولويات الخطاب الإسلامي المعاصر العمل على تحديد المفاهيم وضبط الاصطلاحات؛ لأنها عملية في صميم قضية الهُوية.

فالاصطلاحات ـ كانعكاس للجوهر الحضاري- ليست سوى منظومة فكرية، يفترض فيها الانسجام والتكامل؛ وذلك لأن الإنسان - بوصفه فردًا، وباعتباره جزءًا من مجتمعه وأمته- يعبر عن رؤيته للواقع والوقائع من خلال اللغة، وطريقة تعبيره تؤثر بدورها في الرؤية، فنحن كما نخلق طريقة تعبيرنا نتأثر كذلك بالنظام الإشاري الذي نستخدمه.

وإذا كان الحوار بمختلِف صوره (حوار المسلمين فيما بينهم، وحوارهم مع غيرهم) هو طريق النجاة من الاستقطاب الفكري المدمِّر؛ فإن تحرير مضامين المصطلحات، واكتشاف مناطق التمايز في المعاني والمفاهيم مهمةٌ أساسيةٌ وأَوَّليةٌ بالنسبة لأي حوار جادٍّ، يروم إنقاذ حياتنا الفكرية من خطر التعصب والاستقطاب، ويوجد بين الفرقاء والمتحاورين لغةً فكريةً مستقيمة.

وعدم العناية الكافية بهذا الباب من أبرز سلبيات الخطاب الإسلامي المعاصر.. وقد أورث هذا أخطاءً فادحةً في الفكر والحركة جميعًا!.

فالاختلال في فهم مصطلح "الحاكمية" أدى إلى الوقوع في براثن تكفير الأنظمة بإطلاق، دون تفريق بين "الحاكمية القدرية" و"الشرعية المطلقة" للخالق (جل وعلا)، وبين حاكمية سلطة الاجتهاد فيما لا نص فيه، أو فيما جعله الشارع الحكيم محلا للاجتهاد.

كما أن الغلو في مصطلح "الجاهلية" أدى إلى تكفير المجتمعات، دون مراعاة للحد الفاصل بين "جاهلية الاعتقاد" و"جاهلية العمل".

كما غدا الغلو في فهم مصطلحات "الفرقة الناجية" و"الطائفة الظاهرة" و"الجماعة المسلمة" منطلقًا للتكفير المذهبي، دون اعتبارٍ لسياقات النصوص، وإنزالها حسب مراد الشرع الحنيف.

وأسهم التنطع في مصطلحي "الجهاد" و"الحسبة" إلى إيقاع العنف الفكري والسلوكي، والذي كان حصاده ـ ولا يزال- مُرًّا، باهظ الكُلْفة.

ومن هذه المصطلحات؛ التي أدى اختلال ضبط مفاهيمها إلى ما ذكرنا من أخطاءٍ فادحة في الفكر والحركة.. وهي مجرد نموذج على ما وراءها، مما لا يسمح به المقام:

الموالاة والمحادَّة، فالقرآن الكريم يزخر بنصوص تنهى عن موالاة غير المسلمين، وتقرر أن الولاء عندما يقع النزاع إنما يكون لله ولرسوله، غير أن هذا الأصل محاط بضوابط، تحول دون تحوله إلى عداوة

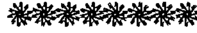
دينية، أو بغضاء محتدمة، أو فتنة طائفية مثل:

- النهي ليس عن اتخاذ المخالفين في الدين أولياء بوصفهم شركاء وطن، أو جيران دار، أو زملاء حياة، وإنما هو عن توليهم بوصفهم جماعة معادية للمسلمين، تحآد الله ورسوله؛ لذلك تكررت في القرآن عبارة (من دون المؤمنين)؛ للدلاله على أن المنهي عنه هو الموالاة التي يترتب عليها انحياز المؤمن إلى معسكر اعداء دينه وعقيدته.

- المودة المنهي عنها هي مودة المحآدين لله ورسوله؛ الذين (يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ) (الممتحنة: ١).. لا مجرد المخالفين ولو كانوا سلمًا للمسلمين.

- غير المسلم الذي لا يحارب الإسلام قد تكون مودته واجبة، كما في شأن الزوجة الكتابية، وأهلها؛ الذين هم أخوال الأبناء المسلمين.. فمودتهم قربة، وقطيعتهم ذنب.

- الإسلام يُعلي من شأن الرابطة الدينية، ويجعلها أعلى من كل رابطة سواها، ولكن ذلك لا يعني أن يرفع المسلم راية العداوة في وجه كل غير مسلم؛ لمجرد المخالفة في الدين، أو المغايرة في العقيدة.



أسس التعايش في عصر العولمة

إن أعظم ما نهدف إليه أن يلتقي العالم على نظام عام، ينهض على قيم المساواة، والحق في الاختلاف، والعدل في الحقوق والواجبات، والاعتراف المتبادل، والاحترام للخصوصيات، والوفاء بالعهود، والعمل على تعزيز المشترك الديني والإنساني والحضاري.

وفي ظل هذه العولمة ينبغي التواضع على أسس لتعايش الثقافات، تقوم على هذه المعالم:

- المساواة العادلة بين بني البشر؛ فالإسلام قد ساوى بين الناس، وردهم إلى أصل واحد ؛ لأن ربهم واحد، وأباهم واحد، قال (تعالى): (يَا أَيُّهَا النَّاسُ.. إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ ؛ لِتَعَارَفُوا...) (الحجرات: ١٣)، وقال النبي (عليه الصلاة والسلام): "يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كُلّكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على أعجمي، ولا أعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا أبيض على أحمر فضلٌ.. إلا بالتقوى" (الترمذي).

- احترام الاختلاف والتنوع بين الناس؛ فقد حفلت الآيات القرآنية بما يدل على أن تنوع الخلق مقصود من قبل الخالق، وأن له حكمًا كثيرة، ومنها قوله (تعالى) : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ) (البقرة: ١٦٤).

ولا ريب في أن التنوع ضروري لتحقيق التعارف؛ الذي هو مقدمة للتعاون البنّاء، ولتحقيق أهداف الخلق الإنسانية، وهو أدعى للتنافس في الخير؛ لتحقيق الدفع التكاملي المطلوب، بما فيه التسخير المتبادل للطاقات، والتعاون اللازم للإنسانية.

- توسيع دوائر المشترك الإنساني؛ حيث يتحرك البشر في دوائر ثلاث، تمثل دوائر المشترك الإنساني، وهي تمثل الحد الأدنى؛ الذي يلتقي عليه أغلب البشر.

× وهذه الدوائر الثلاث هي: دائرة القيم الإنسانية؛ فكل الناس تبحث عن قيم العدل والسلام والإخاء الإنساني، وكل الناس تُبغض وتنفر من الجور والطغيان.

× ودائرة المبادئ الدينية؛ حيث تدين كثير من شعوب الأرض بديانات تلتقي على قواسم مشتركة، مثل: الإيمان بالله واليوم الآخر والنبوات والمعاد والحشر، وعلى مشروعية العدل، وحرمة الظلم والجور.

ومما يُسهل الحوار بين أتباع الأديان ذات الأصل السماوي الواحد: أنها جميعًا تؤمن بنظرية الفطرة الإنسانية وتوابعها، وتؤمن بقيم مشتركة كثيرة.

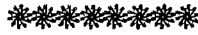
x ودائرة المصالح المتبادلة؛ كقضايا التجارة في المواد الأولية والمصنعة، والطاقة، وحفظ الأمن والسلم الدوليين.. وما إليها، وتقوم الرؤية الإسلامية على احترام تلك الروابط وتعميقها، وجعلها تسير في إطار الصالح العام للبشر جميعًا.

- الإعلاء من قيمة الحوار؛ فالحوار إحدى القيم العليا في المنظومة الإسلامية، وهو يُعَد الوسيلة المثلى للتواصل بين بني آدم؛ حلا للمشكلات، وتجاوزًا للعقبات، وحسمًا للقضايا؛ حيث لها تأثير مباشر على حركة الحياة؛ إذا ما التزمها الناس أداةً من أدوات التفاهم البشري الرشيد.

وحتى يكون الحوار مثمرًا.. يلزم تأصيله في عقول البشر، ففي عقول الناس تُبنى حصون السلام!، ولإنشاء قاعدة عامة للوجود الإنساني يجب على الحوار أن يركز على أهمية القيم المشتركة؛ التي تعطي معنًى للحياة، وتقدم شكلًا ومضمونًا للهويات.

وإذا كان الحوار هو مقتضى الترابط ووحدة المصير الإنساني من جهة؛ فهو البديل الموضوعي للصراع من جهة ثانية!.

والحوار الجاد بين الحضارات يؤدي إلى أربع إيجابيات؛ الاعتراف المتبادل، اكتشاف القيم المشتركة، التعايش السلمي بينها، والتعاون في المجالات التي تخدم الإنسانية، وهي ما يمكن أن نشكل بها قاعدة قيمية، ينطلق منها أي تعاون مشترك، في مجال بناء رؤى تلتقي عليها الأمم والحضارات.



منطلقات الخطاب الإسلامي المعاصر

الخطاب الإسلامي المنشود لا بد له أن ينطلق من ركائز جامعة.. تحيط بالمطلوب، وتستوي في المنشود، وأهم هذه الركائز يتمثل في ربانية المصدر والغـــاية؛ فالخطـــاب الإسلامي يجب أن يكون ربانيًا في مبدئه ومصدره.. من الله يصدر، وإليه ينتهي، كما يجب أن يكون ربانيًا في غايته ووجهته، يرمي إلى أن يعرف الإنسان لوجـــوده غاية، ولمسيرته وجهة، ولحيـــاته رسالة، فيجتمع شتيته، ويأتلف شعثه، ويتوحد همُّه، ويطمئن قلبه.

عالمية الوجهة؛ الخطاب الإسلامي عالمي المنـــزع والوجهة، لا يحفل بجنس، ولا يتحيز لعِرق، ولا يتكتل في لون، ولا ينكفئ على صفوة من الناس مختارة، بل هو خطاب للناس جميعًا، على اختلاف مستوياتهم وأجناسهم.

إنسانية المنطلق؛ فالنزعة الإنسانية هي لحمة الخطـــاب الإسلامي وسداته، وأول نداء في القرآن كان نداءً للناس كافة: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

وسطية المنهج، فالخطاب الإسلامي يراعي التوازن بين العقل والوحي، بين المـــادة والروح، بين الحقوق والواجبات، بين الفردية والجماعية، بين الإلهام والالتزام، بين النـــص والاجتهاد، بين الواقع والمثـــال، بين الثابت والمتحول.

إيجابية البناء، وهي نقيض السلبية؛ التي لا ترى الدين أكثر من عقيدة في الصدور، وعلم في السطور، وتمائم في النحور، وعظماء في القبور، وتقصيه عن أن يكون منهج حياة، ودافع بقاء، وباعث عمارة، ومنشئ حضارة.

مرحـــلية التدرج، غاية الخطاب الإسلامي الوصول إلى المثل الأعلى، والوجه الأسنى، لتطبيق الدين في واقع الناس، لكن ذلك لا يدعونا إلى أن نغمض أعيننا عن الواقع الذي نعيشه.

شمول الفكرة بلا اجتزاء؛ فرسالة الإسلام هي "الرسالة التي امتدت طولا حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضًا حتى انتظمت آفاق الأمم، وأمتدت عمقًا حتى استوعبت شئون الدنيا والآخرة".

ارتباط بالأصل واتصال بالعصر؛ فالخطـــاب الإســـلامي يبـــرز خصوصية الأمة وتفردها، ويرتبط بأصوله؛ لذلك فهو ليس مبتوتًا عن تالد ماضي المسلمين، وناصع سيرة الصالحين، بيد أنه لـــيس رهينًا لذلك الماضي، حبيسًا لنتاج أولئك العظماء الميامين، بل يدرك كم ترك الأول للآخر، فالزمان غير الزمان، والبيئة غير البيئة، والمشكلات غير المشكلات.

واقعية بلا تسيب، وهي نقيض المثالية الخيالية؛ التي لا تتحقق في عالم الواقع، والخطاب الإسلامي خطاب

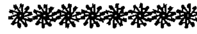
واقعي؛ لأن مصدره هو الله، خالق الموجودات، والعالم بالممكن والمحال، والمستطاع وغير المستطاع.

تنوع بلا تضاد، بما أن الخطاب الإسلامي خطاب عام للعالمين، والعالمون مختلفون في ميولهم النفسية، واستعداداتهم الفطرية، وطاقاتهم الذاتية؛ لذلك لا بد للخطاب الإسلامي أن يكون متنوعًا.

علمية بلا تهريج؛ فالخطاب الإسلامي خطاب عملي، يراعي اختلاف الظرف والمكان، ويجمع بين الأصالة والمعاصرة، ويفرق بين الثابت والمتغير، والمبدئي والمرحلي، ويعمل على حشد طاقات الأمة وتعبئتها.

حكمة بلا تهور؛ والحكمة هي إنزال الشيء في أليق مواضعه، وهي شأن الرسول (صلى الله عليه وسلم)؛ الذي أدبه ربه، فأحسن تأديبه، ووجهه إلى أفضل أساليب الخطاب، فقال (عز وجل): (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ).

صدع بالحق بلا انهزام، الخطاب الإسلامي يجهر بفكرته في وضوح وقوة، ولا يطلب رضا المخالفين باعتذار، أو تبرير لأحكامه، بل ينطلق إلى إبراز الحقائق، وبيان اختلال معايير الغرب، وشقائه؛ لبعده عن الإسلام.



منطلقات الخطاب الإسلامي المعاصر

يجب على الخطاب الإسلامي المعاصر أن يسعى إلى سد الفراغ، وتكثيف الجهود، وجبر النقصان في عددٍ من القضايا الملحة؛ التي لا تحتمل تسويفًا أو إبطاءً؛ حيث تتجاذب الأمةَ محاولاتُ التفريق والتفتيت؛ التيٍ تهدف إلى تخليتها عن ثوابتها، وخصوصياتها الثقافية، وهُويتها الحضارية، في ظلٍّ دعاوَى كَفالة الحريات، وتعميم الحداثة، واللَحاق برَكْب العولمة!.

كما يتعين صونُ الفكر الإسلامي عن الفهم السقيم بسبب خرافاتٍ في العقيدة، ومبتدعاتٍ في العبادة، وسلبياتٍ في التربية، وجمودٍ في الفكر، وتقليدٍ في الفقه، وتفريطٍ في السنن.

ولا شيء يتصدى للوقاية من هذه الأدواء جميعًا وعلاجها غيرُ المنهج الوسطي؛ الذي يكفُل للأمة أن تعيش زمانَها، وأن تتكيفَ مع واقعها، من غير أن تذوب هُويتُها، أو أن تتخلّى عن حقها، في أن تكون لها شصيتُها الحضاريةُ المستقلةُ.

إن استعادة الريادة الحضارية، والسيادة العالمية، لأمة الإسلام، تتطلب المصالحة الشاملة بين فعاليات الأمة، والتعاون التام بين دوائر النفوذ فيها، وخاصة المصالحة بين العاملين في الحقل الإسلامي، فيمكن لجماعات العمل الاسلامي أن تعمل على توحيد الكلمة، عبر تفهم أن الإجماع على أمر واحد في فروع الدين مطلب مستحيل، بل يتنافى مع طبيعة هذا الدين، والاختلاف ضرورة واقعة تتطلب منا رد التنازع إلى الله ورسوله، والإيقان بأنه لا عصمة لأحد إلا للنبي (صلى الله عليه وسلم)، وتصحيح النية، وتحري أن يكون القصد هو وضوح الحق، وبلوغ الصواب، وإحسان الظن بعلماء الأمة، وتوقيرهم، والتماس العذر لهم.

وكذلك ضرورة الجمع بين النصوص والأقوال قبل القطع بالحكم عليها من خلال نص واحد، مع مراعاة السياق اللفظي والمعنوي والظرفي، فيحمل المبهم الخفي على الواضح الجلي، والمشكل على المفسر، والمجمل على المفصل، والعام على الخاص، والمطلق على المقيد، ويرجح المنطوق على المفهوم، والعبارة على الإشارة، والمتأخر على المتقدم؛ وذلك تحقيقًا للإنصاف.

كذلك ضرورة حمل الكلام على أحسن المحامل إن اتسع لها التأويل، وساغ لها الفهم، ومسالك الأئمة كثيرة في هذا المعنى، وأنه لا يحل التشنيع والإرجاف على طائفة ما بسبب مسائل تحتمل وجوهًا في الفهم، ومتسعا للرأي، ومسرحًا للنظر، ولا يحل التضليل والتكفير لخطورتهما، وإدراك أن الاتفاق العام على أصول المنهج لا يلزم منه الاتفاق على تفاصيله، والمخالفة الفرعية لا تخرج المرء عن أصول المنهج،

ومن ذلك اختلاف السلف في بعض فروع العقيدة، كمسألة رؤية الرسول (صلى الله عليه وسلم) ربه في المعراج، وتفاضل الصحابة، ونحو ذلك.

وضرورة التوسط والاعتدال حتى عند شنآن العداوة، واستحكام الخلاف، فلا بد من الإنصاف والنظر بعين العدل، وأن الأئمة والدعاة المشهود لهم بالإمامة في الدين تنغمر سيئاتهم في خضم حسناتهم وفضائلهم، فلا ينبغي الحرص على تتبع سقطات الأعلام، وعثرات الهداة، بل نُثبت لأهل الفضل والسابقة فضلهم وسابقتهم.

وأنه إن لم تتضح الحجة عند الاختلاف عذر كل أخاه، ووكل سريرته إلى الله (عز وجل)، و داوم على أخوته، فنعمل فيما اتفقنا عليه من الأصول والكليات والقطعيات والمحكمات، ويعذر بعضنا بعضًا في الفروع، مما للاجتهاد فيه نصيب، وللنظر فيه مسرح، وللرأي فيه متسع أي بضابط إمكان الاجتهاد- في مثل هذا القدر من الخلاف؛ الذي يسمح به المنهاج.

والقبول بمبدأ التعددية الحركية، وأن تسعى كل جماعة لما وهبت نفسها له، وإبقاء الألفة والأخوة، ورعاية الحقوق، وصون الحرمات، والوقوف في خندق واحد إزاء قضايا الأمة الكبرى، وهمومها المصيرية.



الخطاب الإسلامي المعاصر بين الثنائيات والتقابلات

مضمون الخطاب

يُعرَّف الخطاب الإسلامي تعريفًا أوَّليًا بأنه: الخطاب الذي يستند لمرجعية إسلامية، من أصول القرآن والسنة، وأيٍّ من سائر الفروع الإسلامية الأخرى، سواء أكان منتج الخطاب جماعة إسلامية، أم مؤسسة دعوية رسمية أو أهلية، أم أفرادًا متفرقين، جمعهم الاستناد للدين وأصوله، مرجعيةً لرؤاهم وأطروحاتهم، ولإدارة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية؛ التي يحيونها، أو للتفاعل مع دوائر الهُويات القُطرية أو الأممية، أو دوائر الحركة الوظيفية؛ التي يرتبطون بها، ويتعاطون معها .

يجب أن يحرص الخطاب الإسلامي المعاصر على مراعاة التلازم بين الظاهر والباطن وتكاملهما.. بإقامة الشعائر والمناسك الظاهرة، ومراقبة الخواطر والمشاعر الباطنة.. وهذا ما يجعل المسلم سائرًا إلى ربه سَيْرًا صحيحًا، موافقًا للمطلوب منه: ظاهرًا وباطنًا، بحيث يتوازن كمالُ الهَيئات الظاهرة مع جمال الكَيفيات الباطنة، بمراعاةٍ تامة لِفقْهَي الظاهر والباطن، وأعمال القلوب والجوارح.. تزكيةً وإحسانًا.

ويجب أن يؤكد الخطاب الإسلامي على ضرورة احترام تراث الأمة بوصفه إنجازًا بشريًّا حاول فيه أسلافُنا تقديمَ أفضل ما عرفوه ورأوه نافعًا للفرد والأمَة في زمانهم، والتعامل معه دون تقديسٍ ولا تبخيس، ودون الاستنامة إليه أو القطيعة معه. بل.. بالنظر الفاحص، والتأمل الواعي، والقراءة الناقدة.. تقديرًا للجهود المبذولة فيه، وتسديدًا لخطئها، وإكمالًا لنقصها، ولنبنيَ عليها من ثَمَّ -بما يناسب تغيُّرَ الزمان والأحوال- ثقافةً معاصرةً، تحقق مقاصد الشرع، وترعى مصالح الخلق.

ويتعين تجديد الخطاب الإسلامي، وإعادة النظر في كثير من قضاياه الفكرية، ومفاهيمه الحاكمة، والممارسات السلوكية المرتبطة به، ولكن ليس لأن مصلحة قوىً مهيمنةً - هنا أو هناك- تدعو إلى ذلك، من خلال تبديد دور الإسلام وحضوره في المجتمعات المسلمة، وليس استجابة لدعوات الاغتراب الحضاري، وعلمنة الإسلام، وتفريغه من محتواه الكفاحي.

التجديد لا يعني الهدم والتبديد، التجديد يعني الإبقاء على الطابع الأصيل، والخصائص المميزة والأسس الثابتة، ولنتذكر كلمة الأمير شكيب أرسلان بهذا الصدد: "إنما يضيع الدين بين جامد وجاحد.. ذلك ينفر الناس منه بجموده، وهذا يضلهم عنه بجحوده!".. ومن لم يتجددْ ؛ يتبددْ!، ومن لم يتقدمْ ؛ يتقادمْ!.

ومع وجوب الإيمان بقَدَره (سبحانه وتعالى).. فقد حض الشارعُ الحكيمَ على مدافعة الأقدار بأضدادها، وهذا ما أشار إليه عبد القادر الكيلاني في كلمته العالية، وعلّق عليها ابنُ تيمية بكلام نفيس: "وهذا الذي قاله الشيخُ تكلّم به على لسان المحمدية، أي إن المسلم مأمورٌ أن يفعل ما أمر الله به، ويدفعَ ما نَهَى الله عنه، وإن كانت أسبابُه قد قُدِّرت.. فيدفعَ قَدَرَ الله بقَدَر الله ، فقد قيل لرسول الله (صلى الله عليه وسلم): يا رسول الله.. أرأيتَ أدويةً نتداوى بها، ورُقىً نَسْترقي بها، وتُقىً نَتَّقيها.. هل تَرُدُّ من قَدَر الله شيئًا؟! فقال: "هُنَّ من قَدَر الله" (رواه الترمذي، وقال : حَسَنٌ صحيح)".

وينبغي أن يكون مضمون الخطاب الإسلامي مبنيًّا على التأصيل المنهجي المعتبر لدى أهل العلم، والعرض ينبغي أن يكون بأساليب تناسب الأشخاص والأحوال، فلا يُغني كونُ الفكرة حقًّا وخيرًا عن ضرورة مراعاة جماليات عَرضها وطَرحها، وإلا.. فكم من حَقٍّ ضَيَّعه أهلُه بسوء عرضه!، وكم من خير لم يَلْقَ مُجيبًا بقُبْح الدعوة إليه!، والأمر في هذا يتلخّص فيما قال الحكماء: "من حُسْن القيام : مراعاةُ المقام".

ويجب أن يخاطب الروح والعقل والجوارح جميعًا.. بالتركيز على إظهار القيم الجمالية في الإسلام، وربطها بالعقيدة، وتبيان مظاهر الجمال والزينة في كل أرجاء الكون.



المرأة قبل الإسلام وبعده

لم تنلِ المرأة قبل بزوغ شمس الرسالة المحمدية عناية إنسانية رشيدة، وحقوقًا قانونية منصفة، ومكانة اجتماعية مرموقة، تمكنها من أداء رسالتها في الحياة، فكانت تُعَد من سقط المتاع عند اليونان، وسلعة تُباع وتُشترى في الأسواق، ليس لها أن تبرم أمرًا دون وليها، ولا حق لها في ميراث، ولا حرية لها في اختيار، وقد بلغ من هوانها عند الهنود أنها كانت تُحْرَم من حق الحياة بعد موت زوجها، فتحرق معه وهي حية، في مرقد واحد، ولم يكن حالها بأفضل كثيرًا عند الرومان في بدء حضارتهم، بيد أنه بعد الازدهار العلمي في محيطهم القانوني طرأ تحسن يسير في وضعها؛ إذ تحولت سلطة وليها من سلطة مِلك إلى سلطة حماية، وانحصرت أسباب قصور الأهلية عندهم: في السن والإدراك العقلي والجنس أي الأنوثة.

أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد حرفوا الكلم عن مواضعه، حيث نسب اليهود إلى التوراة أن المرأة أمرُّ من الموت، وأنها لعنة؛ لغوايتها آدم (عليه السلام)، واعتبرتها الكنيسة أُس البلاء، ومنزع الشقاء، وأحبولة الشيطان، ودنس الفضيلة، وخلص مجمع (ماكون) ، إلى أنها خلو من الروح الناجية من عذاب جهنم، إلا أم المسيح (عليه السلام).

ولم يكن شأن العرب في الجاهلية بأوفر حظًا، إذ كانوا يتشاءمون من ولادة الأنثى، ويتوارون خجلا إذا بشر أحدهم بها.. مع وأدها وهي حية؛ خوف العار والفقر، وحرمانها من حقها في الميراث.

فجاء الإسلام تحريرًا لها من أغلال المعتقدات الزائفة، ووضعًا للآصار التي كانت عليها، وغدت موضع العناية والتبجيل، شقيقة للرجل.. وأحق الناس بحسن صحابته أمًا، وبابه إلى الجنة بنتًا، ومناط خيريته زوجة؛ فالمرأة في معهود الشرع كائن مكرم، وشريكة الرجل في مهمة الاستخلاف وإعمار الأرض بالخيرات رفدًا، وبالصالحات أعمالا، وبالطاعات تسابقًا، وبالجزاء مثوبة، فهما سواء في وحدة الأصل الإنساني؛ إذ كلاهما من نسل آدم، ومن نفس واحدة: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً) ، وهي في موضع التكريم الإلهي مع الرجل: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) .

وهي صنو الرجل في استقلال المسئولية وتحمل التكاليف، وتلقي المثوبة: (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) ، إذ الأصل في خطاب الشارع أنه موجه لكليهما، بدءًا من تقرير الكرامة، وانتهاءً بالمسئولية الجنائية، إلا ما استثني بقيد بيِّن، بناءً على مقتضيات الفطرة، في التمييز بينهما، قال (تعالى): (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ) ، كما جاء

في الحديث: "إنما النساء شقائق الرجال"، والشقيق مثل النظير، مما يؤكد الأصل في إثبات المساواة في الحقوق والواجبات، واختلاف التكوين يفضي إلى تكامل الأدوار، وتوزيع المهمات في تناغم وتناسق (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى) ، فإذا كان الليل والنهار يشتركان في جنس الزمن ولكل منهما مهمة.. فالمرأة والرجل متسقان في جنس الإنسان ولكل منهما دور منوط به، في تعاضد وتناصر.



مبادئ وقواعد للحوار بين المذاهب

إن للحوار بين المذاهب ضوابط وآدابًا، لابد أن تراعى؛ حتى يؤتي الحوار ثماره، ويأتي بنتائجه المرومة، ويكون وسيلة فعالة من وسائل إصلاح الفرد والجماعة، وإذا لم يلتزم أهل المذاهب بهذه الآداب والضوابط والقواعد، فلا داعي للحوار، ولا فائدة من الاجتماع والتلاقي؛ لأنه حينئذ ربما يؤدي إلى نتائج عكسية، حيث اتساع الفجوة بين الأطراف، وازدياد الأزمة الفكرية والعملية، ويصبح وسيلة لضياع الوقت وتمييع القضايا، وإضاعة حقوق العباد والبلاد.

ومن مبادئ وضوابط الحوار سلامة المقصد والتجرد لبلوغ الحق، فتوفر الإخلاص لله، وحسن النية، وسلامة القصد، في الحوار والمناظرة، مما يضبط الحوار، ويجعله مثمرًا، وأن يبتعد المناظر عن قصد الرياء والسمعة، ويتجرد في طلب الحق، والانتصار على النفس، ويبتعد عن انتزاع الإعجاب والثناء، وإظهار الغلبة، والمجادلة بالباطل، والتحلي بآداب الحوار.

وهناك مجموعة من الآداب الخُلُقية لا بد أن يراعيها المتحاوران؛ كي يكون الحوار جادًّا ومنتجًا ومركزًا، وأبرزها حسن الاستماع للطرف الآخر، فالحوار مسألة تبادل للآراء، وليس مجرد إرسال من طرف واحد واستقبال من الطرف الثاني، وأن يحسن كل طرف الاستماع إلى آراء الطرف الآخر، فلا يغفل عن الاستماع استهوانًا أو تسفيهًا لآراء الآخرين، ولا يتمادى في الحديث؛ حتى يجور على الوقت المخصص للآخرين.

التعرف على الآخر من مصادره لا من الإشاعات وألسنة العوام، وهذا خلق إسلامي أصيل، وينبغي ألا نعتمد الكلام الشائع أو حديث العوام في تقييم الرجال، والحكم على المذاهب والأفكار، وحتى لا يصح أن نستمع إلى آحاد الناس يحكم على رجل أو مذهب أو تيار، ثم نسلم له بكلامه دون الرجوع إلى ذلك المذهب أو هذا التيار، والبحث في مصادره عن هذه الأفكار، وتلك الأحكام، وهذا من صميم التثبت والتبيّن.

التنازل من كلا الجانبين، وليس المقصود بالتنازل هنا أن يتنازل كل واحد عن ثوابته أو يذوب في الآخر، إنما المقصود أن يتم التنازل عن بعض الفروع مع التفاهم في التلاقي على الأصول والكليات؛ لأن ذلك من ضروريات إنجاح الحوار، وهي كذلك من الأمور التي تضبطه، وتجعله يحقق ما يُراد منه.

كما يجب عدم تتبع سقطات وعثرات الأئمة والدعاة الهداة، وبخاصة الذين تنغمر سيئاتهم في حسناتهم، ولا سيما أثناء الحوار؛ لأن هذا من شأنه أن يوغر الصدور، ويخرج الحوار عن أهدافه ومقاصده، كما قيل:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحدًا فأفعاله اللائي سررن ألوف

اتباع منهاج للتعامل في الفروع والجزئيات، وهو من أهم القواعد في قضية الحوار بين المذاهب في هذا التوقيت، بل في كل توقيت، بعد الاتفاق على التعاون في المتفقات، وهي الأصول والكليات؛ التي تمثل بنيان الشرع وأساسه.

وأيضًا تنحية مسائل الخلاف جانبًا أمام القضايا المصيرية للأمة، وهذا من القواعد المسلمة والعقلية المنطقية المسلم بها، أن يقدم الاهتمام بالمتفق عليه على المختلف فيه، والمصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وقضايا الأمة على قضايا الطائفة أو المذهب، وما من وقت مر على الأمة الإسلامية احتاجت فيه إلى حشد الحشود، وجمع الصفوف، ولم الشمل، أكثر من هذا الوقت؛ حيث حاقت بالأمة الإسلامية مجموعة غير يسيرة من الاتهامات والتضييقات والضغوطات؛ التي توجب على علماء الأمة ودعاتها بشكل عام، وعلى فصائل الصحوة فيها ومذاهبها بشكل خاص، التوحد ولم الشمل ورأب الصدع، أو التضامن والتلاحم، دون الاهتمام بالفروع والجزئيات، أو محاولة إثارتها.

****

الفتوى في عالم مفتوح: الواقعُ الماثلُ.. والأملُ المرتَجَى

في ظلِّ انقسام أمتنا المؤسف على نفسها، عن مرجعية الفتوى.. أين هي؟، أهي، كما يعتقد الغلاةُ من أهل التكفير والتفجير، عند "علماء الخنادق"؛ الذين لا يرون إلا "الحركةَ" لتغيير الواقع، وإن بالقوة.. أم عند "فقهاء الفنادق"؛ الذين لا يكادون يغادرون مقاعدهم الوثيرةَ تنظيرًا وكلامًا؟!، أم إنها يجب أن تكون عند "حَمَلة العلم العدول"، المبتغين وجهَ الرحمن لا رضا السلطان.. الذين ينفون عن العلم تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين؟!.

كيف السبيلُ إلى مواجهة العلماء الموقِّعين عن ربِّ العالمين تحدِّيَ الوقوع بين مطرقة ضغط الحكَّام وسندان أهواء العوام؟!، كيف السبيلُ إلى أن تكون الفتوى خالصةً لوجه الله، وَفْقًا للمنهجية العلمية المنضبطة وحَسْب.. من غير مَيْلٍ إلى رغبة حاكم، ولا إلى هوى عامَّة؟!.

كيف السبيلُ إلى قراءة التراث قراءةً قويمةً: تحترمه.. بوصفه إنجازًا بشريًّا، حاول فيه أسلافُنا تقديمَ أفضل ما عرفوه، ورأوه نافعًا للفرد والأمة فى زمانهم، وتتعامل معه دون تقديسٍ ولا تبخيس، ودون الاستنامة إليه أو القطيعة معه.. بل بالنظر الفاحص، والتأمل الواعي، والقراءة الناقدة.. تقديرًا للجهود المبذولة فيه، وتسديدًا لخطئها، وإكمالًا لنقصها؟!.

كيف السبيلُ إلى إقالة الأمة من عَثْرتها الحضارية الأليمة، بتفعيل آلية الفتوى في تهيئة المناخ لاستعادة لُحْمة الأمة، والموازنة بين اهتمامٍ واجبٍ بدراسة "نواقض الوضوء" - مثلا- واهتمام أوجب بدراسة "نواقض الحضارة والعمران"؛ التي يجب أن تتطهر منها الأمة عاجلا غيرَ آجلٍ؛ من أجلً استعادة دورها المنشود في رَكْب الإنسانية العام، وتقديم بديلها الرباني: العقلِ الأذكى، والقلبِ الأنقى، والخُلُقِ الأزكى، والفطرةِ الأسلم، والسيرةِ الأحكم؟!. كيف السبيلُ إلى تكريس آداب الحوار وأخلاقيات الاختلاف.. بحيث لا يصير الحوار تحارشًا، ولا يغدو الاختلاف خلافًا، ألا يَصلُح أن نكون إخوانًا وإن اختلفنا في مسألة؟!.

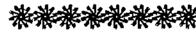
كيف السبيلُ إلى مَدِّ خيط المنهجية المنضبطة فيما يُفتي فيه مفتونا، ويبحث فيه باحثونا.. فنميز تمييزًا واضحًا بين قضايا الأمة الجامعة ونوازلها العامة؛ التي لا يجوز أن يستقلَّ بالفتوى فيها عالمٌ منفردًا (من غير مصادرةٍ لحقِّ كل ذي رأيٍ في إبداء رأيه)، وقضايا الأفراد اليومية ومسائلهم الفرعية؛ التي قد يُحسن التصدي لها مَنْ له أَثارةٌ من علم؟!، ثم.. نميز - تمييزًا واضحًا أيضًا- بين خطاب "أمة الإجابة" من المسلمين والمسلمات، وخطاب "أمَّة الدعوة"؟!.

كيف السبيلُ إلى "مَأسَسة" عملية الفتوى، على مستوى الأمة ككلّ، لتكون صادرةً عن اجتهادٍ جماعيٍّ

يناسب طبيعةَ زماننا، لا سيما فيما يتعلق بقضايا الأمة العامة؟، ثم.. كيف السبيلُ إلى تأمين استقلالية مؤسسات الفتوى المنشودةِ هذه، بأن تكون لها مواردُها الماديةُ الخاصةُ؛ التي تحفظ لها الانسياق وراء هوى من ذات اليمين أو من ذات اليسار.

نجد طَرفًا من المتصدين للفتوى عبر وسائل الإعلام المختلفة يشغل الناس - وبغير منهج قويم غالبًا- بالجزئيات والمسائل الهامشية والمفرِّقة، يكرِّس الهزيمة، ويصنع التخلف.. في الوقت الذي تكاد الأمةُ تُجتَثُّ من جذورها، فيما يمثِّل خيانةً فظيعةً للمنهج الرباني؛ الذي كُلِّفنا بحمله وبلورته، والدفاع عنه!.

وفي مشهدٍ موازٍ من هذا الواقع نجد طَرفًا آخر يروِّج ثقافةً تفرِّق ولا تجمِّع، يتربص بالمخطئ المهالكَ ولا يرحمه، يعلن النفير الفكري على المجتمعات المسلمة، ويرفع عليها السلاح أحيانًا، يقاتل من غير ضابطٍ ولا عُدَّة بدعوَى الجهاد، يضيِّق على الخلائق في أفكارهم ومعايشهم ومَغداهم ورَواحهم باسم الاحتساب.. حتى إنه لينفِّرُ المسلمين، ويقيم الحُجَّةَ المعكوسةَ لغير المسلمين على المسلمين!



مرتكزات حوار الحضارات

حتى يمكن الحديث عن حوار حضارات بالمعنى الحقيقي، بعيدًا عن المصالح السياسية لقوى معينة، أو دول بعينها، وبعيدًا كذلك عن الانسياق وراء أطروحات قد لا تعبر عن حاجات إنسانية حقيقية، وحتى يمكن تأسيس هذا الحوار على قواعد معرفية مستقيمة ينبغي التركيز على القضايا التالية:

إن مفهوم الحوار في هذا السياق ينصرف إلى المعنى المتعلق بالتحاور، والاختلاف حول الأفكار والقيم والمعايير والأنماط المعرفية والمنهجية وقواعد السلوك والثقافة، وإن هدف هذا الحوار هو الوصول إلى الحقيقة، واعتبارها ضالة ينبغي البحث عنها، والانصياع لها عندما توجد وتُعرف.

إن الاختلاف بين الحضارات سنّة من سنن الله في الكون، وإنه لا يمكن أن يُزال، ومن ثم لا ينبغي السعي لتذويب الفوارق والاختلافات (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) (هود: ١١٩)، وإن هذا الاختلاف والتعدد والتنوّع غايته التعارف والتعايش والإفادة المتبادلة.

إن لكل إنسان، ولكل أمة وحضارة، حق الاختيار وحريته، ومن ثم ينبغي أن يحرر الإنسان من القهر والإجبار، أو الإكراه، أو تزييف الوعي، أو الغزو الفكري، أو غسيل الدماغ، ولا بد أن يؤسس الاختيار على اقتناع، نابع من حرية الاختيار الخالصة.

إن الفواصل الحقيقية بين الحضارات تكمن في النظم المعرفية، والأنساق العقائدية، ورؤى العالم، والمنجزات المادية والنظم الإدارية هي نتيجة لذلك، وليست أساسًا له، ومن ثم ينبغي أن يتم التحاور حول الأسس والفواصل الحقيقية، وليس حول الثمرات والنتائج.

إن التعاون والتعايش بين المختلفين هو وسيلة البقاء للجنس البشري، وليس التصارع والتقاتل.

إن رسالة الإسلام ليست قومية أو عنصرية أو إقليمية، ومن ثم لا ينبغي تجسيدها في قوم أو إقليم، ولكن لها تجليات متعددة ومتنوعة، فإذا نُظِر إلى الإسلام كحضارة، فينبغي ألا تنحصر في الشرق الأوسط، أو العالم العربي، ولكن لا بد أن تشمل جميع الجماعات والمجتمعات الإسلامية.

إن الإسلام لم يعرف في تاريخه مفاهيم التصادم الحضاري أو الحروب الحضارية - كما هي عادة الغرب- ولكنه اقتصر على الأبعاد العسكرية؛ التي تقف فقط عند الجيوش، فلم يعرف تاريخ الإسلام المقاطعة الاقتصادية، أو حصار المجتمعات، أو تجويع الأطفال والنساء، بل كان المسلمون يقومون بتأمين طرق التجارة الموصلة لأوربا.

كذلك، لم يعرف تاريخ الإسلام إبادة لحضارات أو شعوب أو ثقافات، فقد حكم الإسلام مصر ولم تزل آثار الحضارة الفرعونية من أهرامات وتماثيل ونحوها، لكنه عرف تكييف الثقافات المختلفة، والحفاظ

عليها، وتطعيمها بالقيم؛ ولذلك تجد التعدد في الملبس والمسكن والعمران صورة واضحة داخل حضارة الإسلام، لا تكاد تجد لها مثيلا.

إن حوار الحضارات يعني الاعتراف بأن هناك حضارات متعددة، وليست حضارة عالمية واحدة، نسخت الحضارات السابقة لها، ومن ثم فلا بد من إعادة النظر في المناهج والنظريات والعلوم الناتجة عن حضارات عالمنا المعاصر، وليس فقط ما ينتج عن الحضارة العالمية المركزية؛ التي يزعم البعض أنها خلاصة التطور البشري، ونهاية التاريخ.

وطالما أن الحضارات الأخرى لم تزل قائمة فينبغي أن تدخل في حوار؛ لأن هذه العلوم والمناهج والنظريات ستكون موضوعًا للتحاور، ومن ثم لا ينبغي الانطلاق من معطيات الحضارة الغربية، كقاعدة أساسية أو مسلمة، وبذلك يكون من الضروري تطوير العلوم والمناهج الخاصة بحضارتنا، والنابعة من مصادرنا المعرفية، المتمثلة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ثم تطوير مناهج للتعامل مع تراثنا، ومع العلوم النابعة من الحضارات الأخرى؛ حتى نستفيد منها، دون الوقوع في خصوصياتها وتحيزاتها؛ التي قد تعارض وأنساقنا المعرفية والقيمية والعقائدية.



معوقات الحوار بين المذاهب

بعد أن علمنا مسوغات الحوار في هذا العصر وموجباته، ينبغي لنا - قبل أن نبدأ الحوار، ونلتزم بآدابه وضوابطه- أن نزيح من أمامنا حزمة من معوقات هذا الحوار، وهو من باب: "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح" كما يقول الفقهاء، أو "التخلية قبل التحلية" كما تقول الصوفية، وهذا أمر منطقي، فلا حوار في وجود معوقات تعوقه، وتعرقل مسيرته، عن الوصول لأهدافه ومقاصده.

وإذا أردنا أن نصارح أنفسنا، وندع المجاملة وكثيرًا من الكلام النظري - بندواته ومؤتمراته ومحاضراته- جانبًا؛ من أجل مصلحة الأمة، فلا بد قبل إجراء أي حوار أن تكون لدينا رغبة صادقة، وعقيدة قوية، وعزيمة فتية، في تلافي هذه المعوقات؛ لنصل جميعًا إلى ما نصبو إليه، من وحدة وقوة وتماسك واتحاد، لا سيما في ظل هذا العصر، بما يمور به من أحداث طائفية، وعلو في نبرة المذهبية؛ التي ضربت بنارها في كثير من بلادنا، فأدت إلى حرب أهلية، أسالت فيها الدماءَ، وأزهقت الأرواحَ، وهتكت الأعراضَ.

ومن أهم معوقات الحوار والتفاهم والتعايش والتقريب: أن كل مذهب من المذاهب يعيش في حاضره حاملا في ذهنه صورة للتاريخ الذي عفا عليه الزمن، ومستصحبًا منه ما من شأنه أن يفرِّق ولا يجمع، ويهدم ولا يبني، ويبدد ولا يجدد، ويزرع في قلوب الناس وأهل المذاهب الكراهية والبغضاء، لا المحبة والإخاء.

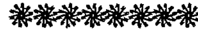
والاختراق المذهبي، ونعني به أن يدعو مذهب الشيعة مثلا لأفكاره في منطقة سنية خالصة لأهل السنة، مثل "مصر"، أو أن يدعو أهل السنة إلى مذهبهم في منطقة شيعية خالصة للشيعة مثل مدينة "قم"، وهذا من العوائق التي تستفز كل الأطراف، وتذهب بنتائج المؤتمرات والندوات وكل الفعاليات؛ التي تقام من أجل الحوار والتقريب والتعايش، أدراج الرياح.

وإبراز كل مذهب أسوأ ما عند الآخر، فلكل أصحاب مذهب عيوب لا سيما في التطبيقات والممارسات العملية، وليست العصمة إلا لله ورسوله، ومن هنا فإن التركيز على إبراز السَّوْآت لكل أحد، وحشدها من القديم والحديث والمعاصر، في سياق واحد، وفي حزمة واحدة، واستصحاب ذلك طول الوقت.

وبعث المذهبية والتعصب الأعمى، باجترار المعارك القديمة، وبأدنى سبب معاصر يحدث بين الفرقاء، ومن صور ذلك إحياء ذكرى كربلاء، وما يحدث فيها من بعث لهذه المذهبية، وإحياء لما حدث فيها، وهذا مما يؤجج مشاعر الغضب والتعصب، واستحضار الماضي، وعدم التنبه لما يدور به الواقع، ويمور به العالم من حولنا، هذا مع تقديرنا الكامل وحبنا الشديد للإمام الحسين، وآل البيت جميعًا.

التوظيف السياسي للمذهبية، ونعني به استغلال بعض أصحاب الطموحات الشخصية البعد الطائفي؛ لتحقيق مكاسب شخصية أو حزبية، فيدعي كل طرف في الساحة الحرص على مصالح الطائفة أو الأمة، وهو في الحقيقة يستغل مشاعر بسطاء الناس؛ لتحقيق مآرب سياسية.

حقيقة الواقع العملي، وذلك أن كل المؤتمرات والندوات والمحاضرات والوثائق، التي تنتهي إلى توصيات وقرارات بشأن التقريب، كل هذا في وادٍ، والواقع العملي بين الناس في وادٍ آخر. صحيح أن إقامة مثل هذه الفعاليات يخفف من غلواء التعصب والفتن والتراشق بين المذاهب، ويخضد شوكته، ويهدئ من سعاره ولو قليلا، لكن يبقى الواقع أيضًا - بما يحمله من عقائد الشيعة التي تظهر في بعض الفتاوى أو التصريحات ضد أهل السنة، وبعض الفتاوى التي تصدر من أهل السنة ضد أهل الشيعة- بعيدًا عن التنظير؛ الذي تنتهي إليه المؤتمرات والمحاضرات، والتوصيات التي تصدر عنها.



د. محمد أبو فارس

مفكر وداعية أردني.



التغيير المؤثر هو التغيير العام المنظم

لقد جاءت الدعوة الربانية بالتغيير، تغيير القيم الجاهلية، والأخلاق الجاهلية، والتشريعات الجاهلية.
تأمل معي – أخي القارئ- قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ) (الرعد: ١١).
وتأمل قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الأنفال: ٥٣).
فالآية الأولى من سورة الرعد، وهي مكية، والثانية من سورة الأنفال، وهي مدنية، والآية الأولى تنص على التغيير في المجتمع المكي الجاهلي، وتطلب التغيير من يوم أن كان المسلمون، بقيادة الرسول – صلى الله عليه وسلم- مستضعفين في مكة، لا صولة لهم، ولا دولة، ولا قوة قاهرة لأعدائهم.
أما الآية الثانية، فقد نزلت بعد الهجرة النبوية، وقيام الدولة الإسلامية، وهي في سورة الأنفال؛ التي حدثتنا عن وجود قوة قاهرة لأعداء الله، قهرتهم في غزوة بدر، فقتلت سبعين من أبطالهم، وأسرت سبعين منهم.
وشبهت ما حصل لمشركي قريش، من قتل وأسر وهلاك، بما حدث لفرعون وجنوده، من هلاك، بسبب كفرهم، وقبولهم تأليه فرعون، والإقرار بربوبيته، من دون الله، وكلمة ذلك إشارة إلى العذاب والهلاك الدنيوي؛ الذي حصل لكفار قريش، كما حصل للطاغية فرعون وجنوده.
وإشارة إلى أن هذا التغيير؛ الذي حصل لفرعون وجنوده، من القوة إلى الضعف، أو الهزيمة، كان بسبب التغيير الذي حصل له، وهذا التغيير كان الإصرار على الكفر، ومعاداة أهل الإيمان، ومطاردتهم، والإصرار على تقتيلهم، وتصليبهم في جذوع النخل، وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، كناية عن إرادة التنكيل بالعصبة التي آمنت، وغيرت ما بأنفسها، من الكفر للإيمان.
والآيتان تنطقان بأن التغيير المؤثر هو التغيير المنظم الجماعي العام؛ الذي يشمله الهيئة الاجتماعية، وليس التغيير الفردي المحدود القليل، غير المؤثر.
فقد يغير فرد أو بضعة أفراد ما بأنفسهم، وتبقى الأكثرية الساحقة قد أغلقت عقولها وقلوبها، على الجمود والرضا بالواقع الآسي، فلن يحدث تغيير على أيدي هؤلاء النفر القليل؛ الذين غيروا ما بأنفسهم.
والدليل على أن التغيير المطلوب، هو التغيير العام الشامل للهيئة الاجتماعية، القائمة على التنظيم والتجميع والجماعة، كلمة قوم في الآيتين، فكلمة قوم هي المجموعة الكبيرة من الناس، رجالا ونساء.
ومن ثم؛ فالذي يقوم بعملية التغيير والإصلاح ليس الرجال فحسب، بل الرجال والنساء، على حد سواء.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (التوبة: ٧١)، وقد سبقتها الآية عن المنافقين والمنافقات؛ الذين يتولون الإفساد، قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ (التوبة: ٦٧).

فإذا كان هناك تنظيم جماعي فاسد مفسد، من الرجال والنساء، فيواجه بتنظيم جماعي مصلح، من الرجال والنساء.

وهذا الذي حدث في عهد الدعوة النبوية، من أول يوم نزلت الرسالة، على قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم-؛ إذ أخذ يتصل بالأفراد، ويدعوهم إلى الإيمان بالله، وتوحيده، وعبادته، ونبذ الشرك، ثم يجمعهم بتوجيه من ربه تحت قيادته، فيستجيبون، ويجتمعون تحت قيادته، وينسلخون من كل ولاء للجاهلية، السائدة في المجتمع المكي الجاهلي، إلى تنظيم مستقل عن تنظيم الجاهلية، من حيث القيادة والمنهاج، والأفراد والأهداف.



الإسلام.. رسالة الإصلاح والتغيير

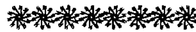
إن أول عقيدة نزلت على الأرض هي عقيدة التوحيد، نزلت مع آدم- عليه السلام-، وعلمها لبنيه وأحفاده، ثم طرأ الشرك بعد مدة من الزمن، فأرسل الله نوحًا - عليه السلام-؛ ليرد البشرية من الشرك الطارئ إلى التوحيد الأصيل، توحيد الله وعبادته، وعدم الإشراك به، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء:٢٥).

وانتهت الرسالات برسالة الإسلام؛ الذي نزل على قلب نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم-، قال تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) (الأحزاب: ٤٠).

إن جميع الرسل، وفي مقدمتهم نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم- لم يُرسَلوا ليتكيفوا مع الواقع الجاهلي، ويوائموا حياتهم وحياة أتباعهم مع هذا الواقع الجاهلي، بل جاءوا وأُرسلوا ليغيروا هذا الواقع الجاهلي، في قيمه وسلوكه وتشريعاته، إلى القيم الإيمانية السامقة، والأخلاق الإسلامية الحميدة، والتشريعات الإسلامية العادلة؛ التي توفر الحرية والسعادة لبني البشر، دون النظر إلى مكانتهم الاجتماعية والعرقية، أو اللون، أو الدم، أو غير ذلك. لقد جاء رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم- يدعو الناس إلى نبذ الشرك وعبادة غير الله "الأصنام"، وغيرها، ومن ثم توحيد الله، وعبادته بكلمة التوحيد "لا إله إلا الله" هذه الكلمة الناطقة بأنه لا معبود بحق إلا الله، ولا مطاع إلا الله، ولا يطاع أحد سواه إلا بإذنه، والمحبوب هو الله، ولا يُحَب أحد سواه إلا بإذنه. وهي تنطق أن الحاكم لحياة البشر هو الخالق؛ الذي خلق، وحكمه يكون بما أنزله على رسوله - صلى الله عليه وسلم. لقد واجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم- الطواغيت، طواغيت مكة والجزيرة والعالم، حين دعا الناس إلى كلمة لا إله إلا الله، يقاومونه ويقاومون دعوته؛ ذلك لأن لا إله إلا الله هي منهج حياة، تنظم علاقة الإنسان بربه وبنفسه وبغيره من الناس، وعلاقة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم، وتدعو إلى أن تكون الحاكمية لله - تبارك وتعالى- وحده. ولقد فهم الأعرابي مفهوم كلمة التوحيد لا إله إلا الله، بأنها تدعو إلى القضاء على الأنظمة السياسية الجاهلية، فهب رجالها يقفون في طريقها، فقد جاء أعرابي للنبي - صلى الله عليه وسلم-، وسأله عن دينه؛ والذي جاء به، فأخبره بكلمة التوحيد: لا إله إلا الله، فقال الأعرابي: هذا أمر تكرهه الملوك! وآخر يقول حين سمع كلمة لا إله إلا الله: هذا أمر ستحاربك عليه ملوك العرب والعجم!. نعم، إنه كان يقول صراحة: قولوا: لا إله إلا الله، كلمة تسودون بها العرب والعجم، وكان - صلى الله عليه وسلم- يتوقع نتيجة هذه الدعوة التغييرية التحريرية للأوطان والإنسان، أن يتعرض للأذى والقتل. ففي الحديث؛ الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه، بإسناده إلى عياض بن حمار المجاشعي، أن رسول

الله - صلى الله عليه وسلم- قال ذات يوم في خطبته: "وإن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم، عربَهم وعجمَهم، إلا بقايا من أهل الكتاب" رواه مسلم. وقال: "إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظان، وإن الله أمرني أن أحرِّق قريشًا فقلت: ربِّ، إذًا يثلغوا رأسي، فيدعوه خُبْزَةً، قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزُهم نُغزِك، وأنفق فسنُنفق عليك، وابعث جيشًا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك". فالمقصود بالتحريق هنا إغاظة كفار قريش، المعادين لله ورسوله، والمقصود بالثلغ القتل والسدغ وسدغ رأسه فقتله.إن ما كان الرسول - صلى الله عليه وسلم- يتوقعه وينتظره قد حصل له، فآذوه بالحملات الإعلامية الكاذبة، واتهموه بالكذب والشعر والكهانة والجنون، وحاولوا قتله أكثر من مرة، فنجاه الله. قال تعالى: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (الأنفال: ٣٠).

ويؤخذ مما سبق، أن على رجال الدعوة الإسلامية ألا يتكيفوا مع الأنظمة الجاهلية؛ التي ترفض تطبيق شرع الله، بل عليهم أن يعملوا على إصلاحها، قال تعالى: (إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ) (هود: ٨٨).



التغيير قانون عام لجميع البشر

إن التغيير قانون عام يشمل المجتمعات الإنسانية جميعها، مؤمنها وكافرها، على حد سواء.

تأمل قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: ١١).

فكلمة قوم، وهي مطلقة غير مقيدة، بوصف أو بشرط، فلم تقيد بالإيمان، وعليه فإن كلمة قوم المطلقة تشمل كل قوم، على اختلاف ألوانهم وأديانهم وبلادهم، فأي قوم من الأقوام، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، غيروا ما بهم من أحوال ومفاهيم وعقائد، إلى أحوال ومفاهيم وعقائد إيمانية، أو إلى غيرها، يغير الله - تبارك وتعالى- إلى ما غيروا، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وكلمة قوم، في آية سورة الأنفال، تتعلق بفرعون وقومه، وقريش ومشركيها، والتي في سورة الرعد المكية عامة، ومطلقة، فكلمة ما من ألفاظ العموم، وكلمة قوم مطلقة.

والله - تبارك وتعالى- قد وضع في الكون والحياة الإنسانية أسبابًا وقوانين، وهذه الأسباب تنتج مسبباتها بتأثير من الله.

ولقد حض الإسلام الإنسان، على أن يبحث في هذا الكون والحياة الإنسانية،

عن هذه الأسباب والقواميس والقوانين؛ حتى يهتدي إليها، ويعمل بها، ومن جملة هذه القوانين قانون التغيير، والمسلمون أولى الناس بذلك.

ونؤكد أن الإسلام جاء بمنهاج عالمي للتغيير، ودل على هذا قوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) (الأعراف: ١٥٨)، فهذه الآية من سورة الأعراف، وهي مكية، تنص على أن المنهج القرآني منهج عالمي، يوم أن لم يكن للمسلمين دولة، بل كانوا مستضعفين، وليس كما يزعم بعض المستشرقين، أن الرسول - صلى الله عليه وسلم- لم يكن في رسالته التوسع خارج مكة والجزيرة العربية، إلا بعد أن أقام الدولة الإسلامية، وكثر أنصاره، وتعاظمت قوته، فدفعه ذلك إلى طموح بنشر دعوته، وتوسيع رقعة الدولة والدعوة.

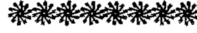
وأكد الرسول - عليه الصلاة والسلام- عالمية منهجه، بقوله في الحديث المتفق على صحته: "وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس كافة".

إن الشواهد كثيرة على عالمية منهج القرآن إلى التغيير، وأنه للمؤمنين ولغير المؤمنين، غيروا ما بأنفسهم يغير الله أحوالهم.

ومن هذه الشواهد، أن أمريكا كانت مستعمرة لبريطانيا، فصمم الشعب الأمريكي على التغيير والتحرير، فتغيروا وتحرروا، بل أصبحت بريطانيا مستعمرته.

وأستدرك هنا لأقول: أرجو ألا يدور بخلد القارئ، أني أفضل أمريكا على بريطانيا، فهم جميعًا أعداء الله ورسوله والمؤمنين، وإنما الذي قصدته هو الاستدلال لعمومية قانون التغيير، ليس إلا.

ونفهم مما سبق، أن مهمة العلماء الدعاة، ورثة خاتم الأنبياء، أن يخططوا لإصلاح البشرية، وتغيير قيمها الجاهلية وتشريعاتها، إلى القيم الإيمانية، والأحكام الشرعية؛ التي تسعد البشرية.



مفهوم التغيير

إن مما نؤكد عليه، أن الإسلام والقرآن لم يتنزل على قلب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؛ ليُتلَى على المقابر والموتى، وإنما نزل لإنشاء جيل، وبناء أمة، وإقامة دولة، وهذا المنهج التغييري سبق أن ذكرنا أنه عامّ، وأنه جماعيّ، أخذنا ذلك من قوله (تعالى): (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: ١١).

ويبرز تساؤل هو: ما مفهوم هذا التغيير؟.

نقول: إن التغيير معناه التحول من حال، والانتقال من مكان إلى مكان؛ فالإنسان المريض إذا شفاه الله، وعافاه، فقد تحول، وتغير حاله، من مرض إلى شفاء، وإذا عاد من شفائه إلى مرض أصابه، فقد تغير حاله، من الشفاء والسلامة الى المرض والسقامة، وعلى هذا فالتغيير نوعان:

١-إيجابي

٢-سلبي

والتغيير الإيجابي يكون بالتحول من السوء الى الحسن، ومن المرض الى الشفاء، ومن الضعف إلى القوة، ومن الهزيمة إلى النصر، ومن أمة الدعوة إلى دولة الدعوة، والتغيير السلبي يكون بالتحول من الحسن إلى السوء، ومن الشفاء إلى المرض، ومن القوة إلى الضعف، ومن النصر إلى الهزيمة، ومن قيادة القافلة البشرية إلى ذيل القافلة البشرية.

لقد استنبطنا هذا المفهوم وهذا المعنى من قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: ١١) ومن قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الأنفال: ٥٣).

والتغيير هنا الانتقال من حالة إلى حالة، ومن وضع إلى وضع، ومن صفة إلى صفة، سواء كانت الأحوال إيجابية أم سلبية، فقد يغير الناس من الأسوأ إلى الأحسن، فيُحسِّن الله حالهم، وقد يغير الناس من الأحسن إلى الأسوأ، فتسوء أحوالهم، وخير شاهد على ما نقول هو حال العرب قبل الإسلام، كانوا في ذيل القافلة البشرية، فأسلموا، فغيروا، وتغيروا، لقد هجروا عبادة الأصنام، وآمنوا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد (صلى الله عليه وسلم) نبيًّا ورسولا، لقد غيروا ما بأنفسهم، فغير الله أحوالهم، من الأسوأ إلى الأحسن، ونقلهم من ذيل القافلة البشرية إلى قيادة البشرية، وأحياهم بعد موات، قال تعالى: (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا) (الأنعام: ١٢٢).

وظلوا يتصدرون القيادة العالمية قروناً عديدة، في العلم والعدل والعفة والنزاهة والسياسة والأخلاق، وفي مطلع القرن العشرين ابتعدت الأنظمة العربية عن الإسلام، عقيدة وشريعة ونظام حياة، واستوردت قوانين وشرائع تتناقض مع شرع الله، فأحلت ما حرم الله، وحرمت ما أوجب الله، فعادت إلى ذيل القافلة البشرية من جديد.

لقد غيروا ما بأنفسهم، من الأحسن إلى الأسوأ، فساءت أحوالهم.

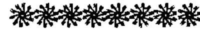
****

التغيير واجب عيني

إن المتأمل للآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، يجد أن المسلم مكلف شرعًا بالدعوة إلى الله (تعالى)، القاضية بالتغيير، تغيير الأنظمة الجاهلية، والقيم الجاهلية، وإنكار المعاصي، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتغييره. فلنتأمل قوله تعالى: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ) (آل عمران: ١٠٤)، فصيغة ولتكن: فعل مضارع، مقترن بلام الأمر، فهي تفيد الوجوب، ومنكم قد تكون "من" بيانية، وقد تكون للتبعيض. فإذا كانت بيانية، فتفيد أن الدعوة واجب عيني، على كل مكلف، من رجل أو امرأة، وإذا كانت للتبعيض، فتكون الدعوة واجبًا كفائيًا على الأمة، إذا قام به البعض سقط الإثم عن الأمة، والذي نرجحه أن "من" بيانية، وليست للتبعيض؛ لوجود نصوص أخرى من الكتاب والسنة تفيد ذلك، منها: قوله تعالى: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ) (آل عمران:١١٠).

وقوله (صلى الله عليه وسلم) في الحديث الصحيح: "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" مسلم. وكلمة "مَن" من ألفاظ العموم، تشمل كل مكلف مخاطب، من الرجال والنساء. وكلمة فليغيره فعل مضارع، مقترن بلام الأمر، فتفيد الوجوب؛ لأنها من صيغ الأمر، وصيغة الأمر تفيد الوجوب، ويكون المعنى في قوله تعالى (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ): ولتكونوا جميعًا أمة أمارة بالمعروف، نهَّاءَة عن المنكر. أقول: إن القول بأن الأمر بالمعروف واجب كفائي، بمعنى أنه إذا قام به بعض الأمة، وهم العلماء والفقهاء، سقط عن الباقين، وأن الواجب في التغيير وإنكار المنكر يقع على كاهل العلماء، دون سائر الناس، يؤدي إلى انعزال الناس عن العلماء والمصلحين، وإبقائهم يعملون وحدهم، وبطاقاتهم المحدودة القليلة؛ التي لا تؤثر تأثيرًا قويًا في التغيير، تغيير الشر ومحوه وإزالته، بل يترتب على هذا، أن يستشري الفساد بين العباد، ويتعاظم، حتى لا تبقى للمعروف وأهله قائمة. أقول: إن العلماء لا وزن لهم ولا لمجهودهم إذا لم تلتف الجماهير حولهم، وتعمل معهم للتغيير، بل إن الرسل الكرام، والمصلحين العظام، لا تأثير لكلمتهم إذا لم تلتف حولهم الجماهير، وتؤيدهم، وتأتمر بأمرهم. فهذا موسى (عليه السلام)، لما أمر الجيل الذي معه؛ ليحرر الأرض المقدسة من الوثنيين، ورفضوا أمره، وقالوا له: (إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) (المائدة:١٢٤). لم يستطع أن يفعل شيئًا لجبن هؤلاء، فقال معتذرًا لربه: (رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) (المائدة: ١٢٥)، فكانت الاستجابة بأن ضُرب عليهم التيه، وأُهلكوا في سيناء، قال تعالى: (فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) (المائدة: ٢٦).

وختاما.. لن أسأم من التأكيد على أن دعوة الإسلام دعوة تغييرية، وواجب عيني على جميع المسلمين، عليهم أن يجتمعوا، ويتعاونوا على التغيير.



طرق التغيير

لقد أكدنا في المقالات الخمس السابقة، على أن الإسلام منهاج تغييري، وقانون التغيير عالمي عام، لجميع بني الإنسان، فكيف يكون التغيير؟ لقد أرشد الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى كيفية التغيير وأساليبه، في الحديث الصحيح؛ الذي رواه مسلم، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان". ورُوِي عن مسلم في صحيحه، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من حديث جاء فيه: "ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل". وبالتأمل في هذين الحديثين، نجد أنهما ذكرا ثلاث طرق للتغيير، هي: اليد واللسان والقلب. ويلوح لي، أن هذا الترتيب بالنسبة لمراتب القوة، فأعلاها اليد، وأدناها القلب، وأوسطها اللسان. أما الترتيب الدعويّ، فيكون التغيير باليد، أي بالقوة، آخر المراحل التغييرية، ويكون عند عجز التغيير بالقلب، ثم اللسان. وعلى هذا، فالترتيب الدعويّ في طرق التغيير، القلب ثم اللسان ثم اليد، فلا حاجة لاستخدام القوة مع إنسان إذا رجع عن الشر والمنكر، ولم يصر على منكره. ولا بأس أن نبدأ بما بدأ به الحديث: إن التغيير باليد، في المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، يكون من الحاكم، بإقامة الحدود والقصاص والتعازير، ويكون من ولاة الحسبة؛ الذين يؤدبون الخارجين عن النظام، ويشيعون المنكرات لإفساد الأجيال. وكذلك، يكون التغيير بالقوة، عن طريق الأمة الإسلامية، بالنسبة لرئيس الدولة الإسلامية، فهي التي اختارته، وهي التي تعزله كذلك، والقوة هنا أغلبية الأمة التي اختارته، فهي صاحبة الحق كذلك- في عزله، سواء كان ذلك بعدم انتخابه، أم بتنحيته وعزله، إن أصر على بقائه، وإلزامه جبرًا بالتخلي عن رئاسة الدولة، ولها أن تستخدم القوة معه؛ حتى يرضخ لإرادتها. وقد وازن بعض علماء السنة، بين ضرر المنكر، المترتب على بقاء الحاكم الفاسد الظالم، وبين ضرر الخروج عليه وعزله بالقوة، فإن كان استخدام القوة بعزله أقل ضررًا على الأمة، من بقائه فاسدًا مفسدًا، فتستخدم القوة في ذلك، وإلا فلا. ولكننا وجدنا في القرن العشرين، من طور النظرية السياسية عند أهل السنة، فرأى عزل الحاكم والحكومة إن لم تقم بواجباتها. فقد جاء في رسالة التعاليم، للشيخ حسن أحمد عبد الرحمن البنا، بعد أن ذكر واجبات الحكومة المسلمة وحقوقها: فإذا قصرت فالنصح والإرشاد، ثم الخلع والإبعاد، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ومن المعلوم أن الخلع والإبعاد يحتاج إلى قوة ملزمة، تجبر المسئول والحكومة على التنحي عن المسئولية.

التغيير باللسان

لقد ذكر حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؛ الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه، أن التغيير يكون باليد، ثم باللسان، ثم بالقلب. وحديثنا - في هذه المقالة- عن التغيير باللسان، ويكون ذلك بتوعية الأمة ذكورًا وإناثًا، صغارًا وكبارًا- بحقيقة الأوضاع الآسنة؛ التي يعيشها المسلمون في بلادهم، من استبعاد لشرع الله، واستيراد أنظمة وتشريعات وقوانين، لم يأذن بها الله، ولا رسوله، ولا صالح المؤمنين. وأن الواجب على علماء الأمة ودعاتها، أن يحددوا الفساد المستشري في السلطات: التنفيذية والقضائية والتشريعية، ويجهروا بذلك بوضوح، دون خوف من سجن مستبد، أو ظلم طاغية. على العلماء أن يحدثوا الأمة - على جميع المستويات- بأن جل الحكومات، في عالمنا العربي والإسلامي، حكومات لا تحكم بشرع الله، حكومات قد اصطلحت مع أعداء الله، إخوة القردة والخنازير، ولم تصطلح مع الله،فصالحت اليهود الغاصبين لمقدسات المسلمين وأوطانهم، وصالحت الصليبيين في الاعتداء على بلاد المسلمين، في أفغانستان، وباكستان، وفي العراق، وفي غيرها. وعليهم أن يقوموا بالواجبات التي أوجبها الله (تعالى) عليهم، في تنبيه الأمة، بأن هذه الحكومات تعدت على سلطان الله في الأرض، فحكمت الأمة واستبدت، وحزمت الناس حزم السلَمة، وضربتهم ضرب غرائب الإبل. وعليهم أن يقوموا بواجبهم في توعية الأمة بالفساد: المالي والإداري والأخلاقي؛ الذي تبنته هذه الحكومات، وشجعته، ولا تزال تشجعه، حتى استفحل خطره، وعم، قال (تعالى): (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) (الروم: ٤١).

وعليهم أن يقوموا- بصراحة ووضوح- بتوعية الأمة بالسلطات القضائية فيها، بأنها سلطات تحكم بين الناس بغير ما أنزل الله، بل تستبعد أحكام الشرع، وتحكم بأحكام الكفر، وعليهم أن يقوموا بجرأة وشجاعة وحكمة- بالتوعية بحقيقة المجالس التشريعية، أو الشعبية، أو البرلمانات، أو غيرها، بأنها ترضخ للسلطة التنفيذية المستبدة؛ التي تحكم بغير ما أنزل الله، وتأتمر بأمر الحكومات الوضعية الاستبدادية، في وضع القوانين المعادية والقامعة لحريات المسلمين، والشعوب الإسلامية. ثم يقوم هؤلاء العلماء والدعاة بتكوين قاعدة شعبية عريضة منظمة، تتبنى التغيير الجذري، والشامل لجميع نواحي الحياة: السياسية،والاجتماعية، والاقتصادية، والتربوية، والتعليمية، وغيرها، وأن تعبئ الأمة، المتمثلة في هذه القاعدة الشعبية، النامية نموًّا مستمرًّا ودائمًا، على الجهاد والتغيير. وينبغي ألا نستهين بقوة الكلمة، وأثرها في الإصلاح والتغيير؛ فإن الدعوات الإصلاحية التغييرية تقوم على أساس الفكرة، ويُعبَّر عن هذه الفكرة بالكلمة الجريئة المغيرة، ويتبع ذلك عملٌ دؤوب متواصل للتغيير؛ فينبغي ألا يسأم الدعاة من قول كلمة الحق، والعمل على توعية الأمة؛ فإن لهذا ثمرته في التغيير والإصلاح. ويكفي أن نعلم، أن دعوات الرسل قامت على الكلمة الجريئة، الهادفة إلى تغيير الواقع، فغيرته، وأنها من أعظم الجهاد "إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"؛ لأن قوة تلك الكلمة تزلزل أركانه، وتضعضع بنيانه، وتزيل سلطانه.

التغيير عند تبدل القيم

إن الذي يتأمل أحوال المسلمين، في كثير من البلاد، يجد أن الفساد قد استشرى بين العباد، فطفت النساء، وفسق كثير من الشباب، وهُجر الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتبدلت القيم؛ فصار المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، بل أُمِر بالمنكر، ونُهِي عن المعروف، وقُنِنت لذلك قوانين تسود حياة الناس، وتوجب عليهم التزامها.

لقد قامت طائفة من الناس – أمام هذه الجاهلية- بهجرة المجتمع، ولجأت إلى الكهوف لتعيش فيها، فعزلت نفسها، وانغلقت عليها، وتركت الفساد يستشري في العباد، وهذا خطأ فادح، هش له وبش المفسدون في الأرض؛ لأنهم لم يجدوا من ينبري للإصلاح والتغيير، وإيقاف هذا الشر المستطير منهم.

إن الموقف السليم في هذه الأحوال أن ينبري الدعاة والمصلحون إلى مخالطة الناس، ودعوتهم إلى الإيمان والإصلاح والتغيير، تغيير القيم والموازين الجاهلية، والقوانين الجاهلية.

وهكذا كان هدي النبي (صلى الله عليه وسلم) في نشر دعوتهم وقيمهم بين الناس، بمخالطتهم والصبر على أذاهم؛ ففي الحديث "الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم".

عليهم أن يربوا أبناء الشعب – منهم ومن غيرهم- التربية المتكاملة للفرد المسلم، روحيًا، بتوثيق الصلة بالله، وعقليًا، بالتفقه في هذا الدين، فيحلوا حلاله، ويحرموا حرامه، ويقوموا بسائر الأحكام الشرعية، وبدنيًا، بالتدريب على أعباء الجهاد، القائمة على تقوية الأبدان، بعد تعميق الإيمان.

وأن تتكون الأسر المسلمة التي اجتمعت على هذه المعاني الإيمانية الفاضلة، والتزمت بها، وأن يعملوا على الانتقال إلى مرحلة جديدة، مرحلة الشعب المسلم المؤمن بالله، وبشريعة الإسلام حاكمة لهم، في جميع حياتهم، وهذه المرحلة تقتضي تحديد الأهداف التي تريد تحقيقها، وفي مقدمة هذه الأهداف وأولها: أن تقوم حكومة إسلامية.

وإذا ما قامت ظروف عادية تتيح للناس أن ينتخبوا منهم من يحكمهم؛ فإن النتيجة سهلة ميسورة في قيام هذه الحكومة الإسلامية؛ لأن تحكيم شرع الله في واقع حياة المسلم من شرط الإيمان والإسلام، ومطلب رئيس لهذا الشعب المسلم.

ينبغي أن تكون هذه الفئة المؤمنة من العلماء والدعاة والمجاهدين، حريصة كل الحرص على أن تجتمع حولها قاعدة شعبية مسلمة تتبنى أهدافها.

وعلى الأمة أن تلتف حول هذه الفئة لتحقيق أهدافها في الإصلاح والتغيير.

ويجب أن يفهم القائد أن لا وزن له، ولا لفكرته الإسلامية الإصلاحية التغييرية، إذا لم تلتف حوله الجماهير، ويجب أن تدرك الجماهير خطورة التخلي عن الالتفاف حول هذه الفئة المؤمنة؛ فإنها - إذا لم تفعل- تعرض نفسها للإثم، ولسخط الله.

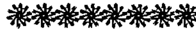
نعم، إن المصلح - حتى لو كان رسولا نبيًّا- لا يستطيع أن يحقق هدفه الإصلاحي التغييري وحده، بل يتحقق له ما يهدف إليه حين تلتف حوله الجماهير، وتأتمر بأمره.

وعلى سبيل المثال: فإن موسى (صلى الله عليه وسلم) أمر الجيل الذي كان معه أن يدخل الأرض المقدسة، فتمرد على أمره من كان معه، على الرغم من أن هذا أمر إلهي، ينقله موسى (صلى الله عليه وسلم)، فكانت النتيجة أن قالوا له: (فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) (المائدة: ٢٤).

فقال موسى، معتذرًا لربه: (قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) (المائدة: ٢٥).

فكان التيه، وكان الحرمان من الله، قال (تعالى): (فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) (المائدة: ٢٦).

أما رسولنا؛ فقد ربى جيلا قال له: اذهب أنت وربك، فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فأقام دولة حررت الإنسان والأوطان.



التغيير بالقلب

لقد حدثنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، عن طرق التغيير؛ فقال: "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" رواه مسلم.

وقد سبق أن تحدثنا عن التغيير باليد واللسان، وفي هذه المقالة نتحدث عن التغيير بالقلب، أقول: إن بعض الناس قد يفهم خطأً أن الإنكار بالقلب ليس تغييرًا، ولا أثر له على المنكر ومرتكبيه، وهذا الفهم منقوض بقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): "فليغيره بقلبه"؛ إذ الحديث يأمر بالتغيير باليد ثم باللسان ثم بالقلب.

إن التغيير بالقلب شعور ينعقد في القلب، تنبثق عنه إرادة وعمل، هو مقاطعة المنكرات، ومقاطعة أهلها، مقاطعة تامة، فإذا تم ذلك من الهيئة الاجتماعية ترغم أهل المنكر على الاعتدال أو الاعتزال، وتقمع أهل الاستبداد، وتعزلهم عن التأثير في المجتمع والدولة.

فعلى سبيل المثال: لو كانت هناك جامعة أو مدرسة، ولها مدير مستبد، يخرق القوانين والأنظمة، ويسيء إلى الموظفين والطلاب، فقام هؤلاء جميعًا بمقاطعته، وعدم الالتزام بأوامره، فتوقفت الهيئة التدريسية عن التدريس، والطلاب عن حضور المحاضرات؛ حتى يُعزَلَ الرئيس، وتعطلت الحياة الجامعية تمامًا، ولن تعود حتى يُعزَل الرئيس، في هذه الحالة سيقوم رئيس الجامعة راغمًا بالاعتزال.

وكذلك، الحاكم المستبد، المضيع لحقوق الله وحقوق الناس، إذا قاطعه الشعب ومؤسساته المختلفة، وفي مقدمتها مؤسسات الحكم والتربية والعسكر، لا تطيع له أمرًا حتى يُعزَلَ فساده بعزله، فلن يستطيع هذا الحاكم الظالم أن يبقى أيامًا في سدة الحكم، وعليه أن يرضخ مُرغَمًا لمطالب الجماهير.

وهذه الطريقة يُعبَّرُ عنها، في العصر الحديث، بالعصيان المدني؛ فهي وسيلة لإسقاط كل حاكم مستبد، وهي طريقة سلمية، لا تُسفَكُ فيها دماء، ولا تُدمَّرُ فيها أوطان.

وهذه الطريقة ليست فكرة خيالية مستحيلة الوقوع، بل هي فكرة واقعية، حدثت، وتحدث، حين تكون الهيئة الاجتماعية الهادفة إلى التغيير متماسكة، مجتمعة عل القيم الإيمانية، والمبادئ الإسلامية، الداعية إلى التغيير، والملتزمة بالعمل له، مهما كانت الظروف والأحوال.

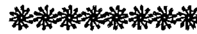
وفي حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) ما يُرشد إلى هذا المعنى، ما جاء في سنن الترمذي وحسنه قوله (صلى الله عليه وسلم): "إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا، اتقِ الله، ودع ما تصنع؛ فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا

مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ... إلى قوله فَاسِقُونَ)" (المائدة: ٧٨ – ٨٠).

فالحديث واضح الدلالة على أنهم استحقوا اللعن بسبب مخالطة هؤلاء الفاسدين المنحرفين، بالأكل والشرب معهم، وعلى موائدهم، ولم يقاطعوهم.

بل جاء في المعجم الصغير للطبراني قول الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم): "يكون في آخر الزمان أمراء ظلمة، ووزراء فسقة، وقضاة خونة، وفقهاء كذبة؛ فمن أدرك منكم ذلك الزمن فلا يكونَنَّ لهم جابيًا، ولا عريفًا، ولا شرطيًا".

قال الطبراني: لم يروه عن قتادة إلا ابن أبي عروبة، ولا عنه إلا ابن المبارك، تفرد به داود بن سليمان، وهو شيخ لا بأس به.



الثبات على الحق

اقتضت حكمة الله أن يتصارع أهل الحق والباطل، وأن يقوى أهل الباطل أحيانًا، وتكون بيدهم السلطة والدولة والجولة، وأن يكون أهل الحق قليلي العدد والعدة، ليست لهم دولة ولا قوة، فيتحكم فيهم أهل الباطل، ويفتنوهم في دينهم، ويبتليهم الله بذلك.

وسنة الابتلاء لا تتوقف، ولا تتخلف، وما على المسلم إلا أن يثبت على دعوته، ويصبر على لأواء الطريق، وعلى المشقة والعنت الذي يلاقيه من أولياء الشيطان.

ويجب أن تصاحبه حالة إيمانية هي أن هؤلاء الذين يظهرون وبيدهم السلطة، ووسائل البطش، كيدُهم أمام أهل الإيمان ضعيف؛ فهو كيد الشيطان وأوليائه.

إن الثبات على المبدأ نعمة من نعم الله على أوليائه؛ فينبغي على المسلم أن يلجأ إلى الله بالدعاء، ويُلح في التضرع برفع أكُفِّ الضراعة إلى الله، أن يثبته على دينه ودعوته.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم - وهو المعصوم والمسدد من السماء- يكثر من دعاء: "اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"، فإذا كان النبي يخاف على ذلك الجيل القرآني الفريد، فنحن على أنفسنا أخوف.

والثبات يكون على حالين: عند بدء الصدمة، وعند وجود الصدمة واستمرارها، والثبات الحق هو الثبات عند وقوع الصدمة، وعند لقاء العدو، والاستمرار على ذلك حتى نهاية الجولة.

والصراع سواء كان في ساحة المعركة أم في غيرها، صراع في حقيقته بين إرادتين، وأقواهما هي المنتصرة، وإن كان صاحبها قليل المال، ضعيف البنية والحال.

والمنهزم هو ضعيف الإرادة، وإن كانت بيده وسائل البطش والإرهاب؛ إذ إن هذه الوسائل التي يستعين بها في صراعه سيبطلها ثبات المؤمن على دعوته، وإصراره وتحديه بصبره على كل هذه الوسائل، بل ستكون فاشلة، وينهار صاحبُها أمام الإرادة الإيمانية الفولاذية، التي لا تخنع، ولا تلين، ولا تخضع.

إن قوة الإيمان تمنح قوة الثبات، وإن ضعف الإيمان يستتبع ضعفَ الإرادة، والانهيارَ في المقاومة والتصدي، وحتى تنعم بالثبات فإن عليك أن تُعِد نفسك بالتربية الإيمانية. إن من أعظم وسائل الثبات لصاحب العقيدة أن يوقن يقينًا جازمًا أن رزقه وأجله بيد الله، ولا يملك أحد أن ينقص من رزقه، فضلا عن أن يزيد، ولا يملك أحد من الأعداء - إن ثبت على الجهاد- أن ينقص من عمر المجاهد لحظة واحدة، كما لا يملك أن يزيد من عمر الجبان المنافق الموالي ثانية واحدة.

وعلى صاحب العقيدة أن يثبُت على مبدئه، ويستعذبَ ما يجدُ من عمل وإن كانت الشهادة؛ لأنها في ذات الله. إن حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، تُعلمنا الثبات على المبدأ؛ فقد تعرض لوسائل متنوعة ترهيبيّة، فأوذي، واستُهزئ به، وهُدد بالقتل، وتؤومر على قتله، فلم تلِن له قناة، ولم تهن له عزيمة.

ولقد سار الصحابة على هذا الطريق بثبات، وعزم، مثلما ثبت خباب بن الأرت، الذي أشعل الكفار له نارًا، حتى إذا صارت جمرًا طرحوه عليها، فأطفأ ودكُ ظهرِه النارَ، والودك هو شحم الآدمي إذا ذاب، لقد أصبح الجمر فحمًا بشحم خباب، فثبت، وصبر، فاستحق جنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ومن هنا كان أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل، كما أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم).

إن الشعار الذي ينبغي أن يرفعه الداعية وهو يواجه الجاهلية وطواغيتـــــها قوله تعالى: (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا) (إبراهيم: ١٢).

نعم هو الصبر والثبات، وهو الاستمرار على الصبر حتى لقاءِ الله، لا طريق سواه.

وإن من المقرر في هذا الدين أن النصر لا يكون إلا بعد صبر دائم، وأن الصبر يكون بعد ابتلاء، وأن الابتلاء يكون بعد التحرك بهذا الدين، والدعوة إليه، وتبني أحكامه.

على الداعية أن يتحرك بدعوة الله في أي ظرف، وفي أي مكان، وسيُبتلى فليصبرْ؛ فإن النصر مع النصر (فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (هود: ٤٩).



دلالات آية الإسراء وتحرير المسجدين

تبدأ سورة الإسراء أو سورة بني إسرائيل بقوله (تعالى): (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الإسراء: ١).

وهذه الآية تحدثنا عن معجزة الإسراء، وتربط بين المسجدين في موضع من تاريخ الدعوة الإسلامية، وفي موضع من القرآن الكريم.

أما زمن نزولها التاريخي فهو قُبَيل الهجرة بعام، أي في منتصف العام الثاني عشر من البعثة؛ إذ إن مدة البعثة ثلاثة وعشرون عامًا، فهي في منتصف مدة البعثة النبوية.

وأما موضعها في القرآن فهي في أول سورة الإسراء، وفي الآية الأولى، وهذه السورة في بداية الجزء الخامس عشر من القرآن، فهي في منتصف القرآن، وفي منتصف الزمان، زمان البعثة النبوية.

لقد حدثت هذه المعجزة التي حدثتنا هذه الآية الأولى من السورة عنها في زمن لم يكن للدولة الإسلامية فيه صولة ولا دولة، بل كان المسلمون مستضعفين.

أما موجز هذه الرحلة فهو أن يُسْرَى برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليلا، على دابة يُقال لها البُراق، تضع حافرها عند منتهى بصرها، أي سرعتها سرعة الضوء، من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس، ويصلي الرسول (صلى الله عليه وسلم) – كما روى الإمام مسلم في صحيحه- بالأنبياء إمامًا، ويعرج إلى السموات العُلى، وتفرض الصلوات الخمس، ويعود من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام وإلى منزله في مكة ولم يبرد فراشه.

أقول: كان من الممكن أن يعرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) من المسجد الحرام إلى السموات العُلى مباشرة، وأن تفرض الصلوات الخمس، لكن لذلك فوائد منها:

الأولى: أهمية الصلاة في هذا الدين، يدل على ذلك فرضها في السماء، وبعد مراجعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ربه حتى خُفِّفَت من خمسين صلاة إلى خمس صلوات، كما روى البخاري في صحيحه، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة الصريحة تذكر هذه الأهمية لها، فهي عمود الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، وإنه لا خير في دين لا صلاة فيه.

ثانيًا: إن الربط بين المسجدين يُشعِرُ بأمور منها:

١-أهمية المسجدين في هذا الدين، فالمسجد الأقصى قبلة المسلمين الأولى، وظل كذلك حتى بعد هذه المعجزة، وبعد الهجرة بسبعة عشر شهرًا.

٢-أن تتعلق قلوب المسلمين بالمسجدين، ويتغلغل حبهما في قلب كل مسلم، وحب الصلاة فيهما، وشد الرحال إليهما؛ فإن شد الرحال إليهما عبادة، كما أن الصلاة فيهما ليست كالصلاة فيما سواهما.

الشيخ: حمزة منصور

الأمين العام لجبهة العمل الإسلامي الأردني والنائب بالبرلمان.



"الأقصى" بين الإحساس بالخطر والقيام بالواجب

لا أحد يماري في قدسية المسجد الأقصى، وبركته ومكانته عند الله (تعالى)، فهو آية في كتاب الله، نستفتح بها سورة الإسراء، وهو منتهى إسراء رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وبداية معراجه، وملتقى رسل الله في بيعتهم لخاتمهم، وارثًا للنبوة، ومكملا للرسالات، وهو المسجد الثاني بناءً على الأرض، وهو شقيق المسجد الحرام، ومشد رحال المؤمنين، ولا يتسع المقام للمزيد من الحديث عن شرفه وفضله ومنزلته عند المؤمنين، ومحل ذلك كتب التفسير والحديث والسيرة والفقه والتاريخ.

كما لم يعد خافيًا على أحد في زمن القنوات الفضائية، والشبكات الإلكترونية، ما تعرض له المسجد الأقصى، منذ عام ١٩٦٧م، من محاولات إحراق وهدم وتدنيس، وتغيير معالم، فالحفريات لم تتوقف، والأنفاق أفرغت الأرض من تحته، وتواصلت حتى غدت مدينة يهودية، تضم كل المعالم والرموز التلمودية، والمساجد والمكتبات ودور العلم، والمعالم الحضارية الإسلامية من حوله غدت أثرًا بعد عين.

ولم يكتفِ بكنيس تحت المسجد الأقصى، وإنما يجري العمل على بناء كنيس بجواره، هو الأضخم بين الكنس اليهودية، ولا يكاد يمر يوم إلا وتحمل إلينا الأخبار والتقارير طرفًا من الخطة الصهيونية الحاقدة؛ لهدم المسجد الأقصى، وتغييبه عن القدس، وإقامة الهيكل؛ الذي لم يقم دليل على وجوده، على الرغم من أعمال الحفر والتنقيب، المتواصلة منذ أكثر من أربعين سنة.

وإذا كانت مكانة الأقصى المبارك غير خافية، والأخطار التي تتهده تستفزُّ كل ضمير حي، فما الذي يحمل العرب والمسلمين على القعود عن القيام بالواجب، إزاء واحد من أعظم مقدساتهم الدينية والحضارية؟، وما الذي يتوجب عليهم القيام به لإنقاذ المسجد الأقصى، أو تعطيل إجراءات هدمه، إلى أن يهيئ الله جيلا أمينًا على المقدسات والأوطان والقيم العليا؟.

باختصار شديد، إنه الوهن الذي حذرنا منه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، بالمعنى الذي أثبتته كتب الحديث الشريف: "حب الدنيا وكراهية الموت"، فأصحاب القرار في أمتنا وقطاعات عريضة منها - إلا من رحم ربي- لخلل في عقيدتهم، وفساد في تصوراتهم، يرسخون في أذهان الشعوب، أن إسرائيل بما تمتلك من وسائل قتالية متطورة، ودعم غير محدود من القوة العظمى في العالم، لا تقاوم، ولا حل إلا ما تمليه اعتبارات الواقع.

والواقع عندهم ما يقرره أصحاب القوة العسكرية والاقتصادية، فكان هذا الهوان؛ الذي أصبح السمة الغالبة للنظام الرسمي، في ديار العروبة والإسلام، ما خلا المقاومة الباسلة، وقوافل شد الرحال، وهما ليسا موضع ترحيب من النظام الرسمي، بل عامل إزعاج، يسعى هذا النظام للتخلص منه.

ما الذي يتوجب علينا؟

ونأتي إلى الشق الثاني من السؤال: ما الذي يتوجب علينا القيام به لإنقاذ المسجد الأقصى، أو تعطيل إجراءات هدمه؟.. إنني لا أطالب الشعوب والحكومات بما لا يطيقون، ولا بما لم يُعدوا له، لن أطالبهم بالنفير العام، أو فتح الحدود أما عشاق الشهادة على أسوار القدس؛ لأن جيل الأقصى لم يتشكل بعدُ، والقيادة المؤهلة للنصر ما زالت في عالم الغيب، إنما أطالبهم بالحدود الدنيا، التي هي في حدود استطاعتهم، ولأبدأ بالشعوب؛ التي هي أقرب إلى الشعور بالمسئولية.

فالشعوب مدعوة ودون إبطاء – ولن تعدم الوسيلة إذا صدقت النية- إلى دعم صمود حراس الأقصى، ومجاوريه، والذين يشدون إليه الرحال، من أهل الأرض المحتلة عام ١٩٤٨م، إن اقتطاع دينار في كل عام عن كل فرد من الأمة؛ لصالح الذين ينوبون عنها في الدفاع عن المسجد الأقصى، ليس بالأمر العسير. ومن شأن هذا الاقتراح، أن يوفر مليارًا ونصف المليار دينار، وهو مبلغ كفيل بتلبية احتياجات أهل المدينة المقدسة، التعليمية والصحية والاجتماعية، فضلا عن أثره المعنوي عليهم؛ لشعورهم أنهم ليسوا وحدهم، وأن لهم ظهرًا يستندون إليه، كما أن مقاطعتهم للمنتجات الصهيونية الصناعية والزراعية يشكل عامل إضعاف لاقتصاد العدو، كما يوصل رسالة إليه، مفادها أن لا سبيل للتعامل مع مغتصبي الأرض، ومدنسي المقدسات، وسفاكي الدماء.

أما دور الحكومات، فهو بلا شك أعظم وأشد تأثيرًا، فهي قادرة على إحكام المقاطعة للعدو، ومن يوفرون له أسباب القوة، وهو سلاح أثبت جدواه قديمًا وحديثا، ولا سيما في ظل الانهيارات المالية العالمية، فأي قدر من الجدية الرسمية في استخدام هذا السلاح سيكون بالغ التأثير، وفي الوقت ذاته، فهي مدعوة إلى الاعتراف الواقعي بالمقاومة الفلسطينية، وهو حق كفلته الشرائع السماوية، والقوانين الدولية.

وفي الوقت ذاته، تسعى إلى كسر الحصار المفروض على قطاع غزة، باعتباره حصارًا ظالمًا، يتناقض مع أبسط حقوق الإنسان، وحين يتحقق كسر الحصار، وإحكام المقاطعة، والاعتراف الواقعي بالمقاومة، وتسهيل وصول الدعم الشعبي للمقاومة، نكون قد بدأنا بالخطوة الأولى، على طريق إنقاذ الأقصى، وتحرير الأرض والإنسان، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.



ميلاد محمد ميلاد أمة وبعث قيم

بداية.. لسنا مع تعدد الأعياد، فالأعياد في ديننا أمر توقيفي، ليس من حق أحد أن يزيد عليها أو ينقص، قال الله (تعالى): (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ...) (الأحزاب: ٣٦)، فهي محصورة في عيدين لا ثالث لهما، عيد الفطر وعيد الأضحى أما ما تواضع عليه الناس من أعياد دينية ووطنية وقومية فهي من ابتداعهم، أو من تقليدهم لأناس لا يصدرون عن مرجعيتنا، ولا ينطلقون من تصورنا، ويصدق ذلك على ميلاد الأنبياء، وانتصاراتهم، واستقلال الدول، وتكريم الأمهات؛ لأن ديننا دين اتباع لا دين ابتداع، ودين التميز لا دين التقليد. إلا أن هذا الفهم لا يمنعنا من التذكير بأيام الله، ونحن في ذلك مستجيبون للتوجيه الرباني الجليل: (وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ) (إبراهيم:٥)؛ لأن في تاريخ الأمم وتاريخ الإنسانية أيامًا عظيمة، وحافلة بالإنجازات والعظات، والوقوف عندها ملهم باستيعاب الدروس، والاستفادة منها، وتطبيقها في واقع الحياة، ولا سيما حين يندر وجود القدوات، فتكون الذكرى معالم درب، ومصابيح هدى. ولعل من أعظم الأيام في تاريخ العرب، وفي سجل البشرية، يوم وُلِد محمد (صلى الله عليه وسلم)، لأن ميلاده كان فيصلا بين الهدى والضلال، والسمو والانحطاط، يقول المصطفى (صلى الله عليه وسلم): "إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقية من أهل الكتاب"، ونظرة إلى أرض العرب ترينا مستوى الانحطاط الذي كان سائدًا في أرض العرب، انحطاط في العقائد والتصورات، وانحطاط في السلوك والمعاملات، وانحطاط في الروابط والعلاقات، ويكفي للتدليل على ذلك الواقع البائس أن يصفه رب العالمين بأنه ضلال مبين (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) (آل عمران: ١٦٤).

فالوثنية يومها كانت السمة المشتركة بين الأمم، يقول الشاعر:

أتيتَ والناس فوضى لا تمر بهم

إلا على صنم قد هام في صنم

والروايات التي حفلت بها كتب التاريخ ترينا مستوى الانحطاط الفكري عند العرب، حيث يصنع بعضُهم ربًا ثم يأكله، ويمزج بعضهم ربًا من طين الأرض بحليب النوق أو الشياه. وقل أن تجد إنسانًا في أرض العرب لا يسجد لحجر أو شجر أو شمس أو قمر، حتى لو كان هذا المعبود عاجزًا عن دفع ثعلبان يبول برأسه (ألا ذَلَّ من بالت عليه الثعالب)، ولم يكن الوضع الاجتماعي بأفضل حالا من الوضع العقدي، بل هو انعكاس له؛ فالنظام القبلي هو السائد في أرض العرب، والشعار يومها: وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويتُ وأن ترشُد غزية أرشُدِ والحروب تنشب لأتفه الأسباب، وتستمر السنين الطوال، مخلفة كوارث

ونكبات وأحقادًا لا تَنمحي، ومفهوم الدولة والأمة ليس ضمن الحسابات، وفي ظل هذه الأوضاع لا مكان إلا للأقوياء؛ الذين يحمُون الديار، أما المرأة واليتيم والغريب فهم مضيعون. في هذه البيئة وُلِد خاتم الأنبياء (عليه الصلاة والسلام)، فراح ينحت في الصخر السنين الطوال، فإذا الحفاة العراة العالة رعاة الشاء خير أمة أخرجت للناس، بعقيدة جديدة، تربط المخلوق بالخالق، وتعرفه به، وتعبده له، وتحّمله منهجه، وترسخ هذا المنهج في واقع الحياة، وإذا المجتمع المتعادي الممزق صف مرصوص، تقوم العلاقة بين أفراده على الحب والإيثار، وإذا المستضعفون المسخرون لخدمة المستكبرين من الروم الفرس والأحباش أعزة يخاطبون أصحاب الصولجان: (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا، إلى سعة الدنيا والآخرة)، وإذا رعاة الإبل والغنم ساسة الشعوب والأمم؛ فميلاد محمد أعظم حدث في الوجود؛ لأنه ميلاد الرسالة الخاتمة، والمنهج الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أَمِنَ به الناس من خوف، وطعِموا من جوع، واستعادوا إنسانيتهم وكرامتهم على الفطرة التي فطرهم الله عليها. واليوم والبشرية مهددة بالرعب والجوع والمرض والفناء لم يعد أمامها من سبيل إلا أن يولد في قلوبها وواقعها المنهاج الذي جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم)، فتسعد بعد شقاء، وتأمن بعد خوف على كل شيء ومن كل شيء، وبغير ذلك ستبقى في واقعها النكد، ورب عيش أخف منه الحمام، فهل يدرك المسلون - والعرب منهم بشكل خاص- عظم مسئوليتهم، فينهضوا لأشرف مهمة، فيَسعدوا ويُسعدوا، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله؟.



لك الله يا أقصانا الحزين

لك الله يا أقصى وأنت تعيش تحت حصار خانق لئيم.

لك الله وأنت تتعرض صباح مساء لحملات بني صهيون ليهودوك، وليجعلوا منك كنيسًا لإلههم يهوه.

لك الله وأشجارك الضاربة جذورها في الأرض تذبل أمام ناظريك، وتغدو عيدانًا يابسة، بعد أن قطعت جرافات العدو شرايينها.

لك الله وأنت تعاين أبناءك الأوفياء محرومين من الوصـــــول إليك للصلاة فيك، والرباط على أبوابك وشرفاتك، والتعرض لنفحاتك؛ لأن قوانين الاحتلال ومراسيمه، لا تسمح لمن هم دون الخمسين من العمر بالوصول إليك.

لك الله وأنت ترى وتسمع بعض المحسوبين عليك، والمنتمين لأرض القداسة، يعلنون خيانتهم، ويفاخرون بها، ويعدونها عملًا وطنيًا، أملته عليهم الواقعية، فانخرطوا في مشروع أعدائك، يبايعون دايتون أميرًا عليهم، ويطاردون أولياء الله، وأحباب رسول الله، من الطائفة القائمة على الحق، يقتلونهم، ويغتصبون مؤسساتهم، ويروعون أهليهم، ويوفرون الحماية لضباط العدو إن هم أرادوا استعراض قوتهم في حماك.

لك الله وأنت تشاهد بني يعرب وقد تفرقوا شذر مذر، وتمزقوا شر ممزق، وجعلوا من الأمة الواحدة أممًا، فحق عليهم قول الشاعر:

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد

والوا الأعداء، واضطهدوا شعوبهم، وسلبوها حق التعبير عن بعض ما يجيش في الصدور، وأفقروا البلاد، وأشاعوا الفساد، وجعلوا بأسهم بينهم وبين بني قومهم، فغدوا نهبًا لكل طامع، ومطايا لكل راغب.

لك الله وأنت تبصر الضمير العالمي وقد تعفن، فلم يعد لديه مكان لقيم السماء ومبادئ الحق والعدل، ولا يقيم وزنًا لعذاباتك ومعاناة بنيك؛ لأن السحر اليهودي ملك عليه قلبه ومشاعره.

لك الله لأن الله غيور، فإذا ما غضب زلزل الأرض زلزالها، وأخرج منها أثقالها، لقد أصاب شقيقك الأكبر بيت الله الحرام ما أصابك، حين عجز سدنته عن حمايته والدفاع عنه، وتفرقوا في الشعاب، وانشغل كل منهم بشياه وأباعر، وانحاز بعضهم للغازي يدله على الطريق، ويقدم له الخدمات المجانية، عندها غضب الحليم، وانتصر لبيته العتيق، فكان نتاج غضبه: ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول. لقد اندحر جيش أبرهة، وتناثر لحمه ولحم جنده، وهلك أبو رغال مع الهالكين، وبقي البيت الحرام مثابة للناس وأمنا، تهفو إليه قلوب مئات الملايين، ويتطلعون إلى زيارته.

وإن أنسَ فلن أنسى ما أصابك يوم غزاك الصليبيون، وغمروا ساحاتك بدماء أبنائك، وجعلوا منك اسطبلًا لخيولهم، وحرموك الأنس بصلاة المصلين، وذكر الذاكرين.

وحين طالت معاناتك، واشتدت عذاباتك، امتدت إليك يد الله الرحيمة، لكن في هذه المرة بجند الأرض لا بجند السماء، ولكنهم يحملون قيم السماء، ويدينون بالعبودية الخالصة لرب الأرض والسماء، فكان صلاح الدين، ومَن حوله من الغر الميامين، عربًا وكردًا وأتراكًا، تربوا في محاريب الصلاة، وترطبت ألسنتهم بذكر الله، وجعلوا من صهوات الجياد لهم مقامًا، ومن بيض الصفائح والسمر العوالي صاحبًا ورفيقًا، فكان النصر العظيم، والفتح المبين، وارتفع نداء الله أكبر من مآذنك من جديد، وأميط الأذى عنك ومن حولك، وركب الفرنجة البحار، لا يلوون على شيء، فقد أفقدهم أبابيل الأرض صوابهم.

أبابيل الأرض اليوم يلوحون في الأفق، يرابطون فيك، ويشدون إليك الرحال، وترحل عيونهم إليك كل يوم، فهون عليك، ولا تذهب نفسك حسرات، فسيكنس العملاء، ويزاح العجزة من الطريق، وتنطلق مواكب المجاهدين، حداؤهم: (نحن يا قدس رجعنا)، وسيندحر المحتلون، كما اندحر الفرنجة من قبلُ، ويسألونك متى هو؟، قل: عسى أن يكون قريبًا.

****

ظاهرة التوريث.. من المسئول عنها؟

تزايد الحديث في الآونة الأخيرة حول ظاهرة التوريث، في الأنظمة الجمهورية، حتى أصبح يقال الجملكية، فالحكام العرب الذين استأثروا بالحكم عشرات السنين، دون حسيب ولا رقيب، لم يخطر ببالهم أن يستقيلوا، أو يحيلوا أنفسهم على الاستيداع؛ حتى بلغوا مرحلة أرذل العمر، وحين أيقنوا بالعجز الكامل، أو بدنو الأجل، عزموا على أن لا يغادروا مواقعهم حتى يضمنوا تربع أبنائهم عليها، وإذا ما حُرم أحدهم الولد فإنه لا يعدم زوجة متطلعة إلى وراثة زوجها، أو صهرًا يرى نفسه الأولى بالميراث.

وهم إنما يفعلون ذلك؛ لأنهم اطمأنوا إلى أنهم مهدوا الطريق لانتقال السلطة بسلاسة، فقد أعدوا -إبان حكمهم الطويل- جيشًا من المستشارين والمعاونين،والمنتفعين المدنيين والعسكريين، ممن يمسكون بمقاليد الأمور، ويحسنون إخراج المسرحية؛ ليبدو القادم الجديد وكأنه هدية السماء، للشعب الظامئ لقيادة تاريخية، فيخرجون إلى الشوارع يرقصون فرحًا بقدوم القائد الملهَم، ويدبجون الخطب في الثناء عليه، وينظمون القصائد في مدحه، ويخصصون البرامج الإذاعية والمتلفزة؛ التي تبرز إنجازاته الخارقة، ويصدرون التقارير الصحفية عن مواصفاته وأمجاده غير المسبوقة. إن القيادة حق لكل مؤهل لها، شريطة أن يصل بطريقة شورية ديموقراطية، وعبر تنافس حر، وفرص متساوية في وسائل الإعلام، والقائد الذي يحظى بثقة الناس معانٌ من الله ومسدد، بينما يوكَل الطامع في السلطة والغاصب لها إلى نفسه، وشتان بين من تكلأه عناية الله، وبين من تحرسه جيوش المنافقين والمتزلفين.إن القيادة العليا، أو الإمارة وفق التعبير الإسلامي مهمة جليلة، ومسئولية عظيمة، لا ينهض بها إلا أشخاص استثنائيون، يقتنع الناس بكفاءتهم، ويطمئنون إلى عدالتهم، فتحرسهم القلوب، وتلهج الألسنة بالدعاء لهم، فيأمنون على أنفسهم، وينامون قريري الأعين، ويستظلون بظل الله، يوم لا ظل إلا ظله. أما إذا تصدى للإمارة من هو ليس أهلًا لها، أو جديرًا بها، فإنه يُشقِي ويشقَى في دنياه، ويذل ويخزى في أخراه، إن هذا الفهم الدقيق لهذه الحقيقة هو الذي حمل الرسول (صلى الله عليه وسلم) على رد المتشوفين لها بقسوة، مع أن أقلهم حظًا في الأهلية يتفوق على كل الطامعين بالإمارة في زماننا؛ فمَن من الطامعين بالإمارة يباري الصحابي الجليل العابد الزاهد أبا ذر؛ الذي رده الرسول (صلى الله عليه وسلم) بحزم، حين تطلع إلى ولاية، لا تشكل إلا جزءا يسيرًا من الدولة، حيث قال: (إنك امرؤ ضعيف، وإنها لأمانة، وإنها يوم القيامة لخزي وندامة، إلا من أخذها بحقها)، فإذا كان أبو ذر؛ الذي طلق الدنيا ثلاثًا، وتجرد لله (تعالى)، يُخشى عليه من تضييع الأمانة، ومن الخزي والندامة؛ فأين الأقوياء الأمناء، الجديرون بعناية الله، ومحبة الناس؟.

هذا المنهج في الاستخلاف هو الذي حمل الرسول (صلى الله عليه وسلم) على ألا يستخلف، تاركًا لجمهور الأمة - الذي يثق بأمانته وحكمته- أن يولي من يراه أهلًا للمسئولية، فبايع المسلمون أبا بكر الصديق، وعلى هذا النهج في التجرد، والإحساس العالي بالمسئولية، سار خلفاؤه من بعده، فأبو بكر يرشح عمر بن الخطاب، ولم يرشح محمدًا أو عبد الرحمن، ابني أبي بكر، وعمر بن الخطاب يجعلها بين مَن بقي من العشرة المبشرين بالجنة، باعتبارهم الأرضى لله، والأولى بتوفيقه. ويضيف إليهم ابنه عبد الله، المعروف بتقواه وزهده وفقهه، وعنايته بحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وتحريه للسنة المطهرة، شريطة أن يكون مرجحًا إذا اختلف الستة، على أن لا يكون مرشحًا للخلافة، وحين روجع في ذلك قال: بحسب آل الخطاب أن يُعذَّب واحد منهم؛ لأنه يعي جيدًا عظم المسئولية، ويشفق على نفسه وغيره منها، ويدرك أبعاد التوجيه النبوي الكريم: "ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة".

هذا الفقه السياسي الحصيف هو الذي جعل عهد النبي (صلى الله عليه وسلم)، وخلفاءه الراشدين، عهدًا مميزًا في تاريخ الأمة، بل في تاريخ البشرية، لا يدانيه إلا عهد عمر بن عبد العزيز؛ لأنه سار على النهج.

فهل يعي المتمسكون بالكرسي حتى الرمق الأخير، ويورثونه أبناءهم وذويهم من بعدهم، عظم ما هم مقدمون عليه؟، وهل أعدوا أنفسهم لمساءلة يتخلى عنهم فيها المستشارون والأعوان والأتباع، حتى الأبناء الذين أرضوهم بسخط الله؛ لأنه يوم يفر فيه المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرء منهم يومئذٍ شأن يغنيه. أما المزينون لأصحاب الكراسي أعمالهم، والمتزلفون لهم، والمسهّلون لعملية التوريث، فسيبوءون بإثمها؛ لأنهم باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم، طمعًا في لعاعة من لعاعات الدنيا، والساكتون على العبث بمصائر الشعوب، والجالسون على مقاعد النظارة، فلن يفلتوا من العقاب؛ لأنهم احتقروا أنفسهم، وتخلوا عن واجبهم، وحق عليهم قول المصطفى (صلى الله عليه وسلم): (لا يحقرن أحدكم نفسه، قالوا: كيف يحقر أحدنا نفسه؟، قال: يقف موقفًا فيه لله مقال فلا يقول، فيقال له: لمَ لم تقل؟، فيقول: مخافة الناس، فيقول الله (تعالى): إياي كنتَ أحق أن تخاف). فإلى متى تبقى الأمة بين مغتصب لحكم، ومعين له على ارتكاب جريمته، ومتفرج على ارتكاب الجريمة، دون أن ينكرها ولو بقلبه، وذلك أضعف الإيمان؟.



درس من ميلانو يستحق التعميم

بينما كان السجال دائرًا حول استطلاع للرأي في سويسرا، بشأن موافقة المواطنين هناك على بناء مآذن للمساجد، أو بناء مساجد ذات قباب ومآذن، وبينما كانت نتيجة الاستفتاء تصدم المسلمين في معظم بقاع العالم، كنت في مدينة ميلانو، التي تعتبر بحق العاصمة الاقتصادية لإيطاليا، حيث يدخلها يوميًا ثلاثة ملايين مواطن للعمل.

ولم تكن زيارتي للراحة والاستجمام، إذ لا راحة لمؤمن دون الجنة، وإنما استجابة لدعوة كريمة من الرابطة الثقافية في المدينة، وهي بالمناسبة رابطة عربية إسلامية، حيث طلب إليّ أن أصلي العيد، وأخطب في حشد قوامه عشرة آلاف مصلٍ، وقد اختير مكانًا للصلاة ملعبُ كرة يد، تم استئجاره لهذه المناسبة، وقبل بدء الصلاة حضر ثلاثة أشخاص، تم تعريفي بهم: جوليو جاليرا، رئيس كتلة الحزب الحاكم في البلدية، والدو برنديرالي، رئيس لجنة السياسات الاجتماعية في البلدية، والقس دون جان بيير، ممثل الكنيسة الكاثوليكية في ميلانو.

وبعد استقبالهم الاستقبال اللائق بهم، وتقديمهم للمصلين، ألقى كل منهم كلمة، هنأوا فيها المسلمين بعيد الأضحى المبارك، وأكدوا على حق المسلمين في العبادة وبناء المساجد، وقدروا دور المسلمين، كمكون من مكونات المجتمع في ميلانو، ودعَوا إلى نبذ صراع الحضارات، وإلى مزيد من الحوار. وبعد فراغهم من إلقاء كلماتهم وجدت من واجبي أن أرد على التحية بأحسن منها أو مثلها، فشكرت من هنأونا بعيدنا، ومن هيأوا لنا الصلاة في هذا المكان الرحب، ومن كرموا الرابطة بميدالية ذهبية؛ لدورها في خدمة المدينة، من خلال الحوار المسئول؛ الذي قاده بعض فضلاء الرابطة.

وأكدت على أن المساجد ليست منافسة للكنائس، وإنما هي دور لعبادة الله (تعالى)، وذكره وشكره، ولإنشاء الإنسان الصالح؛ الذي يعود بالخير على المجتمع؛ بغض النظر عن العقيدة أو اللون أو الجنس، فخير الناس أنفعهم للناس، كما أكدت على أن الحوار مبدأ ثابت في الإسلام، وأن لا إكراه في الدين، وأن التعاون لما فيه المصلحة العامة حقيقة قرآنية (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) (المائدة: ٢)، وانصرف الضيوف ليقوم المسلمون بأداء الصلاة، والاستماع إلى خطبة العيد.

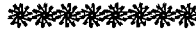
وبعد الانتهاء من الصلاة، وتبادل التهاني، أعلمني الإخوة في إدارة الرابطة، أن الدو برنديرالي هو الذي قاد حملة الموافقة على بناء المساجد، حيث تُوِّجت هذه الجهود بقرار، مؤيد من سبعة وثلاثين عضوًا، وامتناع ستة أعضاء، يسمح للمسلمين ببناء مساجدهم.

إن هذا الجهد الذي بذله الإخوة في إدارة الرابطة، وشخصية مستنيرة مثل الدو برنديرالي، هو الذي أسس لهذه الحالة من التعايش والاحترام وصون الحقوق، فأثمر التسامح والتعاون والأمن الاجتماعي،

وهو نموذج جدير بالمحاكاة في أماكن أخرى، فالمسلمون في أوروبا اليوم يشكلون قطاعات واسعة في المجتمعات الأوروبية، وفيهم العلماء والحكماء، ولن يعدموا أمثالهم في المجتمعات التي أصبحوا جزءًا منها.

ويمكن للحوار والأناة والمرونة أن تؤسس لحالات شبيهة بما حدث في ميلانو، لتجنيب ملايين المسلمين سياسة التمييز ضدهم، والتضييق عليهم، وحرمانهم من الحقوق التي كفلتها الشرائع السماوية، والمواثيق الدولية، والحيلولة دون تمكين العنصريين والحاقدين من تحقيق أهدافهم، المعادية للإسلام والمسلمين؛ الذين دأبوا على تخويف الأوروبيين من الإسلام والمسلمين، وصوروا الإسلام على أنه الخطر الزاحف على أوروبا.

إن تحقيق نجاحات عبر الحوار والتعاون، وتقديم النماذج في خدمة المجتمعات، كفيل بأن يحقق المعجزة؛ التي صنعها المسلمون الأوائل في إندونيسيا، التي دخل أهلها الإسلام دون أن يدخلها سيف ولا رمح (وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا) (الإسراء: ٥١).



علماء السلاطين

يحتل العلماء في التصور الإسلامي منزلة رفيعة، فهم ورثة الأنبياء، ومدادُهم يوزن بدم الشهداء، وهم المستحفَظون على دين الله، يهدي بهم الله الضالين، ويُعلم الجاهلين، ويُقوِّم انحراف المنحرفين، ويُجدِّد بهم أمر الدين.

ولكن هذه المنزلة ليست لحُفَّاظ نصوص لا تُلامس قلوبهم، ولا تَظهر في سلوكهم، ولكنها لفئة لا ترى لها قدوة إلا النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولا تخشى أحدًا في الله، وتجعل هواها تبعًا لما جاء به النبي (صلى الله عليه وسلم)، غير عابئة برضا الراضين، أو سخط الساخطين.

نقول هذا الكلام ونحن نسمع فتوى خمسة وعشرين عالمًا، في مجمع البحوث الإسلامية في جامعة الأزهر، أضفَوا من خلالها الشرعية على بناء السور الفولاذي، على طول الحدود المصرية مع قطاع غزة.

ومن حقي وغيري أن نسأل السادة المفتين: هل عرفوا أهداف هذا السور، والجهة التي أوحت بإقامته، والأطراف التي تعمل على بنائه؛ لأن الحكم على الشيء فرع من تصوره؟، وهل علم السادة الأزهريون أن هذا الجدار سيحول قطاع غزة إلى سجن محكم الإغلاق، وأن مليونًا ونصف المليون من إخوان العقيدة والدم والمصير سيتحولون إلى أسرى، من غير أن تتوفر لهم حقوق الأسير، في المأكل والمأوى والعلاج؟.

إن الحدود المصرية مع قطاع غزة كانت تشكل الرئة التي يتنفس منها الغزيون، فهم محاصَرون من الشمال والغرب والشرق والجو، من قوات الاحتلال، والمعابر الحدودية محكمة الإغلاق، وتبقى الحدود مع مصر المتنفس الذي تصل منه بعض ضرورات الحياة، عبر مئات الأنفاق.

ان إغلاق الحدود بجدار فولاذي على عمق عشرين مترًا، ولا يخترقه الرصاص، يعني أن النظام الرسمي شريك حقيقي في خنق شعب أوجب الله عليه نصرته لا خذلانه، فالمسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، ولا يخذله .

لقد تعلمنا في المرحلة الابتدائية أن رجلًا دخل الجنة بكلب سقاه، وأن امرأة دخلت النار بهرَّة حبستها، فهل شعب فلسطين أهون على النظام المصري - وعلى الأزهريين الذين باركوا مشروعه- من الكلب والقطة؟، وكيف سولت لهم أنفسهم أن يُفتوا بحِّل جريمة تُعتبر من جرائم الإبادة الجماعية، والجرائم ضد الإنسانية؟، وماذا سيقولون لربهم يوم يقفون بين يديه، ليس بينهم وبينه حجاب ولا ترجمان، فيسألهم عن فتوى الإبادة الجماعية لشعب يذود عن مسرى أمير الأنبياء، وعن الأرض المباركة؟.

وهل يملك لهم النظام الذي أرضَوه بسخط الله يومها ضرًا أو نفعًا؟، إن حُجة مفتي السلطان أن الجدار هو دفاع عن الأمن القومي المصري، ولسنا ندري من الذي يهدد الأمن القومي لمصر؟، أهم أهل القطاع الذين عاشوا في كنف الدولة المصرية عشرين عامًا، إلى أن احتل أرضَهم العدو الصهيوني، والذين

لم تُسجَّل عليهم واقعة فيها مساس بمصالح مصر، أم العدو الذي احتل أراضيَ مصرية، وأباد أسرى مصريين، وتجسس - ولا يزال- على مصر، وضرب الثروة الزراعية المصرية، وهدد بتدمير السد العالي؟.

فيا أيها السادة العلماء الرجوع إلى الحق فضيلة، ومن الخير لكم أن تعيدوا النظر في فتواكم، في ضوء فهم طبيعة الجدار، والآثار المترتبة عليه، قبل أن يحل بكم سخط الله، وسخط العباد، لقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "من أرضى الله بسخط الناس رضي عنه، وأرضى عنه الناس، ومن أسخط الله برضا الناس سخط عليه، وأسخط عليه الناس".



الأقصى في خطر.. فماذا نحن فاعلون؟

الدولة العبرية قامت على عقائد وأساطير دينية، نجح غلاة الصهاينة والمنتصرون في الحرب العالمية الأولى في شحن اليهود بها، حتى تبنوا شعار (لا معنى لليهود بدون فلسطين، ولا معنى لفلسطين بدون القدس، ولا معنى للقدس بدون الهيكل)، وتواصلت عملية الشحن والتعبئة حتى حققوا انتصارهم المدوي على الدول العربية المحيطة بفلسطين، في الخامس من حزيران، عام سبعة وستين.

ومنذ لحظة دخول القدس بدأ العمل من أجل بناء الهيكل وفق خطة محكمة، مستفيدين من عامل الزمن، ومن فهمهم لعقلية النظام الرسمي العربي، القابل للتنازل على الدوام.واعتمدت الخطة سياسة حفر الأنفاق تحت المسجد الأقصى، وربطها بمواقع في محيط المسجد، وبناء كنيس تحته، وعشرات الكُنُس من حوله، وعزل القدس عما حولها بجدار العزل والمستوطنات، وتغيير ديموغرافية المدينة المقدسة.

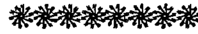
وقد تخلل هذه العمليات محاولات عديدة لإحراق المسجد الأقصى، واقتحامه، وتدنيسه، وإطلاق النار على مَن فيه، وإغلاقه أمام المصلين، باستثناء الشيوخ الطاعنين من أهالي القدس والأراضي المحتلة عام ٤٨م. وقد قوبل كل ذلك بإدانات خجولة، أهون من أن تضع حدًّا لهذه الخطة، التي تستهدف هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل المزعوم على أنقاضه، ولم يعد الرأي العام العالمي حساسًا إزاء الممارسات الصهيونية، ولا سيما بعد أن أفلحت الدولة العبرية في عقد اتفاقيات "سلام" مع عدد من الدول العربية، بما في ذلك السلطة الفلسطينية، وفي تحقيق اختراقات واسعة في أجزاء مهمة من الوطن العربي والإسلامي.

هذه الاعتبارات شجعت الإدارة الأمريكية على ممارسة ضغوطها على النظام الرسمي العربي؛ لإصدار فتوى للسلطة الفلسطينية باستئناف مفاوضات غير مباشرة مع تل أبيب، دون شروط مسبقة، وما إن صدرت الفتوى، وتهيأت السلطة الفلسطينية للتفاوض، وسارع نائب الرئيس الأمريكي لزيارة المنطقة، مبتدئًا بتل أبيب حتى أعلنت الدولة العبرية عن مزيد من الخطط لتهويد المدينة، حيث أطلقت صافرة البدء لبناء ألف وستمائة وحدة سكنية في القدس، وتتابعت التسريبات عن أنشطة أخرى، ومن بينها بناء كنيس الخراب على مقربة من المسجد الأقصى، اعتبر إيذانًا ببناء الهيكل، وتجدد الحديث عن يوم السادس عشر من شهر آذار موعدًا لبناء الهيكل، استنادًا إلى رؤيا لأحد كبار حاخاماتهم.

وسواء تم تحقيق هذه الرؤيا أم لم يتم، فإن الشواهد على هدم المسجد أكثر وأكبر وأخطر من أن يتم تجاهلها، فانهيار المسجد بات وشيكًا بسبب تفريغ الأرض من تحته، وضعف أساساته بسبب المواد الكيماوية المستعملة، وقد حدث أكثر من انهيار في مناطق مجاورة للأسباب ذاتها، كما أن الحديث

عن نشاط زلزالي في المنطقة، سواء أكان طبيعيًّا أم بسبب تفجير نووي صهيوني، كلها تؤكد أن درجة الخطورة على المسجد الأقصى بلغت منتهاها.

فأين العرب والمسلمون المستأمنون على مسرى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وقبلتهم الأولى، ومشد رحالهم، ومثوى الأنبياء والعلماء والشهداء. من كل ما يجري؟ وماذا سيقولون لربهم يوم يقوم الأشهاد، ويسألهم الملك الحق: لماذا ضيعتم الأمانة وفرطتم في الحقوق؟ وما هي الخطوة اللاحقة في المشروع الصهيوني بعد استكمال مخططهم في القدس وفلسطين؟ إن أدبيات بني صهيون لا تتوقف عند الحديث عن فلسطين، ولكنها تتجاوز ذلك إلى الأردن والنيل والفرات والحجاز، والبقية تتبع، فماذا نحن فاعلون؟



ما لم ترتقِ إليه القمة العربية

لم أكن أتوقع من قمة (سرت) الكثير؛ لأن القمم التي سبقتها لا تشجع على مزيد من التوقعات، فالعلاقات العربية العربية، وأولويات كل بلد، والضغوط الخارجية، والشعور بالعجز إزاء تعاظم قدرة العدو الصهيوني، تجعل سقف التوقعات منخفضًا، ولكن الظروف التي سبقت انعقاد القمة كانت تحتم على النظام الرسمي العربي أن يتجاوز كل المعيقات والحواجز.

فلم يتعرض المسجد الأقصى والقدس الشريف يومًا - على كثرة ما تعرضا له- لمثل ما يتعرضان له اليوم، فكل التقارير والتحليلات تؤكد أن المسجد الأقصى آيل للسقوط، بفعل فاعل أو بحركة القشرة الأرضية، فالأرض اليوم تحت المسجد الأقصى باتت مفرغة بعشرات الأنفاق، والكُنُس تحيط به من كل مكان، وآخرها كنيس الخراب، والاقتحامات والإغلاقات لا تتوقف، والعمليات الاستيطانية مستمرة على قدم وساق، على الرغم من المناشدات الأمريكية، حتى بات الفلسطينيون أقلية في الجزء الشرقي من مدينة القدس، ويوشكون أن يصبحوا أقلية لا تزيد عن ١٦٪ بعد استكمال بناء جدار العزل.

إزاء هذه الأوضاع المأساوية التي تهز كل ضمير، كان يُفترض أن تقدم القمة شيئًا ذا بال، يشكل عامل ضغط على العدو الصهيوني، أو ترسل رسالة إلى الإدارة الأمريكية لتقلل من حجم دعمها لهذا الكيان، على الرغم من الإهانات التي وجهت إليها في القدس وواشنطن، حيث بلغ الغرور والغطرسة والاستقواء بالإيباك والكونجرس الأمريكي حدًا جعل نتنياهو يتطاول على الرئيس الأمريكي ونائبه، ولم يمكنهما من الحصول على مجرد وعد بوقف الاستيطان، يستثمرانه لدى العرب والمسلمين.

لقد بات واضحًا أن في مقدمة أوراق الضغط التي يملكها العرب قطع العلاقات القائمة - بالسر والعلن- بين بعض الأنظمة العربية والدولة العبرية، وسحب ما يُسَمَّى بالمبادرة العربية للسلام، وأحكام المقاطعة الاقتصادية التي فقدت تأثيرها بعد الاتفاقيات الموقعة مع العدو الصهيوني، وبعد الإعلان عن المبادرة العربية، وفك الحصار العربي المضروب على قطاع غزة، والإعلان عن دعم المقاومة، باعتبارها حقًا مصونًا لكل بلد واقع تحت الاحتلال، ولكنّ شيئًا من ذلك لم يحصل، واكتُفي بالإعلان عن دعم لمدينة القدس، مقداره خمسمائة مليون دولار، يُخشى أن يكون مصيرها مصير التزام القمة العربية السابقة إزاء قطاع غزة، والذي لم يصل منه شيء.

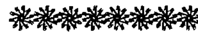
إن مخرجات قمة (سرت) تعكس الحالة التي وصلها النظام الرسمي العربية، وهي الحالة التي حذر منها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم قال: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها" قيل: "أوَمِن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟" قال: "لا.. بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء

السيل"، ثم ذكر الوهن. قيل: وما الوهن يا رسول الله؟، قال: "حب الدنيا وكراهية الموت".

فهل يعيد النظام الرسمي العربي النظر في واقعه وموقعه على الخريطة، فيستنفر طاقات الأمة القادرة على النهوض لو لمست الجدية، فنرى خطابًا جديدًا ومواقف جديدة في مؤتمر القمة الاستثنائية القادم، أم إنه سيواصل السير على الوتيرة ذاتها، فينتهي إلى ما انتهى إليه أبو عبد الله الصغير في الأندلس؛ الذي لم يجد إلا الدموع، فردت أمه على دموعه بقولها:

ابكِ مثلَ النساء ملكًا مضاعًا

لم تحافظ عليه مثلَ الرجالِ



الداعية د. فتحي يكن

مفكر إسلامي لبناني راحل.

(رحمه الله)



بين الأصالة والمعاصرة

من كمال هذا الدين، أن لا تناقض البتة بين أدلته ونصوصه القرآنية، وبين أدلته ونصوصه النبوية، وإن ظهر أحيانًا ما يخالف هذه المسلّمة، فإنما يعود إلى قصورنا نحن عن إدراك معاني هذه الأدلة والنصوص، أو لعدم وقوفنا على كافة الأدلة والنصوص، فالقضية إذًا في ملعبنا نحن، وحاشا أن تكون في ملعب هذا الدين القويم.

من ذلك مثلا، ما يتعلق بالإحداث في الدين أو البدعة، من غير تمييز ولا تفريق، بين الإحداث في الدين وبين تحديث أمور الدين، وبين الجانب الثابت فيه، والجانب الآخر المتغير، وبدون أدنى توقف أمام مقاصد النصوص النبوية؛ التي تحذر من الإحداث، والأخرى التي تشجع على التجديد والتحديث.

معنى الإحداث في الدين:

ولكي تتضح الصورة أكثر ويتحقق التمييز بين ما هو مباح ومبرور، وما هو محظور ومأزور، كان لا بد من تعريف الإحداث والابتداع.

الإحداث والابتداع لغة، مأخوذ من الاختراع والاصطناع، على غير مثال سابق، ويقال: ابتدع فلان بدعةً، أي اصطنع صنعة، وأتى أمرًا لم يُسبق إليه.

وأما الإحداث والابتداع اصطلاحًا، فهو إدخال جديد على الدين، يضاهي الدين نفسه، وهو المحرّم والمذموم، ولو بقصد الخير والتقرب من الله – تعالى-، وفيه جاء قوله – صلى الله عليه وسلم-: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" (رواه البخاري ومسلم) وفي رواية لمسلم: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد".

وفي هذا الجانب كان جماع الرأي، بأن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

معنى تحديث أمور الدين:

ذاك كان حكم الإحداث في الدين نفسه.. في المساحة الثابتة الضيقة؛ التي لا جواز للاجتهاد فيها؛ لأنها من التحليل والتحريم، وهو حق الله وحده.

وإزاء هذا الجانب، هنالك جانب آخر يتعلق بأمور الدين:

-بالوسائل التي يخدم بها الدين.

-بالطرق التي يعرض بها الإسلام.

-بالأسباب التي تحقق له التمكين والمنعة في الأرض.

وهذه كلها تقع – والله أعلم- ضمن المساحة التي لا أقول: إن الاجتهاد فيها مباح، بل هو واجب، إنها

المساحة التي يمكن أن يفهم منها قوله - صلى الله عليه وسلم-: "إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة، على رأس كل مائة سنة، من يجدد لها أمر دينها" (رواه أبو داوود والبيهقي والحاكم).

إنها المساحة التي لفت إليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم- في أكثر من حديث، من ذلك "الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها" (رواه الترمذي).

وقوله: "خذوا الحكمة من أي وعاء خرجت".

حتى إن استكشاف المزيد من معاني النصوص مع تقدم العصور، لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال تفعيل دور الاجتهاد هذا، والذي به يستمر إعجازُ هذا الدين على مر الدهور، وإلى هذا الجانب كانت إشارة الصحابي الجليل معاذ بن جبل، عندما ابتعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قاضيًا على اليمن، حيث ابتدره قائلا: (بماذا تقضي يا معاذ إن عرض لك قضاء؟، قال: بكتاب الله، قال فإن لم تجد؟، قال: بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد، قال: اجتهد رأيي لا آلو، فربت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- على كتفه وقال: الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يُرضي رسول الله).



قبول الآخر واستيعابه

إنَّ قبول الآخر واستيعابه يجب أن ينطلق من قاعدة حبِّ الخير للآخرين، والحرص الصادق على هدايتهم، واستنقاذهم من ضلالاتهم، ومن القناعة الصادقة بشرعيَّة هذا الأمر ووجوبه، كما من خلال تأصيله وتجذيره في المشروع الإسلاميِّ، وفق العناوين العريضة التالية:

- الإسلام يعترف بوجود الأضداد، من خلال قوله تعالى: (ولو شاء ربُّك لجعل الناس أمَّةً واحدة).

- وهو يدعو الأضداد إلى التلاقي والتعارف، مصداقًا لقوله تعالى: (يا أيُّها الناس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، إنَّ الله عليمٌ خبير).

- والإسلام يدعو الكلَّ للتعاون على الخير، من خلال قوله تعالى: (وتعاونوا على البرِّ والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتَّقوا الله إنَّ الله شديد العقاب).

- والإسلام ينهى عن اعتماد سياسة القمع والإكراه مع الآخر، من خلال قوله تعالى: (لا إكراه في الدين قد تبيَّن الرشد من الغيّ)، وهذا منتهى الانفتاح على الآخر، والاعتراف به.

- والإسلام يحذر من الإساءة إلى الآخر ولو كان مشركًا أو علمانيّا أو غير ذلك، من خلال قوله تعالى: (ولا تسبُّوا الذين يدعون من دون الله فيسبُّوا الله عَدْوًا بغير علم).

- والإسلام يدعو إلى البحث عن القواسم المشتركة في دعوة الآخرين، حرصًا على استجابتهم واستيعابهم، فيقول: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتَّخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله).

- والإسلام يدعو إلى التعاون والتضامن مع الآخر كائنًا من كان، لدرء المفاسد وجلب المصالح، كرفع الظلم، وتعزيز الحريَّة والعدالة والمساواة، وصون حقوق الإنسان، ومن أجل ذلك قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "لقد حضرت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا، ما أحبُّ أنَّ لي به حمر النعم، ولو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت" رواه ابن إسحاق في السيرة.

- ومن دلائل حرص الإسلام على الآخر، دعوته وحضُّه على الاستفادة ممَّا عنده من خير وما لديه من حكمة، حيث جاء في الأثر: "خذوا الحكمة من أيِّ وعاءٍ خرجت"، "الحكمة ضالَّة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحقُّ بها" و"اقبلوا الحقَّ ممَّن جاء به من صغير أو كبيرٍ، ولو كان بغيضًا بعيدًا، واردوا الباطل على من جاء به، من قريبٍ أو بعيدٍ، ولو كان حبيبًا نسيبًا".

والحقيقة أنَّ المسلمين عمومًا والإسلاميِّين خصوصًا، مدعوون لامتثال الإسلام ومبادئه وأحكامه وأخلاقه في التعامل مع الآخر، بصرف النظر عن معتقده وفكره وفلسفته، ما لم يحمل عليهم السلاح ويقاتلهم،

وليتدبَّروا بإمعانٍ قوله تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتقسطوا إليهم إنَّ الله يحبُّ المقسطين).



النهج العلاجي مرض مزمن!

إن اعتماد النهج العلاجي في عالم الأبدان كما في عالم الأرواح، وفي نطاق الفرد كما في نطاق الجماعة، وفي إطار السلوك الفردي كما في إطار العمل الدعوى والحركي، من شانه أن يتسبب بفقدان المناعة الذاتية والمكتسبة، وتعوُّد الإدمان العلاجي، وفي هذا خطر كبير، وشر مستطير. والبنية الحركية كالبنية البشرية، تحتاج لمواجهة الظروف الصعبة إلى مقومات ذاتية، تمكنها من تجاوزها وتخطيها بسلام وأمان. وكل بنية حركية تدخل معترك الصراع، أو تتدرج إليه قبل الأوان، وقبل أن تمتلك مقومات الصمود، تكون قد حكمت على نفسها بالإعدام.. وشأنها في ذلك شأن الجاهل؛ الذي يرمي نفسه إلى لجة البحر قبل أن يتعلم السباحة؛ لأنه يكون قد حكم على نفسه بالغرق. ومن هنا سر اندثار كثير من الحركات التي قامت ثم بادت؛ لأنها استعجلت الشدائد، قبل أن تتهيأ لها، واعتمدت مواقف وسياسات غير قادرة عليها، ورفعت شعارات وهي خاوية الوفاض من مضمونها، فدخلت النفق المظلم؛ حيث تتكاثر وتزدحم المشكلات، ولا من مناعات كافية، أو علاجات شافية، فحُم القدر، وعمي البصر، ووقع ما هو أدهى وأمر. إن الحركة- أية حركة- عندما تتخطى حجمها، ولا تلتزم حدها، وتعلن من الطروحات ما يفوق طاقتها وقدرتها، تكون قد فقدت المناعة، وسقطت في دوامة الاستنزاف، ووقعت بين فكي المرض والعلاج، إلى ما شاء الله. أما النهج الذي يعتمد على تفعيل القدرات الذاتية، وإيجاد المناعات الخاصة، واكتساب الطاقات الوقائية ابتداءً، وقبل دخول معترك الصراع، وحقول التجارب، فإن من شأنه أن يحفظ البنية سليمة، على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة، كما من شأنه أن يوفر الطاقات من أن تهدر بلا طائل، ويعمل على خفض نسبة الخلل إلى الحدود الدنيا. إن مثل ذلك كمثل جيش كامل التجهيز، كامل التعبئة والتدريب، قيادته على قدر كبير من الوعي، وبعد النظر، وتقدير الأمور.. تعرف قدرات العدو، وحيله العسكرية، تعرف سلاحه وتكتيكاته المعتمدة، متأهبة لجبه كل المفاجآت، آخذة بكل الاحتياطات. إن هذا الجيش - بما أخذه من أسباب وقائية ودفاعية- أقدر في المقياس المادي على النجاح وتحقيق النصر، من آخر عادي التجهيز أو ضعيفه، وعديم الوقاية والحيطة. وعن أهمية الحيطة والوقاية يقول العقيد محمد صفا، في كتابه الحرب: (الحيطة هي السلامة، أو هي الواسطة لتحقيق السلامة.. إنها الاحتياط ضد الطوارئ والمفاجآت من أي نوع كانت، ومن جميع الاتجاهات، وإنه واجب كل مسئول (وجماعة) أن لا يؤخذ أبدًا على غرة.. والحيطة التي هي لغة الاحتياط للطوارئ من كل نوع ومصدر، والتي هي عمليًا عبارة عن مجموع وحاصل لعدد من التدابير والإجراءات الاحترازية والتحضيرية، وكذلك نتاج (لتكوين) الفرد والجماعة، وهي - كمبدأ إستراتيجي وتكتيكي- في مقدمة المبادئ (العملانية)

الأساسية؛ من حيث الأهمية والأسبقية. تستدعي الحيطة قبل كل شيء معرفة بالخطر، وتقديره حق قدره، وتحديدًا لنوعه ومصادره واتجاهاته، وتحضيرًا للوسائل العلمية والمادية؛ من أجل تجنبه ومقابلته. إنه لا مباغته أبدًا حيث تكون الحيطة جيدة، وشاملة، ومستمرة دون انقطاع، ولما كانت المباغتة نصف الطريق إلى النصر فالحيطة التي تحول دون وقوع المباغتة هي أيضًا نصف الطريق إلى النصر..). وفي نطاق العمل الإسلامي، وحياة الدعوة والداعية، الوضع متشابه؛ فالحركة التي تأخذ بكل أسباب الإعداد: العقائدي والفكري والتربوي والحسي، وتكون مناهج التربية عندها وقائية، وتصوغ قراراتها ومواقفها في ضوء المنطق الذي يفرضه الشرع، وفق الأولويات والقدرات والظروف المتاحة، ووفق ما تريد هي، لا وفق ما يريده العدو، وفي الزمان والمكان والكيفية التي تناسبها هي، لا وفق ما يُفرض عليها لاستدراجها وإجهاضها. هذه الحركة تكون مالكة لزمام نفسها وقواها وخطواتها ونهجها، بعون الله، غير منساقة ولا مستدرجة، ولا محتواة ولا مخترقة، وتكون بعيدة عن دوامة الاستنزاف، واحتياجات العناية الطبية اليومية الفائقة، ولنسمع إلى اللفتات القرآنية في صميم هذا المعنى؛ حيث يقول الله (تعالى): (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم.. الآية) ويقول: (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة.. الآية).



الوقاية التربوية من الإجمال إلى التفصيل

إذا أردنا أن ننتقل من العموميات في الكلام عن الوقاية، وضرورتها في كل جانب من جوانب الحياة، نبدأ بالكلام في هذا الفصل عن الوقاية التربوية، أو التربية الوقائية. التربية – عمومًا- عملية بناء الفرد والمجتمع وفق صيغة قائمة على مفاهيم عقائدية وأخلاقية محددة؛ فإذا كانت التربية إسلامية كان ارتكاز هذه الصيغة على مفاهيم الإسلام، العقائدية والفكرية والمسلكية. والعملية التربوية في الإسلام تستهدف بناء الشخصية، بناء الفرد والمجتمع وفق هذه المفاهيم تمامًا، ومن غير مداخلات أخرى؛ فإذا تحقق ذلك كان بناء الشخصية الإسلامية بناءً متكاملا ومتوازنًا ووقائيًّا، الشخصية التي تمتلك مناعة ذاتية تحفظها من السقوط في المتاهات والانحرافات، والوقوع في فخ الأهواء والنزوات. إن ملاحظة أن تكون العملية التربوية وقائية من شأنها خفض نسبة المشكلات والآفات، في حياة الفرد والجماعة، إلى الحدود الدنيا، كما سبق وأشرنا، وبالتالي خفض نسبة الطاقات والأوقات التي تهدر، وعلى كل المستويات، إلى الحدود الدنيا كذلك. إن الساحة الإسلامية عموما لا تزال تعاني من إخفاق مناهج التربية، ومن بروز وتنامي ظواهر مرضية كثيرة، والاعتبارات في هذا الشأن كثيرة، منها: -١إن العملية التربوية تتم وسط بيئة منحرفة، لا تساعد على إنجاح العملية، وإنما تتسبب بإجهاضها وإفشالها. -٢إن هذه البيئة – بما تمتلكه من إمكانيات التأثير المختلفة التعليمية والإعلامية وغيرها- تجاوز أثرها الشريحة المراد تربيتها، إلى النهج التربوي نفسه، وإلى آلية التربية نفسها. -٣إن عملية التربية لا تزال تراكمية الأسلوب، لا تقوم على نظرية متكاملة الحلقات والمفردات، متناسقة الأدوار والخطوات؛ فهي تقليدية المنحى، شأنها شأن البرامج التعليمية (المدرسية أو الجامعية)، مما يفقدها القدرة على تحويل هذه المفاهيم إلى واقع معاش، وإلى ممارسات سليمة، وإلى مواقف ومبادرات ذاتية صحيحة، في شتى المجالات. إن بروز كثير من الآفات المرضية في بنيتنا التربوية والحركية، ومن خلال الممارسات والتجارب المختلفة، كسقوط الأعضاء، وخسارتهم، والنزعات الفردية القاتلة، والظواهر العنيفة والتطرفية المدمرة، والنزعات النفعية، والمصلحية المؤذية، وإفرازات الخطوات والمشاريع غير المدروسة، والانشقاقات في البنى التحتية والفوقية، والعصبيات المحلية والإقليمية، وعدم تفعيل الدور المؤسسي، وضعف التأثير في المحيط، والفشل في بناء البيت المسلم، وتراجعية القدوة الحسنة، يؤكد وجود خلل ما في النهج التربوي بصراحة، أقول: إن عملية التربية حتى تكون فاعلة وجذرية ووقائية يجب أن تعتمد أسلوب (التخلية ثم الترقية)، أي: قاعدة (التضعيف ثم التوثيق)، وبعبارة أوضح: قاعدة تدمير القديم وبناء الجديد، أي: إزالة رواسب الماضي، وإعادة بناء الشخصية وفق الأسس والأوليات

الشرعية. إن العملية التربوية يجب أن تبدأ بعد كشــف الحالة التي عليها الفرد؛ لمعرفة: أفكاره، وكيف يفكر، تصرفاته، وكيف يتصرف، علاقاته ومن يعاشر، مشاكله، ومسبباتها، ميوله، وغرائزه، ومدى تحكمه فيها، نقاط القوة والضعف عنده، مكامن الخير والشر فيه، بعد ذلك يمكن تحديد المنهج موضوعًا وكيفية.. وكل عملية تربوية تتم خلاف ذلك لا تحقق إلا تراكمات جديدة، في شخصية الفرد، قد تصيب حينا، ولكنها تكون فاشلة في غالب الأحيان؛ لأن الجديد بُنِيَ على اعوجاج القديم. تتقدم أسرة تحرير مجلة الأمة بأحر التعازي للأمة الإسلامية في فقدان رمز من رموز الدعوة الإسلامية الدكتور الداعية فتحي يكن نسأل الله أن يتغمد الفقيد بواسع رحمته وأن يدخله فسيح جناته ونسأله سبحانه أن يلهم ذويه ومحبيه من بعده الصبر والسلوان. إنا لله وإنا إليه راجعون

****

فشل النهج التربوي.. شواهد الواقع

هنالك شواهد كثيرة يمكن أن تساق على فشل النهج التربوي والعملية التربوية..

- أذكر أن شابًا (ناصريًا) كان مهووسًا بالرياضة التحق بأحد نوادينا الرياضية، وكان ذلك مدخلًا لاجتذابه إلى إحدى الحلقات الدراسية، هذا الشاب بقي في الحلقة الدراسية قرابة عامين، حفظ خلالها بعض قصار السور، والأربعين حديثًا النووية، وتعلم بعض الأحكام الشرعية، المتعلقة بالطهارة والنجاسة، ونواقض الوضوء، وموجبات الغسل، وفرائض الصلاة وسننها.

والحقيقة أن هذه المفردات - على قيمتها الذاتية- لم تكون هي المادة التي يحتاجها ابتداءً.. لم تكن المدخل الصحيح لعملية التغيير في أفكاره وتصوراته ومعتقداته؛ ولذلك بقي ناصريَّ العقيدة، ناصري التفكير، ناصري السياسة والتوجه، وإن بقي مقيم الصلاة، محافظًا على الشعائر الدينية.. وفي ظرف من ظروف المفاصلة الجذرية بين الاتجاه الإسلامي والاتجاه الناصري كان هذا الشاب في أقصى موقع من مواقع الناصرية تطرفًا وإسفافًا.

من النماذج التي يمكن أن تُساق على النهج النبوي في المتابعة التربوية من المربي: أن رجلًا قال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم): ما شاء الله وشئت يا رسول الله، فأنكر ذلك رسول الله، وابتدره على الفور بما يصحح عقيدته، وينقيها، فقال: "أجعلتنى لله ندًا؟، بل ما شاء الله وحده"، وقال له آخر: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مصححًا: "بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله".

- شخص آخر تبوأ على الساحة الإسلامية مناصب قيادية مرموقة، مع أنه كان معروفًا بحب الزعامة، والدوران في الذات، منذ حداثته.. المنهج التربوي التراكمي لم يستهدف استئصال العلة، وإنما غلَّفها.. والتخطيط الحركي بدل أن يعمل على تحجيم التطلعات الشخصية لديه عمل على بعثها وتناميها.

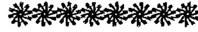
فرُشح إلى منصب زعامي كان بالنسبة للحركة غلطة العمر، وبالنسبة إليه قاصمة الظهر، كل ذلك بالرغم من التحذير النبوي الوقائي؛ الذي أشار إليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، في أكثر من موضع؛ حيث قال: "طالب الولاية لا يُولى" وقال: "إنا والله لا نولي هذا العمل أحدًا سأله، ولا أحدًا حرص عليه"، وقال: "اتقوا الله؛ فإن أَخْوَنَكُم عندنا من طلب العمل".

وشخص آخر تعهدته الدعوة صبيًا يافعًا، حتى بلغ من خلالها، وبتشجيع منها، مراتب اجتماعية وعلمية عالية.. كان مصابًا بداء العظمة والغرور منذ الصغر، ومعروفًا بنزعة فردية قاتلة، لم تعمد مناهج التربية إلى معالجتها واستئصالها، ولم تتعدَّ العناية به جانب التكوين العلمي والثقافي والخطبى.. ولذلك

كبر في الدعوة، وكبر داؤه، وعندما استفحل أمره، وزاد خطره، تحرك المَعنِيُّون للعلاج، ولكن بعد فوات الأوان، وبعد أن بلغ مرحلة اللا عودة.

هذا الإنسان لم يتورع عن أن يمتد لسانه على من علَّمه الكلام بالنقد والتجريح، وقد غفل عن التوجيه النبوي الكريم: "لا تنسَوا الفضل بينكم"، "إن الله يسأل عن عشرة ساعة"، وصدق الله (تعالى) حيث يقول: (قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۞ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۞ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۞ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ × ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۞ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۞ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) (عبس: ١٧ - ٢٣).

وهكذا تتكاثر الظواهر الفاجعة على مسرح الدعوة؛ من جرَّاء فشل العملية التربوية، وعدم ملامسة المنهج التربوي ومفرداته مكامن العلة، وجذور الداء؛ الذي لا يمكن تحديده من غير اعتماد لصيغة (التصفية ثم الترقية)، ومن غير استئصال للأدران السرطانية المتشبثة بعقلية الفرد ونفسيته.



العملية التربوية.. علل وأمراض

على الحركة الإسلامية أن تعيد النظر - وبشكل جذري- في العملية التربوية، يجب أن تتحسس الواقع بما فيه من أمراض وعلل، أن تدرس التجارب التربوية، ومدى نجاحاتها، وأن تستيقن من مدى جدارة المناهج المعتمدة؛ لترى في النهاية إن كانت هذه المناهج تتكافأ مع عملية تغير الواقع أفرادًا وحركة، والارتقاء به إلى المرتجى؟.

أكتفي بعرض مثال واحد من الظواهر المرضية في الواقع الحركي الإسلامي المعاش، وهو مرض الانفصام المزمن بين السياسة والتربية، والخصام شبه الدائم بين العاملين في الحقل السياسي وبين العاملين في الحقل التربوي.. ولا أرى سببًا رئيسًا لذلك إلا أن العاملين في الحقل السياسي انقطعوا عن المجالات والاهتمامات الشرعية والتربوية، فكرًا وممارسة، وأن العاملين في الحقل التربوي انقطعوا عن المجالات والاهتمامات السياسة والاجتماعية، فكرًا وممارسة كذلك.

كما نجد: أن المفهوم السياسي والنظرية السياسية غير مبنية على أدلة شرعية، وأن المفاهيم الشرعية والمناهج التربوية غير مرتبطة بالواقع السياسي، ولا ملاحظة له.

إن النظرية التربوية يجب أن تستهدف - ومن خلال أي منهج يوضح، ومفردات تعتمد، وتصنف- تكوين الجيل الإسلامي المنشود.. ومن مواصفاته:

- أن يكون متفقهًا في شرع الله، ملتزمًا به.
- أن يكون فاعلًا في مجتمعه وبيئته، بأفكاره وسلوكه، ومواقفه وطروحاته.
- أن يعيش هم الإسلام والحالة الإسلامية في كل شئونه.
- أن يكون واعيًا لزمانه وعصره، مدركًا لما يجرى حوله؛ فهو إن كان مكلفًا بحيازة ما يجب أن يعرف من الدين بالضرورة؛ فإنه مكلف كذلك بحيازة ما يجب أن يعرف من (العصر)، بكل أحواله: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية وغيرها، بالضرورة كذلك، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

إن نجاح العملية التربوية ليس في اختزان المعلومات والثقافات والعلوم المختلفة، وملء الأدمغة بالمعارف، إنما في تفعيل هذه جميعًا؛ لتؤدي كل معرفة دورها الصحيح، في عملية التربية والتكوين الوقائيين، والله أعلم.

إن نجاح هذه العملية يرتبط كذلك بمدى قدرة المربي على تحديد نقطة البدء في التكوين؛ لأن البداية الصحيحة تحقق النهاية الصحيحة، وفي كثير من الأحيان يكون منشأ الفشل في مجال التربية ناجمًا عن كون المربي لم يعرف من أين يبدأ، وكيف يبدأ.

إن مثل ذلك بناء (العمارات والدور)؛ فإن أقيم البناء من غير سبر لأغوار الأرض، ومعرفة بطبيعتها وتربتها وخصائصها، وما يلزمها من عمق الأساس، ومئونة الحديد والأسمنت وخلافه، كان بناء ضعيفا معرضا للانهيار والسقوط لدى أدنى اهتزاز.

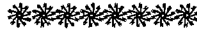
فالعملية التربوية يجب أن تبدأ إذن بعد كشف الحالة التي عليها الفرد، ويجب أن تكون وفق نظرية تربوية متناسقة المفردات والعلوم والمعارف والثقافات، وبواسطة مربٍّ يملك إمكانيات التربية، ويملك قوة النظر والفراسة في الناس، فيتناولهم من حيث يستجيبون ويتأثرون، ويخاطبهم من حيث يسمعون ويفهمون.. وفي معظم الأحيان يعود الفشل في الحقل التربوي إلى الأمور التالية:

-إن المربى لم يستكشف شخصية الفرد ومفردات تكوينه السابقة ليبني على أساسها.

- إن المربى لا يملك المقومات التي تساعد على التربية.

- إن المادة التربوية لم يُحسَن اختيارها، فيتعطل بالتالي مفعولها.

- إن بناء الجديد كان في الفراغ، أو على أساس غير سليم، أو فوق تراكمات لم يجرِ رفعها وإزالتها.



التصفية والتخلية قبل التربية والترقية

إن عملية (التصفية أو التخلية)؛ التي تسبق مرحلة التربية والترقية، تتفاوت موضوعًا ونهجًا بين شخص وآخر، وذلك بحسب ما لدى كل فرد من سابق تصورات وأفكار وعادات وطباع ومشكلات.. وبحسب ما عنده من استعدادات للتلقي والانفعال، وفي هذه الحالة والمرحلة لا يمكن أن تكون وحدة التوجيه والعطاء ناجحة، أما إذا استوى الجميع بعد عملية التصفية، وتم اجتثاث رواسب الماضي ومخلفاتها من حياتهم، فيمكن أن تتم مرحلة التربية والترقية وفق منهج واحد، وبنجاح؛ شرط أن تنتظم مفردات المنهج نظرية تربوية كاملة، وقدرة على التربية فاعلة.

إن المنهج التربوي يجب أن يستهدف بناء العقلية الإسلامية، والنفسية والإسلامية؛ اللتين تتكون منهما الشخصية الإسلامية، وأن تحقق مفردات المنهج خدمة هذا الهدف بشكل أساسي.

فالدراسات القرآنية: يجب أن تؤدى دورًا أساسيًا في خلق الشخصية القــــرآنية، يأخذ منها المسلـــم الفكر لعقله، والنور لقلبه، والقوة لإرادته، والوقاية لنفسه من وساوس الشيطان، وإلقاءات الهوى، يعيش القرآن في أحواله كلها، وكأنه المعني بالخطـــاب والتكليف، والتـــرغيب والترهيب، ومن هنا سر الدعاء الجامع المضيء؛ الذي علمنا إياه رسولنا (صلى الله عليه وسلم)؛ حيث يقول: "اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي".

- يقول الغزالي (رحمه الله): درجات القراءة ثلاث:

١- أن يقدر العبد كأنه يقرأه على الله (عز وجل)، واقفًا بين يديه، وهو ناظر إليه، ومستمع منه، فيكون عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال.

٢- والثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله (عز وجل) يراه، ويخاطبه بألطافه، ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه: الحياء والتعظيم، والإصغاء والفهم.

٣- والثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات؛ فلا ينظر إلى نفسه، ولا إلى قراءته، ولا إلى تعلق الإنعام به، بل يكون مقصور الهم على المتكلم، موقوف الفكر عليه، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره، وهذه درجة المقربين، وما قبله أصحاب اليمين، وما خرج عن هذه الصورة فهو درجة الغافلين".

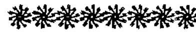
الدراسات القرآنية يجب أن تتعدى- في مؤداها وأثرها- حدود الحفظ والتلاوة، على أهميتها وقيمتها، إلى تحقيق عملية صياغة الشخصية القرآنية، وحسبي أن أنقل هنا بعض الشواهد؛ التي ترسم وتوضح معالم هذه الشخصية:

- قال ابن مسعود: (ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس ينامون، وبنهاره إذا الناس يفرطون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون).

- قال أبو بكر الصديق (رضي الله عنه): (يا رسول الله أراك شبت؟، فقال: شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت).

- وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سمع قارئًا يقرأ: (إن لدينا أنكالًا وجحيمًا)، فصُعق.

- وعن ابن عباس قال: (لما أنزل الله على نبيه هذه الآية: (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة) تلاها رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فخر فتى مغشيًا عليه، فوضع النبي يده على فؤاده، فإذا هو يتحرك؛ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): يا فتى قل: لا إله إلا الله، فقالها، فبشره بالجنة).



التكاليف العبادية وصياغة الشخصية الإسلامية

التكاليف العبادية يجب أن تؤدي نفس الغرض، وتصب في ذات الاتجاه، اتجاه تكوين وصياغة الشخصية الإسلامية وفق ما شرع الله، فلا تكون العبادة طقوسًا جامدة، وحركات راكدة ميتة، لا روح فيها، وإنما تكون مدخلا لتجديد الإيمان وتقويته، وتزكية النفس وترقيتها، وتهذيب الجوارح، وضبط النزوات، وحب الخيرات والمكرُمات.

يقول ابن تيمية (رحمه الله) في رسالة العبودية: العبادة أصل معناها الذل: يقال: طريق معبد إذا كان مذللا، قد وطئته الأقدام، ولكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل والحب؛ فهي تتضمن غاية الذل لله (تعالى)، بغاية المحبة له؛ فإنَّ آخر مراتب الحب هو التتيم، وأوله العلاقة؛ لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة؛ لانصاب القلب إليه، ثم الغرام، وهو الحب الملازم للقلب، ثم العشق، وآخرها التتيم، يقال: تيم الله، أي: عبد الله، فالمتيم المعبد لمحبوبه، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدًا له، ولو أحب شيئًا ولم يخضع له، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه؛ ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله (تعالى)، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وان يكون الله أعظم عنده من كل شيء).

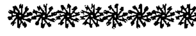
وفي موضع آخر يقول: (وإنما عبد الله من يُرضيه ما يرضي الله، ويُسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحب الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله (تعالى)، ويعادي أعداء الله (تعالى)، هذا هو الذي استكمل الإيمان، كما في الحديث: "من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان"، وفي آخر: "أوثق عُرى الإيمان: الحب في الله/ والبغض في الله".

وعن أبي الدرداء (رضي الله عنه) أنه قال: (يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم!، كيف يعيبون سهر الحمقى وصيامهم ومثقال ذرة من بر صاحب تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرحم من أمثال الجبال من عبادة المغترين؟!).

والدراسات الفقهية: يجب أن يكون الباعث من ورائها التفقه في الدين؛ كيما تحقق معاني العبودية الحقة لله، وامتثال أمره، والاحتكام إلى شرعته، والتزام شريعته، على علم ودراية وهدى ونور، وبذلك تتحقق معايشة الإسلام في كافة شئون الحياة، الخاصة والعامة، السياسية والاجتماعية الأخلاقية والمعيشية والاقتصادية، وفق أحكام الشرع، وبعيدًا عن متاهات الهواء والمصالح، وفي هذا قوة وتكامل المفعول الوقائي في شخصية المسلم، وصدق الله (تعالى) حيث يقول: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (فاطر: ٢٨)، وصدق رسوله (صلى الله عليه وسلم): "من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين".

من هنا كان اختلاف دراسة الفقه بين بيئتي: المعهد والدعوة بين الجامعة والجماعة، مادة وأسلوبًا وغاية.

والفارق هنا إنما يتمثل: في كيفية تفعيل الدور الفقهي، والتربية الفقهية، في بناء الشخصية الإسلامية، فالغاية يجب أن تتجاوز تحقيق القدرة على الفتوى والاجتهاد، واستنباط الأحكام الشرعية، وقوة النظر في الدليل الشرعي، إلى استقامة الأعمال وصلاحها، واستنهاض النفوس من غفلتها، والوقوف بها عند حدود الله (تعالى)، وصدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؛ حيث يقول: "العلم علمان: فعلم ثابت في القلب، فذاك العلم النافع، وعلم في اللسان، فذلك حجة الله على عباده".



سيرة النبي للتأسي والاقتداء

دراسة السيرة النبوية يجب أن تكون للتأسي والاقتداء، وليس للمعرفة والعلم المجردين، ونحن حين نفعل ذلك فإنما نذعن لتكليف رباني، وأمر إلهي؛ إذ هو القائل (سبحانه) (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)، (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم .

قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا..).

وصدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حيث يقول: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني".

وقال: "من أحب سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة".

وقال: "من تمسك بالسنة دخل الجنة".

وحسن الاقتداء سبب من أسباب حسن الاهتداء، مما يعين على اتقاء مواطن الشر، واجتناب مواقع الضر، والتزام سبل الخير.. وقد قيل: قل لي من تعاشر أقل لك من أنت.. فكيف إذا تحققت صحبة خير الأنام، وسيد المرسلين، وإمام المتقين، سيدنا محمد بن عبد الله (عليه أفضل الصلاة والتسليم)؟.. إنه الخير كله، والأمان كله، والهداية كلها، والوقاية جميعها.

يجب أن نعيش مع رسول الله سيرته وسنته، في عبادته ومعاملته، في سكوته وكلامه، في شرابه وطعامه، في نومه وقيامه، في حكمه وقضائه؛ لنحاول قدر الاستطاعة أن نفعل كما فعل، ولو بنسبة أقل، وقدر أدنى؛ لأنه المعصوم، ولسنا كذلك، ولكونه نبيًّا ونحن أتباعه، ولكونه لا ينطق عن الهوى، وما أكثر الهوى فيما ننطق!.

وحتى نعيش مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ونتابع خطاه، ونتحرى سنته، لا بد وأن نحبه كما أحب أصحاب محمد محمدًا، وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا من كل شيء، وإلا كنا معنيين بقوله (تعالى): (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين).

- أخرج الطبراني عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال:يا رسول الله إنك لأحب إليمن نفسي وإنك لأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتي، فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين،

وأني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك؟، فلم يردَ عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى نزل قوله (تعالى): (ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين).

- وعن أبي ذر (رضي الله عنه) أنه قال: يا رسول الله الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل بعملهم؟ قال: "أنت يا أبا ذر مع من أحببت"، قال: فإني أحب الله ورسوله قال ((فإنك مع من أحببت)).

قال: فأعادها أبو ذر فأعادها رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

- وعند ابن إسحاق عن سعد بن أبى وقاص (رضي الله عنه) قال: مر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخواها وأبوها مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، بأُحد، فلما نعُوا لهل (أي أخبرت بموتهم) قالت: ما فعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؟، قالوا: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، قال: فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل (أي: هينة يسيرة).

وأخرج البيهقي عن الزهري، قال: حدثني من لا أتهم من الأنصار، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان إذا توضأ أو تنخم ابتدروا نخامته، فمسحوا بها وجوههم وجلودهم، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "من أحب أن يحبه الله ورسوله فليصدق الحديث، وليؤدِّ الأمانة، ولا يؤذِ جاره".



النهج القرآني في التربية الوقائية

من يتمعنْ في النهج التربوي القرآني، ويُجرِ مسحًا للآيات التربوية يجدْ أن التركيز إنما ينصب على البناء الوقائي للفرد وللمجتمع، وعلى تقوية المناعة المكتسبة لدى الناس، تداركًا للأمور والمشكلات، وتحوطًا منها، واتقاءً لشرها قبل وقوعها.

إن النهج القرآني يعمد إلى تجنيب الفرد والمجتمع كل الأسباب والعوامل المرضية، والمؤدية إلى المرض، سواء كانت عقيدية أم نفسية أم فكرية أم جسدية أم خلقية، حتى يكون الأصل في حياة الناس العافية وليس المرض، وحتى لا يتحول المجتمع كله - بفعل الأمراض والمشكلات المختلفة- إلى (مصح أو مسشتفى)، كما هو الحال اليوم.

كل المجتمعات البشرية اليوم مجتمعات موبوءة عليلة؛ لأنها فقدت مقومات الوقاية، فاستشرت فيها الأمراض والعلل بلا حدود، فالعافية في هذه المجتمعات استثنائية، وأهل العافية قلة، وهذا بعكس ما عليه المجتمع الإسلامي، حيث العافية هي الأصل، والمرض هو الشذوذ.

إن جولة سريعة في الرياض العطرة من كتاب الله (تعالى) تؤكد لنا وقائية النهج القرآني، من خلال عدد من محطات الإنذار المبكر؛ التي من شأنها شد الانتباه، والأخذ بكل أسباب الحيطة والحذر؛ لضمان عدم الإصابة بالمرض، والوقوع في العلة، وفيما يلي نماذج من هذه اللفتات القرآنية الكريمة:

- ففي الوقاية من الشرك قال (تعالى): (فاجتنبوا الرجس من الأوثان)، وقال: (لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذمومًا مخذولًا)، وقال: (ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم نذير مبين).
- وفي وقاية الأنفس والأهل من النار: (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس و الحجارة)، (واتقوا يومًا لا تجزى نفس عن نفس شيئًا).
- وفي الوقاية من الشح والبخل: (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون).
- وفي الوقاية من العدو، كل عدو: (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم)، (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك).
- وفي الوقاية من الربا يقول (تعالى): (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين).
- وفي الوقاية من الخمر والميسر وغيره: (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون...).
- وفي الوقاية من قول الزور (والتزوير عمومًا) يقول (تعالى): (واجتنبوا قول الزور...)

- وفي الوقاية من الظن (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضًا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم).
- وفي الوقاية من الآفات الجنسية، يقول (تعالى): (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلًا)، (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن)، (فاعتزلوا النساء في المحيض...).
- وفي الوقاية من الخلاف و التفرق (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات...)، (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا...).

هذه بعض نماذج من النهج القرآني في التربية الوقائية؛ التي يذخر بها كتاب الله (تعالى)، عرضناها هنا على سبيل المثال لا الحصر.



النهج النبوي في التربية الوقائية

النهج النبوي كالنهج القرآني - سواء بسواء-؛ لأنه ترجمة وتفصيل له؛ فهو من جانب يؤكد النمط الوقائي، ومن آخر فصل في التدابير الوقائية، ويوسع مساحتها وحجمها.

والمتتبع لخطوات النبوة - عبر السيرة والسنة- يجدها ذاخرة بالتدابير والتوجيهات والوصايا الوقائية، على كل صعيد، مما يؤكد أن عملية التربية في الإسلام تهدف إلى قطع الطريق على العلة قبل حدوثها، وتقي الأفراد والمجتمع منها قبل وقوعها، وبذلك تبقى البيئة الإسلامية معافاة من الأمراض والعلل والمشكلات والآفات؛ التي تفتك بسائر البيئات الأخرى.

وحري بمناهج التربية على الساحة الإسلامية أن تستشف معالم هذا النهج القويم والفريد، في كل مراحل التربية، وفي مختلف مجالاتها العقيدية والفكرية والروحية والحركية والأمنية وغيرها، وبذلك يمكن أن تستقيم كثير من الأمور، وتختفي كثير من المشكلات؛ التي يعانى منها الجسم الحركي، والبنية الدعوية، في كل مكان.

إن عملية التربية - في نطاق الدعوة والحركة- يجب أن تكون عملية صياغة وبناء للشخصية الإسلامية، هذه العملية يجب أن تشترك فيها كل العوامل والمواد التربوية اللازمة مجتمعة، غير متفرقة، ومتناسقة، غير متعارضة، وضمن إيقاع واحد؛ لتتم ولادة الشخصية بشكل صحيح، ويكون المولود سليمًا معافى، وغير مشوه.

وفيما يلي نقدم عينة من النصوص النبوية في مجالات التربية الوقائية؛ ليتأكد لنا بالتالي أن الوقائية نهج أصيل في المنهج الإسلامي عمومًا.

نصوص وقائية في اجتناب الموبقات

يقول (صلى الله عليه وسلم): "اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات".

ويقول: "اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله (تعالى) عنها فمن ألمَّ بشيء منها فليستتر بستر الله، وليتب إلى الله؛ فإنه من يُبدِ لنا صفحته نُقِمْ عليه كتاب الله".

ويقول: "إياكم والخمرة؛ فإن خطيئتها تفرع الخطايا كما أن شجرتها تفرع الشجر".

ويقول: "إياكم والجلوس على الطريق، فإن أبيتم إلا الجلوس فأعطوا الطريق حقها: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر".

ويقول: "إياكم والدخول على النساء".

ويقول: "إياكم والتعري؛ فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط، وحين يفضي الرجل إلى أهله، فاستحيوهم وأكرموهم".

ويقول: "إياكم والزنا؛ فإن فيه أربع خصال: يذهب البهاء عن الوجه، ويقطع الرزق، ويسخط الرحم، والخلود في النار".

ويقول: اجتنبوا أم الخبائث؛ فإنه كان رجل ممن كان قبلكم يتعبد، ويعتزل الناس، فعلقته امرأة، فأرسلت إليه خادمًا، تقول: إنا ندعوك لشهادة، فدخل، فطفقت كلما دخل بابًا أغلقته دونه، حتى إذا أفضى إلى امرأة وضيئة جالسة، وعندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني لم أدعك لشهادة، ولكن دعوتك لتقتل هذا الغلام، أو تقع عليّ، أو تشرب كأسًا من الخمر؛ فإن أبيتَ صحتُ بك وفضحتُك، قال: فلما رأى أنه لا بد له من ذلك، قال: اسقني كأسًا من الخمر، فسقته كأسًا من الخمر، فقال: زيديني، فلم تزل حتى وقع عليها، وقتل النفس".



نصوص وقائية من فتنة الدنيا

لم يزل الدعاة إلى الله (تعالى) - من قديم الزمان- يحذرون الناس من الركون إلى الدنيا، والإخلاد إلى الأرض، واتباع الأهواء والشهوات، وينبهونهم إلى اتخاذها وسيلة ومعبرًا وقنطرة للوصول إلى الأخرى الباقية، ويدعونهم إلى إيثار ما يبقى على ما يفنى، وإلى جعل الدنيا مزرعة للآخرة.

ولقد كان هذا الاتجاه من الدعاة موافقا لكثير من التوجيهات النبوية، والتنبيهات المحمدية؛ فلقد كان إمامهم في ذلك رسول الله ((صلى الله عليه وسلم))؛ الذي حذر مرارًا وتكرارًا من ذلك، فأرانا حقيقة الدنيا، وقصر أيامها، وسرعة زوالها، وخطورة التنافس عليها، والتحاسد فيها، التباغض بسببها، وحذرنا من الشيطان ووساوسه، وبين لنا مداخله إلى النفوس، وكيفية زجره، والتغلب عليه.

يقول(عليه الصلاة والسلام): "اتقوا الدنيا؛ فوالذي نفسي بيده إنها لأسحر من هاروت وماروت".

ويقول: "اتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن إبليس طلاع رصَّاد وما هو بشيء من فخوخه بأوثق لعبده في الأتقياء من النساء".

ويقول: "أكثروا ذكر هازم اللذات الموت؛ فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعه عليه، ولا ذكره في سَعة إلا ضيقها عليه".

ويقول: "أكثروا ذكر الموت؛ فإنه يُمحِّص الذنوب، ويُزهِّد في الدنيا؛ فإن ذكرتموه عند الغنى هدمه، وإن ذكرتموه عند الفقر أرضاكم بعيشكم".

نصوص وقائية من التفرق والخلاف:

يقول (عليه الصلاة والسلام): "اتقوا الله، وَصِلوا أرحامكم"

ويقول: "إن الله يسأل عن عِشْرَة ساعة". ويقول: "إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يخطب الرجل على خِطبة أخيه حتى ينكح أو يترك".

ويقول: "إياكم والفتن؛ فإنَّ وقْع اللسان فيها مثل وقْع السيف".

ويقول: "إياكم والحسد فإن ابنى آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسدًا؛ فهو أصل كل خطيئة".

ويقول: "إياكم والعضه، النميمة، القالة بين الناس".

نصوص وقائية من مداخل الشيطان:

يقول (عليه الصلاة والسلام): "أقِلُّوا الدخول على الأغنياء؛ فإنه أحرى أن لا تزدروا نعمة الله (عز وجل)".

ويقول: "لا تباشر المرأة المرأة، فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها".

ويقول: "لا تسافر المرأة إلا مع ذي مَحْرَم، ولا يدخل عليها رجل إلا ومعها مَحْرَم".

ويقول: قال الله (تعالى): "النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، من تركها من مخافتي أبدلتُه إيمانًا، يجد حلاوته في قلبه".

ويقول: "إياكم وفضول النظر؛ فإنه يبذر الهوى، ويولد الغفلة".

ويقول: "باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء؛ فإنه إذا كانت المعاينة واللقاء كان الداء الذي ليس له دواء".

ويقول: "إياكم ومُحقَّرات الذنوب؛ فإنهن يجتمعْن على الرجل حتى يهلكنه".

ويقول: "أكثروا من تلاوة القرآن في بيوتكم؛ فإن البيت الذي لا يُقرَأ فيه القرآن يقل خيره، ويكثر شره، ويضيق على أهله".

ويقول: "إياكم والكذب؛ فإن الكذب يَهدي إلى الفجور، وإن الفجور يَهدي إلى النار، ولا يزال العبد يكذب حتى يُكتبَ عند الله كذابًا.. الحديث" متفق عليه.

نصوص وقائية من الغلو والتطرف:

يقول (صلى الله عليه وسلم): "إياكم والغلوَّ في الدين؛ فإنما هلك من كان قبلَكم بالغلو في الدين".

ويقول: "إن المُنبتَّ لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى".

ويقول: "قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه".

وإنه: "ما خُيِّرَ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) بين أمرين إلا اختار أوسطهما".

ويقول: "إن هذا الدين متين؛ فأوغل فيه برفق؛ فإن المنبت لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى".

ويقول: "إن الله رفيق، يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه".

ويقول: "من يُحرَم الرفقَ يُحرَم الخيرَ كلَّه".

نصوص وقائية من الزواج الفاشل:

يقول (صلى الله عليه وسلم): "تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين، تربت يداك".

ويقول: "ما استفاد المؤمن - بعد تقوى الله- خيرًا له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرَّته، إن غاب عنها حفظته في نفسها وماله".

ويقول: "إياكم وخضراء الدمن؟"، قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: "المرأة الحسناء في المنبت السوء".

ويقول: "إذا جاءكم من ترضَوْن دينَه فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنةٌ في الأرض وفساد كبير".

ويقول: "تزوجوا من فقرائكم يُغنِكم الله من فضله".

****



نماذج من النهج الوقائي للآفات الأخلاقية

في هذا الفصل سأتناول نماذج من الآفات الاجتماعية، مبينًا النهج الوقائي الذي اعتمده الإسلام في مواجهتها، ومكافحتها، والقضاء عليها.

الخمرة (أم الخبائث): تعتبر الخمرة (المسكرات عمومًا) مدخلًا لعالم الخبائث والفواحش والانحرافات المختلفة، فوباء تعاطي الخمرة، والإدمان عليها، وباء عاتٍ وقديم.. كان في الجاهلية قبل الإسلام، وهو الآن كائن ومتفاقم في كل أنحاء المعمورة.

كل المحاولات التي قامت لمكافحة هذا الوباء - قديمًا وحديثًا- باءت بالفشل، إلا التجربة الإسلامية؛ التي نجحت ناجحًا باهرًا وجذريًا.

من التجارب الحديثة الفاشلة التجربة التي قامت بها (الولايات المتحدة الأمريكية)، عام ١٩١٩م؛ حيث أصدر (الكونجرس) قانونًا يُحرِّم صناعة الخمر سرًا وجهرًا، ويمنع بيعها وتصديرها واستيرادها ونقلها وحيازتها، ويفرض العقوبات الشديدة بحق المخالفين، ووضعت الحكومة لتنفيذ القانون إمكانات كبيرة، فأنفقت على الدعاية الإعلامية والتعليمية ما يزيد عن ٦٠ مليون دولار، ونشرت من الكتب ما يزيد عن ١٠ ملايين صفحة، وأنفقت لتنفيذ القانون حوالي ٢٥٠ مليون جنيه.

وكانت النتيجة بعد كل ذلك انتشار آلاف الحانات السرية، وازدياد عدد شاربي الخمر أضعافًا، وسجن حوالي نصف مليون شخص؛ لمخالفتهم القانون، مما دفع إلى إصدار قرار عام ١٩٣٣م، يقضي بإلغاء حظر الإدمان، فبقي المرض مسيطرًا عليها، بالرغم من قوانين المنع والحظر.

أما الإسلام؛ فقد اعتبر أن القضية قضية الإنسان أولًا.. قضية بناء مقومات الخير فيه، واجتثاث عوامل الشر منه، إضافة إلى الاحتياطات الأخرى اللاحقة؛ التي لاحظت بعضًا منها القوانينُ الوضعية.

ولهذا كان النهج الإسلامي في معالجة هذا الوباء الخطير فريدًا وناجحًا.

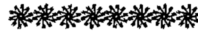
- ففي المرحلة الأولى انصب الاهتمام على إيجاد الاستعداد النفسي العقيدي، والقابلية الذاتية للتلقي أولًا.. التلقي بشفافية وتسليم ورضى.

في عالم (البث الإذاعي) لا يكفي أن يكون جهاز الإرسال جيدًا، فلا بد وأن يكون جهاز الاستقبال كذلك، والعملية التربوية؛ كيما تكون ناجحة، لا بد وأن يكون مصدر الوجيه قويًا وفاعلًا، والمادة التوجيهية كذلك، إضافة إلى قابلية المتلقي، وانفعاله مع التوجيه، وكل خلل في واحدة منها سيؤدي إلى الفشل والإخفاق حتمًا.

فالتلقي عن الخالق غير التلقي عن المخلوق، والانفعال والتفاعل مع الوحي غيره مع القانون، واستجابة

الإنسان لمن يؤمن به، ويحبه، ويعظمه، ويعبده، ويخشاه، غير استجابته لرجل القانون؛ خوفًا من عقوبته، وغير تجاوبه مع قدرة بشرية محدودة، يمكن أن يخادعها، أو يختفي لدى ارتكابه للمعصية من عينها!!.

ولكن أنّى له ذلك إن كان الرقيب هو الله، وإن كان الحسيب عالم الغيب والشهادة؛ الذي لا يخفى عليه شيء، في الأرض، ولا في السماء: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) (غافر: ١٩)، (فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) (طه: ٧)، (وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) (النمل: ٢٥)، (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ) (آل عمران: ٥).



التلقي للتنفيذ البداية الصالحة للعلاج

إن بلوغ الإنسان مرحلة التلقي للتنفيذ هو البداية الصالحة للتفاعل مع العلاج؛ لتبدأ مرحلة جديدة.

- وفي المرحلة الثانية كانت لفتة القرآن إلى الخمرة ومنابعها، في معرض المقارنة مع الرزق الحلال الطيب، مطعمًا ومشربًا، ولغاية تسديد الفكر والتصور، وترشيده إلى الأفضل والأحسن، فقال (تعالى): (وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا) (النحل: ٦٧).

هذه اللفتة الكريمة العابرة من شأنها أن تنساب برفق في أعماق النفس، وحنايا الذهن، فتحفزهما إلى تلقي المزيد، بشغف وشوق، ضمن عملية حوار بين ما هو كائن وبين ما يجب أن يكون.. إنها عملية تجاذب بين العوامل النفسية المختلفة، من شأنها أن تستنهض عوامل الخير، وتستحثها، وتقويها، وهذا ما تم فعلًا، وما عبر عنه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في هذه المرحلة بالذات؛ حيث هُرِعَ إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سائلًا متلهفًا: "اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا".

- ولا يطول الانتظار حتى يأتي الجواب من خلال لفتة كريمة أخرى، أكثر وضوحًا، تتجلى في قوله (تعالى): (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا) (البقرة: ٢١٩)، وفي هذه اللفتة قضية جديدة، تبعث على التفكر، إنها قضية الضرر - المادي المعنوي- المترتب على شرب الخمر، الذي جاء التعبير عنه بالإثم؛ ليكون وقعه في الوجدان والشعور وقعا عميقًا، يتعدّى حدود الإضرار المادي.

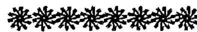
- ثم ينتقل البرنامج الوقائي إلى مرحلة أكثر تقدمًا.. تبدأ فيها المفاصلة (المؤقتة) بين الخبيث والطيب، تمهيدًا للمفاصلة الدائمة والكاملة والجذرية، بينما هما في الحقيقة صنوان لا يلتقيان؛ فيقول (تعالى): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) (النساء: ٤٣).

- وعندما يتحقق التفاعل الكامل بين مواد المنهج ومراحله المختلفة وبين الإنسان المسلم، ويبلغ مرحلة اللا عودة إلى الوراء، يأتي الأمر الإلهي، والحكم الشرعي القطعي بالتحريم، في قوله (تعالى): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۞ وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ) (المائدة: ٩٠ - ٩٢).

ولم يتأخر جواب المسلمين عن سؤاله (تعالى): (فَهَلْ أَنْتُم مُّنتَهُونَ)؟؛ لأن النفوس كانت قد تهيأت، ولأن الإرادات كانت قد شُحذت، ولأن الأفئدة كانت قد استضاءت واستيقنت، فجاء الجواب على لسان عمر بن الخطاب (رضي اللَّه عنه): (انتهينا يا رب).

جاء في تفسير ابن كثير، عن أبي طعمة، سمعت ابن عمر (رضي الله عنهما) يقول: "خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المربد، فخرجتُ معه، فكنتُ عن يمينه، وأقبل أبو بكر، فتأخرتُ عنه، فكان عن يمينه، وكنتُ عن يساره، ثم أقبل عمر بن الخطاب، فتنحيتُ له، فكان عن يساره، فأتى رسول الله المربد، فإذا بزقاق على المربد فيه خمر، قال ابن عمر: فدعاني رسول الله بالمُدية، وما عرفتُ المُدية إلا يومئذ، فأمر بالزقاق فشُقَّت، ثم قال: "لُعنت الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وحاملها، والمحمولة إليه، وعاصرها، ومعتصرها، وآكل ثمنها".

لقد كان تلقي المسلمين للحكم الشرعي في الخمر تلقيًا كاملًا وفوريًا، جعلهم عندما جاءهم أمر التحريم يَبْصُقون ما في أفواههم من بقايا الخمر، ويَسكُبون ما في القلال من الخمر على الأرض، حتى فاضت بها شوارع المدينة، وبذلك أُقفل ملف هذا الوباء العاتي، والمرض الخطير.



الشذوذ.. وباء فتاك يهدد المجتمعات

من الأمراض الخبيثة، والأوبئة الفتاكة الخطيرة، التي تتهدد المجتمعات كافة بأوخم العواقب النفسية والحسية - وباء الشذوذ الجنسي، وفي مقدمته اللواط.

هذا الوباء قديم قِدَمَ الإنسان والتاريخ.. وتسميته التي تعود به إلى عهد النبي لوط (عليه السلام)؛ الذي كافحه، تدل على ذلك. وقد حكى القرآن الكريم قصة هذا المرض الخطير، في أكثر من موضع، وعرض له الرسول (صلى الله عليه وسلم) في مواقع كثيرة ومختلفة، من أحاديثه الشريفة.

وبدأت رحلة أخرى، على طريق استئصال هذا الداء، واجتثاث هذا الوباء، على النحو الوقائي الجذري المعتمد، وخلافَ ما لجأت إليه واعتمدته القوانين الوضعية المختلفة.

- في المرحلة الأولى - ككل عملية تكون وقائية- لا بد من إرساء كل المقومات المساعدة على التجاوب مع العلاج؛ حتى لا يبطل مفعوله، وينعدم تأثيره، هذه المقومات - وكما أسلفنا- تعتمد أساسًا على الإيمان بالله (تعالى)، وما يتفرع عنه من مقتضيات وتكاليف، عبدًا لله، يُحل حلاله، ويُحرم حرامه، ولتصبح طاعة الله ورسوله أحب عنده وأوجب من حب وطاعة ما سواهما. فوق هذه الأرضية الصلبة، والقاعدة الراسخة، يبدأ الإسلام علاجه، وهو مطمئن إلى النتيجة، أما إذا بُدئ العلاج والعقيدة ضعيفة، والإيمان مهزوز، والنفس غير مطمئنة ومستيقنة ومستعدة للتلقي والتنفيذ، فالعملية تكون فاشلة، مهما تضافرت الأسباب الخارجية لإنجاحها.

- بعد ذلك مرحلة جديدة.. مرحلة إيحاء نفسي، بالغة التأثير والأثر، عبر الأسلوب القصصي القرآني؛ الذي عرض - وفي أكثر من موقع- لقوم لوط؛ الذين كانوا يمارسون الشذوذ علانية، ومن غير حياء ولا خجل.. كل ذلك في إطار إيقاع ترهيبي، تقشعر منه الأبدان، وتؤدي كل جزئية فيه دورها الفاعل، في معالجة جذور هذا الوباء، واستئصاله من واقع حياة الإنسان.

فلنستعرض الآن بعضًا من هذا القصص التربوي الوقائي الأخاذ؛ الذي حفل به كتاب الله (تعالى)، وجاءت الإشارة إليه في نحو أربعَ عشْرَةَ سورةً؛ تأكيدًا على خطورة هذا الوباء، منها على سبيل المثال: قوله (تعالى): (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ...) (العنكبوت: ٢٨ - ٣٥).

وقد جاء في تفسير هذه الآيات إن عقوبة قوم لوط بسبب فعلتهم الشنعاء كانت إحراقهم بنار وكبريت نازل من السماء، وقلب الأرض بهم؛ حيث أصبح عاليها سافلها، إضافة إلى الرجم بالحجارة..

- بعد هذا ينتقل الإسلام بالمعالجة إلى مرحلة يسد فيها كل المنافذ التي تؤدى فيه هذا الوباء الخطير...

من ذلك:

أ- الحض على الزواج المبكر؛ حيث يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): "يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وِجاءٌ".

ب - التحذير من الفراغ، والحض على ملئه بما هو صالح ومفيد؛ فيقول (عليه الصلاة والسلام): "أخوف ما أخاف عليكم الصحة والفراغ".

ج - اجتناب التعري؛ لقوله (صلى الله عليه وسلم): "إياكم والتعري؛ فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط، وحين يفضي الرجل إلى أهله، فاستحيوهم وأكرموهم" (رواه الترمذي).

د- التحذير من مجالسة ومعايشة المردان، لكونها تجر إلى الشهوة، وتوقع في الفتنة، قال الحسن بن ذكوان: "لا تجالسوا أولاد الأغنياء؛ فإن لهم صورًا كصور العذارى، وهم أشد فتنة من النساء".

هـ- التزام الحدود الشرعية في العلاقات بين الأفراد فكل تفريط يمكن أن يؤدى إلى انحرافات؛ وفي كتاب مشكلات الدعوة والداعية قلتُ في هذا المجال: (الأخوة الإسلامية هي العلاقة الطبيعية الفطرية التي لا تجنح إلى (العشق)، ولا تبلغ مبلغ (الوله والتيم)، بل ينبغي ألا تصل إلى حد ذوبان الأخ بأخيه؛ لأنها إن وصلت إلى هذا فقدت ضوابط الصيانة، والحدود الشرعية، ووقع ما لم يكن بالحسبان.



نظرة حول التطور والتجديد

إن التطور والتجدد سنة من السنن الإلهية، فبديهي أن يجري ذلك كذلك، ضمن الدائرة البشرية، وعلى الحياة الإنسانية. نلاحظ أن كل شيء في هذه الحياة يتطور، فالعلم يتطور، والاختراع يتطور، والفن يتطور، والوسائل التي يستخدمها الإنسان كالسيارة، والطائرة، والأثاث، والسلاح، والصناعات المختلفة، والعمارة، والزراعة، ووسائل النقل والانتقال، ووسائل الاتصال، ووسائل الإعلام والتعليم، إلى ما لا نهاية له من ضرورات أو كماليات الحياة، كلها تتطور.

ومبعث التطور لدى الإنسان، أن الله تعالى خلق له عقلا وقلبًا وفطرة تميل كلها إلى تحسين الحياة وتطويرها، وتحسين الأداء وتطويره، وتحسين الإنتاج وتطويره وهكذا، وهذا كله مبعثه الطموح والأمل؛ اللذان استودعهما الله في الإنسان لعمارة الأرض، واستمرار الحياة، وانتقالها من طور إلى طور، وصولا إلى النهاية المحتومة.

والإسـلاميون حيـال التطور والتجديد فريقان اثنان:

-فريق يعتبره ابتداعًا في الدين، وإحداثًا فيه. -

وفريق يعتبره من صلب الدين، وضرورة من ضرورات حفظه، مصداقًا لقوله - صلى الله عليه وسلم- "يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها" انظر دراسة الإحداث والتحديث.

أما مشاريع التطور والتجديد عند الآخرين، وبخاصة الذين يكيدون للإسلام، فإنها تسبق التطور بسنوات عديدة.. "أنموذج (روبرت كرين) فاروق عبد الواحد"، مدير الأمن القومي في عهد الرئيس نيكسون، كان أول كتاب كتبه بعد اعتناقه الإسلام في التسعينيات من القرن الماضي: "القيادة الإسلامية في القرن الواحد والعشرين". وقياسًا على أن التطور سنة من سنن الله في كل شيء، فإن الإيمان بكل مشتقاته، والدعوة في مجالاتها، والحركة في عموم توجهاتها ومهماتها ووسائلها وأساليبها، يجب أن تخضع لسنة التطور، وإلا كانت متخلفة عن العصر، متراجعة إلى الوراء.

فالإيمان الذي لا يتجدد، يفتر ويضعف ويتلاشى.

والعبادة التي لا تتحسن، تسوء وتفقد معانيها وأبعادها، وإن بقيت تؤدّى عضليًا وشكليًا.

والدعوة إلى الإسلام، إن لم تتطور في مادتها وأدائها وأسلوبها، تصبح متخلفة عن العصر، عديمة الفائدة والأثر.

والحركة- وأعني بها حركة التغيير الإسلامي- إن لم تخضع لسنة التطور فستتراجع وتضمحل وتنعدم، حيث يحل محلها المواكب لسنة التطور، ولو كان دونها إيمانًا وتقوى، وهذا مناط قوله تعالى: (وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم).

د. محمد منير الغضبان

داعية و مفكر إسلامي سوري.



وصف الواقع

المشهد الفكري: يمكن القول: إن سمة المشهد الفكري اليوم في أمتنا هي: الضبابية، والضياع، وكأن الأمة اليوم بلا فكر، وتمثل الأرضية الخصبة لغزو العولمة الثقافية بقيمها؛ التي تحملها لتفرضها على البشرية، ويمكننا أن نتحدث ابتداءً عن الفكر الإسلامي.

أولا: الفكر الإسلامي: والابتداء به هو الأصل؛ لأنه يمثل أصالة هذه الأمة، منذ خمسة عشر قرنًا، لكننا نجده اليوم يتمثل في مدارس عدة:-

المدرسة الأولى: المدرسة السلفية: ولها حضور واضح على الساحة العربية، وقد تجاوزت الحدود الإقليمية، وهي نفسها ليست مدرسة واحدة، فلها مناهج شتى:-

- السلفية الفكرية: التي تنصب على اتباع السلف، واعتبار أتباعها هم الفئة الناجية الوحيدة من الأمة؛ لأنها تنادي بالتمسك بالكتاب والسنة، وانطلاق الفهم منهما فقط، وما تبقى هي مصادر فرعية ثانوية، ولا تحاول أن تجسد هذا الفكر، من خلال واقع معين على الأرض، ولا تعتبر أية دولة تمثل منهجها، وتسير وفق مبادئها، وهي معنية - بشكل عام- بتأطير القواعد النظرية، وتجسيد الخلافات التاريخية العقدية والفقهية، بينها وبين الآخرين، وفهمها هو المقياس الوحيد للحق، ولو خالفتها أكثرية الأمة الساحقة، في هذا الفهم، وحيث تنتقل تنشر البلبلة والخلافات، برغبة تصحيح عقيدة الأمة.

- السلفية السياسية: هي السلفية التي تحمل هذه المبادئ، لكنها ترى في المملكة العربية السعودية ما يمثل هذه المبادئ، وتتكيف مع هذه الدولة؛ لأنها هي الدولة الوحيدة في الأرض التي تحكم بالإسلام، فهي دار الإسلام، وقد يقع بعض الخطأ من الحاكم، فالدين النصيحة، وعلى رأس هذه النصيحة إمام المسلمين، وتُحرِّم الخروج عليها، ويتبع هذه السلفية السياسية نموذج آخر، لا يرى جواز دخول المجالس السياسية، وجواز العمل السياسي، من غير أن يعطي لأية دولة في الأرض النموذج الذي يمثلها.

- المدرسة القتالية: وسميناها بهذا الاسم لأن الغالب عليها هو قتال الكفار، وتطبيق أحكام الإسلام من حركة أو حزب بصفته هو الذي يمثل دولة الإسلام، ويأخذ بأحكام الإسلام النهائية في التعامل مع الناس؛ حيث يقسم العالم إلى معسكر الإيمان؛ الذي ينطلق من منطلقات هذه الحركة، ومعسكر الكفر الذي يقابلها، ويعتبر أمريكا رأس معسكر الكفر، والدول الإسلامية اسمًا هي تابعة لهذا المعسكر، وترى المواجهة الجهادية الحربية هي الحل؛ حيث إن آية السيف هي آخر ما نزل من آيات الجهاد ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ (الفتح: ١٦).

- المدرسة السياسية: وسميناها بهذا الاسم لأن الغالب عليها هو العمل للإسلام، من خلال المؤسسات السياسية القائمة في كل بلد، وتتعامل مع الأنظمة في الدول الإسلامية من خلال الدعوة للديمقراطية،

ولا تتخلى عن نشر الدعوة، وترى الجهاد فقط في الدفاع عن الدولة التي يحتلها أجنبي، وتؤمن أن الجهاد بالقلم، وجهاد العلماء هو بالكلمة الطيبة، والموعظة الحسنة.

والفريقان؛ المدرسة القتالية والمدرسة السياسية، تسعيان لإقامة شريعة الله في الأرض، لكن عن طريق العمل العسكري لدى المدرسة الأولى، والعمل السياسي لدى المدرسة الثانية، غير أن الثانية تتعامل مع الواقع من خلال التدريج، وتكييف التطبيق الإسلامي من خلال الأطر القطرية لكل دولة، أي بتعبير أدق: تعمل لإقامة دولة حديثة، تأخذ من مبادئ الإسلام منطلقًا لها، في معالجة الواقع القائم.

- المدرسة التربوية: وهي مدرسة فكرية وسط بين المدرستين، تنطلق من الدعوة إلى الله (عز وجل)، وترى أن المسار الدعوي، وتربية الأمة على الإسلام، والصبر على مشاقه، ستقود الأمة كلها للإسلام، وبالتالي ستحكم الأمة نفسها بالإسلام، دون الحاجة إلى طريق الجهاد قبل إقامة الدولة، أو طريق العمل السياسي؛ الذي يقر بشرعية مبادئ ومناهج غير إسلامية، ويؤدي إلى تنازلات عن الإسلام، في منتصف الطريق.

- المدرسة الدعوية: وهي التي تعتبر أن مهمة الداعية هي تبليغ دعوة الله إلى أهل الأرض، وتبليغهم الرسالة، وهم أحرار بعد ذلك فيما يختارون، من مناهج في الحكم والاقتصاد أو الإدارة، وقد انتهت مسئوليتك بعد أن تبلغ دعوتك، هذه أهم المدارس في الفكر الإسلامي.

ولو شئت أن نتعمق أكثر لوجدت عشرات المدارس الأخرى، ولم أتحدث عن المدرسة الصوفية، أو المدرسة الفقهية؛ لأن هاتين المدرستين لا تطرحان فكرًا، إنما تطرح الأولى تربية سلوكية للجانب الروحي، وتطرح الثانية تعليم الناس أمور دينهم، من خلال الفقه الإسلامي.

ومن المؤسف أن تكون هذه المدارس غير متكاملة فيما بينها، بل تصل العلاقات بينها إلى حد التنافر والتنابز، بحكم استفادة القنوات الفضائية من أئمة هذا الفكر، وتقديمه للناس، وبحكم التعامل الإسلامي، وبحكم الإطلاع الذاتي على الإسلام، إنه لون ضبابي في الحقيقة للفكر الإسلامي ومدارسه، ولكل حجته واجتهاده.

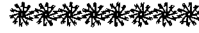


قبول الآخر واستيعابه

إنَّ قبول الآخر واستيعابه يجب أن ينطلق من قاعدة حبِّ الخير للآخرين، والحرص الصادق على هدايتهم، واستنقاذهم من ضلالاتهم، ومن القناعة الصادقة بشرعيَّة هذا الأمر ووجوبه، كما من خلال تأصيله وتجذيره في المشروع الإسلاميِّ، وفق العناوين العريضة التالية:

- الإسلام يعترف بوجود الأضداد، من خلال قوله تعالى: (ولو شاء ربُّك لجعل الناس أمَّةً واحدة).
- وهو يدعو الأضداد إلى التلاقي والتعارف، مصداقًا لقوله تعالى: (يا أيُّها الناس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، إنَّ الله عليمٌ خبير).
- والإسلام يدعو الكلَّ للتعاون على الخير، من خلال قوله تعالى: (وتعاونوا على البرِّ والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتَّقوا الله إنَّ الله شديد العقاب).
- والإسلام ينهى عن اعتماد سياسة القمع والإكراه مع الآخر، من خلال قوله تعالى: (لا إكراه في الدين قد تبيَّن الرشد من الغيّ)، وهذا منتهى الانفتاح على الآخر، والاعتراف به.
- والإسلام يحذر من الإساءة إلى الآخر ولو كان مشركًا أو علمانيًّا أو غير ذلك، من خلال قوله تعالى: (ولا تسبُّوا الذين يدعون من دون الله فيسبُّوا الله عَدْوًا بغير علم).
- والإسلام يدعو إلى البحث عن القواسم المشتركة في دعوة الآخرين، حرصًا على استجابتهم واستيعابهم، فيقول: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتَّخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله).
- والإسلام يدعو إلى التعاون والتضامن مع الآخر كائنًا من كان، لدرء المفاسد وجلب المصالح، كرفع الظلم، وتعزيز الحريَّة والعدالة والمساواة، وصون حقوق الإنسان، ومن أجل ذلك قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: "لقد حضرت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا، ما أحبُّ أنَّ لي به حمر النعم، ولو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت" رواه ابن إسحاق في السيرة.
- ومن دلائل حرص الإسلام على الآخر، دعوته وحضُّه على الاستفادة ممَّا عنده من خير وما لديه من حكمة، حيث جاء في الأثر: "خذوا الحكمة من أيِّ وعاءٍ خرجت"، "الحكمة ضالَّة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحقُّ بها" و"اقبلوا الحقَّ ممَّن جاء به من صغير أو كبيرٍ، ولو كان بغيضًا بعيدًا، واردُدوا الباطل على من جاء به، من قريبٍ أو بعيدٍ، ولو كان حبيبًا نسيبًا".

والحقيقة أنَّ المسلمين عمومًا والإسلاميِّين خصوصًا، مدعوون لامتثال الإسلام ومبادئه وأحكامه وأخلاقه في التعامل مع الآخر، بصرف النظر عن معتقده وفكره وفلسفته، ما لم يحمل عليهم السلاح ويقاتلهم، وليتدبَّروا بإمعانٍ قوله تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتقسطوا إليهم إنَّ الله يحبُّ المقسطين).



المشهد السياسي

إنه مشهد بائس، ولا أبالغ إذا قلت: إنه أشد المشاهد بؤسًا على الإطلاق، فقبل مائة عام، كانت دولة الخلافة الإسلامية، وكان السلطان عبد الحميد، وكانت المؤامرة الصهيونية لأخذ فلسطين، وكان موقف الخليفة العظيم: لن أتخلى عن شبر واحد منها وأنا حي، كان هذا عام ١٩٠٥م، وها نحن اليوم - بعد مائة عام- نعلن استعدادنا للصلح مع اليهود، على أخذ ٧٨ بالمائة من أرضها، أرض فلسطين، وهي لا ترضى، ونعلن أن القدس هي العاصمة الأبدية لإسرائيل!!

قبل مائة عام كنا دولة واحدة عظمى، وإحدى الدول الكبرى الثمانية، مثل الدول الكبرى الثمانية الصناعية اليوم، وحين قامت الحرب العالمية الأولى انقسم العالم إلى معسكرين، كل معسكر أربع دول من الدول الكبرى، دول المحور، ودول الحلفاء، واليوم - وفي عام ٢٠٠٩م- نحن ثلاث وعشرون دولة عربية، وخمس وخمسون دولة إسلامية، نعيش في معظم هذه الدول تحت نير الاستبداد، أو تحت نير الاحتلال، وليس لنا في مجلس الأمن دولة تملك حق القرار، أو نقض القرار (الفيتو) في العالم.

فماذا يُسمى هذا المشهد السياسي؟؟!!

الظاهرة الإيجابية في هذا القرن على مستوى الشعوب: هي قيام مؤتمر هيئة العلماء، في عام ٢٠٠٤م، على مستوى بضع مئات من علماء الأمة في العالم، في محاولة لتكوين مرجعية إسلامية عليا، بعيدًا عن هيمنة أية دولة، لعلها تكون بابًا لوجود عربي وإسلامي موحد.

والظاهرة الإيجابية الثانية في هذا القرن - على مستوى الدول الإسلامية- هي إعلان الدوحة عام ٢٠٠٠م، الصادر عن مؤتمر القمة الإسلامية؛ الذي يقول في بيانه: "...ومن هذا المنطلق، فإن مؤتمر القمة الإسلامية التاسع يشكل منعطفًا جديدًا، نحو تحقيق الأهداف الأساسية لمنظمتنا....

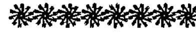
- نعلن - وبكل اعتزاز- أن التعاليم السامية لديننا الحنيف تقدم حلولا مثلى للمشاكل المعاصرة؛ التي تعترض سبيل المجتمعات الإنسانية؛ وذلك لأن الإسلام دين المحبة والتسامح والتقدم، واحترام كرامة الإنسان وحقوقه.

- نعتبر أن مبادرة الحوار بين الحضارات تشكل إطارًا جديدًا، ورؤية عالمية لبناء نظام دولي، والمشاركة والتفاهم المتبادل، والتسامح بين الشعوب والأمم.

- نتعهد بمواصلة الجهود؛ من أجل نشر الصورة الحقيقية للإسلام، وإبراز أهميته، كمصدر أساسي للحضارة الإنسانية، في الوقت الذي تتوالى فيه الأحداث لتشويه هذه الصورة، بأساليب شتى.

- العزم على تحقيق وحدة الأمة الإسلامية، عن طريق التمسك بفهم هذا الدين، وإذا كانت روح التضامن والتسامح والإخاء؛ التي ينادي بها الإسلام؛ لكي نعزز ما يجمع بيننا من قيم ومصالح مشتركة، نذكر هذه الظاهرة؛ التي تعزم على الوحدة الفكرية للأمة الإسلامية، في الوقت الذي نجد فيه أوروبا؛ التي خاضت دولها الحرب العالمية الثانية، فيما بينها، وكان حصادها خمسين مليون إنسان، في نصف القرن الأول، ها هي - بعد نصف قرن- تحتفل هذا العام بوضع دستورها الاتحادي؛ الذي يضم سبعًا وعشرين دولة أوربية، تهيئة لانتهائها دولة واحدة، مع العلم أنها لم تتجاوز الكلام النظري.

- تبلور مفهوم الطائفة الظاهرة على الحق، منذ بروزها في الثمانينيات، على يد مؤسسها الشيخ أحمد ياسين (رحمه الله)، إلى أن تجلت على مستوى العالم، في الهجوم الصهيوني على غزة، بداية عام ٢٠٠٩م، وصارت مَعلمًا للأمة في الأرض، لا يضرها من خالفها، أو خذلها، حتى يقاتل آخرهم الدجال، بعد أن كان دعاة القومية الاشتراكية هم حملة راية الصراع مع اليهود، في إسرائيل.



إليك أيها الرئيس الأمريكي

السيد باراك حسين أوباما، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية: حيث إنك أعلنت أنك تؤمن بالحوار، وحيث أعلنت أنك تسعى إلى علاقة جيدة مع العالم الإسلامي. فأكتب لك هذه الرسالة. علها تجد أذناً صاغية لديك من بين مئات الآلاف من الرسائل التي تصلك بشكل دائم.

١- ما أظن أن أمريكا في تاريخها كله وصلت أسوأ مما وصلت إليه في عهد سلفك السابق الذي كانت عبقريته في كسب الأعداء في العالم الإسلامي حتى تجرأ بعض أفراد هذا الشعب من ضربه بالنعال حين لم يملك وسيلة إلا هي.

٢- وأظن أن السبب الرئيسي في ذلك هو تعامله مع الأنظمة دون تعامله مع الشعوب، وما أظن أن الحكام تعاونوا معه إلا خوفاً منه. فهو رئيس أكبر دولة في الأرض، ولا سلطان فوقه إلا الله، وبالترهيب والترغيب استطاع أن يضم الكثير منهم تحت جناحه.

٣-وأعتقد أنك استفدت كثيراً من هذه الدروس فجعلت أكبر اهتمامك وأولوياتك:

إنقـــاذ أمريكا من أسوأ أزمة اقتصادية وقعت فيها.

وإنقاذ أمريكا من أسوأ أزمة سياسية وقعت فيها، وإنهاء حالة العداء بينها وبين العالم الإسلامي، وذلك كما أعلنت في خطاب العرش.

٤-أقول لك ناصحاً: إن أكبر قضية تعاني منها الأمة العربية والمسلمة هي قضية فلسطين، وهي مفتاح التفاهم الأكبر مع العالم الإسلامي، ومضى عليها ستون عاماً ولا تزال في نقطة الصفر، وأظن أنك إن بنيت على ما بنى عليه أسلافك سوف تنتهي إلى ما انتهوا إليه في البداية والنهاية - أي: إنك ابتداءً المحافظ الأكبر على أمن إسرائيل. مهما فعلت إسرائيل. وستمدها بالسلاح في عشرات المليارات كما فعل أسلافك كل عام. وإن المقاومة إرهاب، فلن تحل شيئاً مع العالم الإسلامي، وستعود من الغنيمة بالإياب، وأخطأت المفتاح الذي يصلك بالمسلمين.

٥-نعم لقد لاحظنا أنك ابتدأت بنفس التحيز الذي بدأ به أسلافك، ومن الثوابت التي أرسوها قبلك، لكننا نقدر أن لا خيار لك في الأجواء المحيطة بك من هذه الثوابت، ونقدر كذلك أنه تصرف مؤقت، ريثما تتعرف على الحقيقة كاملة. فإن كان ظننا الحسن بك في مكانه، فالأمل كبير في التغيير، أما إن كان ظننا وهم فستنتهي إلى ما انتهى إليه أسلافك وبئس المصير.

٦-ما هو الأمر الذي نطلبه منك حتى يتحقَّق أملنا بك؟ ومع أني فرد أخاطبك لكن أعتقد أن الرسائل التي وصلتك من قادة وشعوب العالم الإسلامي تؤكد أني لست وحيداً في هذا التصور. إننا لا نطلب منك

أن تتحيز لنا، لكننا نطلب منك أن تستمع وتُصْغي إلينا دون تصورات مسبقة، وثوابت محددة، كما تصغي إلى اليهود. ونعتقد أنك لو فعلت ذلك لتحقق الأمل المرجو منك في كسر الجليد الأمريكي الجاثم على القضية الفلسطينية منذ الإعلان الثلاثي عن حماية أمن إسرائيل في الخمسينات.

٧- ولست أريد ثانية أن تتحيَّز للعرب والمسلمين، لكني أريد أن تسمع ما قاله سلفك الرئيس الديمقراطي (كارتر) عن هذه الحرب، وهو بجوارك وبإمكانك أن تأخذ شهادته: (وبعد ١٢ يوم من القتال أعلنت قوات الدفاع الإسرائيلية أنه تم قصف وتفجير أكثر من ١٠٠٠ هدف، وأثناء ذلك رفضت إسرائيل المساعي الدولية للتوصل إلى وقف إطلاق النار بدعم كامل من واشنطن، وقد دمر ١٧ مسجداً، والمدرسة الدولية الأمريكية، والعديد من المنازل الخاصة، والكثير من البنية التحتية في تلك المنطقة الصغيرة الكثيفة السكان، وتضمن ذلك شبكات المياه والكهرباء والصرف الصحي، ويورد أطباء متطوعون شجعان من دول عديدة أعداداً كبيرة من القتلى والجرحى المدنيين، ويُجري المتطوعون عمليات للجرحى على ضوء المولدات التي تعمل بالديزل.) ولكن ما تم في الأيام العشرة اللاحقة كان أكثر هولا بكثير مما كانت عليه الحرب في الأيام الاثنتي عشرة الأولى. ليس هذا موقفنا ، لكننا نعتقد أن هذا الموقف الوسط لو انطلقتم منه لأمكن الارتياح إلى نهاية الطريق. ونأمل أنه عندما يتضح أن المزيد من الأعمال العدائية أمر غير مُثمر أن تقبل إسرائيل وحماس والولايات المتحدة اتفاقاً آخر لوقف إطلاق النار، وفي ذلك الحين سيتوقف إطلاق الصواريخ مجدَّداً، وسيسمح بمرور قدر مناسب من الإمدادات الإنسانية للفلسطينيين الناجين. ويراقب المجتمع الدولي هذا الاتفاق المعلن، وتكون الخطوة التالية الممكنة هي سلام دائم وشامل.)

٨- وأخيرًا.. ندعوك من موقعنا هذا إلى الإسلام، فإن لم تستجب فإلى السلام، وإنما عليك إثم الأمريكيين، وأضع بين يديك رسالة رسولنا العظيم إلى قيصر الروم، وأنت اليوم قيصر الروم نبعثها إليك: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى قيصر عظيم الروم، السلام على من اتَّبع الهدى، أَسْلم تَسْلَم، أسلم يُؤْتك الله أجرك مرتين، وإن تتولَّ فإنما عليك إثم الأريسيين (أي: رعاياك الذين يتبعونك).

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤).



المستقبل.. والخطاب الإسلامي

لو كنت بلا عقيدة إسلامية لنزل بي اليأس، واقتنعت أن لا مستقبل لهذه الأمة، لكن الإسلام الذي قال لنا - على لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم)-: "تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها.. قالوا: أومن قلة نحن يومئذ، يا رسول الله؟، قال: لا، إنكم كثير.. ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن، يا رسول الله؟، قال: حب الدنيا، وكراهية الموت". هو الذي قال لنا - على لسانه كذلك-: "ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار، بعز عزيز، أو بذل ذليل".

فنحن نثق أن الإسلام هو دين البشرية الأخير، وبلوغه كل صقع، وانتصاره على عدوه، هو قدر من قدر الله، وهو الذي حدثنا عن الجولة الأخيرة لهذا الدين: "تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله (تعالى)، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله (تعالى)، ثم تكون ملكًا عاضًا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله (تعالى)، ثم تكون ملكًا جبريًّا، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها الله (تعالى)، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت" رواه أحمد وإسناده حسن. لكن متى هذا؟، فالأمر لا يحسب بالأعوام عند الله (عز وجل)، ونسأل الله (تعالى) أن لا ينتهي الربع الثاني من القرن الخامس عشر الهجري إلا ويكون الإسلام قد أظل العالم بسلطانه: (وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ؟، قُلْ: عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا) (الإسراء: ٥١).

وهذه هي أولويات الخطاب الإسلامي في المرحلة القادمة: أولا: الوصول إلى قلوب الناس ومعرفة مفاتيحهم.

(أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد: ٢٤)، وهذه الأولوية الأولى تقتضي:-

- فهمنا للنفس البشرية على ضوء الشريعة الربانية، وفقه علم النفس. - فهمنا للبيئة المناسبة للعرض، وفهمنا للواقع الذي يدور الخطاب فيه.

- فهمنا للإسلام الذي نود أن نعرضه على الناس.

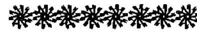
- التفريق بين الإسلام كمادة للخطاب، وطريقة إيصال هذه المادة بالأسلوب الأمثل، فلا يَقبل الإسلام مقابلة السيئة بالحسنة فقط، أو الحسن فقط، بل التي هي أحسن. ثانيًا: التركيز على بناء الإنسان السويّ؛ الفاهم لمجتمعه، الفاهم لدينه، الفاهم لرسالته ومسئوليته في هذا المجتمع، قادر على الإبداع، قادر على التعامل الحي مع الآخرين، والتضحية من أجلهم.

ثالثًا: التركيز على بناء مجتمع متفاعل متكامل، يضع نصب عينيه أن يكون كلا مبدعًا، لا أجزاء

وتقاريق، تسوده روح التضحية والبذل والإيثار والعمل؛ ليكون جسدًا حيًّا واحدًا، كما يقول (عليه الصلاة والسلام): "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى".

رابعًا: التفريق بين روح بناء الذات وروح بناء المجتمع، فلا يتحول الأفراد إلى أرقام لحساب المجتمع أو السلطة، ولا يتحول الأفراد إلى آلهة، يعبدون ذواتهم وأهواءهم، تسيطر على كل منهم نزعة الفردية والأنانية.

خامسًا: الاستفادة من ثمرات الإبداع البشري؛ التي اختار الإسلام لها اسمًا كليًّا، هو الحكمة، فالحكمة ضالة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها، والرابط بينها وبين الفطرة البشرية؛ التي فُطر الناس عليها، وأنزل دين الله بما يناسب هذه الفطرة.



التراث والمعاصرة

جدل التراث والمعاصرة والانتماء إلى الزمان إشكاليات لا تزال مسيطرة على مساحات كبيرة من عقلية المهتمين بالشأن العربي والإسلامي، كيف نحسم هذا الجدل؟. البديهية الأولى: هي خاتم الرسل وخاتم الرسالات، وأن الله تعالى قال للأمة المسلمة حتى يرث الأرض ومن عليها.. (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا) (المائدة: ٢)، فارتضى الله (تعالى) هذا الدين لكافة خلقه، مع امتداد الأزمان والآفاق. البديهيــة الثــانية: هناك ثوابت في الإنسان.. في تكوينه وتركيبه، وأخلاقه ونفسه وفطرته، جاء الإسلام ليلبي هذه الفطرة، والإنسان هو الإنسان من لدن آدم إلى آخر ولد آدم، نسي آدم فنسيت ذريته، جحد آدم فجحدت ذريته، وعصى آدم فعصت ذريته، تاب آدم فتابت ذريته، والإسلام في ثوابته يعالج ثوابت الإنسان والإنسانية. البـديهية الثــالثة: المتغيرات في الإنسان وفي الطبيعة لم يأتِ الإسلام لمعالجتها، إنما تركها للخبرة البشرية والطاقة البشرية والإبداع البشري، والإسلام من المرونة بالنسبة لهذه المتغيرات جعل مبادئ عامة، تستوعب كل المتغيرات البشرية، ولا تتعارض معها ألبتة؛ لأن خالق الإنسان وخالق الكون واحد. فنحن في الأفق الحضاري يجب أن نكون في القمة، وفي الأفق الأخلاقي يجب أن نكون في القمة، قال (تعالى): (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (البقرة: ١٤٢).

البديهية الرابعة: حين يقع الخلط بين الثوابت والمتغيرات، يقع الجدل والتناقض بين التراث والمعاصرة. البديهية الخامسة: إن تعبير التراث تعبير غير دقيق للثوابت الإسلامية، أما المعاصرة فهو تعبير دقيق عن التطور مع كل عصر، والتراث كلمة موهمة يمكن الاستغناء عنها أمام المعاصرة؛ فليس الإسلام تراثًا، إنما يمكن أن تكون التجارب الإسلامية التطبيقية، على امتداد التاريخ هي التراث، وإذا استبدلنا كلمة التراث بكلمة الفطرة لكان أجدى، قال (تعالى): (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) (الروم: ٣٠)، وقال (صلى الله عليه وسلم): "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو يمجسانه، أو ينصرانه" الترمذي، الحديث ٢١٣٨.

وفلسفة التربية الحديثة تقوم على هذا الفهم، وترفض فكرة الإنسان صفحة بيضاء، نطبع فيه ما نشاء، وتقوم على أننا نساعد على النمو، فالنمو كامن في الذات الإنسانية، فلسنا نزرع إنما نساعد على نمو الزرع، قال (تعالى): (أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۞ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۞ لو لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۞ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۞بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) (الواقعة: ٦٣-٦٦).

وبهذا التصحيح ينتهي الإشكال بين التراث والمعاصرة؛ فقانون الفطرة الكتاب والسنة، وقانون التراث التجارب القابلة للأخذ والرد (وكل يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر)، الفرق بين الفطرة والمعاصرة هو أن الفطرة يضع قانونها رب العالمين خالقُها، فيما أنزل على أنبيائه ورسله، وقانون المعاصرة - الذي هو ثمرة الإبداع البشري والتقدم العلمي في الاستفادة من قوانين الطبيعة- هو جهد بشري، وهو مسئولية العقل الإنساني.

****

الحضارات.. صراع أم حوار؟!

الحروب البشرية شيء وصراع الحضارات شيء آخر، ودعني أفصل هذه عن تلك، هناك صراع بين الخير والشر، من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة: (وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحج: ٤٠) (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحديد: ٢٥)

الحق والقسط والقوة.

١- الحق من الله، والهُدى هُدى الله، والبينات من رسل الله، ومن الدعاة إلى الله، فـ "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل"، "العلماء ورثة الأنبياء"، وهؤلاء عبيد لله، لا يرتقون ذرة عن ذلك.

٢- مهمة هذا الحق أن يقيم القسط والعدل في الوجود، بين البشر جميعًا، على اختلاف مشاربهم وأديانهم وأجناسهم وألوانهم: "يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا" فالخطاب للعباد كافة، ولا يحق الظلم لأحد، أيًّا كان انتماؤه أو ادعاؤه.

٣- وتنفيذ هذه المهمة يحتاج لقوة تحمي هذا القسط، فأنزل الله الحديد ليكون سلاحًا بيد أتباع الرسل، يمنع من يريد أن يظلم، أو يريد أن يطغى، أو يريد أن يجور، وما يطغى أحد إلا بالقوة التي يرمز لها بالحديد.

٤- وثمار هذه المهمة هو سعادة البشرية، ليكون الحديد منافع للناس، والنصر نصر الله، لا نصر النفس أو الذات أو الهوى، إن الله قوي عزيز، بهذه النظرة الثلاثية، يمكن أن يفسر الصراع بين الخير والشر، ولكن لا على أن ينهي أحدهما الآخر بالقوة، إنما على أن يتعايشا معًا، ويكون الحسم للحوار بعد ذلك، ولم تكن العلاقة بين الخير والشر، إما الإسلام وإما الكفر، ولم يقم يومًا على أساس ثنائي، إنما هو دائمًا ثلاثي، الحق أو التعايش أو الصراع: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) (التوبة: ٢٩).

وقد كان لهذا المبدأ استثناء تاريخيّ واحد، في قلب الجزيرة العربية، عاصمة الرسالة، أن تكون الثنائية هناك: (تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) (الفتح: ١٦)، وقد انتهى الاستثناء تجديدًا ولم ينتهِ تاريخًا، هذه نظرية الحرب وفقهها في الإسلام.

أما الحضارات فالأصل فيها دائمًا الحوار والتمازج والتجاذب والتصالح، والاستفادة من الخبرات البشرية، يكمل بعضها بعضًا "الحكمة ضالة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها"، ومن هذا الفهم نكون العلاقة مع الغرب من خلال الدعوة "ادعُهم إلى الله"، والدعوة لا تكون بالسيف، إنما الدعوة (بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) (النحل: ١٢٥)، (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) (الإسراء: ١٥).

لقد كانت الدعوة دوما تسبق السيف، وحين لا يختار العدو الإسلام، وحين لا يختار الجزية والمعايشة، فهذا يعني أنه اختار الحرب ليحول بين الناس وبين دين الله أن يصل إليهم هداه، فتكون القوة لإزاحة هذه الطواغيت من الطريق بين الله وبين الناس، وعندها فـ (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (البقرة: ٢٥٦).



إي والله .. ظاهرين على الحق يا أهل غزة

ها أنذا جالس مع أهلي في غزة، منذ الثانية عشرة ظهرًا، وحتى الثانية عشرة ليلا، وبطولتنا نحن العجزة غدت اليوم أن نتفرج. لن أتحدث عن المشاعر والدموع والأشلاء، لكني كنت أمضي موغلا، بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وأنا أرى صورة من صور عظمة البلاغة النبوية؛ التي تُحدثنا عما يجري في غزة، في هذه الساعات. ودعوني أنقل النص نظريًّا؛ لنشهد تطبيقه العملي، في غزة الرباط. يقول (عليه الصلاة والسلام): "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك" صحيح مسلم.

١-فهم طائفة متميزة عن الأمة كلها، بالمواصفات التي يحملونها، والعالم كله اليوم ينظر إلى هذه الطائفة؛ التي تصمم على المواجهة، ويعجب لهذه النفسية؛ التي تحملها، هذا ما يقوله القائد هنية، عن هذه الطائفة: لو ذبحتم شعب غزة كله، ولن تستطيعوا، فستبقى غزة في قلوب الملايين من هذه الأمة؛ لتولد من جديد، ولا أحد يستطيع الإجهاز على إرادة شعبنا. هذه الطائفة ليست محل أنظار العالم اليوم فقط، بل محل أنظاره منذ شهور؛ حيث أراد اليهود أن يبيدوها بالحصار، وقطع الطعام والغذاء والدواء عنها، والعالم صامت يتفرج، وأهل غزة صابرون على كل شيء.

إنها طائفة تتحدد معالمها على أرض الواقع، وترسم صورتها أمام أهل الأرض.

٢-"من أمتي" .. فهذه الطائفة تعلن أنها تحمل راية محمد (صلى الله عليه وسلم)، ولا ترضى عنها بديلا، حتى ليعلن العالم حولها.. أنه لن يسمح بإقامة إمارة إسلامية في غزة، وقامت الإمارة باسم الله (عز وجل)؛ لتمتد حتى تشمل أرض فلسطين كلها.

٣-"ظاهرين على الحق"، فحماس لا تُخفي هويتها بل تعلنها، ولذلك تم التواطؤ عليها؛ لإبادتها بذريعة الإرهاب، فهي خارجة - حسب زعم العالم- على قوانين البشر؛ لا لشيء إلا لأنها تعلن إسلاميتها من جهة، وتعلن إصرارها على مقاومة العدو الصهيوني الغاصب المعتصب.. حتى لقد تميزت بظهورها على الحق، في رفضها الانصياع للإرادة الأمريكية المهيمنة على الأرض، ظاهرين على الحق. إنه تصوير نبوي لها، فهي لا تكتفي بالظهور الكلامي فقط، بل بالظهور الجهادي.. وإحدى روايات الحديث تقول عنها: "ولا تزال عصابة من أمتي قوامة على أمر الله، لا يضرها من خالفها، تقاتل أعداء الله كلما ذهب حرب نشأ حرب قوم آخرين".

٤- ونعجب ثانية وثالثة، من عظمة التعبير النبوي: ظاهرين على الحق

فأين الظهور؟، وهم اليوم تُغزى أرضهم من البر والجو والبحر، ويسقط منهم مائتان وخمس وعشرون شهيدًا في اليوم الأول للاجتياح؟، ويسقط منهم سبعمائة جريح، حتى يبلغوا - في بداية الأسبوع الرابع

من الحرب- قرابة ١٢٠٠ شهيد، وأكثر من ٥ آلاف جريح. فأين الظهور؟!، وهل هناك أعظم من هذا الظهور، حين قال الناطق باسمها – مباشرة- وبعد الغارات، والذي ظهر في مؤتمر صحفي:

- لن نتنازل عن ثابت واحد من ثوابت أمتنا.

- سنذيق إسرائيل من الكأس الذي أذاقته لشعبنا.

- يملك عدونا صواريخ وطائرات، ويتفوق علينا بالسلاح، لكننا نملك الإرادة التي لن تُكسر، والعقيدة التي لن تُقهر.

٥- وإن عظمة هذا الظهور تبدو في رفض التهدئة، وهم يموتون جُوعًا وعُريًا ومرضًا، ويحاصرون ليُقهَروا، ويستجدوا التهدئة من العدو، ومع هذا يرفضونها؛ لأن عدوهم غادر مجرم، نكث وغدر وفجر، وأراد ذبح هذا الشعب بالحصار، تحت ستار التهدئة.

وتبدو عظمة هذا الظهور عند أطفال هذا الجيل، وأطفال هذه الطائفة، في لقاء مع تلاميذ في المرحلة الابتدائية، في إحدى مدارس رفح. حيث وجه لهم السؤال التالي: هل تريدون التهدئة أم المقاومة لفك الحصار عنكم؟. وكان جواب أكثرية التلاميذ الذين يجوعون ويعيشون في الظلام، ويقرون من البرد، برفض قبول التهدئة.

٦- لا يضرهم من خالفهم وما هو مفهوم الضرر هنا، هل هو الضرر المادي، من القتل والإبادة والاعتقال والذبح والتشريد؟، أبدًا فهذا كله سماه الله (تعالى)، في كتابه: (لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى). أما الضرر الوارد في النص فهو التخلي عن المبادئ، والتراجع عن الدين، ونزع الهوية، والتنازل عن الثوابت، ومن أجل ذلك جاءت الآية الثانية: (وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ). فعُمرك يا حماس ربع قرن ونيِّف، ما غيرتِ نهجًا، ولا تنازلتِ عن مبدأ، وانطلقتِ لله، وفي سبيل الله، لقد أراد الذين خالفوك أن يبيدوك، وبكل أفانين وأساليب الإبادة والخنق رموكِ، وأقاموا الانتخابات ليعلنوا دفنكِ، وإذا بالشعب يختاركِ، ويعطيك ثقته، وتكَفَّل العالم من وراء يهود بسند يهود، وعلى رأس هذا العالم أكبر مجرميه بوش، وخططوا لكِ ثانية؛ لقتلكِ وإنهائكِ، ولا تزالين ظاهرة بإذن الله، ولن يضروكِ إلا أذى.

٧- "ومن خذلهم": وما أعظم هذا التصوير؛ الذي لم ينس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يشير إليه، (ومن خذلهم)، فالصديق القريب يخذل، وخذلك أبناء جلدتكِ، وخذلك من شاركوا في قطع القوت عنكِ، وكذلك من رأى مأساتك في الحصار والموت وبقي ينظر إليكِ دون نصر.ونعود إلى رواية الحديث السابقة؛ التي تضع يدنا على هؤلاء، فكأنهم أمامنا رأي العين، نمسكهم باليد، ونقول: هؤلاء هم (تقاتل أعداء الله، كلما ذهب حرب نشأ حرب قوم آخرين). "... نشأ حرب قوم آخرين، يزيغ الله قلوب قوم ليرزقهم منه"، وكم تزيغ قلوب، فتحاربهم حسدًا وغيظًا وحقدًا، فما يزيد هذه الطائفة إلا جلاءً ومضاءً، وإنما يُرزَقون بزيغ قلوب الآخرين، فيُرزَقون مجدًا، ويُرزَقون قوة، ويُرزَقون ثباتًا.

٨-حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك:

ومتى يأتي أمر الله؟.. ويأتي الجواب في الرواية الأخرى للحديث "... حتى يقاتل آخرهم الدجال"، وستبقى حماس لتسلم الراية لمن بعدها، لتبقى الطائفة المنصورة، القوامة على الحق.

٩- هذا من حيث امتداد الزمان، أما من حيث امتداد المكان، فيخبر عنهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، بقوله، حيث هم اليوم: (وجلهم ببيت المقدس)، وفي رواية "هم في أكناف بيت المقدس"، لكن الرواية الأخرى تجعلهم أفسح، وأوسع مدى "وهم في الشام"، وهذا يعني أن المعركة ممتدة؛ لتكون الشام كلها ساحة المواجهة.

١٠-فهل تعرفون يا أهلنا في غزة، ويا قادتنا من حماس هناك، أنكم اليوم مصداق حديث الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم)، تسجلون تاريخًا، وتصوغون أمة، ونحن بكم مقتدون، وعلى الطريق سائرون، وقد سماكم الله (الْمَنصُورُونَ).. "ولا تزال طائفة من أمتي منصورين، لا يضرهم خذلان من خذلهم، حتى تقوم الساعة"، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.



النقلة الهائلة

(.... لما فصل رستم، وأمر الجالينوس بالتقدم إلى الحيرة، أمره أن يصيب رجلا من العرب، فخرج هو - أي الجالينوس، و(الأزاذمر) سرية في مائة، حتى انتهيا إلى القادسية، فأصابا رجلا دون قنطرة القادسية، فاختطفاه..).

لقد كان رستم حريصًا على أن يصيب رجلا من عرض القوم، جنديًّا من الجيش العربي الإسلامي، في اختيار عشوائي غير مُنتقى، يتعرف من خلاله على الجنود كلهم؛ الذين يمثلون قاعدة الجيش الإسلامي، وكان له ما أراد.

إننا لا نعرف حتى الآن اسم هذا الجندي العربي المسلم، وما أظن أحدًا يتعرف على اسمه، فلم يحفظ التاريخ لنا اسمه، إنما حفظ لنا مقالته؛ التي تمثل هذا البعث الإسلامي الجديد، وهي مسطرة عن الجنود كلهم، عن تفكيرهم وعقلهم، وعواطفهم وطموحاتهم، وشجاعتهم وخط حياتهم.

(فقال له رستم: ما جاء بكم؟، ماذا تطلبون؟.

قال: أرضكم وأبناءكم ودماءكم إن أبيتم أن تسلموا.

قال رستم: فإن قُتلتم قبل ذلك؟.

قال: في موعود الله أن من قُتل منا قبل ذلك أدخله الله الجنة، وأنجز لمن بقي لنا ما قلتُ لك، فنحن على يقين.

فقال رستم: قد وُضعنا إذن في أيديكم.

قال: ويحك يا رستم، إن أعمالكم وضعتكم، فأسلمكم الله بها، ولا يغرنك ما ترى حولك؛ فإنك لست تحاول الإنس، إنما تحاول القضاء والقدر

فاستشاط غضبًا، فأمر به فضُربت عنقه) (الطبري ٢/٣٩٥).

إنه الوعي العجيب، والفقه الخالد، لدى أدنى جندي في جيش الإسلام، إلى أميره وقائده.

لقد أصبح الأعرابي القابع في البادية؛ الذي كان يحلم بأن يرى من رأى بلاد الفرس، يقول اليوم لأعظم قادة الأرض: جئنا نطلب موعود الله: أرضكم ودياركم وأبناءكم.

وكوّن الإسلام هذا الجندي بهذه الصياغة الخالدة، فهو يدرك سنن الله (تعالى) في الأمم، ويدرك لمَ جعل الله هذه الأرض موعودًا للمؤمنين، فالذين يقودونها قد بغوا وظلموا واستأثروا؛ ولذلك كان الجواب ليس ذلك الجواب الأعمى الأصم، بلا فقه ولا بصيرة بشريعة الله، إنما كان الجواب لأكبر متقفي الأرض وقادة الأرض. ويحك يا رستم، إن أعمالكم وضعتكم، فأسلمكم الله بها، وجعل في قلب هذا الأعرابي من الجرأة ما يخاطب به رستم؛ فإنك لستَ تحاول الإنس، إنما تحاول القضاء والقدر.

****



الدعوة إلى الله عند رستم!

ربعيٌّ عند رستم، الصورة والعرض

(فخرج ربعيٌّ ليدخل على رستم عسكره، فاحتبسه الذين على القنطرة، وأرسلوا إلى رستم لمجيئه، فاستشار عظماء أهل فارس فقال: ما ترون؟، أنباهي أم نتهاون؟، فأجمع ملؤهم على التهاون، فأظهر الزبرج، وبسطوا البسط والنمارق، ولم يتركوا شيئًا، ووُضع لرستم سرير من ذهب، وألبس زينتَه من الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب..).

لقد أرادوا أن يُبهروا هذا الأعرابي، ويَسلبوا لبَّه بهذه المفاتن من الدنيا، على أمل أن يسقط في الامتحان، وتستهويَه الإغراءات والمباذل، هكذا كان ربعيٌّ في سُرَّة الأرض، وأعظم مدنها، وعروس دنياها.

فقالوا: ضع سلاحك، فقال: إنّي لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني، فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعتُ، فأخبروا رستم فقال: ائذنوا له، هل هو إلا رجل واحد، فأقبل يتوكأ على رمحه، يقارب الخطو، ويزجّ النمارق والبسط، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطًا إلا أفسده، وتركه متهتّكًا متخرّقًا، فلمّا دنا من رستم، تعلّق به الحرس، وجلس على الأرض، وركز رمحه بالبسط، فقالوا: ما حملك على هذا؟، قال: إنّا لا نستحبُّ القعود على زينتكم هذه، فكلمه، فقال:

الله ابتعثنا، والله جاء بنا؛ لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام.

هذا العرض العالميّ للإسلام ندعو لفقهه كلّ الدعاة في الأرض، وكلّ العداة في الأرض، ويجب أن يُدرَّس في أرقى الجامعات الرسميّة والشعبيّة، فهو سؤال حيّر رأس الإمبراطور يزدجرد، وقيادات الطبقة العليا عنده، فالإسلام هو ميزان الشر والخير في الوجود، والذي جاء من عند الله على لسان رسول ربّ العالمين.

والمسلمـــون هم القوّامـــون على البشريّة لتحقيق العدل في الوجود، وتحرير الإنسان من عبوديّة الخلق إلى عبوديّة ربّ الخلق، وإلى تحقيق مجتمع الرفاهية والعدل، والمسير بالناس - على هذا الهدْي العظيم- إلى جنّة عرضها السماوات والأرض، فخلص رستم برؤساء أهل فارس، فقال: هل رأيتم كلامًا قط أوضح وأعزّ من كلام هذا الرجل؟.

قالوا: معاذ الله لك أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع دينك لهذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟، قال: ويحكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الكلام والرأي والسيرة، إنَّ العرب تستخفُّ باللباس والمأكل، ويصونون الأحساب، ليسوا مثلكم في الثياب، ولا يرون فيها ما ترون.

وتزعزع رستم بين الإقرار في الحقيقة والخضوع لله ربّ العالمين، وبين فقدان السيادة والزعامة على ملكه، فاختار الزعامة والسيادة، وكانت في هذا مهلكته ونهايته ومقتله، وزوال ملك فارس على يديه.

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋



قبل ثمانين عامًا وثورة حماة الأقصى

الأسبوع الفائت تصدرت فيه أخبار محاولات اقتحام الأقصى بالقوة لا للصلاة فيه، بل للسيطرة عليه، وجعل حائط المبكى على الأقل ملكًا لليهود، ورابط المسلمون الفلسطينيون فيه كي يموتوا دون تحقيق ذلك.

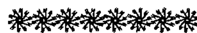
ماذا جرى قبل ثمانين عاما؟!؛ (في صحيفة السادس عشر من آب عام ١٩٢٩م، المصادف لعيد المولد النبوي، كرر اليهود زحفهم نحو حائط البراق، وابتدأت في الحال ثورة البراق؛ التي عمت المدن الرئيسة في فلسطين جميعها، وكان أعنفها في القدس، وكانت الحصيلة ١٣٣ قتيلا و١١٩ جريحًا من اليهود، و١١٦ قتيلا و٢٣٣ جريحًا من العرب، وتناهت الأخبار عبر الصحف إلى العالم العربي والإسلامي.

وكانت المظاهرات في المدن العربية والإسلامية، وكان لمدينة حماة تجاه ثورة البراق شأن آخر؛ فمن جهة شهدت المدينة مظاهرات شعبية صارخة، ضد اليهود والإنكليز.. وسطر علماء الدين في حماة خطابًا، إلى الملك عبد العزيز بن سعود، ملك الحجاز ونجد، وذيلوه بتواقيع سبعة وأربعين عالمًا من علمائها.

وهذه الرسالة كان الفضل في إبرازها للباحث الحموي الوثائقي، الأستاذ عبد الكريم بن إبراهيم السمك، تعطي صورة حية عن شعبنا؛ الذي ترخص عليه روحه وحياته، في سبيل ثالث الحرمين، وأولى القبلتين، ومسرى رسول رب العالمين، محمد (عليه الصلاة والسلام)، وهذه هي صورة الوثيقة:

وترجمتها كالتالي:

"لجناب صاحب الجلالة، ملك الحجاز ونجد وملحقاتها المعظم، بواسطة صاحب السعادة قنصله بدمشق المحترم، إن الفظائع التي ارتكبها اليهود والصهيونيون في فلسطين، من إهراق دماء إخواننا المسلمين والمسيحيين، وهتك حرماتهم في عقر دارهم؛ التي نشرتها الصحف، لأمر عظيم، تفطرت له قلوب العالم العربي، وجدير بأن يهتز لهوله العالم الإسلامي، وإن التاريخ ليشهد على أن اليد العاملة في إغواء هذه الدماء والأنفس، هي المسئولة تجاه الله والإنسانية؛ لذلك فإن الحمويين في هياج شديد، محتجون بمظاهراتهم على هذه الأعمال الوحشية، فنحن - علماء الدين- باسم الشعب الحموي، نرفع لدى سدتكم الملوكية هذا الاحتجاج، مسترحمين بأن تأمروا بوضع حد لهذه التعديات؛ خشية من تفاقم الشر، أدامكم الله موئلا للعرب سديدًا".



من الخلافة إلى الدولة القطرية

قبل مائة عام كنا نفخر أننا جزء من دولة عظمى، لها الصدارة في العالم، ثم تواطأت دول الكفر عليها، ومزقتها كل ممزق، وكم فرحنا في تلك الأيام بالاستقلال.. ففي سورية عام ١٩١٨م، كان عيد استقلال سورية، وملكية الملك فيصل بن الحسين، في الثامن من آذار، وعام ١٩٢٤م، أُعلِن انتهاء الخلافة العثمانية، ومُحِيت الخلافة من الأرض، وقال شوقي في رثائها:

ضجّت عليك مآذن ومنابر

وبكت عليك ممالك ونواحٍ

الهند والهة ومصر حزينة

تبكي عليك بمدمع سحاح

والشام تسأل والعراق وفارس

أَمَحَى من الأرض الخلافةَ ماحٍ؟

وكانت هذه الخطوة جزءًا من المؤامرة، وكانت الخطوة الأولى هي تقاسم تركة الرجل المريض في حياته، وفصل الأمة العربية عنها، وكانت الخطوة الثانية تمزيق هذه الأمة إلى دويلات مبعثرة؛ حيث تحوّل الشريف حسين من الخليفة العربي الإسلامي، للعالمين العربي والإسلامي، إلى ملك للحجاز فقط.

ثم كانت الخطوة الثالثة فصل مشرق الوطن العربي عن مغربه.

ثم كانت الخطوة الرابعة إقامة دولة لليهود في فلسطين، تحول دون وحدة الأمة في مشرقها العربي.

وكانت الخطوة الخامسة إقامة عصبة الأمم، ثم منظمة الأمم المتحدة. وأين تكمن خطورة هذه الخطوة؟.

في جعل تقسيم وتمزيق الوطن العربي والإسلامي واقعًا قانونيًّا، لا مناص له في الأرض، فلا بد أن تكون الدولة المنضمة إلى المنظمة دولة مستقلة، لها حدودها وعَلَمُها، وقامت الإمبراطوريات الكبرى بعد تحطيم الإمبراطورية العثمانية، باحتلال أراضيها، ضمن اتفاقات عالمية، شَغلت كل قطر بمشاكله، والسعي لاستقلاله، وصار الهدف الرئيس هو إنهاء الاحتلال، والاحتفالات بأعياد الاستقلال.

والذين فكروا من الرواد بتجاوز الواقع الإقليمي والقطري انقسموا إلى ثلاث فرق: دعاة القومية العربية، ودعاة الوحدة الإسلامية، ودعاة المعسكر الإشتراكي، فكان لا بد من قتل هذه الريادة حتى تبقى الإقليمية والقطرية هي الأصل.

ففصلت بين دعاة الفكر القومية، ودعاة الفكر الإسلامية، وانطلت المؤامرة على الفريقين، فالوحدة

العربية هي وحدة إسلامية، كما قامت في العهد الأول، وأمضى هؤلاء خلال القرن الماضي حياتهم صراعًا بين أكبر قوتين جماهيريتين، وهما أصلا لُحمة واحدة، وألبست دعاة المعسكر الاشتراكي لباس الفكر الشيوعي الملحد، فضمنت بذلك الصراع بين دعاة الإسلام ودعاة الشيوعية، وضمّنت دعاة الإشتراكية فكرة الأممية العالمية؛ ليتجلى الصراع مع دعاة القومية العربية.

وانتقل الصراع من الحكام إلى الرواد الذين صار بعضهم حكامًا فيما بعدُ، وكانو أسوأ ممن سبقوهم، من تلاميذ الغرب والفكر الرأسمالي.

إذًا.. الفرقة هي العلة الكبرى التي تذبح أمة العرب والإسلام.

والأعداء الألِدّاء للعروبة والإسلام هم الذين يوقدون نذر الحرب بين أبناء الأمة.

وبالتالي فأزمتنا الكبرى تنتهي في معظمها بوحدة العرب والمسلمين، من خمس وخمسين دولة عربية وإسلامية، إلى دولة عربية إسلامية واحدة، تقابل بتعدادها إمبراطورية الصين الشيوعية.

وعندئذ، إذا كانت الدول العظمى لستة مليارات في الأرض فلا بد أن يكون لسدس السكان في الأرض من يمثلهم في دولة واحدة، وتصبح الدول العظمى التي تتحكم في مصير العالم ست دول - حسب تعداد السكان- ونحن أحق أهل الدنيا بهذا الموقع.

ونعود لما كنا عليه.

و(إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون). بالطريق نفسه الذي انحدرنا فيه إلى الهاوية نعود بجمع شملنا ثانية إلى القمة، وهذا ما حدده القرآن الكريم طريقًا وحيدًا للنصر، وطريقًا وحيدًا للهزيمة (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم).



هل (الديمقراطية) طريق عودة الخلافة الإسلامية؟

رأينا في المقال السابق كيف تحولت الخلافة الإسلامية إلى (الدولة القطرية)؛ فما السبيل إلى عودة الخلافة من جديد، وقد مرت قرابة مائة عام على إلغائها.

ولم نزدد إلا فرقة وبعدًا وتناحرًا وصراعًا محمومًا فيما بيننا، على المحافظة على الدولة القطرية، حتى لتقترب العلاقات الدبلوماسية من القطيعة، وجُن جنون الإعلام من أجل مباراة لكرة القدم، بين أكبر قطر عربي على الإطلاق، ودولة قدمت ما ينوف عن مليون شهيد؛ لتتحرر من الاستعمار الفرنسي.

ويكاد يُسد الأفق، ويُقطع الأمل، فما العمل؟.

أزعم أن الديمقراطية الحقيقية في وطننا العربي والإسلامي كفيلة أن تعيد (وحدة) الأمة من جديد.

ببساطة أعتمد على الظواهر التالية في هذا التصور:

١-لا نشك أبدًا أن الأمة العربية والإسلامية في أغلبيتها تريد الإسلام أن يكون حاكمًا لها، ولا أدل على ذلك، أنه ما من انتخابات حرة ونزيهة في أقطارنا الإسلامية إلا وتصوت (للإسلام) ودعاته، مما حدا بالولايات المتحدة أن تتنازل عن مبادئها في توريد الديمقراطية، إلى العودة لتأييد الحكام الشموليين؛ حفاظًا على مصالحها.

٢-العالم الآن أخذ يدرك أكثر مفهوم (الإسلام) والعولمة التي تسعى أمريكا لها؛ لتحول العالم إلى نسخة عن التفكير والواقع الأمريكي، وهي سلاح ذو حدين، فلم لا يسعى المثقفون المسلمون - من خلال الحوار لا العنجهية والاستئثار- إلى إقناع العالم بأن الإسلام هو النظام الذي يصلُح له، والصلة بالعالم كله متوفرة، من خلال وسائل الاتصال والقنوات الفضائية وشبكة الإنترنت وغيرها، والعالم غدا كما يقال (قرية واحدة)؟!!.

٣- والنصوص الصريحة في الإسلام والأحاديث النبوية الصحيحة تتحدث عن جولة جديدة للإسلام؛ الذي سيحكم العالم بمبادئه، لا بدباباته وصواريخه: "وليبلغن هذ الدين ما بلغ الليل والنهار، بعز عزيز أو بذل ذليل".

٤-وإذا كان خصوم الإسلام يظهرون أمامنا بأنهم يستخفون بعقولنا حين نؤمن بهذه الأفكار، ويشاركهم العلمانيون بذلك، لكن أمريكا تأخذ هذه الكلام مأخذ الجد.

(فقد صدر تقرير خبراء المجلس القومي للبحوث والدراسات الإستراتيجية، التابع للاستخبارات المركزية؛ الذي شارك في إعداده ١٠٠ خبير، خلا ثلاثين مؤتمرًا في خمس قارات، راسمًا أربعة سيناريوهات محتملة للنظام العالمي ٢٠٢٠م، وكما يقول الأستاذ حسن الحسن، مختصرًا للسيناريو المطروح، من

خلال قيام خلافة جديدة، تجتاح العالم الإسلامي، محاولة صهره في دولة واحدة.. في الشرق الأوسط، من خلال رسالة طويلة معترضة، كتبها الخبراء على لسان حفيد أسامة بن لادن إلى قريب له، يصف له واقع تلك الخلافة، اقتبس فيها ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم، كان جَدي يؤمن بالعودة إلى عهد الخلفاء الراشدين، عندما حكم قادة الإسلام إمبراطورية لحماية حقيقية للدين.. كان يتصور أن الخلافة ستحكم مرة أخرى العالم الإسلامي، روحيًّا ودينيًّا ودنيويًّا، في طاعة لإرادة الله، رافضًا فصل الكنيسة عن الدولة الذي يراه الغرب، ولكننا نفاجأ جميعًا - المؤمن منا والكافر- بأنه أصبح للخليفة أتباع على مستوى العالم).

٥-ونتساءل أخيرًا: كيف تم الوصول إلى هذه الخلافة، من خلال تقرير مجلس الأمن القومي؟، حيث نتابع القسم الثاني من الرسالة: لم يكوِّن القاعدة، ولم يقُد حركة سياسية مثل جدي، لم يتلطخ بقتل الأبرياء المؤسف؛ الذي سواء اعترف به جدي أم لم يعترف قد منع البعض من دعم القاعدة، ولقد تدفقت مظاهر الولاء والمال من البلدان الإسلامية، من على بُعد نصف الكرة الأرضية، من الفلبين واندونيسيا وماليزيا وأوزبكستان وأفغانستان وباكستان، وقد تابع بعض الحكام من النخبة آملين تقوية قبضتهم المرتجفة على السلطة.. وخلال فترة قصيرة بدا واضحًا أنه لا بديل عن الإعلان عما كان الكثير يتوقون إليه، وهو خلافة جديدة).

٦- إذًا لن تقوم الخلافة من خلال التلطخ بدم الأبرياء، إنما من خلال تحويل المؤسسات الغربية الديمقراطية والعولمة لصالحنا، كما تنتهي الرسالة قلقة من إحباط ردة فعل إسلامية على مستوى العالم، نحن قريبون جدًّا من ذلك في آسيا الوسطى، وأجزاء من باكستان وأفغانستان؛ حيث تحتدم حرب أهلية).

ويقولون متى هو؟، قل عسى أن يكون قريبًا.



يا أوباما.. لقد ضللت الطريق

حددتَ أهدافك عندما جئت لتعالج أكبر أزمتين تعاني منهما بلدك، الولايات المتحدة: الأزمة الداخلية الاقتصادية، وهي الأزمة الأسوأ في تاريخ أمريكا، منذ سبعين عامًا ونيف، والأزمة الخارجية: وهي الأسوأ في تاريخ أمريكا، من كثرة الأعداء الذين يكرهونها، أو يناصبونها العداء، أو يمشون في ركابها وأنفهم راغمٌ.

وأهم هؤلاء الأعداء: العالم الإسلامي؛ الذي يرى في الولايات المتحدة الخصم اللدود له، في أخطر أربع قضايا على المرجل: القضية الفلسطينية، والقضية العراقية، والقضية الأفغانية، وقضية الحرية.

وأعلنتَ عن رغبتك في تحويل هذا العداء إلى صداقة، ومشاركة في بناء عالم حر، لقيم مشتركة بيننا وبينك.

لكن ماذا نرى من مصداقية هذه الأقوال، بعد مرور عام؛ على خطابك الذي وجهته لأمة الإسلام، من أكبر عواصمها، إستانبول والقاهرة؟.

القضية الفلسطينية: كان أملنا حين حددتَ موقفك ضد الاستيطان، وأنه لا مفاوضات دون إيقافه، كان أملنا أن يكون بداية التغيير في ردع إسرائيل عن غيها، وإذا بنا نراه نهاية التغيير، وعندما زارك نتنياهو أعلنت تراجعك إلى الموقف خلف إسرائيل، وأنه ليس شرطًا أن تقف المفاوضات من أجل إيقاف الاستيطان، ولحفظ ماء الوجه أعلن نتنياهو معك عن إيقاف الاستيطان المؤقت، مع مضيه في بناء مئات المستوطنات؛ التي اتخذ القرار فيها قبل لقائكما العتيد.

نحن يقظون أيها الرئيس، ونرقب كل خطوة لك، حرصًا منا على أمل التغيير إلى الأحسن، ومع ذلك فلا نبحث وراء السطور وما خلفها، إنما نبحث في السطور الفاقعة الحمراء؛ التي تعلن فيها حمايتك لأمن إسرائيل، وجاهزيتك لتنفيذ تبعات أمريكا تجاهها، ولو أدانها شعوب العالم بالاعتداء، ولاحق رؤساءَها قضاءُ هذه الأمم؛ للقبض عليهم بصفتهم مجرمي حرب، وأقر مجلس حقوق الإنسان أنهم مجرمون قتلة، وحال مندوبك دون وصول هذا القرار لمجلس الأمن ومناقشته.

وأخيرًا، ها أنت تقدم هديتك للنظام في مصر، في وضع جدار فولاذي، بين الشقيقتين مصر وفلسطين، على حدود غزة، وأرسلت خبراءك والمواد اللازمة لتنفيذه؛ لتحكم القبضة على غزة، وتشارك في إبادة مليون ونصف؛ بحيث لا يصلهم القوت، ولا شرايين الحياة، تحت ذريعة تهريب السلاح.

ما نعتقد أنك اختلفت ذرة واحدة عن سلفك بوش، إن لم نقل زدت عليه.

أما العراق.. فماذا فعلت غير الذي فعله سلفك؟؛ الذي وقع مع النظام الحاكم في العراق وثيقة الخروج منها بعد عامين، بحيث تكونان قد أحكمتما تدمير العراق، بإشعال نار الحرب الطائفية فيه، ووقفتم متفرجين على احتلال بعض آباره النفطية، من جارته إيران، ومهمة حماية العراق من الاعتداء حتى الآن هي مسئوليتك، بعد أن دمرتم البنية التحتية الكاملة لقوام دولة العراق، واستنزفتم ثرواته.

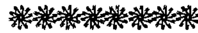
وأما القضية الأفغانية.. فقد فُقتَ سلفك في إشعال الحرب في باكستان، بين جيشه وشعبه، وتحت ذريعة حرب الإرهاب، كلما فتحنا القنوات الفضائية نواجه بآثارك الجديدة، من الآمنين العزّل المقتولين، من النساء والشيوخ والأطفال، في الدول الإسلامية التي تحتلونها، والتي تعلنون عن إرسال عشرات الألوف من الجنود والعساكر لدعم احتلالها.

وأخيرًا: سنْدُك للأنظمة الدكتاتورية في العالم الإسلامي، بما كان يستحي منه سلفك السابق.

أيها السيد الرئيس:

إن كان حزبك قد غلبك، وكان اللوبي الصهيوني أكبر منك، فاعذرنا أن تهتز ثقتنا كثيرًا فيك، وفي قدرتك على التغيير، إن لم يظهر لنا شيء مغاير لما نراه، فالجواب عندنا ما نراه لا ما نسمعه.

ومع هذا كله لا يزال عندنا بصيص أمل، في أن تحول قولك السابق إلى عمل يتطابق معه، فقد مللنا الكلام المعسول والدجل، إننا أيها السيد الرئيس واعون ويقظون، وإنا لمنتظرون.



لماذا الحديث عن الخلافة الإسلامية اليوم؟!

ظاهر الأمر أن الحديث عن الخلافة انتهى منذ نصف قرن ونيِّف، وأصبح هم المواطنين الشاغل كلَّ قطر على حدة.. فما بال الحديث يعود من جديد؟

أولا: العالم الغربي ومثقفوه هم الذين يطرحون الحديث دومًا عن الخلافة الإسلامية، ويتحدثون عن الخطر الأخضر القادم، المتمثـــــل بالإسلام والمسلمين في الأرض، وذلك بعد أن انتهى الخطر الأحمر، المتمثل بالشيوعية العالمية، ويضيفون الحديث عن الخطر الأصفر، المتمثل بالصين والهند.

فهم يتحدثون عن قوة إسلامية تتجاوز المليار وثلثًا من سكان المعمورة، ولا يعيرون التفاتًا للسوري والمصري والمغربي والعربي والباكستاني.

إنهم يواجهون بحضارتهم الغربية الحضارةَ الإسلامية.

ثانيًا: والعصر اليوم هو عصر التكتلات الكبرى التي تقوم على سدة العالم، فهذا العالم كله يمتثل باللجنة الرباعية نيابة عن الأرض.

هذه اللجنة الرباعية هي الاتحاد الأوروبي، وأمريكا، وروسيا، والأمم المتحدة؛ فهذه هي القوى التي تقود العالم، وتحكمه كما تشاء، وليس في اللجنة الرباعية العالم الإسلامي، ولا الجنس الأصفر، المتمثل بالصين والهند، فالعالم الإسلامي ما زال محكومًا من هذه القوى الكبرى، وليس حاكمًا في أية بقعة من الأرض، والخطر الأصفر متحرر من سلطان العالم، لكنه ليس شريكًا في قيادة حكم العالم الإسلامي.

ثالثًا: إنها الصورة السابقة التي ودعناها قبل قرن، حيث كانت الدول الأوروبية كلها تتصارع لتمزيق أشلاء الخلافة العثمانية، وتم لها ذلك، فالذين يتحدثون عن نهاية التاريخ، ويرون أن الحضارة الغربية هي خاتمة الحضارات، سرعان ما يتناقضون في تصور مستقبل البشرية، واحتمال انتصار الحضارة الإسلامية، والحضارة الهندية الصينية على الحضارة الغربية.

رابعًا: ونبحث في واقعنا البائس المنكود.. فلا نلقى إلا منظمة المؤتمر الإسلامي تمثل هذا الاتجاه نظريًا، لكنها - واقعيًا- لا تنطلق من وحدة الأمة الإسلامية. إنما تنطلق من خمس وخمسين دولة، لكل دولة اتجاهاتها وقناعاتها وتأثيرها وتأثرها وتفاعلها مع العالم، ولم تتقدم المنظمة خطوة واحدة على سبيل التوحيد؛ لأنها تمثل دولا مختلفة الاتجاهات والمشارب.

خامسًا: هذا الاتحاد الأوروبي الذي بلغ من صراعه في القرن الماضي أن ذبح من أبنائه ما يزيد على خمسين مليونًا من البشر، في حربين عالميتين شرستين. ولكنه تجاوز هذه الجراح والدماء، ومضى

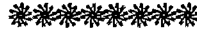
خطوات مدروسة وواقعية على طريق التوحيد، حتى غدا له برلمان واحد، واقتصاد واحد، وعملة واحدة، وهو ماض إلى الوصول للحكومة المركزية الواحدة.

سادسًا: وهذا هو سؤالنا المحوري: لماذا لا نبحث عن المصالح المشتركة لأمة تملك أعظم مقومات الوحدة، في الدين الواحد، والهدف الواحد، في التطور والتنمية، واعتبار ساحة العالم الإسلامي ساحة تتسع لكل مقومات الحياة والبقاء والنمو والتقنية، التي هي هدف واحد لدى الجميع؟!

سابعًا: وللإجابة عن هذا السؤال، والعمل على وضع إستراتيجية موحدة لهذا العالم العظيم، إنما يكمن في تجاوز الأمانة العامة للمؤتمر الإسلامي لتكون نواة الوحدة الاقتصادية، في كيان اقتصادي مؤسس، ووحدة ثقافية في كيان تربوي موحد، وكيان سياسي في اختصاصيين يدرسون ويرفعون نتائج هذه الدراسات إلى الأمانة العامة.

ثامنًا: وفرق كبير جدًّا بين أن تبقى الأمانة العامة منطلقة من الأمين العام وبين أن تكون الأمانة العامة متمثلة في تنفيذ الإستراتيجية الكاملة لربع قرن على الأقل.

ماذا نريد؟، وإلى أين نريد أن نصل؟ وحين نعرف ما نريد.. نحقق ما نريد.. والله فعال لما يريد.



هل ولد السلطان عبد الحميد بعد مائة عام؟

في عام ١٩٠٨ عُزِل السلطان عبد الحميد، لأنه رفض أن يبيع فلسطين لليهود، ولم يوافق على قيام دولة لهم فيها..

والحديث عن الأصبع اليهودية ليس جزافًا، إنما تمثل بعرضين كبيرين تقدمت بهما اليهودية العالمية لإغراء السلطان عبد الحميد في الاعتراف بالوجود اليهودي في فلسطين، عن طريق (قره صو) الذي عرض خمسة ملايين ليرة ذهبية للخزينة الخاصة للسلطان مع قرض مائة مليون للخزينة العامة بدون فائدة، مقابل السماح ببعض الامتيازات في فلسطين، وطلب (هرتزل) بيع أراضي فلسطين بالثمن الذي يريد فقال له: (إن هذه الأراضي قد امتلكها المسلمون بالدماء، وهي لا تباع إلا بنفس الثمن).

وتبنى الاتحاد والترقي مطالب اليهود، ورفضها السلطان، وخُلع لذلك، كما يقول في كتابه لشيخه أبي الشامات: "إنني لم أتخلَّ عن الخلافة الإسلامية لسبب ما سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والترقي المعروفة باسم (جون ترك) وتهديدهم اضطررت وأُجْبِرْتُ على ترك الخلافة".

"إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا عليَّ بأن أُصدِّق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة، ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيرًا وعدوا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهبًا، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضًا، وأجبتهم: (إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبًا، فضلا عن مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهبًا فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي، لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة فلم أسوِّد صحائف أجدادي وآبائي المسلمين من السلاطين والخلفاء العثمانيين)، وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى سيلانيك، فقبلت بهذا التكليف الأخير، هذا وحمدتُ الله وأحمَدُه أنني لم أقبل أن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي، الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة فلسطين..) في٢٢ أيلول ١٣٢٩ هـ. خادم المسلمين، عبد الحميد).

واليوم يطلع علينا (رجب طيب أردوغان)؛ وبعد مائة عام؛ ومن خلال انتمائه الوطني واعتزازه الإسلامي - ليعلن حربًا غير مباشرة على اليهود، ويكون أول رئيس مسلم يتحدى الرئيس الإسرائيلي شيمون بيريز، ويطلق عليه لقب قاتل الأطفال.

ولأننا أيتام خلال هذه المائة عام فقد عاش هذا الموقف في ذاكرتنا، وأعاد لنا عزة الإسلام على الأرض من جديد، وهو يقول للرئيس اليهودي: "لا يحق لك أن تتكلم بهذا الصوت العالي الذي يثبت أنك مذنب وتابع، إن الجيش الإسرائيلي يقتل الأطفال في شوارع غزة، ورؤساء وزارتكم قالوا لي: إنهم سعداء جدًّا

عندما يدخلون غزة على متن دباباتهم"، ثم انسحب لأنه لم تُتَحْ له المدة الكافية للرد على مجرم الحرب بيريز.

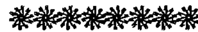
وفي عام ٢٠١٠م نال أردوغان جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، ومما قاله الأمين العام للجائزة عن أردوغان: بعد أن تولى رئاسة وزراء وطنه تركيا أصبح رجل دولة يشار إليه بالبنان؛ إلى نجاحاته الكبيرة؛ ومواقفه العظيمة؛ وطنيًّا وإسلاميًّا وعالميًّا. وتم منحه شهادة دكتوراه فخرية من جامعة أم القرى بمكة المكرمة في مجال خدمة الإسلام، بتاريخ: ٢٢-٣-١٤٣١هـ.

وهاجم إسرائيل بقوله: إن العالم لا يزال يغض الطرف عن إسرائيل، وهي ليست طرفًا موقِّعًا على معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية، وتملك ترسانة ضخمة منها. (الوكالات في ١٣-٤-٢٠١٠م).

وأعلنت إسرائيل أن أردوغان أصبح عدوها الأول مثل شافيز والقذافي. لقد سُجن أربعة أشهر لأنه استشهد بهذه الأشعار في خطاب له، وهي للشاعر التركي ضياء كوكالب: مساجدنا ثكناتنا .. قبابنا خوذاتنا.. مآذننا حرابنا.. والمصلون جنودنا.. هذا الجيش المقدس يحرس ديننا.. ثم خرج من السجن إلى الرئاسة!!

ولأول مرة في تاريخ إسرائيل، رضخت الحكومة الإسرائيلية لتهديدات تركية وقدمت اعتذارًا مكتوبًا رسميًّا إلى السفير التركي في تل أبيب عن الإهانات التي تعرض لها من قِبَلِ واني أيالون نائب وزير الخارجية الإسرائيلي أثناء استدعاء الأخير له للاحتجاج على تصريحات رجب طيب أردوغان؛ التي هاجم فيها بشدة القصف الإسرائيلي لقطاع غزة، والاستخدام المفرط للقوة ضد الفلسطينيين (الوكالات في ١٣-١- ٢٠١٠م).

هذه العزة التي نبحث عنها في هذا العصر، فهل عادت بعد مائة عام على يد أردوغان؟ وهل عاد السلطان عبد الحميد لنصر قضية فلسطين من جديد؟



د. جابر قميحة

أديب ومفكر إسلامي مصري.



أخلاقية منهج البحث التاريخي

منهج البحث في التاريخ بخاصة يجب أن يكون منهجًا أخلاقيًا قبل كل شيء؛ معتمدًا على الصدق في الرواية، والصدق في التثبُّت، والصدق في التفسير، والصدق في التكييف، مع توافر حسن النية، في كل مرحلةٍ من المراحل.

ولا أغلو إذا قلت: إن تراثنا الإسلامي قد أرسى قواعد هذا المنهج العلمي الأخلاقي، في نفوس المسلمين وضمائرهم، ويشدّني ما جاء في الأثر، من أنَّ رجلاً أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، وقد أمسك بتلابيب رجل آخر، وهو يقول في غضب شديد، وثورة عارمة: "يا رسول الله، إن هذا الرجل سرق مني كذا وكذا"، فرد عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) قائلا" :لاَ تَقُلْ سَرَقَ، وَلَكِنْ قُلْ أَخَذَ".

نعم لا تقل سرق، ولكن قل أخذ، إنها كلمات مشرقة عجيبة، تكثّف في بساطة ووضوح، المنهج الأخلاقي، في كل مناحي الحياة، فمن معطيات هذه الكلمات العلوية، قاعدة قانونية إنسانية، خلاصتها: ضرورة التثبت قبل الإدانة، فالمتَّهم بريء حتى تثبت إدانته، والأصل هو البراءة، ولا جريمة ولا عقوبة إلا بنص.

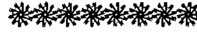
والعطاء الذي تمنحه هذه الكلمات يمتد حتى تصبح "منهجًا علميًا"، من أهم ملامحه: التأنّي والتعمق، والتمحيص، والترفع على مستوى الشبهات، والبُعد عن كل ما لا يطمئن إليه القلب والعقل والضمير.

واستقاءً من هذا المنهج العذب حرص أسلافنا - في كتابة التاريخ، وتدوين الحديث النبوي- على "السند" أو "الإسناد"، أي "العنعنة: "حدثنا فلان عن فلان عن فلان، وظهرت كتب "الجرح والتعديل"، وهي الكتب التي تبحث في أحوال الرواة والمحدثين وأخبارهم، وتضع معايير الأخذ منهم، أو رفض ما قدموا، فتُجيز مَن يُطمأَن إلى دينه وأخلاقه وحفظه، وترفض من يشك في يقينه وعقيدته، أو مروءته، أو سلوكه، أو حافظته.

وقد تأخذ الحيطة والأناة والحذر والتثبت العلمي، عند بعض السلف، صورةً تدعو إلى الدهشة والإعجاب، وفي هذا المقام يُروَى أن "أحمد بن حنبل) رضي الله عنه(تجشَّم مشاق السفر إلى اليمن لأسابيع أو أشهر؛ ليتحقق من صحة حديث نبوي، فلما عثر على العالم المحدث المطلوب رآه يضم إليه أطراف ثوبه، ويدعو بغلته النافرة إلى طعام في حِجره، وحِجرُه فارغ، فتراجَع "أحمد بن حنبل"، ورفض أن يسأله عن الحديث الذي جاء من أجله؛ لأنه كذب على بغلته، بإيهامها أن في حِجره طعامًا؛ مما يشكك في مصداقيته ومروءته.

تلك هي الوجهة الأخلاقية؛ التي يجب أن يتسم بها منهج البحث في كل العلوم، وخصوصًا التاريخ، حتى لا نكون أدعياءَ، وعالةً على تراثنا وتاريخنا، البعيد والقريب، وحتى لا تتكرر في حياتنا قصةُ "الفيل والعميان"، وتصبح منهجًا له قواعده وكتبه، ورجاله وحواريوه.

ولنذكر – باعتزاز– أن القرآن الكريم دعا البشر إلى النظر، والتأمل، والتبصر، والاعتبار، وجعل قيمة الحواس والمشاعر بقدر تحقيقها هذه القيم (.. إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) (الإسراء: ٣٦).



الإسلام والحرية الشاملة

جاء الإسلام ليرفع من كرامة الإنسان - من حيث هو إنسان- فكرمه بالعقل، وكفل له الرزق والطيبات، وحقق له أفضلية على كثير من المخلوقات.. يقول تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) (الإسراء ٧٠).

الإسلام إذن، من منطلق "تكريم بني آدم"، عمل على تحرير الإنسان من الرق.. ليس هذا فحسب، بل كان أول نظام يمنح الإنسان- بصرف النظر عن جنسه ولونه ومعتقده- ما يمكن أن نسميه "الحرية الشاملة".. ولا يعني هذا الحرية المنطلقة المتسيبة بلا ضوابط، ولا قيود. فتلك هي الفوضوية بعينها، الفوضوية التي تقود الفرد إلى الضياع وفساد الدين، وتؤدي بالمجتمع إلى الخراب والانهيار.

ولكن المقصود بالحرية الشاملة تلك التي تتناول كل جوانب الحياة، وتمكن الإنسان من العيش والمعايشة بإرادته، دون أن يكون مقهورًا أو مظلومًا، أو واقعًا تحت ضغط غير مشروع، أو هي كما عرفها أحد المفكرين المحدثين: "الانطلاق المشروع في الرأي.. والاعتقاد.. وفي القول.. وفي الفعل.. وفي الاتصال بالغير".

وقد كفل الإسلام للإنسان حرية التفكير، وحرر العقل الإنساني من الأوهام، والخرافات، والوقوع في أسر التقليد الأعمى.. ونفخ فيه من "روحه"، وكرمه "بالعقل"؛ الذي وعى حقيقة الأشياء، اسمًا ومسمى.. والعقل هو الذي كفل له أن يكون خليفة الله في أرضه.

ولقد كرم الله الإنسان بالحواس - لا لذاتها- ولكن بقدر ما توصل صاحبها إلى طريق الفهم، والاهتداء، والتقوى والإصلاح: (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۞ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) (البلد: ٨ - ١٠).

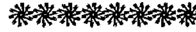
وإذا لم تستطع الحواس أن ترتفع بالحقيقة الإنسانية في نفس الإنسان، ولم تكن وسائل لتحصيل العلم، والوصول إلى اليقين والهدى، والتحرر من ربقة الظلام، فوجودها كعدمها سواء، بل إن الإنسان في هذه الحالة يكون أحط مكانة من البهائم؛ لأن البهائم تستخدم حواسها بأقصى طاقاتها، حفاظًا على بقائها.

أما هو؛ فقد عطل حواسه؛ التي أنعم الله بها عليه، لاستعمالها كصاحب رسالة، كرمه الله، باستخلافه عنه في الأرض.. وما قيمة العقل إذا ما عطلت طاقته عن الخير؟، وما قيمة العين إذا لم تبصر طريق الهدى؟، وما قيمة الأذن إذا لم تُصغِ لصوت الحق واليقين؟.

والقرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم، والتنبيه إلى وجوب العمل به، والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة، ولا مقتضبة، في سياق الآية.. بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها، مؤكدة

جازمة، باللفظ والدلالة، وتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهى؛ التي يُحَث فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يُلام فيها المنكر على إهمال عقله، وقبول الحجر عليه.

وبهذا المفهوم الشامل للعقل، وتحريرًا له من الجمود والتوقف، والتخلف عن التفاعل الحي مع ما يرى من مظاهر الكون والحياة، دعا الإسلام إلى النظر والتفكير والتأمل، ونعى على الذين لا يفكرون، ولا يتأملون خلق الله، ولا يُعمِلون عقولهم، خلوصًا إلى اليقين.



نظرة في أدب السجون والمنافي

"أدب السجون والمنافي" هو الأدب الذي يصور - بصفة أساسية- ما يعانيه المظلومون تحت وطأة الظلم، والاعتقال، والأسر، والنفي، والتشريد. ونستطيع أن نرى هذا اللون في أرقى صوره في القرآن الكريم، وهو يصور محنة يوسف - عليه السلام- في سجنه: ابتداءً من مكيدة امرأة العزيز، إلى أن صار وزيرًا على "خزائن" الأرض.

ومن هذا اللون أبيات "الحطيئة" المشهورة؛ التي يستعطف فيها "عمر بن الخطاب" - رضي الله عنه- من سجنه، بعد أن أمر عمر بحبسه؛ لأنه هجا "الزبرقان بن بدر"، أو "سلح عليه"، على حد قول حسان بن ثابت، يقول الحطيئة:

ماذا أقول لأفراخ بذي مَرَخ ... زُغْب الحواصل، لا ماءٌ، ولا شجرُ

ألقيتَ كاسبهم في قعْر مُظلمة ... فاغفرْ عليك سلام الله يا عُمرُ

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ... ألقت إليك مقاليد النهى البشر

لم يؤثروك بها إذ قدموك لها ... لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

ومن هذا اللون أيضًا "روميات "أبي فراس الحمداني، و"سرنديبيات" محمود سامي البارودي، وكثير من "أندلسيات" شوقي، وديوان "وراء حسك الحديد" للشاعر العراقي "محمد بهجة الأثري"؛ الذي نظمه خلال السنوات الثلاث التي قضاها معتقلا، في معتقلات الفاو والعمارة وغيرهما، من ١٩٤١/١٠/٢٨م، إلى ١٩٤٤/٨/٢٧م.

وفي مجال النثر نرى المكتبة العربية حافلة بعشرات - إن لم تكن مئات- من كتب "أدب السجون"، منها - على سبيل المثال-: "عالم السدود والقيود" "لعباس العقاد"، وكتاب "مذكرات واعظ أسير" لأحمد الشرباصي، وكتب مصطفى أمين "سنة أولى سجن"، و"سنة ثانية سجن" و"سنة ثالثة سجن".

هذا اللون النثري من أدب السجون يأتي في شكل مذكرات أو يوميات أو ذكريات، وكثير منه لا يخلو من طوابع قصصية، ولكنه - بصفة عامة، وخصوصًا من الناحية الموضوعية- يدور حول المحاور الآتية:

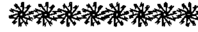
(١) تصوير المعاناة القاسية التي يعيشها السجين، والآلام الحسية والمعنوية الهائلة التي تستبد به، وتحديد أبعاد العلائق بين المسجونين وحكام السجن والمهيمنين عليه.

(٢) تصوير بعض النماذج والأنماط البشرية التي يرصدها السجين، ويصورها بقلمه، وخصوصًا الشخصيات السيكوباتية الغريبة الأطوار.

(٣) الربط بين حياة السجن والأوضاع السياسية القائمة، وما فيها من اختلالات ومفاسد ومظالم، قادت صاحب القلم إلى هذا المصير المظلم.

(٤) ومن ناحية الاستشراف النفسي المستقبلي، تتراوح نظرة الكاتب بين أمل مشرق يتدفق بالحرية الشاملة، وبين يأس مطبق يصبغ كلماته بلون قاتم حادٍّ، بيد أن كثيرًا من هذه الكتابات تنزع نزعة أيديولوجية روحية، في تبرير محنة السجن وعذاباته، والنظر إلى كل أولئك على أنه ابتلاء، وتربية نفسية وروحية بعيدة المدى.

هذا، وما قدمته آنفًا لا يزيد عن كونه "نظرة" في هذا النوع من الأدب، قد تفتح الباب أمام الباحثين، أو تمثل دعوة ضمنية لطلاب الدراسات العليا، أن يعالجوا موضوعات هذا الأدب، في أطروحاتهم



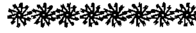
الطاغية وتوثين الذات

إن الظلم أبشع الآفات التي تصيب النفس البشرية، وهو يأخذ صورته الضارية إذا ملك الظالم من القوة ما يجعل الظلم آلية سهلة لتنفيذ مآربه، وتحقيق ما يشبع نفسه المريضة. هو شذوذ في أعتى صوره؛ لأنه تمرد على الفطرة الإنسانية، وجَوْر على بني آدم، وقد كرمهم الله، وجعلهم أكرم المخلوقات. والحاكم الظالم يستبد به الغرور، ويتدرج به، إلى أن يُغرِق نفسه في مستنقع توثين الذات، وفرعون مصر هو أصرخ النماذج في هذا المجال؛ فقد رفض دعوة موسى (عليه السلام): (فَحَشَرَ فَنَادَى ۞ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى) (النازعات: ٢٣، ٢٤).

وليس من الضروري أن يكون توثين الذات بادعاء الألوهية، ولكن قد يكون بإنكارها، والنظر إليها وإلى الدين كظاهرة كانت مرتبطة بالطفولة الأممية، وعصور التخلف في الماضي، ومن أمثلة هؤلاء هتلر وموسوليني. ومن القصص المشهورة أن جوبلز (١٨٩٧- ١٩٤٥م) - وكان وزير الدعاية والأنباء في عهد هتلر كان يشرف على إعدام أحد القسس، فقال له: "لا تُعدمْني، واتق الله فيَّ"، فرد عليه قائلا: "لم يعُد العصرُ عصرَ اللهِ يا غبيُّ، إنما هو عصر الفوهرر هتلر"، وانتهى به الأمر إلى الانتحار، هو وزوجته وأولاده، وزعيمه هتلر، في أول مايو ١٩٤٥م.

وانطلاقًا من هذه الآفة - توثين الذات- نرى الطاغية يتسم بالأثرة، وحب النفس، فهي مدار تفكيره، وهي المعيار الذي يَزِن ويقيس به أعمال الآخرين. ومن هنا تأتي استهانة الطغاة بشعوبهم: فهم في نظرهم "دهماء"، لا يستحقون أن يشاركوا في سياسة تقرر مصيرهم، أو تسير أمورهم. وفي هذا السياق، علينا أن نذكر "ونستون تشرشل" (١٨٧٤- ١٩٦٥م)؛ الذي كان رئيسًا للوزارة البريطانية، طيلة أيام الحرب الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م)، وحقق على دول المحور أعظم انتصار في تاريخ البريطانيين، بل تاريخ أوربا بأكملها، على مدار التاريخ، ورفض أن يُعلن الأحكام العرفية على شعبه أثناء الحرب، وقال قولته المشهورة: (لا أجمع على شعبنا وطأة الحرب ووطأة الأحكام العرفية). ولم يوثِّنْه شعبُه بعد هذا النصر العظيم، بل أخفق حزبه - حزب المحافظين- في الانتخابات العامة (النزيهة طبعًا) عام ١٩٤٥م، وترك الرجل الوزارة بصورة طبيعية، بعد أن حقق أعظم انتصار، ولم يخرج إنجليزي واحد هاتفًا "بالروح بالدم نفديك يا تشرشل". إن الحاكم العادل يزرع في قلوب المواطنين الاعتزاز به، والحب له، والإقبال عليه، والثقة فيه، وسرعة الاستجابة العملية لتوجيهاته، على حد قول الشاعر المسلم عن قائده خالد بن الوليد (رضي الله عنه): إذا قال سيفُ الله كروا عليهمو كررنا بقلب رابطِ الجأش صارم فيكون تحقق الانتصارات أمرًا طبيعيًا، لا غرابة فيه، وكما يكون الحاكم العادل محبوبًا من رعيته يكون مهيبًا في نظر أعدائه،

ومع حب المواطن لحاكمه العادل يكون صادق الولاء للوطن، يفديه بنفسه، وبكل غالٍ نفيس. وبالعكس، يفقد الحاكم الظالم حب الناس وثقتهم، وإذا أطاعوه ففي الظاهر فقط، خوفًا من بطشه وجبروته، ويفقد المواطن ولاءه لا للحاكم الظالم فحسب، بل يمتد ذلك للوطن، بعد أن أصبح يعيش فيه غريبًا، يعاني الظلم والقهر، والتعذيب، والتضييق، والتشريد. ومثل هذا الحاكم يستهين به أعداء الأمة، ومنه يسخرون، بعد أن نزع الله من قلوب أعدائه المهابة منه، وألقى في قلبه وقلوب أعوانه وبطانته الوهن، وهو حب الدنيا وكراهية الموت.



العدل حصن لا يهون

الظلم ظلمات.. والظلم ضياع.. والظلم هلاك.. وقد حكى القرآن الكريم كيف يقود الظلم إلى السقوط والهلاك، بانتقام الله (سبحانه وتعالى)، ومن قوله: (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) (الكهف: ٥٩).

وفي المقابل يقودنا الاستقراء التاريخي إلى أن الإيمان بـ"العدل" كقيمة إنسانية عظمى.

ينطلق منها بقاء المجتمعات ونهوضها وتقدمها وقوتها وعظمتها وشموخها، وسيادة الأمن والطمأنينة والسلام الاجتماعي فيها.

لذلك كان العدل من أهم أسس النظام الإسلامي، وهو قاعدة تلزم المسلمين جميعًا، كلاًّ في مجاله،وخصوصًا الحكام يقول (تعالى): (إنّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) (النساء: ٥٨).

والعدل في الإسلام ليس عدلا سطحيًّا، أو شكليًّا، ولكنه عدل سليم وعميق، ولا يسمح لصاحبه أن يحيد عنه قيد أنملة، أو يسمح لعاطفته أن تغلب عليه، مدفوعًا بحقد أو نقمة أو هوى، يقول (تعالى): (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى) (المائدة: ٨).

والعدل في الإسلام ذو مفهوم شامل، لا يقف عند حد، ولا يعجز أمام قويّ لقوته، ولا يهوّن من شأن ضعيف لضعفه، بل القويّ في الإسلام - كما قال أبو بكر (رضي الله عنه)- ضعيف إلى أن يؤخذ الحق منه، والضعيف قويّ حتى يؤخذ الحق له. ولذلك، لما اشتد إيذاء المشركين للمسلمين في مكة طلب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ممن يستطيعون منهم أن يهاجروا أن تكون هجرتهم إلى الحبشة "لأن فيها ملكا لا يُظلم عنده أحد"، مع بعد الشّقّة، واختلاف الدين، مما يؤكد أن الإسلام ينظر إلى "العدل" كقيمة عليا، بصرف النظر عن اختلاف الأديان، فالمعروف أن أرض الحبشة ليست أرضًا عربية، وأن أهلها من النصارى، ولا يتكلمون لغة العرب، ومع ذلك كان العدل هو المنشود المرجوّ المطلوب. وبالعدل تشتد قلوب الرعية، وتعيش في طمأنينة وسلام، وتحيا صادقة الإخلاص، كاملة الولاء للعقيدة والأرض والراعي، وتسترخص الفداء والتضحية بالنفس، وبكل غالٍ ونفيس. ومما يرويه التاريخ - بفخر واعتزاز- أن خامس الخلفاء الراشدين، عمر بن عبد العزيز (٦٣ - ١٠١هـ) كتب إليه أحد عماله (ولاته)، يطلب منه أن يُقطعه مالا (أي يحدد له ميزانية) لترميم المدينة التي يتولى أمرها، ويبني حولها سورًا يحصّنها به، فكتب إليه الخليفة عمر بن عبد العزيز ردّا، يقول فيه "...بل حصّنها بالعدل، ورمّمها بتنقية طرقها من الظلم..".

ولم يبالغ عمر (رضي الله عنه)، فالسور الحجري سرعان ما ينهار تحت أقدام الأعداء إذا كانت الأمة مظلومة مرعوشة الكيان، لا تستشعر الولاء للوطن بسبب ظلم حكامها، أما "السور البشري" من مواطنين يعيشون العدل، بكينونة قوية شامخة فهو الأقوى، والأثبت، الذي لا يسقط ولا يهون.



القوة الذاتية في الإسلام

قال أحد العلماء اليابانيين، بعد أن قرأ ترجمة القرآن الكريم، وبعض البحوث عن الإسلام: "إن هذا الدين لو لم يكن من عند الله لوجب أن يكون من عند الله".

والله (سبحانه وتعالى) يقول: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ...) (آل عمران: ١٩).

ويقول تعالى: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (آل عمران: ٨٥).

ويقول تعالى (.... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ......) (المائدة: ٣).

فالإسلام الدين الخالد، وفيه شمولية تتسع لكل ما يُصلح الإنسان في دنياه، وفي أخراه، وهو كدين يملك من القوة الذاتية ما يهز المشاعر، ويعطف القلوب، ويشُد الفكر السويَّ السليم.

وما زلت أتذكر يوم أن تلوت سورة "المؤمنون" بتلاوة خاشعة، أمام جمع كبير من الأمريكان، وذلك في كلية اللاهوت، بجامعة يل، سنة ١٩٨١م، واللهِ لقد رأيت الدموع في عيون كثيرين: منهم نساء، ومنهم رجال، مع أنهم لا يعرفون حرفًا واحدًا من حروف العربية، وبلغ من تأثرهم أن طلب بعضهم مني أن أعيد القراءة مرة أخرى، فصاحوا أعد... أعد... أعد (Please repeat ... repeat)، مع أنهم لا يعرفون أنني أقرأ من القرآن الكريم.

ومما يدل على هذه القوة الذاتية للقرآن والإسلام أنني سنة ١٩٨٦م، رأيت في باكستان تلاميذ - في سن الثانية عشرة- يحفظون القرآن كله، دون أن يفهموا أكثر معانيه، ويعجز الواحد منهم عن حفظ ثلاثة أبيات من الشعر العربي، وهذا دليل آخر على أن القوة الذاتية مظهر من مظاهر الإعجاز، ورأيت طلابي في جامعة إسلام أباد العالمية تبدأ أسماؤهم بكلمة حافظ، فاعتقدت أن ذلك من قبيل حبهم لحافظ شيرازي، ولكني اكتشفت أن هذا لقب لا يُعطَى إلا لمن حفظ القرآن.

ولا أنسى الحوار الذي دار بيني وبين مدرسة في جامعة يل؛ التى كنت أقوم بالتدريس فيها، اسمها "سارة"، ويظهر أنها يهودية، وكانت تحمل طفلها الرضيع.. قبلتُ يده، فتعجبت، وصاحت بكلمة الاستغراب الأمريكية: wow...wow - إنها سنة عمرية... فقد كان عمر بن الخطاب يقبل أيدي الأطفال، ويقول لهم: استغفروا لي ربكم ؛ فإنكم أطهار، لم تدنسكم الذنوب.

- عمر ... عمر ... القاتل.

ـ عمر لم يقتل أحدًا ظلمًا وعدوانًا، بل كان مثال الخليفة العادل الرحيم، حتى إنه في عام الرمادة سنة ١٨ هـ - وهو عام المجاعة الشديدة- كان له خطان أسودان على خديه من كثرة البكاء؛ حزنًا على ما يعانيه المسلمون.

وأخذت أشرح لها سياسة عمر، وعطاء الإسلام في الخلق، والتسامح، والحب، والعدل، والنقاء، وحسن معاملة الآخرين... حتى رأيت الدموع في عينيها، وفي اليوم التالي نادتني، وقالت: أرجو أن تكمل لي حديثك عن الخليفة عمر، وعن الإسلام.

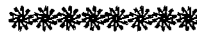
ونحن نعرف كيف أسلم "ليو بولد فايس"، وأصبح اسمه "محمد أسد"، وكتب في الإسلام مؤلفات رائعة، منها: "الطريق إلى مكة".

وبعد أحداث ١١ سبتمبر ظن كثيرون أن الأمريكان سينفرون من الإسلام، ولكن العكس هو الذي حدث؛ فقد أسلم عشرات الألوف منهم؛ لأن هذه الفاجعة دفعتهم إلى دراسة الإسلام، واكتشاف ما فيه من مبادئ وقيم إنسانية راقية.

ونختم مقالنا بإلقاء ضوء خاطف على "د. جاري ميلر": اشترك د. ميلر في مناظرة شهيرة عن الإسلام والمسيحية، مع الداعية الإسلامي أحمد ديدات، ممثلًا للجانب المسيحي، وكان منطقه قويًا، وحجته حاضرة، وغلب بحثه عن الحقيقة على تعصبه لدينه، حتى إن عددًا من الشباب المسلم الذي حضر المناظرة، تمنى لو أسلم هذا الرجل.

وفي عام ١٩٧٨م، أشهر الدكتور ميلر إسلامه، واتخذ اسم عبد الأحد عمر، وتفرغ تمامًا للدعوة للإسلام، وتقديم البرامج التليفزيونية والإذاعية والمحاضرات العامة؛ التي تعرض للإسلام عقيدة وشريعة.

حقًا إنه الدين الخالد؛ الذي جعله الله (سبحانه وتعالى) خاتم الأديان، ومن ابتغى غيره فلن يُقبلَ منه.



بل مسلمون ... وعرب

لا أملُّ من مشاهدة فيلم "الناصر صلاح الدين"؛ لأنه فيلم رائع "مخدوم" إخراجًا وتصويرًا وتمثيلا، وقد تسنّم فيه الممثل المصريّ أحمد مظهر القمة، في تمثيله شخصية صلاح الدين الأيوبيّ، ولكن المنطق الروائيّ في الفيلم ناقَضَ المسيرة التاريخية، والمنطق الواقعيّ، فمن المسلَّم به أن الحرب لم تكن بين "العرب" والصليبيين، ولكنها كانت بين "المسلمين" والصليبيين، أولئك المتعصبين المتوحشين؛ الذين اتخذوا من المسيحية ستارًا، زاعمين أنهم ما جاءوا إلا لحماية قبر المسيح، فتصدى لهم صلاح الدين، وهزمهم هزيمة نكراء.

وكان في جيوشه عدد كبير جدًّا من المسلمين التراكمة، وذوي الجنسيات غير العربية، وصلاح الدين نفسه لم يكن عربيًا، ولكنه كان كرديًّا.

مع هذا التاريخ الثابت، واستجابة "للناصرية"، وتأثرًا بل استجابة لدعوى "القومية العربية"؛ التي تولى كبرها جمال عبد الناصر... رأينا صلاح الدين الأيوبيّ يقول بأعلى صوته "الدين لله والوطن للجميع"، وهي "عبارة علمانية" مستحدثة، لا يعرفها الإسلام، ولا يعترف بها.

رأينا صلاح الدين كذلك في الفيلم لا يتحدث إلا عن صمود العرب، وأرض العرب، وانتصار العرب، ولم تردْ كلمة "المسلمين" مرة واحدة على لسانه، ولا لسان واحد من قواده أو جنوده، بل أُقحم في الفيلم - كضابط من ضباط صلاح الدين- شخصية مسيحية باسم "عيسى العوام" بصورة مفتعلة؛ لإثبات أن الذي انتصر على الصليبية، والصليبيين، هم العرب والعروبة، والقومية العربية، لا الإسلام والمسلمون، ولتحترق.. أوراق التاريخ، وأوراق الوعي.

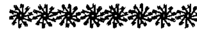
وهناك خطأ فادح، بل خطيئة قاتلة، وهي وصف فريقينا المصريّ لكرة القدم بـ "الفراعنة"، في كل وسائل الإعلام: المنطوقة والمرئية "الفراعنة يستعدون ... الفراعنة يحققون أكبر الانتصارات .. الشعب يكرّم الفراعنة".

لماذا يا سادة ونحن عرب في هويتنا ونسبنا، ولغتنا؟، ماذا لو استبدلنا كلمة "عرب" بكلمة "الفراعنة".. فتأتي العناوين على النسق الآتي: العرب يفوزون بكأس الأمم الإفريقية؟، سيُعترض على ذلك بالسؤال التالي: أيَّ عرب تقصد؟، أي إن الوصف غير مميز، أقول: فليكن الوصف "العرب المصريّون"، وبالنسبة لسوريا، العرب السوريّون، وهكذا.

وهذه الدعوة "الفرعونية" تفتح الباب - على مستوى الوطن العربيّ- إلى دعاوَى مشابهة، تجري في نفس الفلك، وعلى سبيل التمثيل والافتراض لو أن فريقًا لبنانيًّا أو سوريًّا، فاز بكأس بطولة معينة، لكان من

حقه أن يعلن بأن "الفينقيين حققوا الفوز العظيم"، والفينقيّون أصحاب قوة، وتاريخ وحضارة، امتدت إلى أصقاع الأرض؛ لأنها أول أمة بحريّة في التاريخ، ولهم عراقة في التجارة والريادات البحرية.

وكان من حق العراقيين أن يعلنوا - في حالة الفوز- "البابليّون أو الآشوريّون يفوزون بالبطولة"، علمًا بأن آشور هي أول دولة قامت في شمال بلاد ما بين النهرين، وكانت دولة عسكرية، لها إنجازات معمارية مشهورة، وكذلك في الفن والنقوش، أي كانت لهم إمبراطورية مشهورة معروفة، وهكذا تصبح الأوطان العربية - قياسًا على ما فعلنا نحن المصريين- مجموعة من الشعوب المنتسبه إلى عهود ما قبلَ الإسلام... عهود الفينقيّة والبابليّة، والآشوريّة، وعلى الهوية العربية السلام، ألف سلام!.



هادفيَّة العبادات في الإسلام

بنى الله (سبحانه وتعالى)، الإسلام على خمس قواعد: الشهادتين، وهما الركن الأول.

أما الأركان الأربعة الباقية فتمثل ما يُسَمَّى بالعبادات، وهي: إقامة الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمضان، وحجّ البيت لمن استطاع إليه سبيلا.

وهذه العبادات حدّدها النبيّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) كمًّا وكيفًا.

ونلاحظ بالنسبة لهذه التكاليف التعبديّة أمرين:

الأول: أنَّ القرآن لم يُفصّل أغلبها من ناحية الكمّ والتوقيت، وما عُرِفَ بشأن تفصيلاتها إنما عُرِفَ من السنّة بنوعيها: القوليّ والعمليّ.

والثاني: أنَّ القرآن - في حديثه عن هذه العبادات- يحرص أن يربطها دائمًا بأهدافها وقيمها الأخلاقيّة والإنسانيّة العليا.

ولنقف قليلا أمام المنطق القرآنيّ وهو يشدُّنا لجوهر العبادة، والهدف النبيل الذي شُرِعَت من أجله، مكتفين بالحديث عن ركنين، هما: الصلاة والصيام: فالصلاة: - وهي عماد الدين- ذُكِرَت في القرآن عشرات المرات، والعجيب أنّ التعبير عنها كان دائما "بالإقامة" لا "بالأداء".

وقد أبان القرآن الكريم عن جوهر الصلاة، وغايتها، في قوله (تعالى): (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) (العنكبوت: ٤٥).

فرسالة الصلاة هي إحياء النفس، وتربية الضمير، وصقل القلب، وغرس التقوى في أعماق المؤمن.

أما إذا تخلَّت الصلاة، أو شاء صاحبها أن تتخلَّى عن رسالتها فهي الاستغفار الذي يحتاج إلى استغفار.

ومن كرامة الصلاة أن الله (سبحانه وتعالى) قرنها - أكثر من مرّة- بخليقة من أنبل الخلائق الإنسانيّة، وهي الصبر: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) (البقرة: ٤٥).

والمصلّي الذي يحرص على صلاته ويحافظ عليها يغرس الله في نفسه الطمأنينة، فلا يعرف الهلع أو الضعف أو الاستسلام في حالة الضرَّاء، وهو خير معطاء في السرَّاء.

يقول (تعالى): (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۞ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ) (المعارج: ١٩ - ٢٣).

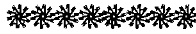
والصوم: لا يُقصد به الإجاعة والإظماء، وإن كان هذا هو المظهر الحسيّ للصوم، ولكن هدفه تحقيق تربية عُلويّة، لها جانبها الاجتماعيّ، وجانبها النفسيّ، وجانبها الإنسانيّ العام، وقد قيل لنبيّ الله يوسف (عليه السلام): مالك تجوع وأنت على خزائن الأرض؟، قال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

ومن جوامع الكلم قوله (صلى الله عليه وسلم): "الصوم جُنة"، أي وقاية للإنسان من النَّهم، والبطنة وأمراض البدن والمعدة، وهو وقاية للإنسان من التطلُّعات الشهوانيّة، ومن السقوط والانحراف والإساءة إلى الآخرين.

فالالتزام الخُلقيّ للصائم يقتضيه ألا يرفث، ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إنِّي صائم (انظر البخاريّ، كتاب الصوم).

والإنسان بالصوم يتخلَّص من عبوديّة العادات، فالصوم يقلب العادات رأسًا على عقِب، ويُعلّم الإنسان نوعًا من المرونة حتى لا يتصرَّف تصرُّف الآلة.

وصفوة القول أنَّ العبادات ليست في كونها حركاتٍ تؤدَّى، وشعائر تؤتَى، إنَّما قيمتها أن تكون منهج حياة، يشمل كل الحياة، قيمتها أن تكون خطّة سلوك، وخطّة عمل، وخطّة فكر، وخطّة شعور.



حطين وفتح القدس .. رسالة للشعوب والحكام

كانت معركة حطين (٥٨٣هـ - ١١٨٧م)، هي المعركة التي أنزلت بالصليبيين هزيمة ساحقة، فقد فتحت أمام المسلمين أبواب فلسطين كلها، وكانت بداية قوية لانهيار حكم الصليبيين في المشرق العربي، وقبلها وحّد صلاح الدين - تحت راية الإسلام- مصر والشام والعراق والجزيرة.

كانت قوات الصليبيين لا تقل عن خمسين ألفًا، وجيش صلاح الدين لا يزيد عن نصف هذا العدد، وتمخضت المعركة عن انتصار ساحق مُبين للمسلمين، وقُتل من الأعداء قرابة ثلاثين ألفًا، وأُسر غيرهم آلاف، منهم ملوك وأمراء، مثل "الملك غيّ"، والأمير "رينو دي شاتيون"، قال ابن الأثير: "وكثر القتل والأسر فيهم، فكان من يرى القتلى منهم لا يظن أنهم أُسِر منهم أحد، ومن يرى الأسرى منهم لا يظن أنه قُتل منهم أحد".

وكان انتصار حطين نقطة انطلاق لجيش صلاح الدين إلى التحرير الشامل، فتم تحرير قلعة طبرية وعكا، ومجد بابا، والناصرة، وقيسارية، وصفا، وإسكندرونة، والبيرة، وجبل الجليل، وتل الصافية، وتل الأحمر، والسلع، ويافا، وصيدا، ونابلس، وقلعة نابلس، وسبطية، وتبنين، وبيروت، والرملة، وعسقلان، وغزة، وبيت لحم، وبيت جبريل، والنطرون والخليل، وغيرها من عشرات المواقع والمدن والقرى.

إنه العدد الأقل الذي (بارك الله حوله)، فغلب - بل سحق- العدد الأكبر: (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ) (البقرة: ٢٤٩).

وكتبت الدكتورة أمل خليفة، في دراستها القيمة: في الثاني من أكتوبر عام ١١٨٧م، دخلت قوات المسلمين الظافرة، يقودها الناصر صلاح الدين، إلى القدس سلمًا، بعد أن حاصروها، ثم صالحوا من فيها على الخروج منها سالمين، نظير فدية زهيدة

ودخل صلاح الدين المسجد، بعد أن توقفت الصلاة فيه لثمانية وثمانين عامًا!!، لم يُرفع الأذان خلالها في المسجد الأقصى، مسرى النبي (صلى الله عليه وسلم)!.

وكانت قبة الصخرة قد رُفع عليها صليب ضخم، فأمر صلاح الدين بالصليب فأُنزل من فوق القبة، وذكر المؤرخون أنه لما هوى الصليب من فوقها كبّر المسلمون، وصرخ من حضر من الصليبيين، حتى ارتجت المدينة.

ثم أمر صلاح الدين بتنظيف المسجد، وكان المسجد في حالة يُرثَى لها من القذارة؛ إذ إن الصليبيين قد جعلوا موضعًا منه لمبيت خيولهم، وهو الجزء الذي يُعرَف باسم المُصلَّى المرواني، وأطلقوا عليه اسم "اسطبلات سليمان"، تهكمًا على نبي الله سليمان.

وشرع المسلمون في تنظيف باحات المسجد، وتطهيرها، ورشوا طرقاته بماء الورد، ثم جاءت اللحظة الحاسمة، عندما جاء موعد الصلاة، واستمع المسلمون لصوت الآذان، يصدح في جنبات المسجد، كأنما هو بلال يؤذن في حضره الخليفة عمر، وبكى الناس، وانتحبوا في الصلاة؛ حيث صلى أنبياء الله خلف النبي (صلى الله عليه وسلم) .

وقبل عشرين عامًا من يوم الفتح كان القائد نور الدين محمود، وهو مُعلّمُ صلاح الدين وقائده، قد أمر ببناء منبر للمسجد الأقصى، يوضع فيه عندما يتحرر على أيدي المسلمين، ثم مات نور الدين قبل أن يرى الفتح بعينه، وبقي المنبر في حلب، ينتظر الفتح ، فأمر صلاح الدين بإحضاره.

وعندما جاء موعد أول جمعة اعتلى الخطيبُ منبر نور الدين – الذي طال انتظاره لهذه اللحظة– فخطب أول جمعة بعد تحرير المسجد، في حضور القائد صلاح الدين، وقد بلغ اهتمام المؤرخين بهذه الخطبة أن دونوها في كتب التاريخ بنصها .

إنها البَرَكة الإلهية الممتدة؛ التي وسم الله بها "حول" المؤمنين، وجهادهم، على مدى العصور، ما ثبتوا على إيمانهم (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (الروم: ٤٧).

فمتى نعيش – حكامًا وشعوبًا– روح صلاح الدين: إيمانًا، وجهادًا، وعدلا، وإصرارًا، ...متى ...؟؟.



عن الإسلام والنصرانيَّة

يحمل الحاقدون من متعصِّبي المستشرقين على الإسلام ونبيِّ الإسلام، ونحن نعرفُ أنَّ بعض البلاد الأوروبيَّة انتشرت فيها الحملات، مشوِّهة صورة النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) والدين الخاتم، وفي السطور القليلة الآتية نرى ما يتمتَّع به الإسلام، من عدل وإنصاف للأنبياء والديانات الأخرى، وخصوصًا المسيحيّة:

الإيمان بالأنبياء والرسل والكتب السابقة أصل من أصول الدين الإسلاميّ، فلا يصحّ إسلام المرء إلا به، وقد تواترت الآيات القرآنيّة التي تقطع بذلك، كقوله (تعالى): (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائكَتِه وَكُتُبِهِ وَرُسُلِه...) (البقرة: ٢٨٥).

وقد عرَّف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الإيمان بقوله: "... أن تؤمنَ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمنَ بالقدر خيرِه وشرِّه.

والمسلمون يؤمنون بأنّ النصرانيّة دين توحيد مطلق، وأنّها تعترف أنّ الله وحده هو الخالق القادر المختصّ بالعبادة، وأنّ المسيح عبد الله ونبيّه ورسوله، وأنّه بشر، وإن ولد بصورة غير الصورة المطّردة المعهودة.

وقد أُرسِل المسيح (عليه السلام) إلى بني إسرائيل بخاصّة، وجاءهم من الدين بما فيه هُدى لهم ورشاد، في شئون معاشهم ومعادهم.

ثمّ جاء الإسلام - الدين الخاتم للناس كافَّة- موفِّقًا بين الماديّ والروحيّ، بين الواقعيّ والمثاليّ، بين مطالب الجسد والروح والعقل، في اعتدال وتوازن.

ومن الحقائق الثابتة التي حفظها التاريخ:

(١): أنّ النصارى في جزيرة العرب لاقَوا على أيدي اليهود أذى كثيرًا، بل نكبات، وأشهرها تلك "المحرقة" التي أقامها الملك اليهوديّ، ذو نواس الحميريّ، لنصارى نجران؛ حتى يتركوا دينهم، ويعتنقوا اليهوديّة.

(٢): أنّ النصارى كانوا حريصين على ألا يكون في الجزيرة مذهب أو ديانة أخرى، فيُروَى أنّ نجاشيّ الحبشة أرسل إلى اليمن جيشًا قضى على الملك الحميريّ "ذو نواس" وجيشه، وضمّ إليه اليمن، وإرضاءً له بنى قائده "أبرهة الأشرم" كنيسة في صنعاء، لم يُبن مثلُها من قبل.

(٣): أنّ القرآن عرض ملامح المسيحيّة في صورتها الصحيحة، وكذلك شخصيّة المسيح من ميلاده إلى رفعه، ولا يكون المسلم مسلمًا إلا إذا آمن بكل أولئك.

(٤): ولأمر ما كان أول من بَشَّر بنُبوّة محمد (صلى الله عليه وسلم) قبل بعثه نصرانيّ مشهور في أوساط مكة، هو ورقة بن نوفل، وهو ابن عمّ خديجة بنت خويلد، زوج النبيّ محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعاش الرجل - وإن لم يُسلم- متعاطفًا مع النبيّ (صلى الله عليه وسلم) ومن أسلم، وخصوصًا العبيد والمستضعفين.

(٥): ولمّا رأى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اشتداد الأذى والبلاء على أصحابه أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، وقال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه. فكانت أوَّل هجرة للمسلمين إلى أرض يحكمها ملك نصرانيّ عادل صادق، وقد أكرمهم الملك: نجاشيّ الحبشة، وأمّنهم، ورفض أن يعيدهم مع رسولَي قريش: عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص.

(٦): وشرع الإسلام في التعامل مع الذمّيّين قواعد ومبادئ، تقوم على الرحمة والعدل والإنسانيّة، من ذلك ما رُوِيَ عن عبد الله بن عمرو، أنّ النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال: "من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا".

وجاء في العهد الذي كتبه (صلى الله عليه وسلم) لعمرو بن حزم الأنصاريّ، وقد بعثه إلى بني الحارث بن كعب "وأنَّه مَن أسلم من يهوديّ أو نصرانيّ، ودان بدين الإسلام، فإنّه من المؤمنين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، ومن كان على نصرانيَّته أو يهوديَّته فإنّه لا يُفتن عنها. وجاء في عهده (صلى الله عليه وسلم) لنصارى نجران "... ولنجران وحاشيتهم جوار الله، وذمّة محمّد، على أموالهم وأنفسهم، وغائبهم وشاهدهم، وعبادتهم، وبيَعهم، وملتهم،....".

(٧): وقد أكَّد أبو بكر الصدِّيق (رضي الله عنه) هذا العهد بعهد مماثل، يكاد يكون - في أسلوبه ومضمونه- كعهد النبيّ (صلى الله عليه وسلم) لأهل نجران، وقد أملاه أبو بكر، وعلى النهج نفسه سار الخلفاء الراشدون (رضي الله عنهم).



عن المثل والحكمة

يقول إبراهيم النظَّام: يجتمع في المثل أربعةُ لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة.

ويقول ابن المقفع: إذا جُعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق، وآنق للسمع، وأوسع لشعب الحديث.

فالمثل قولٌ موجز حكيم، يَرِد في حادثة ما، ويَذيع على الألسنة، فيضرب في حالةٍ تشبه الحالة الأولى؛ التي ورد فيها.

ومن ثم يرتبط المثل - باعتبار استعماله- بحادثتين، الأولى: ذكر فيها المثل لأول مرة، وتُسمَّى (مورد المثل)، والثانية: التي يُستشهد فيها بالمثل، وتُسمَّى (مضرب المثل)، ومن ذلك نستطيع أن ندرك ما يلتقي فيه المثل والحكمة وما فيه يختلفان: فالمثل يشبه الحكمة في الإيجاز، وإصابة الفكرة، ولكنهما يختلفان من وجوه، تتلخّص فيما يأتي:

١. انفراد المثل بالارتباط بمورد ومضرب.

٢. الحكمة ذات مضمون فكري وإنساني وأخلاقي، وذات طبيعة توجهية سلوكية، فهي لا تصدر إلا عن طائفة من ذوي الثقافة العالية، والتجارب الطويلة: فشخصية قائلها لها اعتبار.

أما المثل فالاعتبار الأوليّ (للحادثة) لا لشخصية قائله، ومركزه الاجتماعي، وحظه من الثقافة والتجربة.

وأرقى الحكم وأبلغها ما يُطلَق عليه "جوامع الكلم" من أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، مثل: الصبر ضياء - الصيام جُنة.

مختارات من الأمثلة..

- إن من البيان لسحرًا.
- تزاوروا ولا تجاوروا.
- الثكلى تحب الثكلى.
- جزاء سِنِمّار.
- أجود من حاتم.
- جنة ترعاها خنازير.
- حظ في السحاب، وعقل في التراب.
- أخطب من سحبان وائل.

.الدراهم مراهم.

.الذئب خاليًا أسد.

.الزريبة الخالية خير من ملئها ذئابًا.

.السنَّور - القط - الصيَّاح لا يصطاد شيئًا.

.شر أيام الديك يوم تغسل رجلاه.

.طعن اللسان كوخز السنان.

.ظاهر العتاب خير من باطن الحقد.

.غاب حولين وجاء بخفي حنين.

.قد ضل من كانت العميان تهديه.

.لو كان في البومة خير ما تركها الصياد.

.يبني قصرًا، ويهدم مصرًا.

وإذا كان للأمثال قيمتها الفنية كأقوال موجزة، مركزة، قوية البيان، آسرة التصوير، فإن لها أهميتها الكبرى من جوانب أخرى:

١.فهي تنم عن ذكاء قائلها، ونفاذ بصيرته، ودقة ملاحظته، وبراعته في التصوير والتركيز.

٢.وهي وعاء حفِظ على مدار التاريخ، أسماء مشاهير العرب، وسماتهم النفسية، والعقلية، وقدراتهم المختلفة في مجالات السياسة، والحرب، والبلاغة، ويأتي ذكر هؤلاء: فمنهم الفائقون في الفضائل ومعالي الأمور؛ فيقال: أخطب من سحبان وائل، وأكرم من حاتم الطائي، وهما قمة الفصاحة والكرم في التاريخ العربي، كما يقال: أبخل من مادر، وأفهّ وأعيي من باقل، وهما النموذجان المقابلان...

٣. والأمثال بعد ذلك هي أصدق ما صوّر ملامح الحياة الاجتماعية، والسياسية في الحرب، والسلم، ورافد الصدق هنا أنها تصدر بصورة عفوية، لا تكلُّف فيها ولا تصنُّع، حتى ليمكن للباحث أن يستخلص من هذه الأمثال تضاريس وافية للحياة العربية بكل ملامحها.

إن الأمثال والحكم ثروة تراثية ضخمة، تربط بين الماضي والحاضر، ولا أبالغ إذا قلت: إننا في وقتنا الحاضر، لا نستطيع أن نعثر على مثل إلا وهو يمكن أن يُضرَب على منحى من حياتنا الحاضرة، في السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، والقيادة، والأسرة... إلخ.

لذلك أرجو ألا أكون مسرفًا إذا دعوت إلى تدريس مادة (الحكم والأمثال)، في المرحلة الثانوية من تعليمنا، أو في بداية المرحلة الجامعية.

****



الهجرة إلى الأصعب!!

كانت الهجرة إلى المدينة حدثًا من أعظم أحداث السيرة النبوية، والتاريخ الإسلامي والإنساني، وقد أخذ مكانه وزمانه المناسبين، ليشترك مع غيره من الأحداث والوقائع، في تشكيل نسيج التاريخ الإسلامي، والحضارة الإنسانية.

وبالاستقراء التاريخي نرى أن الهجرة كانت من الصعب إلى الأصعب، ومن الرافض إلى القابل:

ذكر ابن إسحق، أنه في العام الخامس من بعثة النبي (صلى الله عليه وسلم)، لما اشتد الأذى بالمسلمين أمرهم بالهجرة إلى الحبشة "لأن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق ..." (ابن هشام ٣١٥/١).

فهاجر عدد منهم إلى الحبشة على دفعتين، على رأس الأولى عثمان بن عفان، وعلى رأس الثانية جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنهما)، وكان الهدف من هذه الهجرة البحث عن السلامة، والنجاة من الخطر الذي يتهدد حياتهم.

أما هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة، فلم تكن فرارًا من أجل حماية النفس، ولكن هجرته كانت لهدف أساسي هو "نشر الدعوة على أوسع نطاق"، وهو لم يهاجر إلا بعد أن أصبحت تربة مكة قاحلة شمطاء، ترفض البذور، ولا تقبل الماء، وتحاول أن تخنق كل عود أخضر، وتمتص نخاع كل نبات جديد.. نعم لا بد من تربة جديدة، ومعاناة جديدة، وعمل متواصل حتى تؤتي الدعوة ثمارها.

وكانت هجرته (صلى الله عليه وسلم) إلى ما هو أصلح، ولكنها لم تكن إلى ما هو أسهل، وآثر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يتحمل مزيدًا من الأثقال والأعباء، في سبيل الوصول إلى نتيجة مثمرة، للدين الذي حمل أمانته.. ومن يستقرئ تاريخ هذه الفترة يكتشف أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان في مكة يواجه عدوًا واحدًا، يتمثل في قريش، ولكنه في المدينة أصبح يواجه أعداء متعددين، وجبهاتٍ كثيرةً متعددة.

فهناك المنافقون، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول؛ الذي استبد به الحقد والنقمة؛ لأن هذا الوافد الجديد - في نظره- سحب البساط من تحت رجليه، وحرمه من تاج الملك، وكان قاب قوسين منه أو أدنى.

وهناك اليهود: خيبر وبنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، قبائل غنية منيعة، تبحث عن أمجاد مدفونة، وكانت تطمع في أن يمالئها النبي الجديد، وقد ظلوا - قبل بعثه- يهددون به أهل المدينة والعرب، ولكن خاب فألهم.

والفرس والروم تتجه عيونهم نحو المدينة، ترصد خطوات هذا الوافد الجديد؛ الذي غير موازين القوى، وموازين العقيدة في المنطقة.

وقريش ما زالت على عدائها القديم، بل إن حقدها ازداد تضرمًا، وغضبها ازداد تسعرًا؛ فقد عز عليها أن يفلت من قبضتها محمد، ومن معه من المستضعفين.

نعم خرج محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى الأصلح والقابل، ولكنه الأعتى والأصعب.. وهذا هو الفيصل الحاسم بين الهجرة بمفهومها التشريعي الإنساني، والفرار بمفهومه المفزوع المهزوم.

والثابت تاريخيًا أن اليهود في هذه المنطقة ليست لهم أية أصالة جنسية أو مكانية، فهم "يهود تعربوا" وليسوا "عربًا تهودوا" - إن صح هذا التعبير- يقول ر. ف بودلي: "لقد كان اليهود من أزمان سحيقة عرضة دائمًا للطرد من (فلسطين)؛ التي استولوا عليها، وممن طردوهم: سرجون الثاني سنة ٧٢٢ ق. م، وبختنصر سنة ٥٨٦ ق. م، وبومباي سنة ٦٣ ق. م، وطيطس سنة ٧٠ م، وطردهم هارديان طردًا نهائيًا سنة ١٣٥م، وقد تغلغل كثير منهم في جزيرة العرب، فبعد أن نهب طيطس بيت المقدس استولت ثلاث قبائل قوية على المدينة، أو (يثرب) - كما كانت تسمى-، وهذه القبائل هي: بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير، وحولوها إلى معقل زراعي".

ولما وصل النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، وقد اطمأن إلى وحدة المسلمين بهذه المؤاخاة، وهي ولا ريب كلمة سياسية، تدل على سلامة تقدير، وبعد نظر بصير، ندرك مقدارهما حينما نقف على ما كان من محاولة الوقيعة بين الأوس والخزرج من المسلمين، وبين المهاجرين والأنصار؛ لإفساد أمرهم.



كلمات لله!!

إننا نعيش في عصر الغربة والكربة، والذلة والوهن - وهو حب الدنيا وكراهية الموت-.. هذا العصر الذي أصبح العلم فيه- عند كثيرين- سبيلا للمزاحمة على المراكز والمناصب الدنيوية العليا..

في مثل عصرنا هذا يقول الإمام أحمد: "الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يُحتاج إليه فى اليوم مرة أو مرتين، والعلمُ يُحتاج إليه بعدد الأنفاس".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى": "قوله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لا يَخْشَاهُ إلا عَالِمٌ؛ فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ كُلَّ مَنْ خَشِيَ اللَّهَ فَهُوَ عَالِمٌ، كَمَا قَالَ فِي الآيَةِ الأُخْرَى: (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) (الزمر: ٩).

عن أبي الدرداء (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: "من سلك طريقا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع.

وإن العالم ليستغفرُ له مَنْ فى السموات، ومن فى الأرض، حتى الحيتانُ فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

وإن العلماء ورثة الأنبياء.

وإن الأنبياء لم يُوَرِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما وَرَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر.

وفي عهد الخديوي إسماعيل (١٨٣٠ – ١٨٩٥م) توالت الهزائم على الجيش المصري في جبهة الحبشة، فسأل «شريف باشا» عما يفعله إذا نزلت به نازلة.. فأجاب: ألجأ إلى صحيح البخاري، يقرأه لي علماء أطهار، فيفرج الله عني.

فكلف الخديوي شيخ الأزهر (الشيخ العروسي) بهذه المهمة، فجمع له عددًا من صلحاء العلماء، يتلون البخاري، أمام القبة القديمة في الأزهر، ومع ذلك ظلت الهزائم تتوالى. فانطلق الخديوي - ومعه شريف باشا، وصرخ في العلماء غاضبًا: «إما أن الذي تقرأون ليس صحيح البخاري، وإما أنكم لستم بالعلماء الصالحين الذين تُدفع بهم المحن»، فوجم العلماء جميعًا، ولكن شيخًا من آخر الصف نهض، وقال «بل أنت السبب يا إسماعيل، فإنا روينا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: «لتأمُرنّ بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم، فيدعو خياركم، فلا يستجاب لهم». وفي صمت ووجوم انصرف الخديوي وشريف باشا.

واستدعى الخديوي هذا الشيخ إلى قصره، وأجلسه أمامه، وطلب من الشيخ أن يعيد ما قال، فأعاد الشيخ ما قاله، وشرح الحديث النبوي، ودار بينه وبين الخديوي الحوار التالي:

- وماذا فعلنا حتى ينزل بنا هذا البلاء؟.

- يا أفندينا.. المحاكم المختلطة تبيح الربا بقانون، والزنا مباح برخصة، والخمر كذلك مباح.. و.... و... فكيف تنتظر النصر من السماء؟.

- وماذا نصنع، وقد عاشرنا الأجانب، وهذه هي مدنيتهم؟.

- إذن فما ذنب البخاري؟، وما حيلة العلماء؟.

ففكر الخديوي مليًا، وأطرق طويلا، وهو يردد: صدقتَ، صدقتَ.

دفعتني هذه الصورة الشريفة النبيلة، لعالم مصري من المجاهيل، في مواجهة الخديوي إسماعيل، إلى تذكر موقف الإمام النووي؛ الذي وقف في وجه الظاهر بيبرس؛ الذي حكم من سنة ٦٥٨ - ٦٧٦هـ (١٢٦٠ - ١٢٧٧م)، وقد طلب منه التوقيع على فتوى بقية الفقهاء، بجواز أخذ السلطان مالا (ضريبة) من الرعية، تعينه على قتال التتار، وهو سائر إلى قتالهم في الشام.

رفض الشيخ في قوة، وقال للسلطان الخارج بجيشه للجهاد في سبيل اللّٰه: «أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير «بندقدار» وليس لك مال، ثم منّ اللّٰه عليك، وجعلك ملكًا، وعندك ألف مملوك، كل منهم له حياصة (حزام الدابة) من الذهب، وعندك مائتا جارية لكل جارية حُقّ (عُلبة) من الحلي، فإذا أنفقت هذا كله.. أُفتيك بأخذ المال من الرعية»

إنها كلمات جاد بها علماء وأئمة أجلاء، لا تأخذهم في اللّٰه لومة لائم ... نعم، إنها كلمات للّٰه.



تعلموا الفضيلة من الصين!!

لا يستطيع أحد أن ينكر الأثر البالغ لوسائل الإعلام، فهناك ما يشبه الإجماع على قوة تأثيرها في الأفراد والجماعات، وثمة ما يشبه الإجماع أيضًا على أنها لا تستخدم استخدامًا مفيدًا أو منتجًا في الوطن العربي، وأنها إلى المتعة أقرب منها إلى الفائدة، وإلى إضاعة الوقت أقرب منها إلى الانتفاع به.

وإنما أثار ما ذكرت آنفًا ما أراه الآن، وما يراه المصريون، من حملة ضارية على المنقبات، وحرمانهن من الامتحان الجامعي، بإصرار سمج خسيس، ولما صدر حكم قضائي بالسماح لهن بأداء الامتحان رفضت إدارة الجامعات تنفيذ هذا الحكم، في الوقت الذي يُسمَح فيه للطالبات الكاسيات العاريات بمزاولة حياتهن الجامعية، والتمتع بمساكن الطالبات، وأداء الامتحانات في طمأنينة، وبالزي الذي يخترنه.

ويؤسفني أن أقول: إن الإعلام المصري يؤدي مهمة "صوت سيدِه"، فهو الصدى الرنان المستسلم للنظام القائم، وتوجهاته السياسية، أي إنه يفتقر افتقارًا تامًّا للحياد والعدل، والمخجل بحق هو الجَوْرُ والعُدوان على القيم الدينية، فيما يظهر في التلفاز؛ فإذا ما اعترض معترض اتهموه بالرجعية والظلامية، حتى الإعلانات التجارية لا تراعي التراث الخلقي والفكري لأمتنا المسلمة.

وأصبحت مصرُ مثابةَ المغنيات والفنانات والراقصات؛ اللائي لا يجدن المرتع المستطاب في بلادهن العربية، فيحضرن إلى مصر؛ ليجدن من يُرحب بهن، ويكون لهن سوقًا رائجة، الخافي منها بشع... أُنَزِّهُ لساني عن ذكره.

وأجدني مدفوعًا لترديد هذا الخبر القادم من الصين؛ والذي نشرته وكالة "رويترز" من بكين، وخلاصته أن الصين - ومعروف أنها غير ذات دين رسمي- حكمت في ٢٠٠٣/١٢/١٧م، بالسجن على ١٤ شخصًا - من بينهم اثنان حصلا على حكم بالسجن مدى الحياة- لتنظيمهم ومشاركتهم في حفلات ماجنة، حضرها مئات من السياح اليابانيين. وقالت وكالة الصين الجديدة (شينجوا): إن محكمة في مدينة "تشوهاي" الساحلية أصدرت أحكام السجن؛ التي تراوحت بين عامين وخمسة عشر عامًا - بالإضافة إلى حكمي السجن مدى الحياة على المتهمين- لإدانتهم بالدعارة، أو بالمساهمة في أنشطة الدعارة.

وكان حكم السجن مدى الحياة من نصيب موظفين في أحد الفنادق، وكان كل المتهمين من الصين، كما طلبت الشرطة الصينية من الشرطة الدولية (الإنتربول)؛ التي تتخذ من فرنسا مقرًّا لها "ضبط وإحضار" ثلاثة مواطنين يابانيين، متورطين في القضية، وقد ثار الرأي العام الصيني لتنظيم حفلات جنسية ماجنة، في الذكرى ٧٢ لبدء الاحتلال الياباني لشمال شرق الصين، وهذه الحفلات استمرت

يومين، بإقليم "مجواندونج"، وشارك فيها نحو ٤٠٠ من السياح اليابانيين، وخمسمائة من بائعات الهوى و"القوادين" في الصين.

كما تسببت القضية في معاقبة ١٥ مسئولا في شرطة المدينة، ومكتب "مكافحة التقصير" في القطاع السياحي، علمًا بأن الدعارة محظورة في الصين بنص القانون، وقد نشرت صحيفة القدس العربي - التي تصدر في لندن- الخبر بتفصيلاته، في عدد ١٨/١٢/٢٠٠٣م.

كما أغلقت السلطات الصينية ٤٤ ألف موقع إباحي على الإنترنت، وأوقفت ٨٦٨ شخصًا، في إطار حملة على الاباحية، وأشارت الإحصاءات السنوية للمركز إلى أن عدد مستخدمى الإنترنت فى الصين بلغ ٢١٠ ملايين، فى نهاية ٢٠٠٧م، أي أقل بخمسة ملايين فقط من نظرائهم فى الولايات المتحدة.

وأتلقى رسالة من السيد (س.م.ح) من العياط بصعيد مصر، وفيها يقول: "…. هل تعلم يا سيدي أن حكومة الهند تحرم "القُبلة"- بضم القاف- بكل أشكالها، في الأفلام والمسرحيات والتليفزيون، بالنسبة لكل الشخصيات التمثيلية، ولكن الممثلين المسلمين يستحلون ما يحرّمه الهنود - غير المسلمين - على أنفسهم.

ونوجه هذا الكلام ابتداءً للوزير المسلم أنس الفقي، ولرجاله القائمين على أمر التلفاز والقنوات الفضائية، ونقول لهم: "اتقوا الله في أخلاق الشعب، وفي قيم الشعب، وندعوكم إلى قراءة ما عرضناه عن الصين، والمفروض أننا فى دولة مسلمة، نأخذ أنفسنا بما يفرضه علينا إسلامنا، وإلا عشنا عالة على ديننا الحنيف، وتكون حياتنا كلها عبثًا".

ندعو الله أن ينير أبصاركم وبصائركم، ونتساءل: هل نأخذ الفضيلة والقيم الأخلاقية من ديننا؟، أم من دولة بلا دين، هي الصين؟.



فمن أنباك أن أباك ذيبُ؟؟

إن تراثنا التاريخي والأدبي غني بكثير من الأفكار والصور والحِكم والأمثال، وكثير منها مجهول القائل، وكثير منها يحمل دلالات ذات قيم اجتماعية، ونفسية، وخلقية. ينقل لنا التاريخ أن أعرابية فقيرة لم تكن تملك من حطام الدنيا إلا شاة، وذات يوم كانت ترعى بشاتها فعثرت على ذئب وليد، اندلع لسانه خارج فمه من شدة الجوع، فقالت: "والله لا ينقذ مثل هذا من الموت جوعًا إلا مثلي ... أنال به ثوابًا، وأونس به وحدة شاتي"، وحملت الذئب، ليرضع من لبن نعجتها الوحيدة، والأعرابية سعيدة به فقد رأت نعجتها تحنو عليه حنو الأم على الرضيع، ورأت أمارات الحب في عيني الذئب لنعجتها، كأنها أمه حقيقة. نما الذئب وترعرع، ولم يكن في طيبته وهدوئه يفترق عن الحِمْلان في شيء.

وذات يوم عادت إلى خيمتها التى تركت فيها نعجتها ومعها الذئب، فكادت تصعق حينما رأت الذئب، وقد بقر بطن الشاة، وأخذ يأكل من لحمها، ويلعق من دمها، ولم يرْعَ فضل الشاة عليه... فهي سر حياته ووجوده، فصرخت الأعرابية - في حزن أليم- بالأبيات التالية:

بقرتَ شويهتي وفجعتَ قلبي وأنت لشاتنا الولدُ الربيبُ

غُذيتَ بدرِّها ورضعت منها فمن أدراك أن أباك ذيبُ؟!!

إذا كان الطباعُ طباعَ سوءٍ فلا لبنٌ يفيدُ ولا حليـب

(وبعضهم ينسب الحكاية لأعرابي لا أعرابية).

والمضمون الفكري لهذه الأبيات التلقائية العفوية:

لقد بقرتَ بطن شاتي، وملأتَ قلبي حزنًا ضاريًا مع أنك تربيت على لبنها، واعتقدتُ أن طباعك صارت كطباع شاتي، فيا عجبًا من أدراك أنك من نسل الذئاب؟!

حقًّا إن الطبع يغلب التطبع، وفي هذه الحال لا يفيد لبن ولا حليب؛ لأنك ورثت طباع الذئاب، وهي طباع غدر وخيانة.

وهذه الحكاية العفوية يجب أن نفيد منها في كل مجالاتنا الحيوية: في السياسة، والحياة الاجتماعية، وعلاقاتنا مع الآخرين على المستوى الخاص والمستوى العام.

ودرس الدروس هو أن نبحث عن الطبيعة الأصيلة في الآخرين، قبل أن نبحث عن المظاهر الطارئة.

وبناءً على ذلك يجب أن يأخذ الإنسان نفسه بما يأتي:

١- الحذر والاحتراس دائمًا؛ حتى لا يُفاجَأ بغدر صادر ممن يأمن الإنسان جانبه، وهو مفهوم قرآني أصيل، نجده في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا) (النساء: ٧١).

٢- يجب ألا نخلط بين الحذر من ناحية وسوء الظن من ناحية أخرى، فالحذر يجعل الإنسان حريصًا على أن يكون مستعدًّا دائمًا، وهذا يعني الحرص على تحقيق السلامة، والشعور بالأمان، أما سوء الظن، فيعني كراهية الآخرين، والنقمة عليهم، فهو رذيلة نهى الله (سبحانه وتعالى) عنها.

٣- الحكم على "الموجود" بتعمق الأصول التى ينبع منها، ويعتمد على، لا على الظاهر ولو كان مشهورًا، وهي قاعدة يجب أن يأخذ الإنسان نفسه بها في المجالات العلمية، والسياسية والاقتصادية ... إلخ؛ لأن الظاهر المرئي قد يختلف عن الواقع الخفي، فالسراب قد يخدع الإنسان بأنه يرى أمامه ماءً لا سرابًا، وكالحكم على الأرض بالثبات وعدم دورانها اعتمادًا على الظاهر المباشر المرئي.

ومن هذا القبيل الحكم على رؤساء دولة الصهاينة بأنهم يحرصون على تحقيق السلام بين الفلسطينين والإسرائيلين، وهو حكم غاشم كذوب، تنقضه كل التجارب السابقة مع ساسة إسرائيل:

- فقد قامت دولتهم سنة ١٩٤٨م، على الاغتصاب والمذابح، وتشريد أبناء فلسطين الأصليين... أصحاب الأرض والتاريخ.

- وقاموا بعدد من المذابح ضد المدنيين الأبرياء، منها: مذبحة دير ياسين، ومذبحة قرية "الشيخ"، ومذبحة "اللد"، ومذبحة "قلقيلية"، ومذبحة "كفر قاسم".

-وقاموا بالعدوان الغاشم على مصر سنة ١٩٥٦م، وسنة ١٩٦٧م.

- وآخر مذابحهم كانت في غزة، التى ذهب ضحيَّتَها أعداد ضخمة من النساء والأطفال.

- وما زال رجال الموساد يقومون باغتيال بعض قادة المقاومة الفلسطينية.

- واغتصبوا مساحات كبيرة من الأراضي في حرم القدس الشريف، وحفروا تحت المسجد عشرات من الأنفاق.

والخلاصة أنهم لا يقيمون وزنًا للعدل أوالسلام، ووراءهم الولايات المتحدة والصهيونية العالمية، والقوى الإلحادية؛ لأن طبيعتهم هي طبيعة الذئاب!



من قواعد تربية الأبناء

صديقي وأخي في الله الأستاذ عمر تأخذه الحَيْرَة في تربية ابنه، البالغ من العمر خمسة عشر عاما - الأبُ نموذجي في تربيته، وفي أخذ أسرته بالقيم الإسلامية والإنسانية بصورة نموذجية، ولكن ولده مصاب "بعقدة المخالفة"، أي عدم طاعة الوالد والوالدة، فهو ممن نَصِفُه في العامية المصرية بأن "دماغه ناشف"، مما يَضطر والده إلى استخدام الشدة معه أحيانًا، زيادة على موجة الحزن التى تغمر نفسه دائمًا أبدًا.

كانت هذه شكوى الوالد الصديق إليّ، فاكتشفت أنه يتحمل كثيرًا من المسئولية، عن عناد ولده هذا، وذلك بسبب نهجه الغالط في تربية أسرته؛ إذ إنه يُسوِّي بين جميع الأبناء في المعاملة، بصرف النظر عن فروق السن بينهم، ويرى أن ابنه هذا من الحتم اللازم عليه أن يتأثر بهذا المنهج الواحد.

نعم، لقد اكتشفت خطأ الأب، أو على الأقل تحمله القدر الكبير من الخطأ، وأنا من تجربتي - أبًا ومعلمًا- أوجه الأبَ الأخَ الصديق إلى القواعد التربوية العملية الآتية:

١-النظر إلى ابنه هذا على أنه يعيش أخطر فترات العمر، وهي فترة المراهقة، ومعروف أن الشاب في هذه المرحلة تكون له تطلعات عاطفية، قد تبلغ درجة الحدة، وقد تنحرف بصاحبها انحرافًا شاذًّا.

٢-تقديم وجبات جاهزة نافعة لابنه المراهق، من التراث الإسلامي والعربي، وهو تراث غني بنماذج شامخة من الشباب في مثل سنه، أو قريب من سنه: كولديْ الصحابية الجليلة عفراء، اللذين أجهزا على أبي جهل في غزوة بدر. وأسامة بن زيد، الذي قاد الجيش المسلم وعمره تسعة عشر عامًا. وزياد بن أبيه، الذي خطب أمام عمر (رضي الله عنه) وسنه إحدى عشرة سنة، فأُعجب به عمر، وقال: أولى بهذا الفتى أن يقود العرب (أو يسوق العرب بعصاه) لو كان من قريش.

٣-تخصيص جزء من وقته المشغول دائمًا لمعايشة ابنه في مشكلاته، وإذا لم يفعل أعتبرْ هذا من الأبَ لونًا مرفوضًا من الأثرة؛ التي يجب أن يستبدل بها الإيثار، وما أصدق المثل الشعبي "إن كبر ابنك خاويه"؛ فإن ذلك يمنحه الثقة بنفسه، ويشعر أنه قريب من قلب أبيه وفكره.

٤-وعلى الأب قبل كل ذلك أن يأخذ نفسه بسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، القائل: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا"، والقائل: "... من لا يرحم لا يُرحم".

٥-وعليه أن ينظر إلى طبيعة العصر الذي يعيشه الولد، وهو عصر غاصٌّ بالمغرِيات؛ التي غالبًا ما تنحرف بالشاب: كالسقوط الذي هوت إليه البرامج التلفازية، والمحطات الفضائية، ومواقع النت، وضعف التعليم، وعدم الاهتمام بمادة التربية الدينية.

وليذكر حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم): "سيأتي زمان على أمتي القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر، أجر الواحد منهم بسبعين منكم، قال الصحابة: منا أم منهم يا رسول الله؟، قال: بل منكم؛ لأنكم تجدون من يعينكم على الحق ولا يجدون"، وقال أيضا: "وددت لو أرى أحبابي: قالوا: أو لسنا أحبابك يا رسول الله؟! قال: بل أنتم أصحابي، ولكن أحبابي قومٌ يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني، والذي نفسي بيده لأجر الواحد منهم بسبعين منكم!! قالوا: بل بسبعين منهم يا رسول الله.. قال بل بسبعين منكم؛ لأنكم تجدون على الخير أعوانًا، وهم لا يجدون".

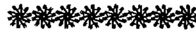
إنها كلمات قلائل، أهديها لأخي وصديقي الحبيب... كلمات نبعت من قلب أبٍ يعيش في الهزيع الأخير من العمر، إلى أبٍ صديق يحرص على أن يكون لابنه مكان ومكانة في البيت والمدرسة والمجتمع العامّ، وأنا أعلم أن الأبَ صديق... إنسان... يحب كل أفراد أسرته، ولكنه كثيرًا ما يخطئ في منهج تربية أفراد الأسرة، على نحو قد يكون وخيم العاقبة، ولنتذكر قول الشاعر:

إنما أبناؤنا بيننا

أكبادنا تمشي على الأرض

لو هبت الريح على بعضهم

لامتنعت عيني عن الغمض



الإسلام وتكريم بني آدم

إن الإنسان المكبل بالشعور بالخوف، المهدد في دينه وعرضه ورزقه، لا ينتج، وإذا أنتج فلن يأتي إنتاجه على مستوى طيب، وهنا تظهر اللا مبالاة والسلبية والشعور بالإحباط، وينطلق هذا الشعور من هيمنة الظلم، وإحساس المواطن بفقدان العدل والقدوة الحسنة. فالحكام الطواغيت مشغولون عنه بذواتهم، والتمسك بكراسيهم، والتمكين لأنفسهم ولحوارييهم وأسرهم وأبنائهم. وأذكر في هذا السياق ما قرأته في أحد الكتب عن "ماوتسي تونج"، من أنه بعد وفاته قررت الحكومة الصينية إعلان الحداد، بتوقف العمل في كل أنحاء الصين، لمدة أربع دقائق، نعم أربع دقائق فقط، بعدها جاء في النشرات الرسمية أن هذه الدقائق الأربع تحقق خسارة قدرها ١٢٠ مليون دولار للاقتصاد الصيني!!. وتبقى الحقيقة الخالدة، وهي: أن الله خلق الإنسان، وكرمه، وسخر له ما في الأرض جميعًا، وجعل حياته متوقفة على تحقيق أمرين اثنين، وهما:- الأول: إشباع الحاجات المادية، من طعام وشراب وملبس ومسكن. والثاني: إشباع الحاجات النفسية، كالشعور بالطمأنينة والأمان والاستقرار والسلام. وهذا هو الذي عبرت عنه سورة من أقصر السور المكية، وهى سورة قريش؛ التي قال فيها الحق تبارك وتعالى: (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۞ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۞ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ" (قريش: ١ - ٤).

والنظر المتأني في هذه السورة الكريمة، يقودنا إلى تبين عدة حقائق على درجة من الأهمية وهي:

١-أن المذكورات في السورة جاءت على سبيل التمثيل لا الحصر، فذكر الطعام جاء تمثيلا للحاجات المادية، وذكر الأمان والشعور بالطمأنينة جاء تمثيلا للحاجات النفسية؛ لأن هناك آيات أخرى ذكرت نعمًا متعددة كالماء، والزراعة، والبحر وسيلة للتنقل، ومصدرًا للطعام والحلي.

٢-أن الآيات ربطت بين تحقيق هذه الحاجات وبين العمل والسعي والتنقل، وذلك على سبيل الإشارة إلى رحلة الشتاء والصيف.

٣-أن الآيات ربطت هاتين النعمتين؛ المادية والنفسية، بقيمة عليا، ألا وهي العبادة، عبادة الله دون سواه، ويستأنس لهذه القيمة بأن الله (سبحانه وتعالى) قد جعل البيت مثابة للناس وأمنًا. ومن ثمَّ يكون العدوان على الإنسان، بحرمانه من حقوقه الطبيعية في الحياة؛ المادي منها والنفسي، عدوانًا على الدين والوطن، وحكمًا على الشعب بالتخلف والتوقف، بل عدوانًا على السنن الكونية، وطبيعة الأشياء. إنها دعوة للحكام الطواغيت أن يتخلوا عن ظلمهم، ويشعروا المواطن بأنه يتمتع بآدميته، وحق المواطنة في ظلال الشورى والعدل، والقيم الإسلامية والإنسانية العليا.

د. خالص جلبي

كاتب سوري متخصص في النظرية السلمية.



حفريات الحضارات

كان الاختراق العثماني في حصار فيينا الثاني شبيه بالاختراق الذي قام به العرب قديما مع تجاوز جبال البيرنيه، بعد السيطرة على شبه الجزيرة الايبرية، عندما تحطم الامتداد العربي بدوره في المدى الأقصى الذي حاول تجاوزه، ولكن الفرق من جانب آخر كان كبيراً للغاية.

وهو المسار الذي نريد دفع الأفكار باتجاهه مع هذه المقالة، فالعثمانيون كانوا يصـــارعون أوضاعا مختلفة للغاية، في القرن السادس عشر والسابع عشر عن الأوضاع التي كان العرب يتفوقون فيها في القرن الثامن والتاسع الهجريين.

بدأ حصار فيينا في الرابع عشر من تموز يوليو من عام ١٦٨٣ م، وكان القيصر ليوبولد الأول النمساوي قد فر أمام الحملة العثمانية الرهيبة التي ضمت قرابة ربع مليون جندي مزودين بأفضل أسلحة ذلك العصر من المدافع والبنادق ذات الحشوة الواحدة، على ما جاء في الوثائق السلطانية من أيام السلطان محمد الرابع، حيث نقرأ صوراً من مجريات المعركة، في هدم أطراف من سور البلدة، أو ضرب مجموعة من الأعداء (مما عجل بروح ٤٠ - ٥٠ من هؤلاء الأوغاد إلى جهنم !!). فشلت الحملة واندحر الجيش العرمرم، وأعدم الوزير الأعظم في بلغراد عاصمة الصرب الحالية في ٢٥ ديسمبر من نفس العام ١٦٨٣ م، في أعياد الميلاد المسيحية، وكان البابا إينوسنس الحادي عشر (INNOZENS XI) خلف التحالف المقدس الجديد، حيث اتحدت القوة النمساوية مع قوة من سكسونيا، وقوة من بافاريا (سكسونيا وبافاريا مقاطعتان في جمهورية ألمانيا الاتحادية الحالية) بالإضافة إلى الجيش البولوني الذي ذكرناه سابقاً تحت إمرة الملك البولوني يوحنا الثالث سوبيسكي، بل وأكثر من هذا حيث ختم السلطان العثماني محمد خان الرابع فترة حكمه الأخيرة التي دامت أكثر من أربعين عاماً بهزيمة أشد هولاً في السهل المجري في معركة (موها كز في ١٢ آب - أغسطس عام ١٦٨٧ م) ذلك السهل الذي كان الجنود الانكشارية قد خلدوا فيه نصرهم الكبير قبل ١٦٠ عاما. ولكن ليست الذكريات ولا الأرض تمنح نصراً أو هزيمة ، وإنما تغيير ما بالنفوس!! (سنة الله التي قد خلت في عباده). حيث تم عزل الخليفة بعد ذلك ليموت في عام ١٦٨٧م عن عمر يبلغ ٥٣ عاماً قهراً وغماً ، وليعين من بعده أخوه السلطان (سليمان خان الثاني) .

صعود أوربا الفكري

كانت هزيمة القوة العظمى العثمانية ذات نكبة مزدوجة فهي عجلت بالدولة العثمانية باتجاه التآكل والتحلل والتفسخ إلى جثة الميت آخر الأمر ليعلن أتاتورك الموت في نعوة عامة تاريخية.

كما أعلنها جورباتشوف عن إمبراطورية كارل ماركس وستالين ولينين. وفي نفس العام الذي مات فيه

السلطان محمد خان الرابع عام ١٦٨٧م كان (اسحق نيوتن) يكتب فيه كتابه الرائع (الأسس الرياضية للفلسفة الطبيعية) هل هذا له أدنى دلالة في إلقاء ضوء على الأحداث التاريخية وتفسير ما حدث؟

لم يكن كتاب (الأسس الرياضية للفلسفة الطبيعية) سوى القفزة النوعية في تاريخ العقل الإنساني عندما يبدأ الدخول في مرحلة انعطافية جديدة في تفسير العالم الذي يحيط به، فالكتاب كان إذاً المدخل الجديد لفهم عالم جديد. وبالطبع لم يتفطن المسلمون الأتراك ـ فضلاً عن المسلمين التابعين لهم ذلك أن الأتراك العثمانيين كانوا يمثلون الطليعة والقيادة والخلافة للأمة الإسلامية آنذاك، لهذا التحول النوعي الذي يجري في العالم، من هنا كان قولنا أن التفوق العربي في شبه الجزيرة الايبرية كان تفوقاً حضارياً، وكان اقتحام العثمانيين عسكرياً بالدرجة الأولى.

ما الذي كان يحدث آنذاك في أوربا؟

كان اسحق نيوتن يضع الموشور الزجاجي أمام الضوء ليرى تحلل أطياف الألوان السبعة للضوء الأبيض، كان يقوم بتطوير علم (التكامل والتفاضل)، توصل إلى قانون (الجاذبية) بين عامي ١٦٦٤ و١٦٦٦ م، كان يضع كتابه عن علم (البصريات) ويفسر الضوء على أنه جسيمات، وفي عام ١٦٨٧م التي ذكرناها كان يقوم بتطبيق قانون الجاذبية على حركة الأجرام السماوية وسقوط الأجسام على الأرض ثم ليطور علم الديناميكا (بما في ذلك القوانين الثلاثة في الديناميكا المعروفة التي تبدأ بقانون قصور المادة وتنتهي بقانون كل فعل له رد فعل يساويه في القوة ويعاكسه في الاتجاه) ثم ليطور بعدها قوانين ميكانيكا السوائل.

الذهول الخفي عن تبدل أحوال الأمم

هذا هو الفرق بين الحقل الذي كان تعيشه أوربا في ذلك الوقت، والمناخ الذي كان يعيشه العالم الإسلامي آنذاك، كان هناك شيء جديد يتفتح في أوربا ونور عقلي يتألق، بينما كان الظلام بدأ في الإطباق على العالم الإسلامي على النحو المأساوي الذي انتبه إليه ابن خلدون في المقدمة حينما كتب يقول أولاً في الصفحة (٢٨) عن التحولات الرهيبة التي تحدث ولا يتفطن لها إلا الآحاد من الخليقة : (ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام وهو داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة، وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده.



أثر النساء في صناعة التاريخ

بعد معركة (أنقرة) عام ١٤٠٢م، كاد أن يُبت في مصير الدولة العثمانية، وتُمحَى إلى الأبد، من خارطة التاريخ.

في تلك المعركة الطاحنة، في سخرية عجيبة للتاريخ، اصطدمت قوتان إسلاميتان؛ لتنجو الدول النصرانية، في هدية تاريخية غير مدفوعة الثمن؛ لإنقاد الجنين الأوروبي؛ الذي كان يتشكل في عالم الغيب، في تلك الأيام.

وسبحان مقدر الأمور، ومقلب الليل والنهار.

في سهل أنقرة سالت الدماء مدرارًا، وانتهت حياة عشرات الآلاف من الشباب مثل الحشرات، ودارت الدائرة على بايزيد، وسقط في الأسر هو وزوجته، فأقسم ملوك بني عثمان بعدها أن لا يُسموا زوجة لهم، حتى كان وقت السلطان سليمان القانوني؛ الذي اتخذ أول زوجة من الأسيرات الروسيات؛ التي حملت اسم (الخوريم) أي الضاحكة.

وكانت أكثر من ذلك؛ فقد سلبت قلب السلطان الجبار، ولم يجد الراحة إلا بين أحضانها، وعُرفت في التاريخ باسم (روكسيلانا)، وأنجبت نصف درزن من الخلفاء!.

كانت تتقن الرقص، والتزين، ولبس الثياب والتعطر، وضرب العود وحسن الكلام، والأهم إجادة حبك الدسائس!.

وعلى يدها سالت دماء كثيرين من الأبرياء، ومن دماغها تفتقت شرور عجيبة من المكائد، وأمام عينيها حيكت الدسائس المروعة، ومن نسلها خرج ملوك كثيرون، وعلى يدها دُشنت بداية النهاية والانحدار لدولة بني عثمان..

هكذا يقول المؤرخون.

مات بايزيد في الأسر قهرًا، وانتصر تيمور الأعرج علوًّا، ودمر دولة بني عثمان الناشئة، وأصبحوا شذر مذر، كما يقول المثل.

كان لبايزيد خمسة أولاد تنازعوا وتنافسوا، ولم تقم قائمة الدولة إلا على يد السلطان محمود جلبي، وقامت الدولة العثمانية بعد تلك الكسرة، وهي أشد قوة ومراسًا، ومشت إلى منصة التاريخ بوثوق وقوة واقتدار، وعاشت خمسة قرون، وكان يمكن أن تنتهي في خمسين سنة..

وتلك الأيام نداولها بين الناس.

وفي شهر سبتمبر من عام ١٥٢٠م، جاء السلطان (سليمان) إلى الحكم، وسماه الأوروبيون العظيم،

وبقي اسمه في الثقافة العربية باسم القانوني، وكُتبت عنه قصص وروايات، منها ما نشرته مجلة ريدرز دايجست، بقلم (ميرل سيفري)، ومنها رواية جميلة قرأتها أنا شخصيًّا، في أحد أسفاري على عادتي، وهي مروية عن سليمان القانوني، بقلم (هارولد لامب)؛ فكانت بعمومها ممتعة مسلية، وفيها شيء من الحزن للنهايات الأليمة، لأقرب الناس من السلطان سليمان القانوني، فـ (الخوريم) استطاعت - بدهاء- أن تصفي الناس الأحباء والقريبين من السلطان، بالتقسيط والتدريج، وفردًا فردًا.

وهكذا قتل ابنَه مصطفى بيده في (ديار بكر)، وأمام عينيه، من امرأته الشركسية (جول)، وتعني الوردة، شنقه على الطريقة التركية، بثلاثة أوتار واقفًا، فقال الأمير: إنها أفضل ميتة لي، أن تكون بيد والدي، وتحت نظره، فمنه خرجت، وبيده انتهيت، وألحقت به الخوريم حفيدَه، ابن مصطفى باشا وزوجته جول، فلعل الصبي الرضيع يطلب الثأر لوالده المقتول، أو عرشه المستلب، فنحر بين يدي أمه وهي تنتحب.

وكانت هذه من أقبح العادات عند سلاطين بني عثمان؛ فحالما جاء سلطان إلى سدة الحكم، سارع إلى الفتك بجميع إخوته، وبفتوى من شيخ الإسلام، إن الفتنة أشد من القتل حتمًا في صراعات الأسرة الواحدة.

وهو أمر لا يكاد المرء يصدقه، ولكنها رواية ذكرها صاحب كتاب (الدولة العلية)؛ الذي ذكر أنهم استندوا إلى آية في القرآن، أن القتل أنفى للقتل؛ لأن الفتنة أشد من القتل، ودفعًا للفتنة كانوا ينحرون الإخوة؛ كي يستتب الحكم لواحد مطلق.

ولله في خلقه شئون، وهي قصص محزنة.

وفي النهاية قتل السلطان سليمان القانوني صهره، وزوج أخته، الصدر الأعظم، إبراهيم، أيضًا، من وراء تآمر (الخوريم) الضاحكة؛ التي فجعت هي أيضًا لاحقًا بمقتل ابنها الكبير؛ الذي هرب إلى الدولة الصفوية الفارسية؛ فأرسل له القانوني من دبر خنقه في الظلام.

إن تاريخنا فيه من المثالب أيضًا ما يحتاج المراجعة، وبأيدينا نحن؛ فهم بشر ممن خلق، ينطبق عليهم ما ينطبق على كل البشر من نزاعات.

مع هذا فقد كانت الدولة العلية مهيبة الجانب، وحكمت خمسة قرون طويلة ترعب أوروبا، ولو بقيت وبقي العرب تحت مظلتها لكان يحكمهم أردوغان حاليًا، ولما كان لإسرائيل وجود، ولوفرنا دماء غزة..

ولكنه منطق التاريخ وقدره يمضي، فلا تعلم نفس ما أخفي لها، ولا بأي أرض تموت!.



من هم العوام؟

لعل أقدم مشكلة وأخطر مشكلة في تاريخ الجنس البشري هي (نظام الحكم).

يقول الكواكبي، في كتابه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد):

(وتقرير شكل الحكومة هو أعظم وأقدم مشكلة في البشر، وهو المعترك الأكبر لأفكار الباحثين)، ومن هنا تنوعت أشكال الحكومات، وما زالت.

وكما يرى الفيلسوف البريطاني (برتراند راسل)، في كتابه (السلطان)، فمنذ أرسطو وحتى فترة البرلمان الحالية، تراوحت أشكال الحكم بدون القرار على شكل راسخ، مما يوحي أن مشكلة (نظام الحكم) لم تحل جذريًا، وليست (الديموقراطية) الحالية - التي يجري تطبيقها حاليًا في الغرب- هي الشكل المثالي، ولكنها قد تكون اقلها سوءًا، وما زال الطريق أمامنا طويلا، من إجل إيجاد ذلك النظام السياسي؛ الذي تتفتح فيه كل مواهب الإنسان، في جو (اللا إكراه)، فهذه الفكرة الأولى.

وهذا الكلام لا ينطبق على العالم العربي؛ الذي لم يشمَّ بعدُ رائحة الديموقراطية، وبينه وبين الديموقراطية سبعون خريفًا.

يقول المثل: إن الأعضاء تأتي كل يوم صباحًا إلى الدماغ؛ فتقول له: اتقِ الله فينا؛ فإن أحسنت العمل أرحت وارتحت، وإلا عانينا جميعًا.

وأول درس يتعلمه طالب الطب في التشريح هو هذه الجملة: الدماغ هو الجملة العصبية المركزية؛ التي تعمل بمثابة الحكومة العالمة العاقلة المخلصة، وباقي الجسم بمثابة الشعب المتفاني في الطاعة.

وكانت الوظيفة الأولى للأنبياء اجتماعية في تحقيق العدل، وكان أعداؤهم (المترفين)، أصحاب المصالح والامتيازات المهددة، أمام تحقيق العدل الاجتماعي.

يقول (راسل) عن مشكلة ترويض السلطان:

(وظن الطاويون أنها مشكلة لا تُحل فنصحوا بالفوضوية، وجرب العالم الحكم العسكري المطلق والثيوقراطي، والملكية الوراثية، وحكم القلة، والنظام الديموقراطي، وحكم القديسين، ويدل كل هذا على أن مشكلتنا لم تُحل بعدُ). تقوم الدولة على العنف واحتكاره، ولا شيء أوضح من عنف الدولة، صورة الآلة العسكرية الجاهزة للضرب في أية لحظة؛ فتجد الشرطي مسلحًا بمسدس محشو الطلقات، والقوات المسلحة مبرمجة لقتل أيًا كان، في أية لحظة على الأوامر، مثل أية آلة حديدية فاقدة الإرادة، تعمل بضغط الأزرار!!.

أو رجل الأمن وهو يلقي القبض على المواطن، فيرفع رجليه (للفلق)، كما يجري في أقبية الكثير من البلدان العربية؛ لانتزاع الاعترافات.

إن ميزة النظام العسكري؛ الذي اخترعه الجنس البشري، مع ظهور المدينة وولادة الحضارة، أنه جهاز مستلَب الإرادة، فاقد التفكير، مبرمَج التوجه، مثل ديناصور لاحم بدماغ ذبابة!.

وهذا النوع هو (السلطان العاري)، ويمكن للدولة أن تمارس ضغطها الساحق في صور شتى، تمامًا كما في علاقتنا بالحيوانات؛ سواء بشد المعزة بحبل، أم عندما يلحق الحمار الجزرة، مقتنعًا أن مصلحته في أن يفعل ما نريد، أو الحيوانات التي تتقن (التمثيل) وسطًا بين هذين الصنفين، كما في القرود وحيوانات السيرك، أو بصورة مغايرة، كما في قطعان الأغنام، عندما نريد حملها الى البواخر؛ فنجر الكبش بالقوة، فلا تلبث حيوانات القطيع الأخرى أن تسير وراءه، راضية مختارة.

وحسب (راسل)؛ فإن حالة المعزة مع الحبل (تتمثل في سلطان الشرطة والقوات العسكرية، وتمثل حالة الحمار والجزرة سلطان الدعاية، وتُظهر الحيوانات الممثلة قوة التعليم، فتؤدي الجماهير التحية للقائد البطل، أما القطيع الذي يتبع قائده المقهور رغم إرادته فيتمثل في السياسات الحزبية، عندما يكون زعيم الحزب أو قائده موثوقًا إلى زمرة من الناس).

هناك ثلاث حقائق لا بد من تأسيسها؛ أنه لا يمكن لديكتاتور أن يركب على رقبة شعب واعٍ، وتشكيل الوعي هو بتكوين العقل النقدي، والعقل يحتاج إلى غذائه الخاص الصحي.

فمن ملأ بيته بكتب السحر تحول إلى سحار؛ ولذا كان لا بد من وعي نوعي خاص.

وهذا الوعي يجب أن يكون اجتماعيًا بتعميق (الدراسات الإنسانية)؛ فهي أهم من العلوم التطبيقية، بما لا يقارن.

وإن المرء ليأسف مرتين:

(١) أن هذه العلوم لم تتطور بقدر العلوم الإنسانية، ويمكن اليوم لأرسطو وزينون - لو بُعثا- أن يشتركا في مناقشة أعقد المسائل الفلسفية والسياسية، في برلمانات الحكم الحالية، وسيجدان أن الخميرة الفكرية التي وصلا إليها لم تتطور كثيرًا عن أيام أثينا.

أما العلوم التطبيقية مثل (الذرة) و(الكوسمولوجيا) و(البيولوجيا) فسوف يجدون أنفسهم لا يفقهون فيها شيئًا. وستكون لهم أبحاث من نوع الكود الوراثي في الخلية، أو معادلات الإلكترون والمادة السوداء، أو مضاد المادة في الفيزياء النووية، ألغازًا معقدة!.

كما ستكون المفاجئة كبيرة لكل من أرسطو وهرقليطس أو ابن رشد، عن الانفجار العظيم؛ الذي أثبت أن الكون له بداية، وليس خالدًا أو قديمًا، كما كانوا يظنون، فهي فضاءات معرفية شق العلماء الطريق إليها، خلافًا للدراسات الإنسانية؛ التي لم تتطور كثيرًا، كما انتبه إلى ذلك (سكينر) من مدرسة تحليل النفس السلوكي، وأشار إليها في كتابه (ما وراء الحرية والكرامة (BEYOND FREEDOM AND DIGNITY).

(٢) من المؤسف أيضًا أن تذهب خيرة الأدمغة من أبنائنا إلى فروع الطب والهندسة وما شابه.

وأنا شخصيًا كنت ضحية هذا التوجه، عندما توجهت إلى الطب لإتقان فنه، والتمكن من ناصيته، على حساب استهلاك طاقتي وتجميدها لعشرات السنوات.

وهذا هو قدرنا نحن؛ الذي ننبت في العالم العربي، فلا نحظى بمن يوجهنا لما يعود بالخير على المجتمع، بما تحتاجه الأمة، وما يتناسب مع مواهب وكفاءات الطالب، وهذا له بحثه الخاص.

نظام الفكر والوعي الاجتماعي

عندما كانت ابنتي تدرس الصحافة، في جامعة أوتاوا، في كندا، اقتربت منها فتاة كندية، وتعجبت من الفتاة العربية، لماذا لم تكن في فرع تطبيقي؟.

هناك في الغرب استشاريون للطلبة، منذ أن يكونوا صغارًا.

ونحن متروكة أمورنا للصدفة وعمل الطبيعة، يربينا الشارع، وتتخاطفنا التيارات، فلم يكن هناك من يقول لنا: إن تنمية معارف الفلسفة الاجتماعية أهم من العلوم التطبيقية، والجرّاح قد ينقذ إنسانًا، ولكن المفكّر يخلّص أمة، و(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) (النحل: ١٢٠).

وهذا ليس انتقاصًا من قيمة الجرّاح، بل إبراز لأهمية العمل العقلي، ويبقى الطب مفيدًا ومهمًا في حدود الحاجة إليه، حيث يمكن للكثيرين أن يصبحوا جرّاحين، أما أهل الفكر فهم هبة السماء للأرض.

هذه مسائل ضخمة تحدث عنها - قبل قرن- عبد الرحمن الكواكبي، قبل أن يقضي نحبه مسمومًا، بعمر ٥٤ عامًا!.

أليس من المحزن أن المسائل الضخمة التي تعرض لها الكواكبي ما زالت هي هي، كما كتبها قبل قرن، حينما اعتبر أن ترياق التخلص من الطغيان هو العلم، وعنى به تحديدًا العلوم السياسية، وتحديث الفكر، والارتباط بالعصر، وكان هذا منه تشخيصًا مبكرًا لمشكلة الفكر في العالم العربي.

أليس من المحزن أن عملاقًا فكريًا في حجم ابن خلدون يكتشفه المؤرخ البريطاني (جون أرنولد توينبي)، فيصفه بأنه أعظم عمل من نوعه، أنتجه أيّ عقل، في أيّ زمان أو مكان!. أو كما يذكر الفيلسوف (محمد إقبال)، في كتابه (تجديد التفكير الديني)، أنه لم يقترب منه أوغسطينوس أو أوجست كونت، في هذا التحليق العبقري عبر القرون، ويتمتع الكثير من أفكاره بالصمود حتى اليوم؛ فهو الذي تحدث عن (آلية السوق)، وهو الذي بحث (آلية الحكم)، وأثر (العدل) في ديمومته، بحث كل ذلك كقوانين اجتماعية، وهو الذي حدد عمر الدولة بثلاثة أجيال، في ١٢٠ سنة، وهو الذي تحدث عن (نظرية التطور)، دون أن يسميها.

إن ما يغير الأمة هو (نظام الفكر)، وهو الذي يخلص الأمة من الاستبداد، ويجب أن يكون من النوع الذي يولد (الوعي الاجتماعي).

أليس من المؤسف ألا ينتشر فكر فيلسوف عملاق معاصر، في حجم عبد الرحمن البدوي، ويقضي خريف عمره مهاجرًا في غرفة في باريس، بعيدًا عن الوطن، فريدًا وحيدًا، بعد إنتاج ١٢٠ كتابًا فلسفيًا، يختصر فيها الرحلة العقلية للإنسان العربي، ثم يموت نكرة في الغربة!!.

إن المستبد يخاف من العلوم التي توسع العقول، وتُعرّف الإنسان ما هو الإنسان؟، وما هي حقوقه؟، وهل

هو مغبون؟، وكيف الطلب؟، وكيف النوال؟، وكيف الحفظ؟.

المستبد كما يبغض العلم لنتائجه، يبغضه لذاته؛ لأن للعلم سلطانًا أرقى من كل سلطان؛ ولذلك لا يحب المستبد أن يرى وجه عالم ذكي؛ فإذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار المتملق، وعلى هذه القاعدة بنى (ابن خلدون) قوله: (فاز المتملقون)؟!.

بين الاستبداد والعلم حرب دائمة.. يسعى العلماء في نشر العلم، ويجتهد المستبدون في إطفائه، والطرفان يتجاذبان العوامّ.

ومن هم العوام؟، هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا، وإذا خافوا استسلموا، وهم الذين إذا علموا قالوا، ومتى قالوا فعلوا.

العوامّ يذبحون أنفسهم بأيديهم؛ بسبب الخوف الناشئ عن الجهل؛ فإذا ارتفع الجهل زال الخوف، وانقلب الوضع).

والطغاة يمسكون عادة الشعوب بخيطان رفيعة من الخوف.

وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون.

يشير الفيلسوف (محمد إقبال)، إلى أن الكثير من تراثنا كُتب في ظروف مشبوهة، ويبقى القرآن هو الكتاب الوحيد؛ الذي حفظ بدون عبث من تغيير رسمه، ولكنه مع هذا لم يسلم من ثلاث: توظيفه للسلطان، وكتم حقائقه، وتفسيره الرديء، أو أن يشترى به ثمنٌ قليل.

وأما باقي التراث فكُتب كله في ظل السلاطين، وفي أجواء سياسية محمومة، تقوم على الغدر وقنص السلطة الدموي المحموم.

وأمامنا اليوم كما نرى عمليّتان في الجراحة الفكرية؛

- الأولى: في غربلة التراث بالحفر الأركيولوجي المعرفي؛ لاكتشاف ذاتنا الحقيقية، دون مكياج وقناع.
- والثانية الاتصال بالعصر؛ لنعرف إضافات المعرفة.

وكما يقول (مالك بن نبي): كل من يدخل العصر ولا يدرك إضافات المعرفة الإنسانية لن ينجو من سخرية التاريخ.



لماذا النقد الذاتي؟

لا شيء أبغض على النفس من الانتقاد، ولا تسكر النفس بخمر كالثناء، ولكن الإنسان ينمو بالنقد؛ لأنه يفتح عينيه على أخطائه وعوراته، وأن البشر غير كاملين. ويجب في الحقيقة أن يشكر الإنسان من ينتقده؛ لأنه يشكل مرآة على كل حال؛ فإن كان محبًّا حريصًا مخلصًا كان مرآة رائعة، أفضل من مرآة تلسكوب هابل في الفضاء.

وإن كان من الحاسدين فهو سطح مرآة غير مصقولة؛ بحيث يرى الإنسان فيها نفسه كما هو الحال في السيرك؛ حيث يرى الإنسان نفسه قبيحًا أو طويلًا أو عريضًا، وهنا يعرف الإنسان نفسه أنه ليس على حقيقته، ولكن في جو الصراع الإنساني يصاب الإنسان بالإحباط والمرارة، ويجب أن يحذر منهما إن استطاع.

ويرى الإنسان نفسه في المرآة مواجهة، ولكنه يرى في المرآة الخلفية قذاله، واستدارة رأسه، وشعر نقرته.

وهو بهذا يرى نفسه من الأمام والخلف كاملًا. وأحيانًا يتعجب الواحد منا حين يبصر نفسه للمرة الأولى في المرآة أو التليفزيون؛ فيقول: لم أعرف نفسي بهذه البشاعة والانتفاخ والبدانة، أو قد يكتشف في نفسه شيئًا لا يعرفه.

والقنوات الفضائية حريصة للغاية على الشكل الحسن، والصوت الرخيم، أكثر من حدّة الذكاء، وسعة المعلومات. وهو قانون معمول به في كثير من الحالات، وليس كل الحالات، ومن شهرته الميديا يجب ألا يوقعنا في هذا الفخ؛ فنظنه التقي النقي الطاهر العلم. وهي في بعضها ترجع إلى علاقة مع رئيس تحرير، أو مدير إذاعة. فهذه هي فلسفة النقد الذاتي، ونقد النقد.

ونحن لسنا محصنين ضد الخطأ، ولا فوق النقد، وأنا أعرف من يتمتع بمعاناة الآخرين أو تعذيبهم؛ فهذا مرض له أكثر من الآخرين.

وأنا أعرف أن هناك من لا يحب الآخرين، ويشمت بهم إذا أصيبوا، ولكن أعظم العدل أن يقوم الناس بالقسط. والكره في النهاية يأكل صاحبه، وهو مرض ليس له علاج في خزانة الجراحين. وهناك من يريد النقد من أجل النقد، ومن ينتقد للتدمير. ولكن يجب أن يعلم الجميع أنهم جميعًا معرضون للخطأ في يوم، وأحيانًا خطأ قاتل؛ ولذا فمن الحكمة ألا يضرب الناس بالحجارة من كان بيته من زجاج، لو كانوا يعلمون.

وأمة تكيد لبعض وتغدر ببعض تذهب ريحها وتفشل؛ ولن تقوم قائمة لمجتمع تباغض وتحاسد أهله.

ويكتشف الإنسان دومًا أن الحياة مخادعة غدارة، وتحمل المفاجآت، ويمتحن الجميع في لهب التحدي، ويعطينا درسًا جديدًا، نضيفه لخبراتنا في الحياة.

ورحم الله امرءًا أهدى إليَّ عيوبي، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبًا، ويجب ألا توقظنا الكوارث، بل النصيحة العربية القديمة: "درهم وقاية خير من قنطار علاج.

"إن بناء آلية النقد الذاتي (النفس اللوامة) تضع الروح على المسار السليم للتصحيح والنمو بدون توقف، ولكن لا أحد يمارس هذه الوظيفة، ونحن نعلم من قانون (التطور والوظيفة) أن كل عضو لا يعمل يضمر، وهذا يعني أننا نعاني من شلل قاتل، ومحق للبركة في أعمالنا، بتعطيل (جهاز النقد الذاتي)، ويبقى العمل (الشيطاني) السهل في لوم الآخر، وهكذا فالشعوب تدين الحكام أنهم خلف مصائب الأمة، والحكام يلعنون أمريكا والصهيونية أنهم خلف هزائمهم. ومن السياسيين من يصرّح أن الأمم المتحدة مخطوفة بيد قراصنة أطلسيين، وهي نصف الحقيقة، بعد أن خطفوا كامل شعوبهم، وأدخلوا الأمة سجنًا كبيرًا.

والأنظمة العربية في صراع فيما بينها، تعيش عصر الشرذمة والغدر، والكل يبحث عن (كبش فداء)، يعلل به أسباب القصور الذاتي.

إنه مرض قاتل؛ لأنه لا يحرر الإرادة من العطالة، طالما كان (الآخر) هو السبب، إنه دومًا الاستعمار والماسونية والصليبية والاستخبارات المركزية الأمريكية والموساد، أو الشيطان الرجيم. وإذا فرغت كل الأسلحة يبقى السلاح الذي يُخرس الجميع: إنها إرادة الله، ونحن نعلم أن (الشيطان) يتبرأ من هذه المقولة يوم القيامة، فيقول (فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُم) (إبراهيم: ٢٢) ونحن نعلم أن المشركين كانوا يعزون شركهم إلى الله: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ الله مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ) (الأنعام: ١٤٨).

إن ثقافة الشيطان موجودة عندنا على شكل طائفة (اليزيديين)؛ التي التجأت إلى جبل سنجار - بين العراق وسوريا- فهي تسميه طاووسًا، وتحترمه، وتضرب من يلعنه، وتقول: إنه سيحكم العالم لمدة عشرة آلاف سنة، وتبتعد عن ذكر حروف الشين والطاء؛ فلا تستخدم كلمة مشط وطشت وخاط، وإذا رسمت دائرة على الأرض حول أحدهم انعقل فيها، فلم يتحرر إلا إذا جاء من خارجها من يكسرها.

ولكن هل اليزيديون هم الوحيدون المتورطون في ثقافة الشيطان؟



عالم السياسة اليوم !!

ادَّعى جحا يومًا الولاية، فسأله السامعون عن كرامته؟، فقال: كرامتي أني أعلم ما في قلوبكم!، وعندما سألوه عما في قلوبهم قال: كلكم يعلم أني كذاب.

وهذه النكتة تصلح لعالم السياسة اليوم، وما يصرح به السياسيون؛ فالأمريكيون بحثوا عن أسلحة الدمار الشامل في العراق، ويعيدونها في إيران، ومارتن أنديك صرح - في مؤتمر دولي- بأن هدف أمريكا هو بناء الديمقراطية في العراق، ولكن العراق انزلق أكثر باتجاه الفوضى.. والهدم أسهل من البناء بما لا يقارن.

وها قد حل بالعراق ما حل بالصومال، بعد موت التعيس سياد بري، فلم تبق دولة، بل عصابات واحتلال.

وهو أمر تنبأ به سياسي أمريكي - قبل حدوثه- فقال: إن الأمريكيين قد يُستقبلون بالترحاب أولا، وقد يستمر هذا ٤٨ ساعة أو ٤٨ يومًا، ولكن بعد انقضاء الأجل سوف يُحيِّي العراقيون الأمريكيين بالرصاص. وإذا كانت الفترة بين دخول البريطانيين بغداد عام ١٩١٧م، أخذت ثلاث سنوات، قبل انفجار ثورة عام ١٩٢٠م؛ فهي حاليًا أقصر. ومشكلة العراق أنه لم يتحرر؛ بل أضاف فوق المرض مرضًا.. وليحملُن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم، مثل مريض سرطان كابوزي العقلي؛ الذي أضاف فوق المرض الخبيث التهاب رئة حادًّا. ومن يظن أن صدّامًا خرج فهو لم يخرج بعدُ من قلوب العراقيين، كما حدث مع بني إسرائيل؛ الذين أُشربوا في قلوبهم العجل، وتعبير أُشربوا ظريف، مثل امتصاص الإسفنجة ماء حوض!.وإذا استمر حمل الجثث الأمريكية والبريطانية والألمانية في نعوش - من أفغانستان والعراق- فسوف تنسحب أمريكا وألمانيا والطليان، ويتناحر العراقيون والأفغان نصف قرن آخر، حتى لا يبقى حجر على حجر.

وكما بدأنا أول خلق نعيده.. وكما بُني العراق كله خطأ فوق الخطأ؛ فسوف يعاد ترميمه حجرًا حجرًا، عندما يمل العراقيون الاقتتال، وربما يبدأون بعد ثلاثين سنة في بناء بلدهم.

واليوم في أفغانستان يحكم قرضاي، وهو يقرض كابول على الأنقاض والحجارة، وشيء من سدر قليل.. ولكن كما يقول المثل البدوي: يا حبذا الإمارة ولو على الحجارة.. وقد يورث الملك من بعده لابنه، لا ندري؛ فهي فرصته، وقد شق الطريق إلى ذلك الثوريون في العالم العربي؛ فلماذا يحرم نفسه من هذه العبقرية العربية.

وفي اللقاء السياسي الذي حضره جهابذة السياسة، وبثته محطة البي بي سي البريطانية، تأملت أقوال الحضور، وليس من عادتي الإصغاء للسياسيين؛ فلا جدوى من حديثهم، ولكنني تذكرت جحا؛ فالرجل

كان نصف أبله نصف حكيم، يعتلي ظهر حماره وفوق رأسه عمامة كبيرة، يقول ما لا يعنيه، ويعني ما لا يقول، وكان في الواقع يقوم بتوزيع منشورات سرية خطيرة، ويقول للسياسيين: أنا الكذاب وليس أنتم!.
وعندما أسمع من السياسيين أن دولة فلسطينية ديمقراطية سوف تقام أضحك، وعندما سمعت أن بوش وأوباما سوف يرسيان دعائم الديمقراطية في الشرق الأوسط ظللت أضحك، في الوقت الذي أسمع أخبار الاعتقالات في الأنظمة الثورية، بتوصية من أمريكا، وإغلاق آخر صحيفة تنطق نصف الحقيقة، على خوف من فرعون وملئه، كانت تغرغر في سكرات الموت، والمخابرات باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم!.
وكما قال بعض الحاضرين في المؤتمر: لقد أصبحت دعوى محاربة الإرهاب فرصة جيدة لفرض الإرهاب.. وعندما سئل مسئول مهمّ عن جامعة الدول العربية: هل ستأخذ الدول العربية بالتوصية في تبني الديمقراطية؟، قال: نعم؛ لأن الوضع خطير، ولا يتحمل أكثر؟. وأنا أضحك لجهل السياسيين بأبسط قوانين علم الاجتماع، ويعجبني ابن خلدون؛ فالرجل كان ينظر ليس بشكل طوباوي، بل إلى القوانين المحرّكة في علم الاجتماع. والديموقراطية رصيدها وعي الناس أكثر من صناديق الانتخابات، واليوم تُجرَى انتخابات في العالم العربي بصناديق وهمية، والكل يصوِّت بنعم، وهو يعرف أنها مسرحية للكذابين، وصدّام نال في انتخابات الخريف عام ٢٠٠٢م، مائة بالمائة، في نكتة تثير القرف، في عالم ينهدم تدريجيًّا، وينحدر إلى الظلمات!.
إنه لا يمكن لأية قوة في العالم أن تزرع الديموقراطية ما لم توجد التربة لذلك، وهي فكرة انقلابية في علم الاجتماع، تشبه انقلابية فكرة كوبرنيكوس حول دوران الشمس والأرض؛ فالكل يعتقد جازمًا أن الحكومة تفعل كل شيء، بما يعطيها صفة إلهية، والقرآن يفيد عكس ذلك، أن التغيير بيد البشر قبل الله، وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وهو تصور يصيب الإنسان بالدوار؛ بأن الحكومة لا تزيد عن كوكب يدور حول شمس الأمة، وأن الكارثة ثقافية، وأن أصل الاستبداد ديني، فمن يناقش أية قضية يجب عليه مواجهة الله شخصيًّا.
وفي يوم كان المشركون يرددون نفس المقولة: (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا من شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ من قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ) (الأنعام: ١٤٨).
وتخرصون تعني تكذبون أشد الكذب، بأشد من كذبة جحا، في ادعائه الولاية!.



آليات احتكار الكلمة وخلاصها

وصف الله الإنسان أنه يُخلق مطوقًا بظلمات ثلاث، وتنتج دودة القز الحرير بصمت في شرنقتها، وتتولد الأفكار في صمت في دماغ ودَّع التقليد، في النهاية يخرق الجنين سُجُف الرحم الثلاثة، ويتحرر من ظلام الرحم إلى ضوء الحياة، وتطير الفراشة بجناحين بعد التخلص من شرنقة دودة القز، وينفقس الفكر الجديد بتحطيم كلس قشرة البيضة الاجتماعية؛ هكذا تعمل قوانين الطبيعة.

الرحم مكان التخلق، والشرنقة وعاء التكوين، والمجتمع حوض تشكل الأفكار، لا بد للدودة أن تتخلص من الشرنقة، ولا بد للجنين من مغادرة دفء الرحم، ولا بد للأفكار من التملص من ضغط العادات العقلية الساحق.

يبدو أن الكلمة تعيش في ظلمات ثلاث من هذا النوع، بين عين الرقيب الإعلامي، وتنافس المنابر، وهيمنة آراء الثقافة المحلية.

الكلمة المطبوعة العربية محاصرة بشرر ذي ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغني من اللهب، من ضغط الثقافة، وانحباسها في مجاري لغة محدودة، مثل العربية، وليس الإنجليزية او الإسبانية، لأمة تبلغ واحدًا من ثلاثين من الجنس البشري أصلا، بآذان صماء من أمية تصل إلى سبعين بالمائة، تحتاج عبور أكثر من عشرين بوابة عربية، تحت الأضواء الكاشفة للرقابات المحلية، لأخذ براءة الأمان، لاجتياز الكلام إلى بر السلام، في لعبة مستحيلة، يسقط فيها لاعب السيرك في قبضة شبكة الحبّال.

مشكلتنا - نحن من يكتب- مع دور النشر وأذرعتها الطويلة، أننا نريد نشر الفكرة بأعظم عدد ممكن من المنابر، لأعظم قطاع واسع من شرائح القراء، في أكثر من لغة، وهم يريدون احتكار الكلمة، في عمل نصف مبرر؛ فلا تنطق الموسيقى إلا من ربابة بعينها؟.

نحن نريد للنوت الموسيقي أن يدخل بطن أية آلة؛ فيصوّت على نحو فريد، وهم يريدون تكرار الصوت بآلة مفردة، فما العمل؟.

الموسيقى بآلة واحدة كالعود جميلة، ولكن تكرارها مملّ، ولو كانت أشجى الأنغام، الضابط الفرنسي عندما سمع السيمفونية الخامسة لبيتهوفن، لم يكن أمامه إلا أن ينتصب مذهولا من سحر انسياب الأنغام؛ فيصرخ في قاعة علاها خشوع الصمت؛ فلا تسمع إلا همسًا: جاء الإمبراطور.

عندما سمع مشركو قريش سورة النجم سجدوا لهذا المزيج المذهل المتدفّق، من عمق المعنى، وانسياب الفقرات، وتماسك الأفكار، وجرس الصوت، وموسيقى الألفاظ.

الطبيعة نوّعت الأنغام بين عويل الريح، وحفيف الشجر، بين هزيم الرعد، وخوار البقر، بين خرير المياه، وطنين النحل، بين هديل الحمام، وشدو البلابل، في سيمفونية كونية رائعة.

نحن في ثقافة رأسمالية، تعتمد احتكار كل شيء، بما فيها احتكار الفكر، لا بد للفكرة أن تتنفس وإلا اختنقت، الدماغ الذي لا يدخله أكسجين يحترق، والماء الذي لا يتدفق يتحول إلى مستنقع يُصدِّر البعوض، والدم الذي لا يتدفق في شرايين الجسم، يعطب الأعضاء النبيلة بالتخثر القاتل، والمال الذي لا ينساب في مؤسسات المجتمع، يُدخل اللعنة الفرعونية إلى مفاصله، بتشقق المجتمع إلى طبقات وشيع، تستضعف شريحة الأقلية سواد الأكثرية.

كان الفيلسوف إقبال في دعائه يقول: يارب إما أن ترسل لي من يفهم عني، وإما أن تنزع هذه الأفكار من رأسي، انحباس الأفكار في دماغ المفكر تدفعه للجنون أو الانتحار أو الانسحاب، وركود الماء يدفعه للعفن الخبيث، وتراكم الدم في مساحات وبؤر، يقوده للتقيح أو انفجار أمهات الدم (الأنورزم)، وتراكم الثروة في يدِ الأقليلة يقلب التوازن الاجتماعي؛ فينشط الشغب، وتنفجر الثورات.

كل من الفكر والماء والدم والمال يمثل طاقات نوعية، الفكر للعقل، والماء للطبيعة، والدم للبيولوجيا، والمال للمجتمع.

كل جهاز له طاقة تحريك، الفكر يُشغل جهاز العقل، والأرض تحيا بعد موتها بالماء؛ فأذا أُنزِل عليها؛ اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، والدم ينقل الأكسجين والغذاء، وكل فرق جهاز المناعة؛ لترميم وتجديد البدن، والمال دم المجتمع، والويل لذلك المجتمع؛ الذي لا يحسن تفتيت الثروة، وتوزيعها العادل.

أكسجين الفكرة سريانها بدون حدود، من خنادق نحبسها في منابر بعينها؛ فنشاط المجتمع من حيوية نظامه المعرفي.

نحن نعاني من اختناق فكري، نحن نئن من عفن الماء الاجتماعي؛ بركود الحياة السياسية، نحن نشكو بدون أمل في الخروج من النفق المسدود، من توزيع فوضوي للثروة، ضمن الدولة الواحدة، وبين الدول العربية.

مع هذا، فالكلمة الطيبة تستعصي على الاحتكار، والطيور النشيطة تحب الهجرة، والدماغ يحتاج إلى الأكسجين، والعقل إلى تجديد الفكر، والجنين إلى مغادرة دفء الرحم، ودودة القز إلى مغادرة الشرنقة، وامتن الله على نبيه بتزويجه من نساء سائحات......



أجنة قرآنية وآيات مفتاحية (١-٢)

في القرآن (نظم) خاص أو (كوانتوم) قرآني، أو نوع من (اللوغارتم)، حوّم حوله الكثيرون، في محاولة استنطاق منطقه الخاص، واطلعت أنا على الكثير مما كُتب حول الموضوع.

ولعل كتاب (محمد شحرور) الأخير عن القرآن، والكتاب محاولة لاكتشاف هذا النظم الداخلي، ولكن مشكلته أنه يولد المعاني من الألفاظ، مثل حاوي السيرك؛ الذي يخرج أرانب بيضاء من قبعات سوداء. واللفظ يعطيك ما تشاء من المعاني.

وفي مجلة إسلامية تعب باحث على كلمة (فاضربوهن) بعشرين صفحة، ليخرج بمعنى أنه الاعتزال خارج الفراش، ففسر الماء بعد الجهد بالماء. أما شحرور فقد ولد من كلمة (يضربن) بأرجلهن معنى (الستربتيز).

كما أن ابن نوح - حسب رأيه- يمكن أن يقال عنه: إنه ابن زنا، حينما نقع في قبضة الكلمة (إنه ليس من أهلك).

ولعبة اللغة لا تنتهي، كما يقول الفيلسوف (فيتجنشتاين).

وما لم نُدخل حزمة من (الأدوات المعرفية) فإن لعبة اللغة مضللة أكثر من لعبة (غو) على لوحة الشطرنج الصيني، بـ ٣٦١ مربعًا و ٥٢ حجرًا لكل طرف!.

وما كان للغة أن تدلنا على مكان قوم عاد لولا الستاليت الفضائي في الإمارات العربية الحالية؛ حيث تقوم أبراج خطيرة من سراب الصحراء، وسيكون مآلها في الغالب مآل عاد؛ التي لم يخلق مثلها في البلاد..

كما أن كل علوم اللغة لا يمكن أن تعطينا فكرة عن آدم لولا علم الأنثروبولوجيا؟.

ولم يكن ممكنًا فهم دلالة كلمة (الملك) في قصة يوسف، لولا المعرفة التاريخية عن الهكسوس؛ الذين حكموا مصر في الألف الثانية قبل الميلاد، لمدة مائة وخمسين عامًا..

فهذا هو الفرق بين (لعبة) اللغة و(دقة) العلم.

واتصل بي أخٌ يخبرني عن عمل انتهى بعد جهد دام ١٣ سنة، بإشراف لجنة، في محاولة كتاب تفسير جديد للقرآن، أخذ منهم جهدًا خرافيًّا، مصبوبًا في ٧٠٠ ألف صفحة، وهو عمل فلكي، ولكن السؤال هو: هل سيكرر عمل الأقدمين، أم إن هناك اختراقًا نوعيًّا؟.

والعبرة ليست أن تكتب، ولكن ماذا تكتب، وعلينا الانتظار حتى يُطبع ويُوزع؟.

والقرآن يمتاز بأنه كتاب (قوانين) التي يسميها (كلمات الله)، وحينما نتأمل النص القرآني نلاحظ أن تعبيراته تدخل الحدث فتنتزع منه الاسم والمكان والزمان، وتدخله إلى (معمل المطلق).

تأمل قوله: (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت؟) أو قوله (تعالى): (أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها؟).

فنحن هنا لا نعرف الشخص ولا المكان ولا الزمان.

والعبرة أنه حدث يمكن أن يتكرر كقانون تاريخي.

وفهم القرآن على هذه الصورة يعطيه صمودًا تاريخيًّا، وعلوًّا فوق الزمن.

ويجب أن نقوم بعمل إبداعي؛ فلا يشترط أن يأخذ عنوان هذا العمل (التفسير)؛ فهذه كلها علوم أبدعها علماؤنا من قبل، ولا يُشترط أن نتقيد بها، بل نستأنس بها ونبدع الجديد.

وكلمة (عقيدة) مثلا؛ التي أُسس عليها علم كامل، ليس لها وجود في القرآن، ومع ذلك طور علماؤنا كتبًا لا تنتهي حول العقيدة.

وهذا يفتح أعيننا على مشكلة تطوير الفكر الديني برمته.

بمعنى أن علومًا مثل (التفسير) و(مصطلح علم الحديث) و(الفقه) و(أصول الفقه) كلها علوم ابتكروها من العدم، وطورها من سبقنا، ويجب أن نطور نحن علومًا جديدة، مثل الدراسات القرآنية التاريخية المقارنة، أو البنيوية في القرآن، أو ما سميته (الكوانتوم) القرآني، وهو مصطلح من ميكانيكا الكمّ، يعطي مفهوم هبات أو كمات من الطاقة.



أجنة قرآنية وآيات مفتاحية (٢-٢)

قلنا في المقال السابق: في القرآن (نظم) خاصّ أو (كوانتوم) قرآني، أو نوع من (اللوغارتم)، حوّم حوله الكثيرون، في محاولة استنطاق منطقه الخاص، وأوضحت أنني اطلعت على الكثير مما كُتب حول الموضوع.

وأن (التصوف) أمر تم تطويره من خلال الاحتكاك بالثقافات الأخرى، والحركة (البكتاشية) كانت العمود الفقري للجيش الانكشاري؛ الذي قامت الدولة العثمانية على أكتافه.

وأنه يشبه في هذا الحركة السنوسية، أو المهدية، أو الحركات الصوفية المسلحة؛ التي رافقت ولادة دولة الزنكيين في الشرق الأوسط، أثناء مواجهة الصليبيين.

ومن قبلُ كتب سيد قطب (في ظلال القرآن)، ولكنه ضمَّن الأجزاء الأولى الأحد عشر أكثر أفكاره تطرفًا، وهي مفاهيم تحتاج أن تعدَّل مثل تعديل السموم، وهذا يوحي بعمل الأيديولوجيا، وتلبيس القرآن ثوبًا لا يخصه، فيجب أن يُكتب شيء جديد، له علاقة بالعلوم الإنسانية المساعدة.

وكما كان لكل فن أدوات للدخول على الحقل، مثل المطرقة للحداد، والمشرط للجراح، والمقص للخياط، والسماعة للطبيب، كذلك الحال بالنسبة للمعرفة الإنسانية؛ فلا يعقل أن نفتح الجمجمة بأدوات فرعونية، كما لا يمكن أن نفهم القرآن بتفاسير تعود ٦٠٠ سنة للخلف.

وهذا المفهوم يقلب التصور السلفي رأسًا على عقب؛ فهم يرون الصواب في الرجوع للخلف، وطبيعة العلم أنه يمشي للأمام.

ولا يمشي أحد للخلف ما لم يكن خائفًا من وحش كاسر؟.

وهناك ما لا يقل عن عشرين ألف تفسير كُتب حول القرآن، ولكن الحاجة الآن قائمة لأفكار جديدة، تشكل (مفاتيح) دخول لفهم القرآن.

وفي مكتبتي الخاصة ما لا يقل عن عشرة كتب تفسير، ولكن كتب التفسير القديمة تكرر بعضها بعضًا، ولا تشبه كتب التفسير الحديثة في شيء، اللهم سوى تمرير النص القرآني، مثل القاسمي ورشيد رضا، مقابل القرطبي وابن كثير.

والنظر في تفسير كلمة (سائحات) تعطيك فكرة عن الفوارق؟.

فكل الفكر القديم لم يكن في مقدوره، أو عنده تصور أن المرأة تمارس السياحة؟، فهو أمر حديث معاصر؟.

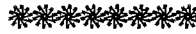
وهذه الآيات (المفتاحية) تتناثر في القرآن، مثل: (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق؟). أو

(يزيد في الخلق ما يشاء)، أو (ويخلق ما لا تعلمون)، أو (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبن لهم أنه الحق)، أو (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال: إني أعلم ما لا تعلمون؟)؛ فما هو علم الله مقابل ظن الملائكة؟، فكلها آيات مفتاحية، تدخلنا إلى عالم القرآن الداخلي، ومصطلحاته الخاصة، وأسلوب قصصه المتفرد.

و(تجديد التفكير الديني) هو كتاب وضعه الفيلسوف محمد إقبال، من القارة الهندية، قبل أكثر من نصف قرن، ويمتاز بصمود علمي، وأفكار في غاية الجرأة، مثل فكرة ختم النبوة، فهو يرى أن النبوة خُتِمت لأن العقل الإنساني تجاوز مرحلة الأحكام المسبقة، وأصبح بإمكانه أن يمشي بدون عكاز؟.

وهذه قفزة في التفكير تجتمع مع آية: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم)؛ فهذا هو الوحي الجديد.

والوحي - كما يراه إقبال- ظاهرة كونية، يمارسها النحل والشجر والبشر في درجات، وأوحى ربك إلى النحل، وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه.. وآيات الآفاق والأنفس هي الوحي الجديد.



نحو تجديد التفكير الديني!

هناك قصص كثيرة تروي الفارق بين الدين والعادات، وأن المسلمين حينما يعيشون في الغرب ينقلون معهم أمراضهم، فيعيشون في شرانق يغزلونها من أوهامهم.

وما لم يتم الفصل بين ما هو دين وما هو تراث لا علاقة له بالدين فلن يحصل أي تجديد في الفكر الديني، وما لم يُنظر إلى الأحكام في ضوء تاريخي فسوف نكذب على الله.

ويَعتبر (جيفري لانج) . أستاذ الرياضيات الأمريكي الذي اعتنق الإسلام، في كتابه (حتى الملائكة تسأل؟) . أن مصير الإسلام في الغرب متعلق بالإجابة عن هذه التحديات، وطبيعة عقلية الجيل الثاني من أبناء الجالية الإسلامية في أمريكا.

والمشكلة ليست في (القرآن) بل في (المسلمين)، ومشكلة المبادئ أتباعها، وعندما يتعطل الفهم عندهم فلن يستفيدوا من أعظم الآيات، التي يمرون عليها وهم عنها معرضون.

وفي قصة (ابن لبيد) عبرة كبيرة؛ فهذا الصحابي الجليل عندما سمع يومًا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يروي قصة (ذهاب العلم)، لم يخطر في باله أنه حاصل، طالما كان كل جيل يُدرس القرآن للجيل الذي بعده؟

والرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما سمعه يقول: "كيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، وأبناؤنا سوف يُقرئون أبناءهم القرآن؟، لم يقل له: أتكذبني وأنا رسول الله، أو يرد عليه (بنص) قرآني، بل أخذ بيده إلى الواقع المعاش، فقال له: "ثكلتك أمك يا ابن لبيد! لقد ظننتك من أفقه من بالمدينة، أوليس اليهود والنصارى بأيديهم التوراة والإنجيل، ولا ينتفعون مما فيهما بشيء؟".

ونحن هنا أمام شيء جديد هو (وجود الكتاب)، وعدم الإفادة منه؛ لفقدان (أداة) الدخول على الكتاب.

وإذا أصيب شريان عند جرّاح أوعية دموية فلن ينفعه إلا جرّاح أوعية آخر، و(أدوات) الدخول على ساحة العملية؛ فهذا هو الفرق بين القصّاب والجرّاح.

وبطاقة مغناطيسية تفتح الباب العظيم.

والدخول على آيات القرآن بدون (أدوات معرفية)، من العلوم الإنسانية المساعدة، مثل من يدخل صيدلية عظيمة بدون معرفة صيدلانية.

والفرق بين (الواقع) و(النص) أن الواقع هو النص (الأساسي)، الذي لا يتبدل، أي هو اللغة الأساسية، أو كتاب الله (المنظور).

ويقول (غراسيان): "إن الحقيقة تُرى بصورة عامة، ونادرًا ما تُسمع"، والواقع يبقى (المرجع) عند كل خلاف.

والانفكاك بين النص والواقع يحرم من الإفادة من أقدس النصوص.

ولا يصبح الطبيب بارعًا إلا بالسباحة المستمرة بين النظرية والممارسة. و(آينشتاين) يرى أن كشف الحقيقة مرة واحدة غير كافٍ، فالحقيقة تشبه تمثال الرخام المنتصب في الصحراء، والمهدد بالدفن في كل لحظة من زوابع الغبار، وما يحفظه هو النظافة المستمرة بأيدي دؤوبة، لا تعرف الكلل، فيلتمع تحت ضوء الشمس؟

وهذه الظاهرة هي مرض (أهل الكتاب)، والمسلمون هم أهل آخر كتاب، ويمكن أن يصابوا بكل أمراض أهل الكتب السابقة، ومنها أن يحال بينهم وبين الفهم فيتعطل الفهم، فلا يستفيدوا من أي نص.

وأن الله يحول بين المرء وقلبه..

وحينما يتعطل الاتصال بين (النص) و(الواقع) تتوقف كهربائية الدماغ، فيموت النص، ولا يستفاد من الواقع بشيء، ولا ينتبه صاحبه إلى الآفة التي ركبته، ويظن أنه على شيء!

والقرآن كنز روحي لا ينضب، وما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ، ولكن المشكلة هي في تحرير (العقل) من (النقل)، فيستفيد من النصوص، وحشرة العُثّة تعيش كل الوقت بين الأسطر فلا تقرأ شيئًا، والحمار يحمل أسفارًا من الكتب ولكن ليس بإمكانه فك سطر واحد!

وفي المقابلة التي تمت بين (محمد إقبال) و(موسوليني) اعتبر إقبال أن القرآن منبع للطاقة لم يُستهلك، فيما يشبه العناصر النادرة المشعة في الطبيعة، مقابل استهلاك الطاقة الفكرية في الغرب، كما حدث مع الفاشية والنازية والشيوعية.

وهذا يعني أن الإسلام سيظل يمد البشرية بأفكار رائدة.

والمؤرخ البريطاني توينبي انتبه لهذه الفكرة، فاعتبر أن فكرة تحريم الخمر - التي حاولتها أمريكا فلم تنجح- ترميز لدور جديد للإسلام في التاريخ الإنساني، وهي ليست واحدة ...

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون..



الوضع العربي مصحة عقلية كبرى

المجتمع العربي اليوم مركب خطأ فوق خطأ. ظلمات بعضها فوق بعض. من القاعدة إلى القمة. ومن القيادة السياسية إلى معلم الصف، ومن المؤسسات المزورة إلى وضع المرأة المهين.

وما يحدث وحدث من الانفجارات المروعة في أفغانستان أو الجزائر أو العراق ليست أكثر من عينات لنفس المريض العربي التائه في الزمن التاريخي من المحيط إلى المحيط. والدور جاهز لدولة بعد أخرى.

وهذا يضع تحدياً خطيراً لمريض يتخبطه الشيطان من المس. مثلما يفقد الدماغ السيطرة على الأعضاء؛ فكل عضو يتصرف نشازاً مثل انفراط عقد فرقة موسيقية تنتج ألحانا نشازا أقرب إلى حفلة تعذيب في قبو مخابرات.

وبالطبع فإن مواجهة وضع خطير حاد من هذا الشكل لا ينفع فيه الحزن أو جلد الذات أو اليأس؛ بل يفرض مسئولية من طبيعة خاصة.

المواطن العربي اليوم يستعمل الموبايل ويضع على عينيه نظارة أنيقة. والجراح العربي يجري جراحات معقدة بالمنظار ويركب شرايين صناعية. والجندي العربي يقاتل بالصواريخ وحول الكرة الأرضية سبحت مركبات فضائية حملت رواداً عرباً. مما يوحي بأن العالم العربي بخير. وأن أمامه مسافة قصيرة ليرسل مركبة ترسو على سطح القمر يوربا حول المشتري.

ولكن التفحص العميق يظهر أن العافية السطحية تخفي مرضاً عضالاً يقترب من السرطان. فالخدمات العامة تمشي بالعافية. والمجتمع أصبح شبح مجتمع، يعيش فيه المرء كي لا يعيش، ويحل الفرد مشاكله بالعلاقات الشخصية أكثر من آلة مجتمع متماسك.

ومنذ عهد كافور الأخشيدي تحول المجتمع إلى قبيلة من الصيادين تصطاد الفرص، تتناسب فيها الرشوة مع حجم الخدمة. مثل تناسب السنارة مع حجم السمكة. ولم تعد الخدمات العامة حقاً دستورياً للمواطن.

ومنذ عهد المماليك أتقن المواطن فن الصمت خوفاً من المخابرات والخازوق فلا يفتح فمه إلا عند طبيب الأسنان.

ومنذ عهد البويهيين والسلاجقة دشن الفقه شرعية السلطان بالغلبة والعصبية حتى انطلت الخدعة على ابن خلدون فاعتبر أن الدول تقوم بقانون العسكر. ومن قبل عاصر نفس الصحابة تجربة مريرة من الحرب الأهلية اختفت فيها حياة الشورى إلى غير رجعة. ولم يحل استعصاء الحكم الجبري إلا الغرب عندما نجح في توليد آلية نقل السلطة السلمي.

والمجتمع العربي اليوم لا يعيش مرحلة الأمة أو الدولة القومية بل مرحلة القبيلة تحكمه عائلات إقطاعية مسلحة. وعندما تولد الملكيات من رحم الجمهوريات اليوم فهو تطور طبيعي وفق هذا القانون الاجتماعي.

وكلمة الجمهورية خدعة كبيرة. وتبقى الحقائق أقوى من الشعارات والأسماء. وحاليا تنشأ "جملوكيات" الرعب في كل ناد، بإمرة عتل زنيم، مطوق بعصابة في غابة، وسفاري تسرح فيها الضواري.

المواطن العربي كفرد لا ينقصه شيء ويمكن أن يختص في أبحاث الذرة في أمريكا، أو الشيفرة الوراثية في معهد ماكس بلانك في ألمانيا، أو جراحة المناظير في فرنسا، وحالما يوضع في الشرق يكون مصيره مثل نبتة وضعت في تربة سيئة فيضمر الغصن وتجف الأوراق.

والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا.

ومنذ أن صادر البيت الأموي الحياة الراشدية ساد حكم السيف فخرت له الجباه ساجدين. وتحول الحاكم إلى إله لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون. وزعماء العالم العربي أصبحوا مثل شيوخ الطرق الصوفية يبايعهم الدراويش إلى الأبد.

إنه قانون وجودي فالبدن يشيخ ويعتل. والليل يظلم ويعسعس. وينكمش القمر فيصبح كالعرجون القديم. وتمر أوقات عصيبة على الأمم فتختفي من خارطة التاريخ. والأمة العربية اليوم خارج الدورة الحضارية. أشبه بركاب قطار خرج عن القضبان وتعرض لحادث مروع فركابه بين قتيل وجريح وغائب عن الوعي. وتلك الأيام نداولها بين الناس. مع هذا فمشكلتنا ثقافية قبل أن تكون سياسية. وحجم المشكلات أكبر من الحكومات. وحلها بالانقلابات العسكرية مثل المريض المدنف في العناية المشددة الذي يعالج بإجباره على المشي بقوة السلاح. وما هو ببالغه. وعندما يضم الوطن مثقفاً مدجناً ومواطناً أمياً وسياسياً أطرشاً وصحافة مرتزقة وسياسي كذاب أشر ماكر وفقيه غائب عن العصر فإن الوطن ينقلب إلى مصحة عقلية كبرى.



الثورة المعرفية

العاصفة تكنس الطبيعة، وتعيد ترتيب العلاقات، والثورة تكنس الأوضاع، وتعيد تنظيم علاقات القوة وتوزيع الثروة، والعلم يقلب التصورات في قفزات كمية؛ ليحدث في النهاية ثورات علمية نوعية، ونحن اليوم نمشي فوق زلزال علمي، يقذف حممه دون توقف.

وخلال فترة قصيرة، تم الإعلان عن اختراقات معرفية مثيرة:-

في (الفيزياء الذرية) أعلن الفيزيائي (أولرت)، من معهد سيرن (CERN) في جنيف، عن (تصنيع مضاد المادة ANTIMATERIAL)، فأمكن تركيب ذرة مقلوبة الهيئة، من بروتون سالب، وإلكترون موجب (بوزترون)، إذا اجتمع الضدان (المادة وضدها) تولدت طاقة، أعظم من كل طاقة حلم بها الإنسان.

وفي (الكوسمولوجيا) أُعلِن عن (كوكب بيجاسوس) ببعد ٥٢ سنة ضوئية، وجليسي ٥٨١ سي ببعد ٢٠,٥ سنة ضوئية، بتطبيق ظاهرة (ترنح النجم). ورست مركبة (الباثفايندر) على سطح المريخ؛ ليندلق من أحشاءها عربة (السوجرنير) الأنيقة، تمشي كسلحفاة بمائتي حجرة ضوئية للطاقة على ظهرها، تعاين سطح المريخ بعيون ثلاثية الأبعاد، تنحني بأنفها، تشم سطح المريخ العابق بأكاسيد الحديد الحمراء، وتقول: المس ليس مس أرنب، والريح ليس ريح زرنب؟!.

وفي (البيولوجيا) أعلن (أيان ويلموت) من أسكتلندا، عن أول نجاح له بتوليد النعجة دوللي، بواسطة الاستنساخ الجسدي، تبعها جيلان (بوللي) و (بوني) بنعجات تحمل جينات بشرية، تدب على الأرض لا شية فيها، تسر الناظرين، وقفزت أجيال متراكبة من خمسين فأرًا ، تقفز بمرح ورشاقة، من الاستنساخ الجسدي في نسخ تترى، نجح فيها اليابانيون بما عُرف بـ (تكنيك هونولولو). ومن أوريجون في أمريكا تمت عملية استنساخ مرادفة، طُبقت على القرود، في قفزة نحو الاستنساخ الإنساني.

وفي (الأنثروبولوجيا) استطاع الأمريكي (دونالد جوهانسون) انتشال هيكل (لوسي LUCY)، المدفون في طبقات الأرض، في مثلث عفار في الحبشة، وبتطبيق تقنية (الأرغون - البوتاسيوم) المشع، أمكنه أن يحدد عمر أنثى تمشي منتصبة بطول ١٢٠ سم، وبحجم دماغ لا يزيد عن ٤٥٠ سنتمترًا مكعبًا، يعود إلى زمن سحيق، يرجع إلى ٣،٢ مليون سنة، واستطاع زميله (تيم وايت TIM WHITE) وبواسطة تمويل سيدة أمريكية ثرية محبة للعلم، أن يعلن عن كشف أقدم هيكل عظمي عُرف حتى الآن، يعود إلى ٤،٦ مليون سنة، ضاربًا الرقم القياسي في عمر الإنسان السحيق، أعطاه اسم (أرديبيثيكوس راميدوس)، في اقتراب حثيث لجذور وجود الإنسان الأولى، التي تقدر بـ (٥ - ٧ مليون سنة).

وفي (الطب) أعلن الأخوان الصقليان (فاكانتي)، عن ثورة جديدة في استنبات الأعضاء، بتعاون علم البيولوجيا والكمبيوتر والهندسة الحيوية؛ فنجحوا في استنبات ١٤ أربعة عشر نوعًا من الأنسجة، وكبد جرذ، وذراع إنسانية غير كاملة، ليلحقه تكنيك جديد لتوليد الأعضاء، بما يشبه الاستنساخ المتطور، بالاستفادة من الخلايا بعد تميزها، ودفعها باتجاه توليد عضو بذاته، من قلب ووعاء وكلية.

ويتقدم الطب بكسر المسلمات السابقة، كما فعل جراح العظام الروسي (إليزاروف)، بمعالجة العظم ليس بالتجبير بل بالكسر؟، عندما اهتدى إلى طريقة انقلابية في معالجة قصر القامة، التي كانت قدرًا بيولوجيًا؛ فمط الأقزام؛ بتسخير قانون ضد قانون، بالاستفادة من آلية النمو داخل البدن، سنة الله في خلقه.

وفي (الكيمياء) قفز العلم إلى حل مشكلة جنسية، يعاني منها الرجال منذ أيام حامورابي، بالإعلان عن الماسة الزرقاء، تم تركيبه بصدفة جانبية.

وفي (علم الخلية) مع مطلع ١٩٩٨م، أعلن الثنائي (جيري شاي) و (وودرنج رايت)، من تكساس، عن استنساخ إنزيم (التيلوميراز) وحقنه في الخلايا؛ فأعطاها فسحة جديدة من العمر؛ فتابعت انقسامها بهمة لا تعرف الكلال، في مؤشر إلى إمكانية مط أعمار الناس قرونًا كثيرًا، مذكرًا بقصة أصحاب الكهف ونوح.

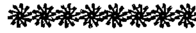
وفي (أبحاث الأعصاب) في السويد من جامعة (لوند) أعلن طبيب الأعصاب (وايدنر) عن بداية رحلة زرع الدماغ، بتقنية الاستفادة من بقايا (الأجنة الساقطة)، في عزل خلاياها العصبية، وإعادة زرعها بنجاح في أدمغة المصابين بداء (باركنسون الرقصي)؛ لتحل مكان الخلايا التالفة، في كسر مريع لعقيدة ثبات الخلايا العصبية.

وفي (أبحاث الجينات) من لوس آلاموس، اختتم مشروع الماموت الجديد (الجينوم البشري) العالمي لفك الشفرة الوراثية عند الإنسان، وفاز بقصب السبق الجني (كريج فينتر)، بواسطة (الطريق السريع) لكشف الكود بجهد بثلاث سنوات، مسخرًا ثلاثمائة كمبيوتر، تعمل أطراف النهار وآناء الليل، بكمبيوترات لا تعرف الاستراحة وشرب القهوة، تقدح بيديها أشعة الليزر، فوق نواة الخلية، وتقوم (جراحة الجينات) بأخطر لعبة على الإنسان، منذ أن بدأت الخليقة رحلتها.

وفي أبحاث (التاريخ) تقوم الكنيسة بما يشبه (بريسترويكا) داخلية، بالسماح للعلماء بدخول أقبية الفاتيكان، يناظرون ٤٥٠٠ ملف سري، من عصور ظلمات التعصب الديني، وحرق قريب من مليون امرأة بتهمة السحر، أو الكتاب الأسود؛ الذي يعرض جرائم الشيوعية، وقتل مائتي مليون من الأنام!، باسم يقين الأيديولوجية.

جرت العادة أن الموتى لا يتكلمون، وإلى المحاكم لا يحضرون، وبشهاداتهم لا يدلون، ولكن علم (حفريات الجينات) توصل إلى تطوير علم خاص بالمقابر والجثث، وبقاياهم في إنطاق الموتى، واستحضار تعابير الوجه من بقايا الجماجم وهي رميم، وقراءة صفحات لغات منقرضة، لم يبق حي واحد من أهلها ينطقها، وإحياء تاريخ شعوب بادت، وقصص حضارات انهارت، وغيَّبها الزمن.

واعتبر المفكر الفرنسي (جاك أتاليه) أخطر خمس تحديات تواجه مستقبل الجنس البشري هي: جراحة الجينات بجانب تلوث البيئة والسلاح النووي والمخدرات وازدياد التصدع بين الشمال والجنوب؛ فيزداد الأغنياء غنى فوق غناهم، والفقراء تعاسة إلى تعاستهم، في جنة وجحيم أرضيين من نوع جديد، ويغرق العالم في عنف جديد من قيم متردية؛ فالسياسة بلا مبادئ، والغنى بدون عمل، والتجارة بدون أخلاق، والمعرفة بدون فضيلة، واللذة بدون ضمير، والعلم بلا إنسانية، والعبادة بدون الاستعداد للتضحية.



د. سعيد بن ناصر الغامدي

أكاديمي وداعية إسلامي سعودي.



الاختلاف بين الانفلات والضبط

شاعت في الآونة الأخيرة قضية الاختلاف والحوار والتفاهم، وأدلى كلٌّ فيه بدلوه، من غير استناد - في معظم ما يُطرح- إلى علم وثيق، ولا فهم دقيق، حتى وُجدت أقوال تحثّ على الاختلاف، وتجرّأ أناس على الدين، فجعلوا الاختلاف حجّة، وأوشك بعضهم أن يجعله أصلا من أصول الفقه، فكلّما عُرضت مسألة قالوا فيها خلاف بين العلماء، ولا بأس بأخذ ما يناسب من الأقوال، إلى غير ذلك من الأقوال والآراء.

وأودّ هنا أن أشير إلى بعض الإشارات؛ التي أراها نافعة في هذا المجال:

١-الأصل بين المسلمين هو التكامل والتواصل والتعاون، وهذا مطلب يسعى له كل العقلاء، والاتفاق نعمة، واتحاد الآراء على الحق رحمة، وليس الخلاف مطلبًا إلا في حالات محدودة مقصودة، كالعصف الذهنيّ.

٢-وجود منهجين دعويّين أو فقهيّين أو أكثر يقتضي التنافس المحمود، وليس التنافر المذموم، ومثال ذلك وجود كليّتين في جامعة، أو صحيفتين في مدينة، أو شيخين في بلدة، أو عالمين في مدينة.

٣-في حالة وجود اختلاف في الآراء يمكن أن يكون ذلك فرصة لتجريب تمارين اللياقة النفسيّة والذهنيّة في التعامل مع الاختلاف، فما تقدّمت الأمم من حولنا إلا بأسباب، منها قدرتها على احتواء وترشيد اختلافاتها.

٤-في ديننا العظيم المبادئ الكبرى للتعامل مع الاختلافات البشريّة، ومن هذه المبادئ:

أ)الاختلاف سنّة كونيّة، وطبيعة بشريّة، كما قال (سبحانه): (وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ) (هود: ١١٨، ١١٩)، ولكنّه غير مطلوب شرعًا، وغير ملائم طبعًا؛ ولذلك ذمّ الله المختلفين، فقال: (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) (آل عمران: ١٩) وقال: (وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا...) (آل عمران: ١٠٥).

فمع إقرار الدين الإسلاميّ بطبيعة الاختلاف بين البشر إلا أنه أمر بضبطه وترشيده، فحرّم البغي والتطاول بالباطل والجهل، وذمّ الخصومات وأهلها (بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) (الزخرف: ٥٨)، بل جعل المخاصم بالباطل من أصحاب النفاق العملي "وإذا خاصم فجر"، فدل ذلك على واقعيّة الإسلام، حين أقر بالخلاف بين البشر، وأمر بترشيده وضبطه، كما أقرّ بالحاجات النفسيّة للبشر، وأمر بضبطها، فأقرّ بالحاجة إلى المال وزينة الدنيا، وأمر بترشيدها وضبطها، وكذلك في سائر الحاجات البشريّة، والمكوّنات الفطريّة، والنزعات البشريّة.

ب) الاختلاف قسمان: الأول اختلاف التنوع، والثاني اختلاف التضادّ، ولكلّ منهما أحكام تخصه،

والذي بين المسلمين في الأغلب هو من اختلاف التنوع، خلا الاختلافات الأصوليّة - اعتقاديّة كانت أم عمليّة أم تشريعيّة-.

ج)اختلاف التضادّ له صورعديدة - علميّة وعمليّة- كمن يقلّل من شأن الدين، أو يسخر من بعض قضاياه، أو يشكّك في أوامره وأخباره، أو يفضّل العلمانيّة أو الليبراليّة على دين الله، أو يقدّم القوانين الوضعية على أحكام وشرائع ربِّ البريّة، أو يفرح بظهور أعداء الإسلام، أو يتولاهم، أو يرمي مسلمًا بالكفر، ونحو ذلك.

د)اختلاف التنوع أمر - في أصله- طبيعيّ، وهو جائز شرعًا، وحاصل واقعًا، والإقرار بحصوله لا يعني أنّه مطلوب ومستحبّ، ولكن يعني التعامل معه بمرونة ولياقة عقليّة ونفسيّة جيّدة، وبعدم ذلك يصبح هذا الاختلاف مذمومًا منهيًا عنه؛ لأنه يتحوّل - في أخفّ درجاته- إلى مراء وجدال قبيح مذموم، وفي أعلى درجاته يتحوّل إلى خصام ونفرة وتعصّب وتحزّب بالباطل.

هـ) كلّما اتسع علم الإنسان اتسع - غالبًا- أفقه النفسي والذهني، والعكس صحيح، ومن روافد ذلك معرفة أنواع الخلاف وآدابه.

و)في الحديث الصحيح: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)، وفي القرآن العظيم قوله (تعالى): ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾(الزخرف: ٥٨)، فالجدال والمراء يقودان إلى اللجاجة والثرثرة، وفضول القول والخصومة، والتعنّت والتعصّب للرأي والموقف، وهذا يؤدّي إلى التنافر والتباغض والتعادي، ومن أدوية ذلك قفل هذا الباب، وتجنُّب الخوض مع الخائضين والمجادلين والمتعنّتين، ففي الحديث الصحيح "أنا ضمين بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا".

أسأل الله (تعالى) أن يجمع شمل المسلمين، ويوحّد كلمتهم على ما يرضيه، وأن يُبعد عنا وساوس شياطين الإنس والجن، وإغراءات النفوس الأمّارة بالسوء؛ إنّه قريب مجيب.



ما يطلبه الإعلاميون!!

عرف الناس منذ مدة برامج ما يطلبه المستمعون، وما يطلبه المشاهدون، واستعيرت هذه العناوين لتبكيت الكاتب والعالم والمثقف؛ الذي يكتب أو يتحدث وفق رغبات المستمعين والمشاهدين، ولو كان ذلك على حساب الحق والحقيقة، جزئيًّا أو كليًّا، وعلى النسق نفسه سمعنا أنواعًا من النقد لصنف من الدعاة والمثقفين؛ الذين توجههم الجماهير أو النخب المحيطة بهم، وتؤثر في مواقفهم، ولا شك أن النقد لهذا الصنف - المشدود إلى المستمعين والمشاهدين والجماهير والنخب والجلساء والأتباع- يُعد صحيحًا وسديدًا، بل في حاجة إلى مزيد إيضاح وتأكيد.

ولعل من أخطر ما يصيب بعض الدعاة والمثقفين والعاملين للإسلام، هو وقوعهم في شراك الإعلاميين، المتخصصين في (صناعة النجم الإعلامي)، وإبرازه وتدريبه، أو تدجينه بهدوء ولطف، سواء أكان من ذوي المواهب الفذة أم كان دون ذلك، وفي الغالب فإن الغرض من ذلك استثماره واستعماله لترسيخ أمور معينة، أو التشكيك في قضايا ذات جدوى، أو لتزييف اتجاه له تأثير، أو لإيجاد بدائل يرغبها الملتاثون، أصحاب المنشأة الإعلامية، وخاصة المرئية.

دعونا نرَ ماذا يمكن أن يحدث، حينما نجد قناة مشهورة بالإفساد، والمضادة لقيم الأمة وأخلاقها ومصالحها؛ تعتني بشخص ما من الدعاة أو المثقفين، وتعطيه الكثير من الرعاية والاهتمام، وتسلط عليه الأضواء، وتتيح له المجال ليقوم - بحسب وجهة نظره- بالواجب الشرعي، ويستفيد من هذا المنبر الإعلامي لإيصال ما يراه نافعًا ومفيدًا.

الشيء الذي يُخشى منه أن يصبح هذا الشخص - بوعي منه أو بدون وعي- رهينة لمن أحسن إليه إعلاميًّا وأبرزه، فلا تسله عن الجناية الأخلاقية المستمرة؛ التي تمارسها تلك القناة أو الصحيفة، على المستوى الأخلاقي، كالإفساد المبرمج، والتسويق لقيم هوليود مثلا، أو الانحياز الضمني - على المستوى السياسي- للمشروع الصهيوني والأمريكي، لا تسله عن هذه الطوامِّ الكبرى؛ لأنك لا تجد عند هذا (المفكر النجم) إلا (ما يطلبه الإعلاميون)؛ الذين جاءوا به، بعد أن ظهرت أشراط جدواه، فرسخوه، ونفخوه، واستمرأ الرجل هذا الوضع؛ لأنه - بكل بساطة- أصبح أسيرًا لمن صنعه وأبرزه.

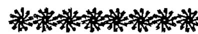
بل قد يتعدى الأمر ذلك، عندما تسمع سؤالا موجها إلى هذا الشخص، ومضمونه يعاكس الجهة الإعلامية، أو ينغص عليها، أو يخالف اتجاهها، المتبني لحرية عبثية، وإلهاء متعمد، وتسطيح مقصود، تحت شعار (انفتاح بلا حدود) ، فإنك لا تجد إلا غمغمة وهمهمة، وكلامًا عامًّا، يشبه الصابونة المبتلة؛ التي كلما أمسكت بها من جهة انزلقت إلى الجهة الأخرى.

وفي السياق ذاته لا بد- لاكتمال النجومية- من الجرأة في مخالفة السائد، من الفتاوى والمواقف والقضايا؛ التي يتبناها من تعتبر تلك الجهة الإعلامية أنهم (متشددون)، أو (منغلقون) أو (محافظون رجعيون)؛ فإذا الشخص الذي تم ترويضه في تلك الجهة الإعلامية يتصدى، ويصدر الفتاوى الجريئة، فإذا حصل له نقد من راسخ، أو تبرم من عالم، أو استنكر موقفه مثقف، أتى النجم الإعلامي المصطنع بأنواع المراوغات، من قبيل: أنا لا أفتي، وإنما أفكر بصوت مسموع، أو أطرح رأيًا آخر؛ إذ المسألة فيها أقوال، ونحو ذلك.

إن توصيف حالة المرتهنين لما يطلبه الإعلاميون، لا يعني بالضرورة أن الشخص فاسد الضمير، أو خائن، أو مرتزق، بل الأظهر أنه صادق، وناصح، ومتوخٍّ للإفادة، ومتصور أنه - بعمله هذا- يرتاد آفاقًا جديدة، ويتعامل مع متغيرات أكيدة، ويعالج الأمور بطريقة فيها ابتكار وإبداع وجدّة، لكن الذي ينبغي التنبه له هنا أنه ربما أصبح أسيرًا لتلك الجهات الإعلامية، إما بسبب الضعف البشري أمام الجاذبية والشهرة، وإما بسبب منفعة شخصية متحققة، مقابل ضرر قد لا يراه، أو ضرر يرى أنه غير موجه لأحد بعينه، أو بسبب أن تلك الجهات الإعلامية الراعية له قد أسرته بإحسانها، وقيدته بتفضلها عليه؛ إذ جعلت منه نجمًا، أو أضفت عليه المزيد من النجومية.

وهي تحرص - طوال الوقت- على الرعاية والعناية به، من خلال إجراء توجيه ناعم وخفيّ، ينفذ إلى اللا شعور ويستقر، ليتم بعد ذلك تذويب قناعاته وأفكاره بتدرج؛ للوصول إلى مرحلة تغييرها كليًّا أو جزئيًّا، وهي أساليب تمارسها المؤسسات الإعلامية المحترفة التي تجعل من أهدافها إبقاء هذا الشخص أو ذاك ضمن الدائرة العامة، المتسقة مع أهدافها الكبرى، وكلما نجحت المؤسسة الإعلامية في ذلك حققت أهدافًا أكبر، وقل الثمن الذي يجب أن تدفعه له؛ للمزيد من المرونة، والاتساق مع الأهداف العامة للجهة الإعلامية.

وما لم يتنبه دعاة الإسلام وعلماؤه ومثقفوه لمخاطر (ما يطلبه الإعلاميون)؛ فإن المنبر الإعلامي الذي تسنموه قد يصبح بهم، ومن خلالهم- مصيبة كبيرة، وخسارة فادحة، من حيث أرادوا الخير والفضل والنفع، وهناك آية قرآنية كريمة تشير إلى هذا المعنى، قال الله (تعالى): ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٤).



أهمية معرفة المرجِعية

كثر اليوم استعمال مصطلح مرجعية، وتداولته أيدي الكتّاب، وألسنة المتحدثين، وتوسعوا في ذلك، حتى إن بعض المستعملين له ابتذله، وربما أتى به في غير سياقه الملائم له، ولا بد من تجلية هذا المصطلح، وبيان أهمية دلالته؛ من حيث هو.

وبالنظر إلى التنازع التقليدي؛ الذي تتحكم في أمره العقائد والمفاهيم الكلية والمضامين العامة؛ التي تشكل بمجموعها (مرجعية) لكل فئة، تتضح للمتأمل مضامين المرجعيات الأكثر انتشارًا في العالم، ويمكنه الكشف - بعد ذلك- عن أثر هذه المرجعيات في إنشاء الصراع واستمراره، أو عدم تأثيرها.

ثم إنه في غمرة الاختلاف الصاخب حول ما الذي نأخذه من الغرب وما الذي نردُّه، تأتي المرجعية لتسهم في وضع إجابات مهمة، يمكن من خلالها التفريق بين الانزلاق والانغلاق، والتفريق بين الاستفادة البصيرة والتبعية العمياء، وبين المثاقفة المبصرة والمحاكاة العمياء، وبين مقتضيات العصر وأمراض العصر.

على أننا - حتى في داخل الإطار الإسلامي- نجد من خلال المرجعية الإجابة عن بعض أسئلة افتراق الأمة إلى فرق عديدة، سواء في نشأتها أم في تطوراتها اللاحقة، ومعرفة انحياز بعض الجماعات ضد بعض، وإدراك انزياح بعض الدعاة والمصلحين عن قناعاتهم ومنطلقاتهم، وتفسير التحولات الكبيرة التي تحصل أحيانًا في الجماعات والرموز والشخصيات المؤثرة، وليس من المبالغة القول بأنه يمكن أيضًا دراسة بعض ملامح التاريخ والحضارة الإسلامية وغير الإسلامية، استنادًا على المرجعيات التي كانت سائدة في تلك الحقبة الزمنية، بوصفها مؤثرة تأثيرًا مباشرًا في النشاط البشري، والممارسات بشتى أنواعها.

وفي الحاضر المُعَاش نجد أن جوهر مجموعة من المشروعات النهضوية في العالم الإسلامي يقوم على مبدأ اللحاق بالنموذج المعرفي الغربي؛ الذي يحاول فرض نفسه، من خلال تفوقه التقني والإعلامي، وانتصاراته السياسية والعسكرية والاقتصادية، ولمعرفة حقيقة هذا النموذج لا بد من معرفة (مرجعيته) التي ينطلق منها، وتلتف حولها مفاهيمه وممارساته الكبيرة والصغيرة؛ لأن معرفة مكونات هذه المرجعية وفهمها يعطينا القدرة على رسم درجات الإلحاق أو الالتحاق، ابتداءً من المتعقلين المواثمين، وانتهاءً بالمتسرعين الشكليين، وما بينهما من درجات دعاة الاستعارة والاستغراب.

بَيْدَ أن من المهم أيضًا - وربما بدرجة أكبر- معايرة وضبط تلك الدعوات القريبة من التراث، المنادية - في الوقت نفسه- باللحاق بالنموذج الغربي، مع الحفاظ على الهوية قدر المستطاع، على أن يتم في

الوقت ذاته - كما يرون- تطوير الهوية لتساير العصر، وهذا نموذج بدأ ينتشر الآن بشكل أوسع، فإذا نظرنا إلى نتاجه ومفرداته، ثم أحلناها إلى (المرجعية الإسلامية)، أو (المرجعية المادية الغربية)، نجد أنه – في الأغلبِ الأعمِّ– ليس سوى محاولة جديدة لمحاكاة النموذج الغربي، لكن في شكل إعادة قراءة للهوية بعيون غربية، وعلى أسس غربية، مع إبقاء الشكل الخارجي، والمحافظة على الغلاف، كل ذلك وأشباهه، وما هو أخفى منه وأدقُّ، يمكن اكتشافه وقراءته من خلال أدوات كثيرة، أهمها معرفة (المرجعية) ومكوناتها ومستنداتها وتمثلاتها في الواقع.

ولست أوجه الحديث هنا عن قضايا الصراع وأدواته، ولكن الكلام متوجه إلى التنبيه إلى أهمية معرفة (المرجعية) في ذاتها: تعريفًا بها، وبيانًا لاستعمالاتها عند العلماء والمفكرين، بناءً على أوجه إسنادها، ثم معرفة مستوياتها حسب الاستعمال المعرفي، فإن ذلك يعطينا قدرة تفسيرية جيدة لمعرفة التغيرات والتحيزات، ثم الممارسات والعلاقات، ثم أخيرًا توقع العواقب والمآلات.

إن جملة ممن يتناولون الشأن العام - الثقافي والفكري والعقدي والسياسي والحزبي والاجتماعي- يغفُلون عن النظر في المرجعيات المعلنة والكامنة؛ التي تمتلك قدرة قوية على التوجيه والتأثير، بصفتها حاكمة غير محكومة- في الغالب- ومؤثرة غير متأثرة، ثم بصفتها الإطار العام الذي تندرج تحته جزئيات كثيرة.



لا تكن مخلب قط!!

تقول الأسطورة الهندية أن قردًا وقطًا تآخيا، وكانت لهم عدة قصص، منها: أن القرد كان يشتهي ثمار الكستناء المشوية على الجمر، فكان يمسك بمخلب صديقه القط؛ ليلتقط تلك الثمار التي يشتهيها، وبذلك يحصل عليها دون أي أذية لنفسه.

وقد استعير المعنى المجازي لمخلب القط لكل ممارسة كريهة أو مكلفة أو غير شعبية ـ يريد شخص مّا القيام بها دون أن يعرض ذاته للتلوث.

ولعل ذلك أحد فروع (الميكافيلية) أو (البرغماتية)؛ حيث الغاية تبرر الوسيلة، ومخلب القط ليس سوى وسيلة تقوم بالدور عن الشخص الآخر، الذي لا يريد أن تلوث يده بالمهام أو الآراء القذرة، أو لا يرغب أن يظهر أمام الناس أو في التاريخ ووجهه ملطخ بها.

إن مخلب القط يحجب عن الناس ملاحظة الفاعل الحقيقي، والموجه الأصلي، الذي يجب أن يظهر بوجه نظيف، ولا يأتي من جهته إلا الأخبار السارة، والأعمال الجيدة.

وفي هذا السياق ينبغي أن يكون المخلب شخصًا من خارج الدائرة المباشرة، التي تحيط بالموجه الحقيقي (قدر المستطاع)، حتى يكون ذلك أبعد عن الشبهة، وأجود في استعمال المخلب.

وإن المخلب أو المخالب هي مجموعة من المغفلين (أو المتغافلين) يوجدون في كل مكان، وهم يستمتعون بأداء دور المخلب، لاسيما إذا ألقي لهم بعظمة أو عظمتين من المكافاءات التي يميلون إليها. ومن أحسن من يقوم بدور المخلب، الشخص الذي يتصف بالغضب أو النقمة أو الحقد، أما صاحب النزعة العدوانية فهو من أفضل أنواع المخالب، وسِرُّ ذلك أن هذه النفسيات أكثر استعدادًا للقيام بدور المخلب، ولاسيما إذا وقعت تحت وطأة المعروف المتمثل في بعض اللقم اليسيرة (الحسية أو المعنوية).

إن الشخصية الموجهة والأساسية في هذا السيناريو تؤمن – ربما لا شعوريا- بأنه لا يصح في هذا (العصر النتشوي) أن يكون الإنسان مفرطًا في الاستقامة؛ لأن قاطعي أشجار الغابة لايختارون سوى الأشجار المستقيمة، أما الأشجار المعوجة والملتوية فإنها تترك كما هي. ولأجل هذا كله تبحث هذه الشخصية عن مخلب قط لاستخدامه في الأدوار الملتاثة، ثم التخلص منه في الوقت المناسب بعد الانتهاء من تنفيذ الدور الملتوي والمعوج.

كل ما سبق توصيف لهذه الحالة، والسؤال المهم هنا: هل يليق أن يكون المثقف أو الإعلامي أو الداعية أو طالب العلم مخلب قط؟!

ولمزيد من الإيضاح للصورة الواضحة!! فإن للقط أظفاراً طويلة لالتقاط الأشياء، تغطيها بطانة ناعمة، ويمكنه الإمساك بيده لالتقاط الأشياء، أو لخمش الآخرين بها، وهذا قد يؤذي القط أحيانًا، ولكنه في غالب الأحيان لايشعر بشيء.



السوس الإعلامي

يقال: إن الطائر المسمى (مالك الحزين) سئل: لماذا تضع قدمًا وترفع الأخرى؟، فأجاب بأني أخاف أن أضعهما معًا فتنخرق الأرض، وكذلك بعض الكائنات الإعلامية، تظن أن الطنطنة والزنزنة حول الثوابت والهوية والأخلاقيات ومظاهر التدين سوف ترسخ وجودهم، وتقوّي مشروعهم، ويظن أكثرهم ذكاءً أنهم يفضلون زيادة الجرعات التفويضية، لولا خشيتهم أن تتخرق أرضية المجتمع!!.

أليست هذه السلوكيات عبارة عن أنماط متكررة من الطرائق التغريبية؛ التي بليت بها الأمة من عصر نابليون إلى اليوم.

سلوكيات إعلامية وثقافية تسعى في تعزيز نفوذ فئة هامشية، تريد أن تكون هي الصلب والأصل والمتن، ومن سواها يكون الهامشي.

ممارسات إعلامية متكررة نمطية، هدفها الرئيس مساعدة الأقلية المجهرية، وإعلاء شأنها، ولو كان ذلك على حساب منظومة القيم، ولو أدى ذلك إلى تراجع المثل.

إنها لمهمة نبيلة أن يصبح المرء حارسًا للقيم، وداعيًا إلى الفضيلة، وساعيًا إلى تكوين رؤية اجتماعية عامة، تحوّل كافة الممارسات والسياسات إلى قيم وغايات أخلاقية حضارية راقية.

غير أن مثيري الغبار في صحاري التيه لا يناسبهم ذلك، ولا يروق لهم، معتمدين على قوة النفوذ الإعلامي، واحتكار المديح والثناء لأنفسهم، مع التنصل من الأخطاء، والاستئثار بمكبرات الصوت الإعلامية، مع قدرة "ضبعية" على نهش الفريسة، وفي الوقت ذاته تكتفي الأغلبية بالنظر، ويكتفي الضحايا بالشكوى، ومحاولات تشبه محاولات الأيتام على موائد اللئام.

فإذا خلت الساحة للنطائح اللائكية، وتغافل القادة عن ألاعيبهم؛ فستكون المحصلة النهائية صراعًا فكريًا غير متكافئ الوسائل، إذا تُرك على هذا النحو فإنه سينتهي برحيل الصادقين، وانزواء الأبرياء، واستعلاء أهل الدهاء والمكر؛ الذين يسعَون دائمًا إلى مزيد من النفوذ، وتحقيق المآرب الشخصية، وغالبًا ما يكون في البداية أولَ ضحايا (السوس الإعلامي) الأكْفاءُ الصادقون المخلصون، والضحية التالية هي المؤسسة العامة (كلها)، وإن ظهرت قوارض السوس الإعلامي في ثوب شفقة مصطنعة، أو استغلت أحداثًا معينة، أو استفادت من دعم خارجي، وفيما حدث في بلدان عديدة ما يدل على ذلك، وفي قصصهم عِبرة لأولي الألباب.

د. عبد الكريم بكار

كاتب ومفكر سوري.



ثراء الروح

حين نتأمل في أحوال النفس البشرية ،وفي أوضاعنا العامة نقف على مفارقة واضحة ، تتلخص في أن راحة الأجسام وأناقتها تتطلب دائما الاستهلاك والاستحواذ على الأشياء ، حيث يطلب البدن دائماً الطعام والشراب واللباس والمأوى، أما راحة الروح وثراؤها ورفاهيتها ، فقائمة على البذل والعطاء والتضحية والتطوع ، وهكذا فرفاهية الأبدان تعني السحب من رصيد الحياة والأحياء، ورفاهية الأرواح تضيف إليهما من خلال العطاء المجاني غير المشروط . أستحضر هذا المعنى وقلوب المسلمين اليوم تذوب أسى وحزنا على ما يجري لإخواننا في غزة الصابرة المصابرة المرابطة حيث البحر من أمامهم والعدو من خلفهم ، وحيث الحصار الرهيب الذي حوّل بقعة من الأرض إلى سجن كبير، ليس فيه إلا النزر اليسير من مقومات الحياة !!. المسلمون يريدون أن يفعلوا شيئاً لأهل غزة فلا يجدون الطرق والوسائل والأطـــر التي تساعدهم، فتزداد حسرتهم ، ويحارون في أمرهم ، لماذا هم هكذا ؟ ولماذا يحدث لهم ذلك ؟! فلنترك الحديث مؤقتاً في شأن غزة التي تثير شجوننا ، وتشحننا بالألم ، ولنعد إلى ثراء الروح بوصفه مفهوماً من المفاهيم المهمة في حياتنا وحياة كل الناس ، ولعلى أقارب هذا الموضوع عبر النقاط الآتية :

١- فطر الله النفس البشرية على التسامي والترفع إلى أفق التضحية والعطاء ، فنحن نشعر في أعماقنا بشيء يؤنبنا حين نكون أنانيين ، وحين ندير ظهورنا لمستغيث وملهوف ، كما أننا نشعر بالاغتباط وتحقيق الذات حين نسعف جريحاً ، أو ندفع الظلم عن مظلوم ، أو نطعم جائعاً .... وهذه الفطرة تشكل القاعدة الصلبة لكل الجهود التربوية التي تُبذل في كل مكان من أجل جعل الأجيال الجديدة خيِّرة ومعطاءة.

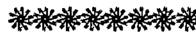
٢-مهما كانت الأوضاع الحضارية ممتازة ومتقدمة ، فإنه سيظل هناك نوع من القصور في النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية ... فما يصنعه الإنسان سيظل ناقصاً لأن الصانع هنا غير كامل ، ومن هنا فإن بذل المعروف والتطوع ببذل الجهد والوقت لا يكون لصقل الروح فحسب ، وإنما للاستدراك على قصور النظم، وما تحدثه من ظلم وخلل في الحياة العامة، ولهذا فحين نرى ضموراً في المؤسســات الخيرية، والأنشطة التطوعية، فإن ذلك يعني الكثير من الثغرات التي لا نجد من يسدُّها والكثير من الآلام والجراحات التي لا تجد من يداويها ، وهذه سنة من سنن الله ـ تعالى ـ في الخلق .

٣-مع أن ميل الناس إلى فعل الخير فطرة فطرهم الخالق ـ سبحانه ـ عليها إلا أن تجاوبهم مع تلك الفطرة يظل خاضعاً لنوعية التربية التي تلقوها والبيئة التي يعيشون فيها ، وأتصور أن ما سماه الأصوليون بـ (الكليات الخمس) وهي حفظ الدين والنفس والعقل والمال والعرض تصلح قاعدة عظيمة للتربية الاجتماعية ولتدعيم النزعة الأخلاقية والإنسانية لدى الناشئة حيث يؤكد المربون على أن المسلم مطالب

بالمحافظة على تدينه ودينه وعلى نفسه وماله وعقله وعرضه، ومطالب كذلك على أن يساعد الناس على المحافظة على ذلك ، ومن هنا يجد الطفل نفسه مغمورة بالمعاني والرموز والإشارات التي تحثه على الإسهام في الشأن العام ، والتي تجعل منه عضواً خيّراً في جماعة كبيرة .

٤-إذا نظرنا في الوصايا الأخلاقية التي تتناقلها الأمم عبر الأجيال ، فإننا سنجد الكثير من التوافق والإجماع على الكثير جداً من القيم والمثل ، لكن حين نأتي للواقع العملي على الأرض ، فإننا نجد قيماً وأخلاقاً عديدة متفقاً عليها، لكنها شبه غائبة عند بعض الشعوب، ومنها العمل التطوعي والخيري واللاربحي عامة ، وهذا يعود في الحقيقة إلى شيء مهم ، هو أن المبادئ لا تعمل في فراغ ، وإنما تحتاج إلى أطر تطفو بها على سطح الوعي، وتسهّل عملية ممارستها والتفاعل معها ، وهذا واضح فحث الناس على التطوع - مثلا - على مساعدة المكفوفين في قضاء حاجاتهم اليومية ، لا يأتي في الغالب بنتيجة تُذكَر ، لكن حين تنشئ مؤسسة تؤطر تلك المساعدة ، وتضع البرامج المناسبة لها وتوفر الأرقام عن المكفوفين المحتاجين للخدمة، وتسهِّل التواصل معهم ... فإننا سنجد الكثير من الشباب الذين ينخرطون في تلك المؤسسة ، وهذا ما يحدث في كل مكان من العالم، ففي الولايات المتحدة الأمريكية - مثلاً - ما يزيد على مليون ونصف مؤسسة (لا ربحية) وهذا العدد الضخم تمكّن من جمع ما يزيد على ثلاثمائة مليار دولار العام الماضي لصالح العمل الخيري ، كما أن بين كل اثنين من البالغين هناك واحداً يشترك في عمل خيري أو تطوعي ، وقيمة جهودهم تقدر بمئة وخمسين مليار دولار ، أو ما يعادل نحواً من (٥٪) من الدخل القومي !.

العرب يزيد عددهم على عدد سكان الولايات المتحدة ، فماذا عندهم ؟ ما يحدث في غزة والحاجات الهائلة لسكانه أظهر أن أوعية العمل الخيري وأطره في الوطن العربي في منتهى الضعف والهشاشة ولا بد لهذا الواقع من أن يتغير إذا كنا نريد للفرد أن يشعر بالتألق الروحي ، وأردنا للمجتمع أن يشعر بأنه يستحق لقب مجتمع وليس عبارة عن حشد من السكان.



أنصاف أحياء

إن العمر البيلوجي لأحدنا يحسب بالسنوات والشهور والأيام أما العمر العقلي والروحي فيتم تقييمه من خلال مساحة ما يمتلكه المرء من وعي ونضج، ومن خلال الإنجازات التي يحققها والآثار التي يتركها خلفه. الحساب البيولوجي غير ذي معنى عند أولى الألباب لأنه شديد السطحية حيث يستوي فيه من يقضي سحابة نهاره في مختبر أو في خدمة قضية مهمة، ومن يكنس الشوارع ذهاباً وإياباً بسبب فراغ الروح والفكر حتى إن المغمى عليه يظل حساب عمره مستمراً مادام النفَس موجوداً!

من هذا المنطلق نقول: إن فينا من هم أحياء حياة حقيقية عظيمة لأنهم يتمتعون بدرجة عالية من اليقظة الروحية والعقلية، ويعرفون قيمة الحياة التي منحهم الله- تعالى – إياها، وفينا أيضاً من يمكن وصفه بأنه نصف أو خمس حي.... وذلك بسبب ضعف يقظته وضياع أهدافه وخمول حركته.... والسؤال المطروح علينا هو: كيف يمكن للمرء أن يحيا فعلاً على المستوى المطلوب؟

الجواب يكمن في المقاربة التالية:

-١من المهم أن أشير إلى أن الذين يعيشون بكامل طاقتهم الروحية والنفسية، ويستفيدون من أعمارهم والفرص المتاحة أمامهم على نحو تام ومكتمل، هم نادرون جداً، وهذا من باب الاحتياط، وإلا فإن هذا الصنف من الناس لا يكاد يوجد في غير الأنبياء والمرسلين- عليهم الصلاة والسلام- فما أكرمهم الله به من الصفات الفريدة ومن العصمة يجعلهم وحدهم أهلاً لذلك.

-٢كل عطاءاتنا وإنجازاتنا وكل ما نصيبه من تألق ونجاح سيكون من غير معنى في التحليل النهائي إذا لم يساعدنا على الفوز برضوان الله - تعالى- والنجاة من عذابه، وهذه مسألة جوهرية للغاية، فالمسلم الذي يتألق وينجز خارج دائرة محبوبات الله – تعالى- يشبه الطائر الذي يبيض في غير عشه أو يستثمر في شيء زائل و مؤقت أو في شيء ضار ومدمر. إن إخلاص الأعمال والنيات لله – تعالى- والعيش وفق مراداته هو الذي يجعل لإنجازاتنا معنى، وعلينا أن نتذكر باستمرار قول الله – عزوجل-: ((قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له. وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)). إن الإخلاص يحفز المسلم على التفاني في العمل والعطاء لأن المخلص يعلم أن المكافأة ستكون سخية جداً، لأنها من أكرم الأكرمين.

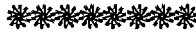
-٣في زمان شديد التعقيد كزماننا صار من غير الممكن لأي إنسان أن يتعرف على ذاته وإمكاناته، وأن يفهم عصره ويتلاءم معه من غير أن يتعلم تعلماً جيداً وأن يكون جاداً في اكتساب المعرفة وتلقي التدريب المطلوب ، ومن هنا فلا بد من رفع شعار : (التعلم مدى الحياة وبأفضل طريقة ممكنة)

-٤التفوق الخلقي والاستقامة السلوكية شرطان مهمان للعيش في يقظة شديدة ، وذلك لأن من غير الممكن في أيامنا هذه لأي أحد أن يتفوق تفوقاً باهراً من غير حسن الخلق القائم على اللطف والأمانة واحترام الآخرين والقدرة على العمل ضمن فريق إلى جانب التفهم لأوضاع الناس والتسامح معهم ومد يد العون إليهم ويمكن أن نضيف إلى هذا الدقة في العمل والإتقان وتجويد الأداء والفاعلية الواضحة ، وبالجملة فإن حسن الخلق باب من أبواب الرزق

-٥ التركيز على النبوغ في تخصيص من التخصصات أو اكتساب مهارات عالية في مجال من المجالات ، فالمعارف قد تشعبت اليوم ، وصارت المنافسة في سوق العمل كبيرة جداً ، ولهذا فلا بد من التركيز العالي والمتابعة المستمرة لفرع من فروع المعرفة ، وهذا واضح جداً

-٦التألق الروحي من خلال الإكثار من ذكر الله ـ تعالى ـ والثناء عليه والتنقل ومن خلال المراقبة والمحاسبة للنفس وتخليصها من أمراضها وعيوبها .

-٧استغلال الوقت واستثمار الساعات والدقائق في الأعمال المفيدة ، وإن العاقل يكون شحيحاً بوقته و حريصاً عليه أكثر من حرص البخيل على المال لأن المال إذا ذهب يمكن أن يعوض ، أما الوقت فتعويضه مستحيل . الوقت هو الحياة وعلى من يريد أن يحيا حياة عظيمة أن يكون حرصه على وقته عظيماً .



د. محمد جمال حشمت

كاتب سياسي مصري.



مراجعات واجبة في عالم التغيير

أوضحنا في مقال سابق، ضرورة فهم أن آية التغيير، في قوله تعالى: (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ) (الرعد: ١١)؛ التي أوجبت أن تغيير النفس مقدم على تغيير الواقع، يجب أن تكون هي المدخل الحقيقي؛ لإرساء معالم منهج التغيير، في حياة الأمة الإسلامية.

وحيث إن المنهج يبني ولا يهدم، يجمع ولا يفرق، فوجب البناء من أسفل، ألم تر أن بناء درجات السلم تبدأ من أسفل، وأن هدمها يبدأ من أعلى!!، وعلى الحركات الإسلامية التي تنتهج نهج العنف أن تراجع نفسها؛ فإن تقديم النفس شهادة في سبيل الله شوق وأمل، تهفو إليه النفوس، كل النفوس، وقد لا يستغرق الإعداد له وقتًا طويلا، وتدريبا عنيفًا، أو معرفة بمهارات القتال أو الالتحام.

بينما تقديم النفس شهادة على الناس هو العمل الصعب؛ الذي يحتاج إلى صبر وعلم، وعمل وتضحية، وقوة احتمال، وقدرة على الاستيعاب، تستغرق وقتًا وجهدًا، وهو ما يصعب على كثير من النفوس المتحمسة!، وللأستاذ محفوظ النحناح (رحمه الله) قولة بليغة في ذلك: "نحن قوم نجيد الشهادة في سبيل الله، ولا نجيد الشهادة على الناس".

وصدق الله العظيم: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) (البقرة: ١٤٣).

تلك هي المهمة الرئيسية للأمة الشهادة على الناس، وقد استقر رأي كثير من العلماء، على أن التغيير الواجب، لا يعني فقط التغيير العقيدي الشكلي، من التسيب إلى الإلتزام، بل إن التغيير المنشود يجب أن يحقق إنجازًا، على ثلاثة مستويات، كل منها يؤدي لما بعده، تغيير في عالم الأفكار، يتلوه تغيير في عالم المشاعر، ثم يترجم إلى تغيير في عالم السلوك (مشروع النهضة، سلسلة أدوات القادة: د. جاسم سلطان).

ولكي تبدأ الحركة الإسلامية الرشيدة رحلة التغيير لديها؛ كي تثمر نشاطاتها في تغيير الواقع الذي تحياه، لا بد لها من البدء في المراجعات الفكرية والحركية، وهي أمور واجبة من آن لآخر، وهي كذلك أصول شرعية، بدأت منذ راجع الله (تبارك وتعالى) المؤمنين، بعد غزوة بدر: (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم

مِّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (آل عمران: ١٥٢).

وراجع رب العزة نبيه من قبلُ، في عبس وتولى، وكذلك راجع الرسول (صلى الله عليه وسلم) زوجاته (رضوان الله عليهن): (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً) (الأحزاب: ٢٨).

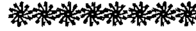
وتمت المراجعة أيضًا، في غزوة حنين، وفي أسرى بدر، والمقام لا يتسع لحصر هذا الخلق، وذلك الأصل في التربية الإسلامية؛ التي تولى بها رب العزة رعايته لأمة محمد (صلى الله عليه وسلم)، فإذا اتفقنا على كل ما سبق يبقى الدخول في لب المراجعة، وبدء مسيرة التغيير الواجب داخل الحركة الإسلامية، هو موضوع مقالنا القادم، إن شاء الله.



الأفكار بداية الأزمة والحل!!

انتهى البحث بنا، في المقالة السابقة ، إلى أن التغيير في النفس مقدم على التغيير في الواقع، والأمر يستوي على الأفراد والجماعات، ولا بد له أن يتم على ثلاثة مستويات، مستوى الأفكار، ومستوى المشاعر، وأخيرًا مستوى السلوك؛ الذي يُحرك الأحداث، ويُحدث التغيير المنشود!. كذلك تأكدنا، أن المراجعة أصل من أصول الإسلام، علمه لنا رب العزة، في مواقف كثيرة، في القرآن، وكذلك النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) مع أهل بيته وأصحابه، والآن نحن مؤهلون للبدء في حالة مراجعة إجمالية، لأفكار ونشاطات الحركة الإسلامية، طوال العشرين عامًا الماضية. ولا شك، أن النصيب الأكبر في هذه المراجعة، سيكون من نصيب كبرى الحركات الإسلامية في العالم، وهي جماعة الإخوان المسلمين، وهي فعلا بصدد هذه المراجعات والدراسات؛ لإصلاح الداخل؛ الذي يمثل رأس الحربة، في إصلاح المجتمعات الإسلامية؛ التي تغربت، وتأثرت بالوافد الغربي، فلم تنل منه إلا أسوأ ما فيه من خلق وأداء!!!. ولكن لماذا نركز على عالم الأفكار في البداية؟؛ لأن المشاعر والسلوك دائمًا تتبع الأفكار، ولأن الإسلام عندما جاء كان أول ما غير في العرب هو عالم الأفكار، من اعتقاد بالموت والعدم، وأنه لا حساب بعد الموت، لاعتقادهم بتعدد الآلهة، وهو ما زاد من عنادهم للهداية، لتقليدهم لآبائهم، واعتبار الاتباع لهم هو طريق الهداية والصواب، وهو ما أصابهم بالجمود والتقليد؛ لإعراضهم عن العلم، وافتقادهم الرغبة في التعلم، مما أدى لافتقادهم حسن استعمال حواسهم، وبالتالي عدم الاستفادة من تجارب التاريخ وعظاته. من أجل ذلك، وغيره كثير، كان لا بد من الاهتمام بعالم الأفكار، فكما أن بداية الإصلاح تغيير المفاهيم والأفكار؛ فإن بداية الخلاف والشقاق أيضًا، يبدأ بالأفكار. في دراسة نشرت أخيرًا، في مجلة "وجهات نظر" للأستاذ عصام تليمة، أحد التلاميذ المقربين من الشيخ القرضاوي، بعنوان "الخارجون من الإخوان.. متى؟، وكيف؟، ولماذا؟"، يقول فيها، بعد أن أوضح أن هدف الدراسة ليس النبش في الماضي بهدف النيل أو التجريح: "إنما هدفها أن تنظر إلى الماضي نظرة فاحصة، مستخرجة الدروس والعبر، مستلهمة منه ما يعين على فهم الحاضر، واستشراف المستقبل، وطي صفحة غدت في بطن الغيب بين يدي الخالق (جل وعلا)، بما فيها من حسنات وسيئات، ولكي لا ننسف المستقبل لصالح الماضي، ولكي لا يتكرر الخطأ في التعامل مع الناس، وتناسي أقدارهم وعطائهم، وحسن تصنيفهم، تصنيفًا يقوي الجماعة الوطنية، ولا يضعفها، وينهض بالفكر الإسلامي، ويغذيه بروافد عديدة، لا يشترط أن تخرج من معين دَعَويٍّ وفكري واحد. وقد اخترت الذين خرجوا من الإخوان بناء على موقف أو خلاف فكري، سواء في فكر الإخوان، أم في فكر إدارة الجماعة، وابتعدت عن الانشقاقات القائمة على أسباب

سياسية أو شخصية، أو ما شابهها، لم تكن دوافع وأسباب الخروج من جماعة الإخوان واحدة، فقد كانت متعددة، وأغلبها بُني على مواقف فكرية، سواء كانت مرتبطة بموقف انفعالي، أم موقف مدروس؛ نتيجة محنة دفعت بأصحاب المواقف لاتخاذ قرارهم، أو تأمل الخارج منهم إلى مآلات الأمور، ففكر في وسيلة أخرى، يعمل بها دون صدام مع الجماعة أو النظام القائم"، ثم حصر الأسباب في ستة أسباب، نبدأ بها المقال القادم، إن شاء الله.



آفات يجب التخلص منها

صدق الله العظيم إذ يقول، في محكم كتابه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا × يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) (الأحزاب: ٧٠، ٧١) إذ كل فعل لا بد أن يسبقه قول من صفاته، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، والخلل في أي منهما يعبر عن آفات فكرية وتربوية، تنخر في الجسد الواحد، وتُضعف من مناعته، وتستهلك وقته فيما لا يُجدي، وكل خلل منهما يؤدي للآخر، فالأفكار العاجزة تُفسد التربية، والتربيةُ المنغلقةُ تصيب العقول بالعقم والجمود.

وفي تكرار قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل: ١١)، (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (النحل: ١٢)، لدلالة كبرى على أهمية التفكرِ والتدبر، إعمالا للعقل؛ الذي هو في الوقت ذاته هدف المغرضين، حيث تبدأ معركتهم مع الإسلام والمسلمين.

وهنا نستعرض بعض هذه الآفات؛ التي تناولها الكثيرون من الأساتذة والدعاة والمربين، إجمالا وتفصيلا، تحت عناوين شتى "العقل المسلم الأزمة والمخرج" للدكتور عبد الحليم أبو شقة (رحمه الله)، "أزمة العقل المبدع رؤية في واقعنا المعاصر" دراسة للأستاذ محمد المصري، "من الصحوة إلى اليقظة - إستراتيجية الإدراك للحراك" للدكتور جاسم سلطان، وكذلك كتب آل قطب، وغيرُهم كثيرون.

لكن هنا، ربما تعطي التجربة الذاتية بُعدًا جديدًا، وتوجهًا يؤكد واجب كل صاحب دعوة في استكمال أدوات الفهم والوعي، بجانب النوايا المخلصة، والهمة الفاعلة، ويمكن تلخيص هذه الآفات الشائعة في الآتي:

١- الخلط بين الثوابت والمتغيرات، أو بين المبدأ والمنهج.

٢- الجهل في فهم العلاقة بين التربية والتغيير.

٣- التفكير النمطي، والشيخوخة المبكرة.

٤- استسهال التقليد، ومقاومة التغيير، وغياب الاجتهاد، والخوف من الجديد.

٥- تقديس الأشخاص أو القرارات، والانشغال بالقائل عما يقول.

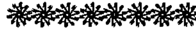
٦- عدم الاستعداد لنقد الذات ومراجعة المسار لتدارك الأخطاء.

٧- تسطيح الأمور، أو المبالغة فيها.

٨- التقييم بالانطباع، وخنق الكفاءات.

ولا شك في أهمية البحث في هذا الموضوع، والأهم منه آذان تسمع، وعقول تعي، وأفهام تدرك، وإرادة تغير، انفكاكًا مما وقعنا فيه؛ الذي يلخصه الأستاذ عبد الحليم أبو شقة، في قوله: "وحين نتساءل عن

الحالة الراهنة؛ التي عليها العقل المسلم، نجد أننا ظللنا قرونًا نعمل في إطار التقليد الفقهي، ثم انتقلنا إلى مدرسة حديثة، تعمل في إطار التقليد الأوروبي الغربي، ثم إلى مدرسة حديثة، تتحسس طريقها بين القديم (مع العودة إلى الأصول) وبين الحديث - تأخذ منه بحذر- (المسلم المثقف).
ثم تطورت هذه المدرسة الأخيرة، في ردة فعل رجعية لمواجهة الشرود التقدمي، فألحت على الذاتية، واستبعاد التفاعل الإيجابي مع الفكر الإنساني والتجارب البشرية (في المصطلحات، وفي مناهج البحث، وفي مناهج الحركة والدعوة، وفي المفاهيم السياسية والاقتصادية والتاريخية)، والتسويغ لذلك هو: الأصالة، ومخافة الوقوع في شَرَكِ الفكر الغربي، والنتيجة هي الوقوع في شرك الجمود الخرافي، أو اللا معقول".



الخلط والجهل آفات يجب التخلص منها

من الظواهر المرضية، والآفات الفكرية؛ التي تنخر فى صفوف الحركة الإسلامية، ثمانية، أجملناهم فى المقالة السابقة، نبدأ بهم كالتالى:-

الأولى: الخلط بين الثوابت والمتغيرات، أو بين المبدأ والمنهج:

هذا الخلط هو أول ما يُفسد على أبناء الحركة الإسلامية نظرتهم لمفاهيم تتعلق بالمبدأ الذي يفصل نظام القيم فى الإسلام، وتوضح مضامين الرسالة، وهي مفاهيم تتعلق بماذا؟، لا بكيف؟، ومفاهيم أخرى تتعلق بالمنهج؛ من حيث طرائق التطبيق، ونظم التغيير، وهي تتعلق بكيف؟، لا بماذا؟.

وهنا؛ نتيجة هذا الخلط، تتوقف أية تجديدات فى الوسائل والمناهج؛ لعلة الثبات والإصرار عليها؛ حيث تعتمد الوسائل كمبادئ أو العكس، ومما يؤدي للجمود الخلط الحادث عند البعض، بين ثوابت الإسلام كرسالة وثوابت الحركة كتنظيم، حيث تجب القداسة للأول، بينما لا تحمل الثانية شيئًا من ذلك، بل يمكن تعديلها وتغييرها، طالما لا ترتبط بثوابت الدين (كالاسم والمستهدفات والمناهج والوسائل والمسارات والشعارات وغيرها).

فمثلا شعار الإسلام هو الحل، يعني أن الإسلام كدين يرشدك لحلول كل المشكلات، لكنه لا يعني أن نستغني عن العقل والتفكير؛ لأن هذا مزلق فكري؛ لأن العقل هو الأداة التي ستُخرج من الشرع الأحكام والتشريعات، ونتج عن هذا إفساد وتعطيل لهدف أساسي للحركة الإسلامية؛ حيث حاولت واستطاعت - لحد ما- أن تُخرج الدين من نطاق الإصلاحات الجزئية (تصحيح العقيدة – تصحيح العبادة - الوعظ والإرشاد)، إلى نطاق الإصلاح الكلي، أي التغيير الشامل للسياسة والاقتصاد، والتربية والتعليم، والثقافة؛ لتكوين مجتمعات لا تضارب فيها بين الدنيا والآخرة، ولا بين العلم والدين، ولا بين الأهداف والوسائل: (فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ) (آل عمران: ١٤٨).

ثانيًا: الجهل فى فهم العلاقة بين التربية والتغيير:

وأخطر ما تكون عند القادة؛ الذين تسيطر على كثير منهم فكرة أن عملية التغيير والتحول، القائمة على التدافع، لا يمكن أن تتم قبل ان يستكمل جموع العاملين فى الحركة الإسلامية تزكية نفوسهم، وتربيتها إيمانيًّا وروحيًّا!، وهو ما يبدو معقولا لأول وهلة، لكنه غير صحيح؛ لأن فيه إهدارًا كبيرًا لقدرات الأمة، وتعطيلا لأفرادها، وتأخيرًا فى تقدمها لمشهد الصدارة!.

فالصحابي الجليل أبو محجن الثقفي (رضي الله عنه)، كان مولعًا بشرب الخمر، مشتهرًا به، وكان سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه)، قد حبسه فيه، فلما كان يوم القادسية، وبلغه ما يفعل المشركون

بالمسلمين، ألح على أم ولد لسعد - كان محبوسًا لديها- أن تفك وثاقه؛ ليقاتل مع المسلمين، وتعهد لها أن يرجع لوثاقه بعد المعركة!.

فحمل على المشركين حملة صادقة، حتى قال سعد: "لولا أن أبا محجن فى الوثاق لظننتُ أنه أبو محجن، وأنها فرسي"، هكذا كان الصحابى الجليل مرتكبًا لكبيرة، أي لم يستكمل مراحل التربية بعد، ورغم ذلك لم يمنعه قادة الإسلام من الخروج فى الجيش للجهاد؛ الذي هو ذروة سنام الإسلام، إقرارًا بقوته وكفاءته وحبه للجهاد، ونقطة ضعفه كانت الخمر، ولم نسمع أن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، منع صحابيًّا عن الجهاد لذنب أو كبيرة، فما بالك بالمهام الدعوية؛ التي يشترط لها البعض اكتمال التربية؛ التي ليس لها حدود أو تعريف!.

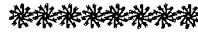
فشرط النجاح أن تتلازم حالتا العمل والتربية، وكيف ننسى أن العمل والأداء والتكليفات هي جزء من التربية المنشودة لأفراد الصف؛ الذين هم أدوات التغيير المنشود.



الخلاف الفكري ووحدة الصف

عالم الأفكار هو مدخل الإصلاح، كما أنه هو ذاته مدخل الخلاف والانشقاق، وبتتبع الخارجين عن أكبر الحركات الإسلامية في القرن العشرين، وجدنا أن الأسباب كانت في غالبها فكرية، ثم تبعتها الأسباب التنظيمية. وللباحث عصام تليمة، بحث منشور في مجلة وجهات نظر، عدد شهر أغسطس٢٠٠٨م، قال فيه: منهم من ترك الجماعة، حيث اختلف مع الإخوان في التوجه، أو اتفق معهم في الغاية، وهي إقامة دولة إسلامية، والعودة بالمجتمع إلى الإسلام، ولكنه اختلف في الوسيلة والأداة التي يتغير بها المجتمع، أو ينصلح حاله بها. فمن هؤلاء: جماعة شباب محمد، وقد انشقوا عن الإخوان في عهد حسن البنا، وكان السبب أنهم اتهموا الإخوان بالتخلي عن واجب الجهاد، وتغيير المنكر باليد، ومنهم من اقتنع بوسيلة أخرى، يخدم بها الإسلام، وهي وسيلة التحالف مع السلطة، وعدم الصدام بها، واغتنام الفرصة التي تمنحها إياه، من حيث إطلاق يده في وزارة معينة، أو منصب يمارس فيه مهامه؛ التي يخدم فيها الإسلام. ولم يجد البعض حرجًا من الابتعاد؛ بسبب اقتناعه بأنه يجب على الجماعة أن تكتفي بما قدمت، من تاريخ مشرق، وتنسحب من العمل السياسي، حتى لا يشوه تاريخها، وما قدمته، وآخرون تعجلوا بسبب طول الطريق، من فرط ما يملكون من حماس، والبعض الأخر - من الثمانينيات وحتى الآن- وجد أن الجماعة لا تستوعب أفكاره، وافتقد المحضن المناسب؛ الذي ينمي ملكاته، ويستثمر مواهبه في المكان الصحيح. وهنا.. قد يحتاج الأمر إلى رصد بعض الآفات الفكرية والتربوية؛ التي تحول بين خروج هذه الكفاءات وبين قدرة الجماعة أية جماعة على حسن توظيفها، والابتعاد عن شبح القاعدة "التأخير على قدر التقصير". ثم تسطيح الأمور أو المبالغة فيها: وكلا الموقفين يسبب إحباطًا ويأسًا، أو هوسًا وغرورًا، عند الأفراد، وهو ما يؤدي إلى التسطيح الشديد للأمور، أو المبالغة والتهويل فيها!، فالبعض يظن أن لديه حلولا جاهزة وبسيطة لكل المشاكل، والبعض الآخر يهول الأمور ويضخمها؛ بحيث يتعذر معها فعل شيء، ودائمًا ما يكون الحديث في إطار هذه الشكل عاطفيًا مرتجلا، وقد يشير إلى تجارب فاشلة، أو قائد لديه حلول سحرية!، وكلاهما منطق يقتل الإبداع والمبادرة بالأفكار الجديدة. ويبدو هذا العنصر جزءًا من مشكلة أكبر، وهي النظرة الناقصة للأمور؛ التي يتحدث عنها الأستاذ عبد الحليم أبو شقة، ويعدد صورها؛ التي منها: النظرة أحادية الجانب، وكأن كل القضايا والظواهر سطحية، ليس لها إلا جانب واحد! - النظرة السطحية الساذجة؛ التي لا تغوص في الأعماق الممتدة في التاريخ (الزمن)، أو الواقع (المكان) - الجهل العام (شبه الأمية)، والجهل المركب (نصف العلم) - فهم الحياة على أنها فقط أبيض وأسود. وتلك آفة تصيب الإنسان؛ فنجد الشيوعيين يضخمون الجانب الاقتصادي في حياة الإنسان، كما يُسرف بعض

المتدينين، فيضخمون خُلقًا أو أدبًا أو أمرًا معينًا، فيبدو كأنه هو كل الدين. وأخيرًا: التقييم بالانطباع وخنق الكفاءات: وهذا من أسوأ أنواع الخلل؛ الذي يمكن أن يصيب فكر الجماعات الإسلامية، فهو نمط في التفكير يبخس الإنسان حقه، في التقدير والإنصاف، باعتبار ما فيه من خير وشر، ومن ضعف وإنجاز، ومن خطأ وصواب، وهو ظلم قد نُهينا عنه. وهنا يُساء استعمال الثقة الممنوحة للمناصب القيادية، في تقييمات يتم الحكم فيها على الأفراد، ثم ينطبع ذلك في الأذهان، ويبقى لصيقًا بصاحبه حيثما حل وذهب، ويبقى لصيقًا بصاحبه حتى وإن تعدَّل حاله، وقل خطؤه، وزاد فهمه وإنجازه، وهو ما يُعَد ظلمًا، يصيب صاحبه المظلومَ بالإحباط والاكتئاب، وربما الانعزال، وفقدان كفاءات وعقول، الحركة الإسلامية في أشد الحاجة إليها، وهذا الخلل يحتاج إعادة نظر، في منهج وأهداف ووسائل التقييم؛ بحيث يتم بصورة جماعية، تحقق الهدف من التقويم، بدلا مما يُخلِّفُه من تقويض.



بين توظيف الكفاءات والولاءات

لا شك أن قوى الباطل تتعامل مع المواهب والكفاءات بشكل إيجابي، ينمي ويطور هذه المواهب وتلك الكفاءات؛ ليضمن بذلك حسن توظيفها، في مشروعه المعادي للحق وأهله؛ تأكيدًا للصراع الأزلي بين الحق والباطل!.

ولعل في قصة أصحاب الأخدود ما يدل على ذلك، وكيف أن الساحر طلب من الملك غلامًا ليعلمه السحر؛ حتى يكون امتدادًا له - في رواية الترمذي- حيث طلب الساحر طلبًا محددًا "انظروا إلي غلامًا فَهمًا أو قال: فَطنًا لَقنًا فأعلمه علمي"، وهو ما يفضح خطة أهل الباطل، الرامية للاهتمام بأصحاب المواهب والقدرات الخاصة؛ لضمان السيطرة على الواقع الذي يحيا فيه!!، وحال الغرب من حولنا ينطق بذلك!.

ولعل مما نفتقده أحيانًا، في الحركات الإسلامية، تقدير الفرد وكفاءاته، في سبيل إذابة الجميع في كيان واحد، يؤكد فكرة أن الدعوة لا تتوقف عند شخصية فرد مهما كان!، وهى كلمة حق أريد بها إقصاءً لبعض الأفراد - من العجيب أن معظمهم من أولئك المتميزين، أصحاب المواهب والكفاءات-!.

ونسي هؤلاء، أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) دعا في ملأ من أصحابه - وقت بناء القاعدة الصلبة للدعوة في مكة-: "اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين: عمرو بن هشام (أبو جهل)، أو عمر بن الخطاب"، ولم يقل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما يردده البعض: إن الدعوة لا تقف عند فرد مهما كان، والإسلام يعز من ينتسب إليه، ولا يعز بكائن من كان!!، في تسفيه لعامل التميز والتفوق؛ الذي هو مدخل دعويّ لكثير من الناس؛ حتى تترسخ في قلوبهم معاني الإيمان والارتباط بالله، بعيدًا عن الأشخاص!.

لقد ربى الرسول الأعظم أصحابه، على أنهم الأكرم والأفضل والأعز، رغم ما بثه فيهم من خلق التواضع والرحمة والكرم؛ لأنه (صلى الله عليه وسلم) يريد تربية مَن حوله كقيادات، لا كعبيد، عقول مفكرة لا عقول مقلدة، همم عالية لا همم متدنية، وقد مات (صلى الله عليه وسلم) وهو مطمئن على الرسالة، وهي في أيدي قواد مجتهدين، يصلُح بهم الإسلام، في كل زمان ومكان!.

وعندما جاء زمان شحوا، أو افتقدوا القدرة على الفهم الصحيح للاتباع والاجتهاد السليم لقضايا العصر، صار التأخر والتخلف سمة، والتقييم المنحاز سيفًا على رقاب المجتهدين الحقيقيين!، وصدق من قال: "لأن أكون عضوًا في فرقة من الأسود خير لي من أكون قائدًا على فريق من النعاج".

لقد صارت قواعد الجرح والتعديل هي أداة البعض في استبعاد او استعمال كثير من الكفاءات؛ التي

تملك رأيا في كل قضية، ولها موقف في كل حدث، ولها رؤية مع كل منطق معلن!!.

وهنا ظهرت آفة توظيف الولاءات بدلا من الكفاءات، فنخلط بين العمل المؤسسي؛ الذي يحتاج إلى مواصفات قد تختلف عن تلك المطلوبة للعمل الفني أو المهني؛ الذي يعتمد على معارف ومهارات متباينة.

وقد أدى ذلك إلى مشكل أكبر، وهو استمرار الحركة الدائبة في نفس المكان، دون أية خطوة للإمام؛ حيث انشغل الجميع بتوريث الدعوة، وغفلوا عن توريث الخبرة؛ التي تتراكم وتنتج عملا مؤثرًا، يحقق أهدافًا حيوية، في مسار هذه الحركات الإسلامية، ولذلك مقام آخر، إن شاء الله.

****

هموم الداخل والخارج في رمضان

أيام قليلة ويبدأ شهر رمضان المعظم، مدرسة التربية والإعداد للمسلمين، ورغم قلة عدد ما قضاه المسلمون مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) من شهور رمضان، إلا أن رسالة الشهر قد وصلت على حقيقتها إلى المسلمين، بل لقد حصدوا نتاج ما تربَّوا عليه، وما اكتسبوه من خير؛ جزاء إخلاصهم، وفهمهم، ووعيهم برسالتهم؛ لذا، لا نتعجب، إذا كانت أعظم انتصارات المسلمين قد حدثت في شهر رمضان، على مدار التاريخ.

فما بال الشهر الكريم، ما زال يزورنا سنويًّا، وما زالت خسائرنا تزداد عامًا بعد عام!!، ما بال الأعداد التي تتعبد إلى الله بالنوافل تتكاثر، بينما أعداء الأمة يزدادون تمكنًا من رقابنا، في أماكن شتى!!، تلك وأسئلة أخرى كثيرة، تمر عليَّ، وعلى كل مسلم مهموم بشئون أمته، هل نحن في إقبال أم في إدبار، في علاقتنا مع الله (تبارك وتعالى)، رغم كل مظاهر العمل الصالح الذي نقدمه؟!.

الحقيقة، أني بحثت في نعم الله علينا، تلك التي لا يمكن حصرها (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا) (النحل: ١٨)، فوجدت أن أعظمها ثلاث:-

النعمة الأولى: نعمة الإسلام التي هدانا الله إليها، بلا حول منا ولا قوة، فلا دراسة لأديان مقارنة، ولا نظر بحَيْرَة في الكون، بل لقد منَّ الله علينا، فوُلدنا لأبٍ مسلم وأم مسلمة، ومن شأن النعم التي تأتي بلا جهد وتعب، أن يفتقد صاحبها الإحساس بقيمة النعمة؛ التي يرفُل فيها، وهنا يتغلب أحيانًا، إلف العادة، فلا نستشعر عظم النعمة؛ التي يحسدنا عليها الآخرون.

والنعمة الثانية: هي نعمة الطاعة؛ حيث خلق الله (تبارك وتعالى) أهل طاعته، وأهل معصيته، من أهل الإسلام، ولا شك أن أهل الطاعة أقرب إلى هموم الأمة، ممن انشغل بنفسه.

والنعمة الثالثة: هي نعمة الدعوة إلى الله، تلك هي المهمة، أن تصلح نفسك، وتدعو غيرك، وهو ما اختص به الله أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ) (آل عمران: ١١٠).

وحق على كل مسلم، أن يشكر الله على هذه النعم، وهو ما يتجاوز شكر اللسان إلى العمل (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ) (آل عمران: ١١٠)، وهنا مربط الفرس، فإذا ازداد عدد الشاكرين بالعمل اقتربنا من الله أكثر، وحصدنا أجر ذلك في الدنيا والآخرة (نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ) (الصف: ١٣)، (لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ) (إبراهيم: ٧)، تلك هي معادلة النصر (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۞وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ) (الطلاق: ٢،٣)، فهل وعينا هذه المعاني؛ حتى ندرك

بحق استحقاقات النصر والتمكين، وتتضح لنا خرائط النصر والهزيمة!.

إن المشكل الذي يواجهه أبناء الإسلام، وفي القلب منهم أبناء الحركات الإسلامية، هو مواجهة النفس ومراجعتها، وتصويب اتجاهات الدفة من آنٍ لآخر (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: ١١)، فكان تغيير النفس مقدمًا على تغيير الواقع، باختصار، هموم الداخل تحتاج إلى وقفات، وهي أخطر من هموم الخارج، وكيد الأعداء، وذلك يحتاج إلى تفصيل - إن شاء الله- في مقال قادم.



الشيخوخة المبكرة والخوف من الجديد!!

استكمالا للظواهر المرضية، والآفات الفكرية؛ التي تنخر في صفوف الحركة الإسلامية، والتي تناولناها في سلسلة المقالات التي كتبناها في مجلة الأمة على مدى العام المنصرم، نذكر منها أيضًا ظاهرتي: التقليد والشيخوخة المبكرة، و مقاومة التغيير والخوف من الجديد.

وعن التقليد والشيخوخة المبكرة أتساءل: لماذا نرى كثيرًا من أبناء الحركات الإسلامية يتوقف عن البحث عن معارف جديدة؛ اكتفاءً بما لديه، ومن الخطر أن يتصدر هؤلاء الحركة الإسلامية؛ التي تتصدر عندئذ لمهامها، وهي لا تحتوي في منظومتها الفكرية على ما يؤهلها للتعايش مع متطلبات العصر، ولا لإدراك ما يدور حولها، وهو نمط لا يتقيد بسن معين، بل إن أغلبهم من صغار السن، أصحاب الشيخوخة المبكرة!.

وفي ذلك يقول الأستاذ عبد الحليم أبو شقة، في بحثه القيم "العقل المسلم.. الأزمة والمخرج"، (وحين نتساءل عن الحالة الراهنة؛ التي عليها العقل المسلم، نجد أننا ظللنا قرونًا نعمل في إطار التقليد الفقهي، ثم انتقلنا إلى مدرسة حديثة، تعمل في إطار التقليد الأوروبي الغربي، ثم إلى مدرسة حديثة، تتحسس طريقها بين القديم (مع العودة إلى الأصول) وبين الحديث - تأخذ منه بحذر- (المسلم المثقف).

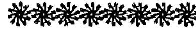
ثم تطورت هذه المدرسة الأخيرة، في ردة فعل رجعية؛ لمواجهة الشرود التقدمي، فألحّت على الذاتية، واستبعاد التفاعل الإيجابي مع الفكر الإنساني والتجارب البشرية (في المصطلحات، وفي مناهج البحث، وفي مناهج الحركة والدعوة، وفي المفاهيم السياسية والاقتصادية والتاريخية)، والتسويغ لذلك هو: الأصالة، ومخافة الوقوع في شَرَكِ الفكر الغربي، والنتيجة هي الوقوع في شرك الجمود الخرافي، أو اللا معقول).

أما مقاومة التغيير والخوف من الجديد: فهو سلوك عام يقاوم الأفكار الجديدة لعجزه عن الإبداع والابتكار، أو خوفه من الجديد، أو تقديسه للقديم!، وهي علامة ضعف تربوي وإداري، تمت صياغتهما بحيث لا مجال للإبداع والتفكير غير النمطي والجهل بالواقع، وهو انعكاس على خلل إداري استسلم للقديم؛ الذي يحافظ على الاستقرار بأي ثمن، ومهما كانت النتيجة، مما يصيب العمل بالملل والرتابة والضعف، ويوقف حركة التطور الطبيعية؛ التي يجب أن يرتقي لها أي عمل نقوم به.

وهنا يقول الأستاذ أبو شقة: "إن الحركات الإسلامية المعاصرة لم تعالج أزمة العقل المسلم، فقد استمرت كأسلافنا القريبين، وهي حين أخرجت المسلم المعاصر من الجزئية إلى الكلية ظلت تحتفظ

بالتقديس أو السلبية، وطبعت الاتجاه إلى الكلية بنهاية الخاصتين: التقديس للتراث، والسلبية من الفكر الإنساني، وإذا كنا ندعو إلى نبذ التقديس للتراث، وإخضاعه للدراسة الناقدة، فالنقد لن ينصب على علاقة التراث بمشكلات عصره العقلية والخُلقية، إنما ينصب على مدى صلاحيته لموقفنا اليوم؛ الذي قد تغير كثيرًا، فالأمور التي جعلت ذلك الجهد العظيم موضع تقدير الناس وإعجابهم، في صلاته بظروفه الاجتماعية والثقافية، هي نفسها - تقريبًا- الأسس التي ينتج عنها تجرده - إلى حد كبير- من الصلة بالواقع اليوم".

وختامًا فإنني أحذر نفسي وإخواني من العاملين في الحركة الإسلامية من الوقوع في مرض الاكتفاء بالتقليد والرغبة في الشيخوخة المبكرة، أو في مرض حمل النفس على مقاومة التغيير والخوف الدائم من الجديد مهما كان الخير الذي يحمله هذا الجديد للإنسان والحركة الإسلامية على حد سواء.



مساحة الخلاف وحجم الود في أية قضية

من أدبيّات الحركة الإسلامية أن الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية، وهي تكاد تكون من البدهيات على المستوى النظري، يتكلم بها الكثيرون، لكن لا يعمل بها إلا القلة؛ التي تعي قيمة هذا السلوك؛ الذي يجعل التحيز للحق أولى، وإقرار العدل أسمى من كل شيء!، أحبك نعم، ولكن حبي للحق أشد، أتفهمك نعم، لكن السعي وراء الحقائق أولى!.

ومن هنا؛ تنشأ كثير من المشاكل، عندما يخشى الرجل من قولة حق، أمام مسئوله أو كبيره، فتترسخ معاني التفرد والإحساس بالصواب والتميز وامتلاك الحكمة وعدم القدرة على قبول الرأي الآخر في نفوس المسئولين، كما تتوطن معاني الإحساس بالضمور العقلي والتبعية النفسية ورهبة المواجهة - حتى ولو في الحق- في نفوس الجنود؛ الذين خافوا أن يُفسد رأيهم أو موقفهم للود قضية!.

ومن هنا؛ صارت بعض المسلّمات داخل الحركة الإسلامية لا تتعدى كونها إطارًا نظريًا، وقيمًا معرفية، لا علاقة لها بالواقع، رغم أن القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة يمتلآن بالنماذج والمواقف، فغياب الود قد يعني غياب المواجهة أو الصمت أو الخصومة - لا قدر الله-، وقد يمتلك الشيطان ناصية الموقف، فنقع تحت ما جاء في حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم): "إذا خاصم فجر"، وهنا تختفي ظلال (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) (الفتح: ٢٩)، وتتبدل مواقف العزة والذلة في (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (المائدة: ٥٤)، وقد تنتهي إلى قطيعة لا تتحملها النفس السوية، ولا يقبلها التنظيم؛ الذي يعمل في خدمة الإسلام على قاعدة الحب في الله؛ التي تجمع بين أفراده. هنا نتساءل: أين مصلحة الدعوة في هذا الخلاف؟، بل أين الأخلاق الأساسية التي تضبط حركة المسلم في حياته وعلاقاته، وهو صاحب الرسالة، والمبشر بها وسط أهله وإخوانه، عسى أن يستيقظوا على حقائق عظمة هذا الدين!!، وأين الفضيلة في حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): "أفضل الفضائل: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك". قد يغيب عن البعض أن الخلاف الحادث إنما في الفروع لا في الأصول، وهنا تتسع مساحة الاجتهاد، وتتعدد الرؤى، ولا مانع من الاستماع والبحث والتنقيب عن الأحق والأصوب، اعترافًا بما أقره الإمام الشافعي، من "أن رأيي صواب يحتمل الخطأ، وأن رأي غيري خطأ يحتمل الصواب".

وهنا قد نحتاج إلى معرفة كيفية تسوية مثل هذه الخلافات، بعد أن نقر أن وجودها علامة صحة، وأن منعها أو تحويلها إلى خصومة نذير شؤم على الجميع!، ومن أهل العلم - أنقل عنهم- من وضع إستراتيجيات لمواجهة هذا الخلاف، وفيما يلي نوضح لك هذه الإستراتيجيات:-

أولًا: إستراتيجية الانسحاب:- وهي أن الشخص عندما يشعر أن هناك بداية لخلاف لا نفع من ورائه

يبدأ بتغيير موضوع الحديث بسرعة، ويغض الطرف عن النقد، وقد يستسلم للطرف الآخر، دونما حل للخلاف القائم.

ثانيًا: إستراتيجية الإكراه:- وهي تجعل من يتبع هذه السياسة يحرص في أي خلاف على أن يخرج منه منتصرًا، مهما كلفه الأمر من تدمير علاقات، أو إساءة في الألفاظ أو التصرفات.

ثالثًا: إستراتيجية التهدئة:- هذه السياسة من ينتهجها يحاول أن يجعل كل أطراف الخلاف راضية وسعيدة، فهو يهتم بالعلاقة مع الناس إلى درجة كبيرة، حتى لو تصادمت مع مصالحه، ومن وجهة نظره يرى أن التحدي والمجابهة مدمرة؛ لذلك عند بدء الخلاف يعمد إلى كسر حاجز التوتر.

رابعًا: إستراتيجية التسوية:- وهي سياسة مسك العصا من المنتصف، وهي تُشعر الأطراف في أي نزاع أنهم رابحون لأول وهلة، مع أنهم في حقيقة الأمر خاسرون؛ لأن هذه السياسة تعطي بعض الكسب لكلا الطرفين، بدلًا من الانتصار للحق، وإعطاء الكسب للمصلحة العامة، المرجوة من حل ذلك الخلاف.

خامسًا: إستراتيجية التكامل:

- تمثل قمة النجاح لحل الخلاف؛ لأنها تتطلب مهارات إدارية واتصالية عالية المستوى، وهي طريقة مشتركة لحل المشاكل ويلزم على جميع الأطراف افتراض وجود حل ما، وبالتالي هم يجتهدون لهزيمة المشكلة لا لهزيمة أنفسهم، هنا يتضح أن الخلاف المقبول - والذي ينظر إلى المصالح العليا- هو علامة صحة، كما أن محاولات استثماره لا كبته هي علامة نضج، يجب أن تحرص عليها الحركات الإسلامية؛ التي تقدم نفسها للشعوب كقاطرة من أجل الحق والعدل والحرية.



الحركة الإسلامية والحكم الرشيد

لعلماء الإسلام في كل عصر قواعد لم يختلفوا عليها، فهمًا لمقاصد الشريعة، ولعلة الأحكام؛ فقد ترسخ في يقين المسلمين أنه لا قيام للدين بدون دولة، ولا قيام للدولة بدون حاكم، فوجود الدولة والحاكم شرطان لإقامة الدين، ولا يقوم إلا بهما، كما قال ابن حزم: علمنا بضرورة العقل وبديهته أن قيام الناس بما أوجبه الله من الأحكام عليهم في الأموال والجنايات، والدماء، والنكاح، والطلاق، ومنع الظلم، وإنصاف المظلوم، وأخذ القصاص ممتنع بغير ممكَّن أي دون إمام وهذا مشاهد في البلاد التي لا رئيس لها، فإنه لا يقام هناك حكم حق، ولا حد، حتى ذهب الدين في أكثرها، فلا تصح إقامة الدين إلا بالإسناد إلى واحد أو أكثر.

ومعلوم أن أكثر الواجبات لا يمكن أداؤه على الوجه الأكمل بل لا يمكن أداؤه أصلا إلا في ظل دولة تحكم بالإسلام، وتنفذ شريعته، كالزكاة، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحدود إلخ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ضرورة، وهو إقامة العدل، وتحقيق الإصلاح قدر الاستطاعة.

فكيف بنا أمام من يرى البعد عن السياسة فرضًا وواجبًا على الحركة الإسلامية؛ وذلك لانشغالها عن التربية العقيدية والروحية، بالسعى للمنافسة على مقاعد الحكم، وتولي المناصب!!، وهو بذلك يفصل الدعوة عن السياسة فصلا مبدئيًّا، لا فصل اختصاص كما ينبغي، ثم إنه لا بد للحاكم من عقد اجتماعي بينه وبين الشعب، قائم على الرضا والعطاء، الشعب فيها هو الأصيل، والحاكم هو الوكيل في الحكم، بما أوجبه الله (تعالى)، من حقوق وعدالة وحريات وحدود ومصالح، على أساس من الشورى الواجبة الملزمة، والتناصح الأمين، وإلا فالأمة - التي هي مصدر السلطات في الإسلام- لها الحق في محاسبة الحاكم وعزله، متى اتفقت على ذلك إرادة الأمة.

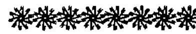
ولا شك أن هذا النسق الرائع للحكم في الإسلام إنما هو يعبر عن الحرية؛ التي أقرها الإسلام لكل البشر! فإذا أقر الله (سبحانه وتعالى) أنه (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) (البقرة: ٢٥٦)؛ فكيف يُتصور عقلا أن هناك إكراهًا في السياسة والحكم! (فإذا كان اللَّه (عز وجل) لا يُكره عباده على الإيمان به وطاعته، فكيف يُتصور أن يُكره عباده على الخضوع والطاعة كرهًا لغيره من البشر)!!، وهي طاعة لله "فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

وهي تحمل كل معاني الإيجابية في المجتمع المسلم، حين يرسخ الرسول (صلى الله عليه وسلم) تلك المعاني التي افتقدناها منذ زمن، فحرمنا الله متعة الحياة بعزة وكرامة، بقوله: "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه عمهم الله بعقابه"، "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"، "سيد

الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره، ونهاه، فقتله"، "إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم فقد تُوُدِّع منها".

ولقد ظهرت المعارضة السياسية السلمية مبكرًا في الإسلام، كما ظهرت قابلية المجتمع المسلم للتعددية السياسية منذ وفاة النبي، واجتماع الصحابة في سقيفة بني ساعدة، وتنافس الأنصار والمهاجرين على الإمامة!، ومما يؤكد مدى الحرية السياسية في هذه الفترة: أن أبا بكر (رضي الله عنه) لم يرفض مبدأ (منا أمير ومنكم أمير)، وهو مبدأ التداول السلمي للسلطة، بين القوى المتنافسة؛ لكون هذا المبدأ غير جائز في الشريعة، أو لكونه يصطدم بالإسلام، وإلا لذكر الأدلة الشرعية التي تحظر مثل هذا المبدأ، وإنما احتج عليهم بعدم رضا العرب، ومن ثم حدوث الانشقاق والفتنة، فقال : (قد عرفتم أن هذا الحي من قريش بمترلة من العرب ليس بها غيرهم، وإن العرب لا تجتمع إلا على رجل منهم، فاتقوا الله، لا تصدعوا الإسلام).

وكأنما هناك حزبان كبيران يتداولان السلطة، فأحدهما يحكم والأخر يراقب ويحاسب!، تلك هي قواعد الحكم الرشيد في الإسلام؛ التي غابت عن ديار المسلمين فغابوا عن الحضارة والصدارة، وقيض الله لهم من الحكام عليهم من سامهم الخسف وسوء العذاب، فضاعت شوكتهم يوم ضاع الحق بينهم!، وما من طريق لسعادتهم في الدنيا والآخرة إلا طريق الإسلام، في صناعة الحكم الرشيد، والله على ما أقول شهيد.



عولمة التشريع ومأساوية الواقع!

تلك كانت كلماتي في أولى جلسات مجلس الشعب المصري، في دوره التشريعي الثامن؛ الذي بدأ عام ٢٠٠٠م؛ حيث بدأت تتوافد إلى المجلس قوانين مثل الجات، وقانون العمل الموحد، وغيرهما من القوانين؛ التي يظن حكام العرب أنه ستنقل بلادهم إلى مصاف العالم الغربي المتقدم، بمجرد الأخذ بالقوانين التي تحكمهم لتحكمنا، بلا عقل يدرس ويحلل، ويختار ما يناسب مجتمعاتنا!!.

ولم يراعِ هؤلاء - الذين لم يعانوا يومًا ما من الفقر والحاجة والظم والحصار- أن حياة العرب والمسلمين في بلادهم تحتاج أولا للحرية التي جاء بها الإسلام؛ تحريرًا للبشر من عبادة العباد، وخروجًا من ضيق الدنيا إلى سَعَة الدنيا والآخرة، وهم أيضًا في حاجة للحماية من التعسف الذي يُمارَس ضدهم في حياتهم!، وإلى رصيد من الاحترام لآدميتهم: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) (الإسراء: ٧٠)، كما يحتاجون إلى الاعتراف بحقهم في حياة كريمة، تمنحهم الحد الأدنى من المعيشة الكريمة، وبعدها تأتي قوانين المحافظة على هذه الحقوق، قبل القوانين التي تجعله أسيرًا للقوى الكبرى في هذا العالم، والتي تمنحه بعض الحقوق التي تُعتبر ترفًا لمن يحيا حياته البائسة!!.

ورغم أن قوانين الجودة عرفها الإسلام منذ أن قال الرسول (صلى الله عليه وسلم): "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه"، تعجبت من الإصرار على استيرادها كما نستورد كل شيء!، لقد فتح العالم المتقدم معظم البلاد العربية والإسلامية - باتفاقية الجات- أمام منتجاته، وتقدمه التكنولوجي الهائل، بينما أغلق أسواق بلاده أمام منتجاتنا، تحت شعار قانون الجودة والاعتماد "الأيزو"!!.

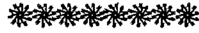
هي إذًا حرب، شكلها المعلن التقدم العلمي، وتطوير الذات، والاهتمام بالبحث العلمي، وتنظيم الحياة وفق قواعد تتسع لمن يحتفظ بكرامته وحقوقه كامله، في مأكل نظيف، وسكن مريح، وعلاج آمن!، لكنها لا تنفع ولا تشفع للجائع الخائف المرتبك؛ الذي يقضي جُل حياته في البحث عن لقمة العيش، أو حفظ كرامته!.

والعجيب أن الدول الغربية تتعجل في إرسال أفلامها أو فتنها إلينا، بينما تتعطل التقنية الحديثة وأبحاث التنمية في الوصول الينا في الوقت المناسب!، والواجب هنا على كل الحكومات العربية والإسلامية العمل على تحويل حياة شعوبهم إلى حياة آمنة مستقرة تنطلق منها كل أفكار التطوير والإبداع بعد أن استوفت حقوقها الأساسية!.

فكيف - في غياب هذا الحد الأدنى؛ الذي ذكرنا به المولى (عز وجل)، في قوله (تعالى): (الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) (قريش: ٤)- يمكن إدارة الجودة، وتنفيذ قوانين المجتمعات الغربية

بنصوصها المترجمة، في مقابل حياة واقعية لا تتوافق ولا تتناسب مع قيمنا العربية والإسلامية؛ التي تعاني من غياب معاني العدل والحرية والمساواة وكرامة الانسان!.

وسيبقى الانفصال بين الواقع والتشريع مستمرًّا، طالما بقِيت العقول المتحكمة في حاضر ومستقبل شعوبنا لا تجد في الإسلام حلا ، ولا في شرعته منجاة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، العلي العظيم.



الإيجابية في سؤالين!

سؤال دائمًا يلح عليّ!، لماذا كثرت المساجد وزاد عدد الراغبين في بنائها استجلابًا للبركة والأجر، في الوقت نفسه الذي انهارت فيه قيم إنسانية إسلامية وسط أبناء المسلمين، وتدهورت فيه أخلاق إسلامية أساسية، من شهامة ومروءة، وصدق وعزة نفس، وعمل جادّ وحسن خلق؟!.

لماذا زادت سفرات الحج والعمرة بينما زاد نهم الكثيرين من الكسب الحرام السهل بلا مجهود؟!، وزاد الخوف من كلمة حق تُقال، أو طلب حق مسلوب إيثارًا للسلامة وراحة البال؟!!، وأين راحة البال في كرامة مهدرة، وحقوق ضائعة، ووطن مستباح، وأعراض وحرمات منتهكة؟!.

لماذا هذا التناقض بين توجهات وأفعال؟!، بين أعمال وأعمال؟!، لماذا يزداد التعجب وتزداد دهشة الأجانب المراقبين لسلوك المسلمين وقد درسوا دينهم وأعجبوا به؟!، لماذا نصد عن سبيل الله دون أن ندرك أن القدوة هي سبيلنا الوحيد لتربية أبنائنا، ودعوة مَن حولَنا؟!.

سؤال آخر وجدت فيه خطرًا يهددنا دون أن ندري، وهو عن دور أجهزة الإعلام في السعي نحو التغيير للأفضل!!.

لقد وجدتُ أن الإنصات والجلوس لفترات طويلة هي الوسيلة التي نملكها لكي تؤدي وسائل الإعلام المقروءة أو المرئية دورها التفاعلي والتحريضي، وهنا تظهر خطورة استمراء الجلوس أمام الفضائيات أو الإنترنت، دون خوض غمار التجربة العملية لممارسة حرية إبداء الرأي في التجمعات والوقفات والاعتصامات، وغيرها من أشكال الاحتجاج!.

وهنا الأعداد المشاهِدة أو المتابِعة تبدو كأنها بلا قيمة فعلية حتى لو وصلت لمئات الآلاف!، ويبدو أن الاستسلام لهذا الهدوء الجسدي - المصحوب بتوتر وانفعال نفسي وغضب يكفي لزلزلة عروش الظلمة في بلداننا- ربما يمنحنا التفسير في بطء التجاوب لمناشدات الخروج لكل فئة لتناصر أبناءها، وتحقق مطالبها، حدث ذلك في الأطباء رغم الصعوبة التي تواجههم في حياتهم العملية والعلمية، وأساتذة الجامعات في النظر إلى مطالبهم، وتقدير الدولة لهم، ولدورهم ومكانتهم!.

وهذا ما أود أن ألفت النظر إليه، وأتساءل: هل كثرة الجلوس للإعلام - والتفاعل معه، والانفعال به- تتصادم مع ضرورة الحراك داخل المؤسسات والشوارع لإحداث التغيير المطلوب؟!، لقد وجدت أن كثيرين احترفوا الردود على المقالات والأخبار التي ترد في الصحف على الإنترنت، وهي - لا شك- إيجابية، رغم أن بعض المواقع تثير فتنًا بين أبناء العروبة والإسلام!.

لكن يشعر البعض منهم وكأنهم قد أدَّوا ما عليهم، وجاهدوا في الله حق جهاده!، وأن آخر عندما

يحاورك تجده متابعًا جيدًا لكل البرامج الحوارية والإخبارية التي تفضح الحالة المتدنية التي وصلت إليها بلادنا!، لكن الأمر عنده ينخفض من مرحلة الضرورة في مواجهة النظام إلى مرحلة التردد، واختلاق الأعذار، والاكتفاء بالدعاء على الظلمة المستبدين؛ الذين نهبوا مصر واستولوا عليها في حماية بعض أبنائها!.

صحيح أن كل حركة لا بد أن تبدأ بفكرة، لكن كيف تشارك الفكرة المجردة في التغيير؟، فلا بد لها من قوة نفسية قوية، ورغبة تزيد القدرة على التغيير لتظهر في سلوك منظم فعال، يبدأ مسيرة التغيير!، إذًا لا بد من أفكار واضحة، ومشاعر متوهجة، وسلوك على قدر المسئولية؛ كي يتحقق التغيير!.

إن الإجابة عن السؤالين السابقين بشكل عملي - يحقق منهجية الإسلام في التغيير، ويقدم صورة مشرّفة لحياة المسلمين في أوطانهم، ويعمق الوعي بالأولويات- هو ما نصبو إليه لتحقيق الإيجابية؛ التي يجب أن تتسم بها حياة المسلمين، وبها فقط تتحقق الآمال في حياة هانئة كريمة، يسعد بها المسلم في وطنه، وتُرضِي الله (تبارك وتعالى).



التغيير.. فريضة شرعية وضرورة انسانية ومهمة وطنية

لاشك أن هناك معنى عميق يحتاج الى إعادة فهم وتفسيرعندما أعلن أبوبكر الصديق رضى الله عنه وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذات الوقت أعلن استمرار الرسالة "فمن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله تبارك وتعالى حى لا يموت" والرسالة التى جاء بها محمدا ثم تركها فى رقابنا جميعا هى تغيير واقع الانسان وحاله الى أفضل حال وهى عملية منهجية مستمرة لن تنتهى إلا بانتهاء الخلق ونهاية الدنيا التى تجمعنا!

قال الله عز وجل "ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروما بأنفسهم" فقال العلماء أن تغيير النفس مقدم على تغيير الواقع، ولاشك أن مهمة التغيير من أصعب المهام تلك التى يحملها الأنبياء والرسل وقد اشترط العلماء لها شروط وأركان أما الشروط فهم ثلاث تبدأ بتغيير الأفكار ثم تغيير المشاعر ثم تغيير السلوك، وقد جاء الرسول صلى الله عليه وسلم ليغير الأفكار الجاهلية التى تتعارض مع الفطرة ثم يشعل أحاسيس التحدى لمواجهة الظلم والعجز ويؤصل حالة الاعتزاز والتمسك بمنهج الاسلام الإصلاحى.

وأما الأركان فلابد من توافر أولا حالة الوعى ثم لابد من تواجد إرادة التغيير لدى الأغلبية ومن ثم لابد من إرادة تدير زخم عملية التغيير إعلانا لاستمرار الرسالة التى لا تبيح الظلم ولاترضى بالذل والإهانة لأبناء الأمة حتى صار سيد الشهداء رجل قام الى حاكم ظالم فأمره ونهاه فقتله! وتلك هى الفريضة التى لا تسقط عن رقاب المسلمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ولاشك أيضا أن التغيير سنة كونية لابد منها لاستمرار الحياة وتجدد الأمال حين يغلب اليأس ويزداد الإحباط ويفتقد الانسان لواقع مستقر ومستقبل آمن، وفى ظل نظم حكم أحكمت الخناق على الشعوب العربية ووطنت أنفسها للبقاء فى سدة الحكم بأى ثمن فتولد عن ذلك مزيد من القهر والظلم والاستبداد! لقد مارس هؤلاء الظلمة سياسة شديدة الخبث لإفقار وتخويف الشعوب وتخلفهم حتى صاروا من أتعس شعوب العالم رغم ما فى حوزتهم من منهج ربانى يؤسس لحياة سعيدة!

وهنا استحضر التجربة المصرية للتغيير ومقاومة الفساد والاستبداد الذى استمر لعشرات السنين برفع المطالب السبعة كمدخل للإصلاح الشامل واعتبار التوقيع عليها هو أضعف الإيمان فى التعبير عن الإرادة والرغبة فى التغيير ولكى ندرك سوء ما نحن فيه أسرد عليكم ما قاله أحد الوزراء الأوربيين عندما سئل وزير التجارة الفنلندى: لماذا شعب فنلندا من أسعد شعوب الأرض؟

فأجاب: لستة عوامل؛ عامل من الله، وعامل من أنفسهم، وأربعة عوامل من حكومتهم، وأكمل: أما

العامل الأول الذي هو من الله فهو الطبيعة الجميلة جداً، وأما الثاني الذي من أنفسهم فهو استمتاعهم بالإخلاص في العمل، وأما الأربعة التي من حكومتهم فهي:-

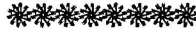
أولاً: الشفافية وانعدام الفساد الإداري.

الثاني: العدالة الإجتماعية، فالفوارق الطبقية كأدنى ما يكون.

الثالث: الإستقلال التام للقضاء.

الرابع: التعليم الجيد مع الضمان الصحي الممتاز.. انتهى!.

فهل يمكن أن نعتبر أنفسنا أكثر حظا لو تمسكنا بما منحه الله لنا من رسالة ومنهج ونبوة بجانب كل ما ذكره الوزير الفنلندى؟ أم أننا نحتاج الى معجزة لنقدر ونفهم عظمة النعمة التى من الله بها علينا ثم لا نلتفت اليها ولا نقدرها حق قدرها!



التعصب للمؤسسة والطاعة العمياء

قد يدفع الحب والشعور العاطفي البعض من أفراد الحركة إلى الإرتباط الشخصي والنفسي ببعض القيادات، دون توجيه أو تصويب يعصم من المبالغة والإسراف، فمن قال قولهم فهو على صواب، ومن خالفها فهو جاهل لا علم له!. وقد تزداد الحالة، وتتسع لكل القيادات، بل تصل إلى حد قبول أي كلام من أية شخصية تنتمي لجماعته أو حركته، ومن غير ذلك فلا صدى لها عنده، حتى وإن كانت الفكرة أو الرأي أكثر حصافة وحكمة!. وهذا أسْر وقع فيه الكثيرون، بلا تمحيص أو روية، مثلما فعل كفار مكة عندما رفضوا دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) واتهموه بالسحر والجنون: (وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) (الدخان: ١٤)، فلقد كان التركيز على شخص الداعية المرفوض لديهم، بعيدًا عن دعوته، ونعوذ بالله أن نقع فيما وقع فيه المعاندون، وأين تذهب "الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها"، "ويعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال". ولذلك كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول لأصحابه: "لا تُطروني كما أطرت النصارى ابنَ مريم؛ فإنما أنا عبده ورسوله"؛ خوفًا من صناعة الصنم، ومن ثم عبادته بالاتباع الأعمى، ومثل ذلك ما يحدث دفاعًا عن التنظيم، بشكل عاطفي، بالحق والباطل. وهو ما يُعرِّض أولئك المدافعين إلى الخروج على مقتضيات الحق، فإذا بهم في النهاية يدافعون عن التنظيم، لا عن الإسلام، وهو ما يعكس المهمة الرئيسة لأي تنظيم إسلامي، من أنه في خدمة الإسلام، وليس الإسلام في خدمة التنظيم!!!، وهنا تظهر عظمة التربية الإسلامية؛ حيث تربية القادة لا تربية العبيد. وأيضًا غياب فكرة السمع والطاعة المبصرة، نتيجة الانسياق التام، دون التثبت بالدليل أو البرهان، وهو نمط من التفكير أولا مخالف لأصول الإسلام، ولم يدَّعِه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بجلالة قدره، ومكانته في الدعوة، وفي قلوب المسلمين ثانيًا هو نمط من التفكير الاتكالي؛ الذي يُبتلَى به من اعتمد الاتباع بغير علم، وافترض استحالة أن يخطئ من سبقه. وهذا عين ما ذمه الله (تبارك وتعالى) في قوله (سبحانه): (مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) (النجم: ٢٨)، وما يترتب على ذلك هو عدم القدرة على مراجعة القادة، وعدم مطالبتهم بالتدليل والبرهان على صحة ما ذهبوا إليه، من أفكار وتصورات؛ حيث أن الخطأ هنا غير وارد!!! بينما القرآن يأمر المسلمون ويعلمهم: (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة: ١١١)، والنتيجة النهائية لاستمرار هذا النمط هو خلق حالة من الاستبداد الدعوي، وتقديس حذرنا منه سابقًا، وضعف متوارث بين أفراد هم للعبيد أقرب من الأحرار!. وهنا نذكر بما قاله المفكر مالك بن نبي، أن "الأمة الحية" هي التي تعيش في فلك الأفكار، وحين تُصاب هذه الأمة بالمرض فإنها تتعلق بفلك الأشخاص، ومن علامات موتها تعلقها بالأشياء.. ولا حول ولا قوة إلا بالله، العلي العظيم.

د. مسفر بن علي القحطاني

كاتب وداعية سعودي .



فضاءات النقد الخانقة

نعيش انفتاحًا ثقافيًّا، لم يسبق في تاريخ المجتمعات العربية، وأصبح لكل فرد الحق في أن يطرح رأيه، ويجادل خصمه، وينتقد كل الأوضاع بكافة مستوياتها، وعلى جميع الأصعدة، فثورة الاتصالات والتقنيات المعاصرة، وسَعَت دوائر النقد، ورفعت هامش الحريات، وقبلت الطيف الفكري جميعه، وبكل ألوانه الهادئة والنافرة.

ولو قدّرنا جدلا، أن صحيفة ما أغلقت منفذًا للنقد وإبداء الرأي، أو مجلسًا منع من حديثٍ أو ردّ متكلم، فإن مواقع الإنترنت وشاشات الفضائيات، على أتم الرحب والسعة في استقبال الآراء، مهما كانت غرابتها وشذوذها عن الواقع والمصداقية.

ولا عجب، أن نجد المجتمعات المنغلقة أكثر من يحفل بالنقد الجارح بدلا من البنّاء، والتهم الجزاف بدلا من المثبتة، وغياب المعايير الأخلاقية والأدبية للنقد والتقويم، ويبدو أن الحرمان، وفقدان المنافذ الرسمية والقانونية للنقد، انعكس على قيمة النقد الفكرية والوعي بأدبياته، وأوجد توترًا نفسيًّا من قبول الخلاف، وجفافًا في التعامل مع الآراء الجديدة؛ وبالتالي عنادًا وتحديًا وجدالا شخصيًّا، يبتعد عن موضوع الأفكار والتوجهات نحو الصراعات والمعارك الفردية.

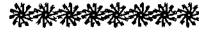
ولعل من الطبيعي، أن يكون النقد مرًّا وصعبًا على النفس، خصوصًا إذا كان بين الأفراد بعضهم مقابل بعض، ولكن استغرب الحساسية الشديدة عند بعض الدعاة والقيادات، من قبول النقد للأوضاع الدعوية العامة، وتخوّف من تقويم أداء المؤسسات الخيرية، أو نقد ومعالجة بعض الأفكار السائدة، والعادات المنتشرة في الصفوف الصحوية، التي لا تحوي نقدًا شخصيًّا لأحد.

ومع ذلك يأنف الكثير من سماعه فضلا عن قبوله، بينما من الطبيعي زيادة عدد القنوات الحرة في الحوار، وتنمية حس المسئولية بالنقد والتقويم، واعتباره واجبًا دينيًّا، ينشرح الصدر لممارسته، وقبول النافع الصحيح منه.

ومن المؤسف كذلك، أن بعض الناقدين تبريرًا لهوى في نفسه، أو مواقف شخصية في حياته الدعوية، يريد إلزام الجميع بنقده ووجهة نظره، ويجعل المقابلين في خيارين أمام رأيه، إما أن يقبلوا كل ما قال، أو يخسروه من غير رجعة؟!!.

لذلك؛ أعتقد أن فقه المراجعات، وفتح قنوات الحوار، وجلسات التقويم والمناقشة، باتت ضرورية، في مرحلة تقتضي معاودة النظر في الأهداف والإستراتيجيات، فضلا عن الوسائل والمرحليات، فالفضاء الرحب يجلب هواءً متجددًا، وسعة في الأفق، وتبقى الحكمة هي ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق

الناس بها، وتأخر المحب عن النصح والتقويم، لا يعني ردّ الحق وقبوله من الآخر، ولو كان متربصًا. لذا؛ فإن قصر النقد والتقويم للممارسات الخاطئة على فئات خاصة جدًّا، وبكتمان أخص؛ قد لا يقبل النشر والإعلان أحيانًا؛ يُعتبر انغلاقًا ومراوحة في الخطأ، وعنادًا في المعالجة أو التصحيح.



فقه المشتركات البشرية

كانت محاضرة هادئة في طرحها؛ كونها تناقش قضايا الفكر، وإشكالياته المعاصرة، ولكن دور الأسئلة عادة ما يأتي بعواصف، تكونت من سنين، في عقول وقلوب أبناء الغرب، فبعد انتهائي من محاضرتي، في المركز العربي اليوناني للثقافة والحضارة في أثينا، جاء دور الأسئلة الحائرة، وعرض المشكلات المتراكمة من عقود، وقضية غياب المرجعية، وضياع الهوية، وغيرها من موضوعات شائكة، سمعتها من ألسنة العمال والطلاب والدعاة، على حد سواء.

لا أظن أن تلك المسائل باتت حكرًا على أبناء الجالية في الغرب، بل هي من ضمن القضايا الملحة؛ التي تتناولها الدراسات والبحوث، في عدد من دول العالم، حتى التي في عمق البلاد العربية، مثل دبي والرباط وبيروت وغيرها، فالسؤال حول العمل في محلات تُقدم بعض المحرمات، أو زواج المسلمة من كتابي، أو التعامل مع غير المسلمين، أصبحت أسئلة عولمية، بحسب قوة وأدوات الاختراق العولمي لتلك المجتمعات.

هذه الفكرة تأملتها من خلال زاوية فقهية، تقتضي إعادة إعمال الفقه المقاصدي، ومعالجة النوازل من خلال بُعدها الاجتماعي، وتقدير مآلات المسألة من خلال تاثيراتها الاقتصادية، والتعامل مع المستجدات بحسب تقديراتها السياسية، كل تلك الأدوات باتت ضرورة في تقدير العلاج والمخرج الفقهي لأية مسألة ونازلة تعولمت في كل المجتمعات الأرضية.

ومع كل الحيرة التي أراها في وجوه المقيمين في الغرب؛ فإنها لا تنفك في صورتها أيضًا عن زوارهم والوافدين إليهم، لهذا كانت الحاجة ماسة لرسم منهجية شرعية علمية، تضبط العمل بالضرورة، ولا تتوسع في تقديرها؛ لأن صناعة الواقع يمكن التحكم في ظروفها بشكل من الأشكال.

كما لا تقل أهميةً من حيث العمل بها حاليًا، ودون تأخير؛ سرعة العمل على صياغة رؤية حضارية، تنافس الثقافات المعاصرة، وتعمل على أساس قانون التعارف الحضاري، المبني على التعريف الذاتي بما نملك من مقدرات ومكتسبات، عقدية وفقهية وفكرية، رائدة وخلاصية، وتقوم أيضًا على قانون التعرّف، الحامل على التفتيش والتنقيب لما لدى الغير من معارف وحقائق، هي مشترك حضاري وإنساني، المسلم اليوم هو أولى به من غيره؛ كونه يحمل على عاتقه أمانة الشهود الحضاري على الأمم.



الثغرة الفكرية في البناء الدعوي

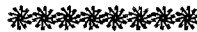
تناول عدد كبير من الباحثين والمفكرين الإسلاميين وغيرهم، مضامين الخطاب الدعوي المعاصر، بالنقد والتقويم، أو الفحص والتوصيف، وهذه المحاولات والتساؤلات والأطروحات كلها تصب في ترشيد الخطاب الإسلامي، والاستفادة من أخطاء الماضي، واعتبار المتغيرات التي أصابت الأفراد والمجتمعات، مما يعني تحولا كبيرًا في الواقع، وتحديات جديدة في المستقبل، يلزمها بشكل أكيد، ضرورة إعادة النظر في المشاريع الدعوية، والخطط الإصلاحية، ومواكبة هذه المستجدات المتتابعة. أعتقد أن ما سبق شبه مسلّمة لدى الكثير من القيادات الإسلامية المعاصرة، ولكن التفاعل المباشر والسريع لإجراءات التغيير كانت تحوم حول الهدف المراد، ولا تتجه نحوه، وتغرق وتجتهد في الأعراض الخارجية، دون الوصول لمحكات الأمراض الداخلية، أو أسباب الأدواء الباطنية. فعلى سبيل المثال، ومن خلال متابعة بعض القنوات الإعلامية، والمواقع الإلكترونية، والمجلات الإسلامية، أجد أن هناك تعاطيًا كبيرًا مع القضايا الأسرية، وتركيزًا أكبر على الوعظ والإرشاد النفسي، ومعالجات تحتل مساحة واسعة للأخطاء السلوكية، وتقويم الطباع الناشزة للأفراد. كل ما سبق مهم، والمجتمعات الإسلامية في أشد الحاجة لهذه المبادرات، ولكن هذه الأخطاء والظواهر السلبية والضعف العام قد يكون بسبب خلل في الفهم، أو جنوح في الفكر، أو نقص في القناعات، وهذه المؤشرات هي القاعدة الصقيلة؛ التي تعكس آثارها على النفس أو السلوك، لهذا أظن أننا في حاجة لإعادة ترتيب أولويات خطابنا الإصلاحي والدعوي؛ ليكون مؤسسًا لفكر ناضج، ورؤى واضحة للأحداث اليومية، والقضايا المجتمعية، والنوازل؛ التي تصيب الأمم والبلدان الإسلامية. كما أن الفرد المسلم يحتاج إلى قناعات راسخة، في ظل هذا الانفتاح الهائل، والأطروحات المتعددة، ولا أجد أن الحلول الأسرية والوعظية والسلوكية تُسهم بردم الهوة الفكرية؛ التي يعاني منها أكثر أفراد المجتمعات الإسلامية، وإذا أردنا التأكد من صحة هذه النظرية، فلننظر إلى الخلافات التي تحدث بين صفوف الدعاة، في الموقف من الغرب، أو التعاطي مع المبتدع، أو أسلمة المعاملات المالية، أو التعاضد والتكامل مع الحكومات الإقليمية، إلى غيرها من قضايا، لم تُشبع من التأصيل أو البناء الفكري اللازم لحجمها، وسعة الشريحة التي تتعاطى معها. ولو تأملنا في منهجه - صلى الله عليه وسلم- لوجدنا أن البناء العقدي والفكري ليس بأسلوب الوعظ المجرد فقط، بل من خلال تأسيس منهج عقلي استدلالي، يضبط الحق، ويزلزل كيان الباطل، ويجيب على التساؤلات الملحة التي تلهب العقل، ولا تطفئها عواطف المحبة، أو ماديات البدن.



الفقه والسياسة.. والأسئلة الشائكة

الفقيه، كإنسان مدني، له علاقاته وتفاعلاته مع مجتمعه، يتأثر بما حوله، من أحداث أو أشخاص، ويؤثر بالتالي في حركة الأحداث، وتفاعل الجمهور معها، والفقيه النابض بالحياة، والمنفك عن أَسْر التقليد والانغلاق، من الطبيعي أن ينعكس فكره على من حوله، من خلال آرائه واختياراته الفقهية؛ من حيث المرونة والشدة، أو الانفتاح والانكفاء، فهذه الطبائع البشرية، والتباينات البيئية، أنتجت فروقات ملحوظة بين المدارس الفقهية، والفتاوى الشرعية. فعلى سبيل المثال: فقه الأحناف فيما وراء النهر - خصوصًا في أبوب العلاقات مع المخالفين- يختلف من حيث كثرة الفروع، وواقعيتها، وقدرتها على التعايش والاستيعاب، عن فقه الحنابلة في الشام، كذلك فقه مالكية الأندلس - في التنوع والتجديد- يختلف عن فقه الشافعية في مصر؛ بل حتى الفقيه الواحد تتعدد آراؤه تبعًا للمتغيرات الخارجية، أو المؤثرات الداخلية، كما حصل للإمام الشافعي، في القديم والجديد، ومحمد بن الحسن الشيباني، في مخالفته لشيخه، الإمام أبو حنيفة، وابن حزم، في بعض مراحل حياته. ولكن أعمق أثر - من وجه نظري- يعيق أو يشجع التغير أو التطور لدى الفقيه، هي العوامل السياسية، والمتغيرات الدولية المتسارعة، بشكل لا تسمح لمتأمل أن يدرك أبعادها، أو يخوض في أسبابها وآثارها، والفقيه المعاصر - مثله مثل بقية مفكري مجتمعه- من حقه أن يحلل ويستنتج رؤاه السياسية حيال أية قضية يعيشها، أو يسمع بها في العالم، لكن الإشكال يحدث عندما يقرأ الفقيه الواقع السياسي من خلال أدوات معرفية قاصرة، تحجب الحقيقة أكثر من أن تظهرها، وتغبّش الواقع بجمال الصورة الإعلامية الخادعة، أكثر من تجليتها من الزيف والتهويل الفضائي!. فيبني الفقيه على تلك المعطيات البسيطة أو السطحية أحكامًا شرعية، بالحرمة أو الجواز، تنطبع في نفوس المتلقِّين، ويستجيبون لها بقوة الشرع، وقدسية أحكامه، كما يحدث أن يفتي بعض الفقهاء بالحرمة المطلقة بالإقرار بجدوى المحاكم الدولية، والمواثيق الأممية، حتى في دفع الضرر؛ كونَها طاغوتًا أكبر، يحكم بغير ما أنزل الله، أو إعطاء الشرعية لنظام مستبدٍّ، أو لمخادع بالدين، أو المسارعة في إعلان الحربِ أو السلم، دون الرجوع لمن له ولاية الأمر على المسلمين، وقدٍ حكى التأريخ عن أولئك الفقهاء الذين أُعجبوا بنابليون، حينما مارس معهم بعض طقوسهم الدينية؛ ليحتل بلادهم بالعمامة والجلباب الديني؟!. كما حكى التاريخ المعاصر عن فقهاء أقحموا المجتمع في التعانف والاقتتال مع الحكومات، أو التيارات المعادية، دون تقدير المآلات، ثم تراجعوا في مكاتبهم المغلقة، وبخصوصية باردة، بعد أن صدحوا بأرائهم القتالية المعلنة لسنوات طويلة؟!!. إن من الخطر العظيم: أن يُستغل الفقيه في بناء أحكامه من خلال واقع لم يعرفه إلا من

خلال أعين الساسة، ومصلحة لم يعتبرّها إلا من خلال تقديرهم، والعادة في المصلحة السياسية أنها آنيَّة المطلب، متقلبة المزاج، تخضع للعبة الدولية؛ بينما الحكم الشرعي الذي يقوم على دليل المصلحة لا بد من توافر شروط المصلحة المعتبرة؛ كأن تكون حقيقية غير متخيلة، عامة غير قاصرة، يقينية أو ظنها غالب، وليست شكوكًا وأوهامًا، وكم يكون الخلط عظيمًا عندما ينساق الفقيه نحو السياسي في تصوراته، ويُشرّع لمصالحه المتقلبة؟!. وفي تاريخنا نماذج أخطأ فيها الفقهاء، عندما ركبوا موجَ الأحداث السياسية بغير فقه أصيل، ونظر أصولي عميق، كما في فتنة الفقهاء مع ابن الأشعث، وقتالهم للحجاج، بينما كان موقف الحسن البصري الحذر من الركون إلى السيف في التغيير والإصلاح، وكما حصل ويحصل دائمًا من الدخول في تحالفات السلطة، ودعم الانتخابات، وحث الجماهير على الدخول في المعتركات السياسية، مثل أزمة الفتاوى والتصعيد أثناء حرب الخليج الثانية، أو ما حصل في انتخابات ١٩٩٢م في الجزائر، أو الموقف من الطائفية أثناء حرب لبنان الماضية، كلها شواهد على أثر التقاطعات المنهجية، والإشكاليات الخطيرة، في رسم علاقة الفقيه بالسياسة. وأعتقد أن الإحجام والتغافل الشديد عما يقع للأمة من نوازل ليس هو الحل الأمثل؛ الذي نريده من فقهاء الأمة، أو ننشده في علاج أزمة الأدوار المتداخلة، بين الفقيه والسياسي، لكن المنهج الأمثل أظنُّه في إحياء دور الشورى؛ التي كانت أساس النظر في الشأن العام للأمة، اقتداءً بأفضل هذه الأمة بعد نبيها (صلى الله عليه وسلم)، وهما الصاحبان: أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما)، فمع سعة علمهما، ومعرفتهما للتأويل، ومشاهدتهما للتنزيل، لم ينفكَّا عن الشورى، في كل أحوالهما، بل منعوا بعض الصحابة من حق التنقل والسفر؛ من أجل مصلحة الرجوع إليهم في نوازل الأمة ومشكلاتها، كما أن النظر في جذور الخلل، والكشف عن مكامن الزلل في واقع الأمة، قد يكون أولى وأحرى من مغالبة السياسي في سلطته، ومنازلة الإعلامي في منبره، من غير فائدة سوى تسجيل المواقف، وحفظها في أرشيف الهوان والنسيان.



الوعي الديني.. مفردة حائرة بين المفهوم والعمل

لماذا الحديث عن الوعي الديني؟، خصوصًا في هذه الفترة؟، ولماذا تلتف بهذا المصطلح كل الإشكاليات الفكرية والدينية؟، لماذا نعجز دائمًا عن تكييف مجالات الوعي الديني في الحياة؟، تساؤلات مشروعة، والتباس شديد، عند الحديث عن هذا الموضوع الفلسفي من وجه، والواقعي كثيرًا من وجه آخر.

فالوعي كمصطلح يعني الدخول في متاهة لا نهاية لها؛ وما زالت حالة الوعي كمصطلح تعني التماهي في تفاصيل هذه المتاهة العقلية، إنه في الحقيقة اللغز المحير، كما أنه المتبادر أيضًا إلى كل ذهن بكل بساطة ووضوح، يقول القديس أوغسطين: "عندما لا يطرح المرء السؤال: (ما هو الزمان)؟، فإنه يعرف ما عساه أن يكون الزمان، ولكنه إذا طرح السؤال فإنه لا يعرف عن الزمان شيئًا" ، فالوعي من حيث الاستعمال لا إشكال في توافق الأذهان على المراد العام منه، ولكن عند تحليل معناه، وتوضيح مبناه المصطلحي؛ فإن فضاءً واسعًا من النجوم البعيدة تراه أمامك، في حيرةٍ وذهول.

ففي هذا القرن طُرحت أسئلة عدة حول الوعي وماهيته، ليس من الفلاسفة فحسب، بل من علماء النفس والأعصاب والإدراك، وحتى من بعض الفيزيائيين، كلها تدل على وجود لغز محير في ظلام دامس.

يقول دانيال دينيت، في تفسير هذا المصطلح من الناحية المادية: "إن الوعي الإنساني هو تقريبًا اللغز الأخير المتبقي.. ثم يكمل بعدما سرد بعض الألغاز الكونية والطبيعية: ومع ذلك فإننا لا نزال مع الوعي في لبس شديد، فالوعي يقف اليوم بمفرده، باعتباره الموضوع الذي يترك حتى المفكرين العظام وقد عُقدت ألسنتهم، وأخذتهم الحيرة من كل جانب" .

ولا أريد أن يقع القارئ الكريم في هذا الشَرَك الفلسفي من الوعي، بل مقصودي هو ذلك المعنى المتوَطأ على فهمه وإدراكه، والمنعكس على الواقع فعلا والتزامًا، فالوعي الديني هو فهمٌ للنصوص الشرعية يتجاوز الحفظ، أو التلقي اللفظي لها؛ بل يقود فهمه العميق لمعانيها إلى أن تتشكّل في ذهنه استجابةً راشدةً، تقود سلوكه الظاهري نحو التفاعل الإيجابي مع متطلباتها الواقعية.

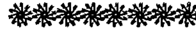
ولعلي أُبرز هذا المعنى بأمثلة تقرّب الصورة للقارئ الكريم، فمثلا عندما نتكلم تتداعى في أذهاننا المحفوظات المعرفية؛ التي نتلقاها ونرددها على ألسنتنا بشكل يومي، ولكن عندما نتصرف فإن الباعث للعمل والحركة هو ذاك المغروس في عمق اللا شعور، من التربية الأسرية والعرف الاجتماعي، والتطبيقي اليومي الرتيب لاحتياجاتنا الحياتية.

خذ مثلا تعاملنا مع زوجاتنا وأولادنا كيف يختلف التنظير عن الواقع؟، أو ما يحصل في مجالسنا عند

الاختلاف وتباين وجهات النظر عند أية قضية للنقاش، هل نحقق الأدب اللازم تطبيقه بيننا، أم تعلو حظوظ النفس على تلك القيم؟، أيضًا تعاملنا مع القرآن عند القراءة، وتعاملنا معه عند العمل بمعانيه، كذلك تفاعلنا مع المواقف الحياتية عند الزحام، أو الحصول على خدمات المرافق العامة، أو مع العمال والخدم والمرءوسين في الوظائف العامة.

وغيرها من أنماط الحياة المتنوعة؛ التي تحتاج منا إلى تعميق الدمج بين معاني القيم والآداب والسلوك الحياتي الظاهر، وهو ما قصدت به عندما استخدمت مصطلح "الوعي الديني".

أما الشواهد الشرعية في ذلك فهي كثيرة، تُفهم من سياق دعوة النبي (صلى الله عليه وسلم)، في تأكيده على رسوخ المعنى في القلب، وتصديق الجوارح له، وربما شواهده الخاصة في جميع الأوامر والنواهي النبوية، كما أن سورة الفاتحة في (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) (الفاتحة: ٥، ٦)، ثم التحذير من اليهود والنصارى، المنحرفين عن حقيقة الوعي الديني، لهو ترسيخ أعظم لهذه القاعدة الربانية.



مواجهة التطرف.. معركة لم تبدأ؟!

بعد مرور أكثر من عقد على مواجهة التطرف في أكثر من مكان عربي وإسلامي، ومحاربة وجوده في المؤسسات التعليمية والمجتمعية، أطرح تساؤلاتي حول نتائج تلك المعركة بجولاتها المختلفة، وفي إمكانية نجاحنا في دحض شبهات المتطرفين، والقضاء على جيوبهم المنتشرة في كثير من المدن والقرى والأرياف المهجورة؟.

وهل استطعنا أن نوجد الأنموذج الصحيح للتدين المعتدل؟، وهل قلَّصت جهود الدعاة والعلماء دوائر المتعاطفين مع الفكر التكفيري؟ وهل بعد هذه السنوات نستطيع أن نقول: إننا حصّنّا عقول أجيالنا من أي خطر للتطرف، قد يهدد مستقبل أجيالنا القادمة؟، وهل لامسنا حقيقة التطرف الغائر في القناعات، أم إن نقدنا يأتي كردود فعل لبعض الممارسات الجهادية؛ التي تقع هنا أو هناك؟. أعتقد أن هذه التساؤلات وغيرها ضرورية لتقويم تجربتنا، وتصحيح مفاهيمنا نحو الأخطاء المرتكبة، والتي تعتبر طبيعية إذا ما قارناها مع حجم المواجهة، وتعقّد مجالاتها، وتشابك أسبابها، ولكن يبقى طرح الأسئلة والمراجعة حول هذا الموضوع مهمًّا للغاية؛ لنعرف موقعنا بالضبط، وموقع المقابل كذلك؛ لنفهم أبعاد الجولة القادمة، والأسلحة المناسبة لها. ولعل أهم ما يجب مراجعته في إطار واجب المؤسسات هو أداء الأجهزة الإعلامية والتعليمية على وجه الخصوص، في نشر الوعي الحضاري، والفكر المعتدل، والتسامح الأخوي بين أبناء المجتمع الواحد، وذلك أن دورها شمولي لكل الأفراد، وأثرها قوي في حس الإنسان ومشاعره وعقله اللا واعي بالدرجة الأولى، خصوصًا أن معركتنا الحقيقية مع التطرف هي في ميدان الفكر والعلم، وأسلحة الحرب فكرية بالدرجة الأولى، وأدواتها معرفية، وضحاياها ليسوا بأموات هامدين، بل هم أحياء يعيشون بيننا، وقد يحملون تلك الفيروسات الخطيرة وهم بيننا.

لكننا لا نستطيع التنبؤ عن موعد تفاعلها أو انفجارها في الجسم والمجتمع؛ لخمودها أحيانًا، وتلوّنها وقبوعها تحت السطح أحيانًا أخرى، فالتركيز على المواجهة الأمنية ليس هو العلاج الحاسم لهذه الأزمة، أو الخيار الوحيد لمواجهتها؛ بل يُعتبر حلا مؤقتًا، ومرحلة أولى للقضاء على الحالات الخطيرة؛ التي استفحل فيها المرض، ولم يعُد من خيار إلا القطع والبتر للعضو التالف، وليس للحالات الحاملة لتلك الفيروسات القاتلة؛ التي قد تستوجب إجراءات علاجية مستمرة ومكثفة؛ لتأهيل المريض للعودة مرة أخرى لمجتمعه نقيًّا وصالحًا، وأي تقاعس في المبادرة نحو المعالجة الفكرية قد يؤدي إلى انتشار الوباء داخل الجسد، وحينها تكون خيارات النجاة قليلة، ونتائجها باهظة. والحقيقة أن الواقع الإسلامي خلال الفترة الماضية حمل الكثير من التنظيرات، وأنتج العديد من المؤتمرات، وتشكلت لها لجان عدة،

ولكن ثمرة هذه البرامج في التغيير، وجدواها في الإصلاح، لا يزال متواضعًا، ودون الطموح في الوصول إلى قناعات مؤثرة وإيجابية، تجعل الشباب المتحمس – سواء كان متدينًا أم غير ذلك- يتفاعل معها، ويؤمن بها، ويتحصن من ضدها، وللأسف إن مراجعتنا وتقويمنا لبعض الشخصيات العلمية التي لها فتوى شاذة، مخالفة لمقاصد التنزيل الرشيد للنص السديد.

مثل: فتــاوى بعض أئمــة الدعوة المعاصرين، في الردة والتكفير والجهاد ضد المخالفين، وغيرها، أو المؤلفات العقائدية المعاصرة؛ التي اختارت بعض الآراء الفقهية والعقدية في هجر المبتدع، ولو كانت بدعة يسيرة، مبناها الجهل أو العرف المتوارث، كحال كثير من الشعوب الإسلامية، المتأثرة بالتصوف أو التشيع، أو الكفر بالموالاة المطلقة لغير المسلم، أو الحكم بالضلال والهلاك العام للأشاعرة والماتريدية، وغيرها من مراجعات هامة، تحتاج جرأةً علمية من هيئات موثوقة، لا تخضع لسلطة الجماهير أو الدول أو الإعلام المسّيس.

ومناقشة المرجعيات العلمية المحرّضة – سواء بقصد أم بغير قصد- في آرائها ونقدها موضوعيًّا، ينبغي ألا يقابل بحساسية شديدة من الأتباع والمحبين؛ لأن الحق أحب إلينا، والمعصوم هو الوحي ومبلغه (صلى الله عليه وسلم)، وكل علمائنا الكبار – من أئمة المذاهب ومَن دونهم- لم يسلموا من الخطأ والنقد والمراجعة وتغيير الفتوى، فالاحترام لا يعني التقديس، والنقد لا يعني النكوص والاتهام.

وحتى لا يصبح الأمر منفلتًا لغير المتأهلين، أجد من المناسب أن تقوم بهذا الدور هيئة كبار العلماء، أو المجامع الفقهية؛ بتكليف خاص من المؤسسة الرسمية الحكومية؛ لتوضيح الموقف الشرعي من الولاء والبراء، كمفهوم للسلف، يتفق مع مقاصد الشريعة، ويجمع النصوص كلها، ولا يجزّيء فهمها، كذلك تطبيقات الجهاد على العصر الحاضر، والموقف من غير المسلمين والمخالفين لأهل السنة، أفرادًا ودولا وجهات، وتحقيق المعنيّ بدار الكفر والإسلام، وحقوق ولاة الأمر، وحفظ نظام الأمة، ورعاية مكتسباتها.

هذه المسائل وغيرها تعتبر أهم الإشكالات الفكرية التي يتسلح بها المتطرفون، ويغضّ الطرف عنها المعتدلون، فهل نكسب المعركة الحقيقية في جولاتها الفكرية.. أم هو الإلف على عادتنا القديمة، في ترك الأمور تمور حتى لا يبقى إلا الويل والثبور؟!.



فريد الأنصاري.. أنموذج فريد للنصرة الدعوية

لم أعرف الدكتور فريد الأنصاري إلا من خلال بعض كتبه النفيسة؛ التي تشوّقك للمطالعة والاستزادة النهمة، عند تذوقك أسلوبه الفريد، ونفحاته القرآنية، وتأملاته العميقة في نصوص الوحي، وتنزيلها على الواقع المشهود، ولم أشرف بلقائه إلا في ندوة قصيرة، في إمارة الشارقة، قبل أربع سنوات تقريبًا، في مركز الأمير عبد المحسن بن جلوي للبحوث والدراسات الإسلامية. وهو بحق عالم فريد، جمع بين البيان الفكري والبلاغ العملي، والترشيد النقدي لممارسات العمل الإسلامي المعاصر، خصوصًا كتاباته الفائقة حول الظواهر الدعوية؛ التي عالجها بمشرط الطبيب الفنّان الماهر الحذق، فهو الخبير الشاهد بواقع العمل الحركي، والناظر الفاحص في معالجات القرآن والسنة لتلك الوقائع، ولا يُفتح على أحد في هاتين الروزنتين إلا من تشبعت روحه بالزاد الإيماني، وخلص قلبه من شوائب الأهواء، وصدق في نصحه لإخوانه السالكين أو المتعثرين في المسيرة الإصلاحية.

وأعتقد أن الخسارة بفقد العالم الجليل - الدكتور فريد الأنصاري- لا تتحقق في فقده وغيابه عن الحياة فحسب، بل في فقد الناصح الأمين، والمعالج الرصين لأخطاء الحركة، وتصحيح مساراتها نحو الرشد والاعتدال، وهذا الجانب من أهم الجوانب التي يحتاجها أي عمل إسلامي جاوز مرحلة الطفولة، وعانى من المراهقة، وبدأ يتلمس ركن النضوج والتكامل مع التجارب العالمية القريبة أو البعيدة، وهذه الخسارة العلمية لشخص الدكتور الفريد أكبر من القطر المغربي، بل هي خسارة ظاهرة، تعم كل الغيارى الناقدين والمجددين للبعث الإسلامي في العالم كله. ولعل عجبي بعلمه وكتاباته يدعوني لنشر هذه المنتجات الفكرية الرصينة في شرقنا الإسلامي، والتعريف بهذا الكيان الكبير، والمشروعات التجديدية التي تلخصت في شخصه الكريم، وفكره العظيم، خصوصًا دراساته العميقة حول التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، ودراسته حول الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب (دراسة في التدافع الاجتماعي)، وكتابه المختار حول البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي، إلى غيرها من كتبه التخصصية، حول فقه المصطلحات، ومناهج البحث العلمي. ولا يفوتني أن أقدم شكري وإعجابي بشيخه وشيخنا الغالي، الدكتور الشاهد البوشيخي، على عنايته بتراث الدكتور فريد، وإعادة إخراجه وتطويره وتعميم نشره في العالم كله، وكما فهمت من فضيلة العلامة الدكتور الشاهد، أن هناك برامج عدة في التعريف بهذا التراث النفيس. وقد وُلد الشيخ الأنصاري في قرية الجُرف، بإقليم سلجلماسة، جنوب شرقي المغرب، سنة ١٩٦٠م؛ وحصل على دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، وعمل رئيسًا لشعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب، جامعة المولى إسماعيل بمكناس/

المغرب، وأستاذاً لأصول الفقه ومقاصد الشريعة بالجامعة نفسها، ورئيسًا لوحدة (الفتوى والمجتمع ومقاصد الشريعة) في قسم الدراسات العليا بالجامعة نفسها، وعضوًا مؤسسًا لمعهد الدراسات المصطلحية، التابع لكلية الآداب والعلوم الإنسانية، بجامعة السلطان محمد بن.عبد الله. وعضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وخطيبًا وواعظًا تابعًا للمجلس العلمي لمدينة مكناس/ المغرب، وأستاذًا لكرسي التفسير بالجامع الأعظم لمدينة مكناس. وقد أنجز الأنصاري من الدراسات العلمية:

-١التوحيد والوساطة في التربية الدعوية "الجزء الأول والثاني".

-٢أبجديات البحث في العلوم الشرعية: محاولة في التأصيل المنهجي.

-٣قناديل الصلاة "كتاب في المقاصد الجمالية للصلاة".

-٤الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب: دراسة في التدافع الاجتماعي.

-٥المصطلح الأصولي عند الشاطبي (أطروحة الدكتوراه).

-٦جمالية التدين: كتاب في المقاصد الجمالية للدين.

-٧بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق.

-٨سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة.

-٩البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي.

-١٠مجالس القرآن: (مَدْخَلٌ إلى مَنْهَجِ تَدَارُسِ القرآن العظيم وتَدَبُّرِه من التَّلَقِّي إلى التَّزْكِيَة).

-١١مفاتح النور: (مدخل لشرح المصطلحات في رسائل النور).

ومن أعماله الأدبية:

-١ديوان القصائد (الدار البيضاء ١٩٩٢م).

-٢الوعد (فاس ١٩٩٧م).

-٣جداول الروح (بالاشتراك مع الشاعر المغربي عبد الناصر لقاح) مكناس ١٩٩٧م.

-٤ديوان الإشارات (الدار البيضاء ١٩٩٩م).

-٥كشف المحجوب (رواية) فاس ١٩٩٩م.

-٦مشاهدات بديع الزمان النورسي (ديوان شعر) فاس ٢٠٠٤م.

وأخيرًا.. أدعو الله (عز وجل) أن يتغمد الفقيد بواسع رحمته، ويسكنه فسيح جناته، ويعوضنا بدلا منه، ولله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده لأجل مسمى.



المواجهة مع الآخر.. ولكن (بالتي هي أحسن)؟!

تداخلت العلاقات الدولية بين الأمم والشعوب في عصرنا الحاضر، بما لم يحدث من قبلُ في تاريخ الإنسانية، وأنتجت احتكاكًا وصدامًا، وأحيانًا اندماجًا وقبولًا، وللمسلمين فلسفتهم الرائدة، في مثل هذا التدافع الطبيعي بين الحضارات والخصوصيات الأممية، بما يمكن أن نُبرِزَه كمبادرة رائدة؛ لتخفيف الاحتقانات والتخوفات، من اندثار الهُويَّات لكثير من الأمم.

فهناك آيات بيَّنت أن التدافع بين أهل الحق والباطل - فضلا عن غيرهم من أصحاب المشتركات- هو ناموس كوني ثابت الوجود، يقول الله (تعالى): (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) (البقرة: ٤٠).

فلولا هذا الدفع لفسدت الأرض، وهذا المعنى يؤكد أن دفع أهل الإيمان للباطل - بمختلف أشكاله وأحواله- ليس دفعًا بغرض الإهلاك والإفساد وإفناء المقابل، أو الهيمنة وإلغاء الخصوصية، بل هو من قبيل الدفع بالتي هي أحسن.

يقول الإمام الطبري في معنى الدفع: " ادفع يا محمد بالخُلّة التي هي أحسن، وذلك بالإغضاء والصفح عن جهَلة المشركين، والصبر على أذاهم، وذلك أمره إياه قبل أمره بحربهم" (تفسير الطبري ٦٧/١٩)؛ فالأمر هنا بالدفع بالتي هي أحسن وليس بالحسن فقط، وهو متوجِّه للمشركين وليس المسلمين فحسب، والحكم بأن الآية منسوخة بآية السيف، (كما ذكره الطبري والبغوي في تفسيره ٤٢٧/٥) غير صحيح بإطلاقه، ومبالغة في الحكم بالنسخ لآيات كثيرة، دعت للمسالمة بين المسلمين وغيرهم.

ويقول الإمام الزركشي (رحمه الله)، في كتابه "البرهان في علوم القرآن": "ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف، من أنها منسوخة بآية السيف، قول ضعيف، فهو من المُنْسأ - بضم الميم- بمعنى: أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما، لعلة توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، ليس بنسخ، إنما النسخ: الإزالة، حتى لا يجوز امتثاله أبدًا.. فليس حكم المسايَفة ناسخًا لحكم المسالَمة، بل كل منهما يجب امتثاله في وقته".

(انظر: البرهان للزركشي:

٢ / ٤٣-٤٤، علوم القرآن للدكتور عدنان محمد زرزور ص٢١٠).

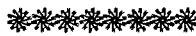
فالمدافعة بالمسالمة قد تكون في أحيان كثيرة من الدفع بالتي هي أحسن، ولو كانوا كفارًا ومشركين، وما سمِّي في عصرنا الحاضر بصدام الحضارات، وما بُني عليه من نظريات عدائية وإقصائية، لبعض الأمم والشعوب، هو اتجاه نحو الإفساد، من خلال تسويغات الصراع بين الحضارات، ومنهج الأمة

الإسلامية في علاقاتها المدنية مع الحضارات الأخرى قائمٌ - بشكل واضح- على التدافع بالتي هي أحسن، أو من خلال قانون التعارف، وإلغاء التمييز إلا على أساس التقوى.

ويقول ابن عاشور في تفسيره: "واجب بثّ التعارف والتواصل بين القبائل والأمم، وأن ذلك مراد الله منهم" (التحرير والتنوير ١٤/٣٢)، وهذه المعاني الريادية للأمة تؤكد مكانتها في الشهود على غيرها من الأمم، ولا تكون أمة شاهدة على غيرها إلا بالمعرفة التي تنافي الشك والجهل، كما قال النبي (صلى الله عليه وسلم) للشاهد: "ترى الشمس؟، قال: نعم، قال: على مثلها فاشهَد أو دَعْ" (صححه الحاكم).

والشهادة أمانة في التحمّل، وعدالة في التبليغ، فالأمة الشاهدة على غيرها من الأمم لا بد أن تمتثل لذلك الوصف بالمعرفة المكتسَبة، وتعريفها للغير، وبالعدالة والأمانة التي تسري بين أبنائها، من خلال صلاحهم، وقيامهم بشروط التمكين؛ الذي ورد في آية المدافعة، من خلال القيام بالصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا تكون أمتنا بخير - وعلى مستوى التحضر المنشود، والخيرية الظاهرة- إلا بتلك الأوصاف المحتَّمة.

وعلى هذا السَنَن، لا ينبغي أن ينفك الخطاب الإصلاحي عن هذه المقومات الضرورية لمشكلات التخلف والضعف التي نعاني منها، كما لا ينبغي التعامل مع الأمم والشعوب على أساس المبارزة والمواجهة القتالية، فليس هذا الميدان سوى حلقة واحدة في سلسلة الميادين التنافسيّة الأخرى، القائمة على المعرفة والقيم ونشر الفضائل بين الخلق، مما تخلت عنها كثير من مجتمعاتنا الإسلامية، وامتنعت من الخوض في غمارها، بالرغم من ضرورتها في صناعة التغيير، والقيام بالتبليغ.



عولمة الفتوى بين التهديد والترشيد

صدر الأمر الملكي السعودي في ١٢ أغسطس الجاري حاسما فوضى الفتاوى العابرة للحدود الشرعية والمكانية، ومحددا معايير الإفتاء المعاصر، ومنظما سبل الفتوى والموقعين عليها حسب تعبير الإمام ابن القيم رحمه الله، وهذا القرار السياسي لم يخرج عن مجالات السيادة التي يضطلع بها الحاكم في تصريف شؤون المجتمع بما يصلحه ويحافظ عليه، من خلال توجيه الجهات المعنية باختيار المؤهلين، وهم هيئة كبار العلماء، ومنع المنابر الخطابية لتكون إذاعة للآراء الشاذة والأقوال المرجوحة.

وهذا القرار كان أولى أن تبادر به المؤسسات الدينية في العالم كله، ليس بالمنع والتقييد والتخويف بالسلطة، ولكن بالترشيد السليم لجهات الافتاء، وتوعية المستفتي بما ينفعه في دينه ويحتاج إليه في دنياه، دون التشهي والتلهي وتصيد الرخص من الأقوال.

والناظر في حال المجتمع السعودي المعاصر يجد أن هناك بيئة خصبة جعلت الفتوى تتبؤ مركزا محوريا في عقل المجتمع، نظرا لكونه من المجتمعات الدينية المحافظة، ويزخر بجيش من طلاب العلم الشرعي خريجي الجامعات الإسلامية التي تخولهم إصدار الفتاوى أو نقلها للناس، صادف ذلك وجود مواجهات فكرية ظهرت بعد تعولم المجتمعات وتفكك الخصوصيات والتعامل مع مستجدات الانفتاح التي اخترقت الأبواب والنوافذ بالجديد من الهويات والثقافات العالمية.

كل ذلك والمؤسسات الدينية تتعامل مع تلك الحاجات الملحة والواقع المتغير بالتهوين واللامبالاة، مما أدى إلى بروز حالة من الفوضى الاجتهادية مارسها غير المتأهل، ودفعت بالمتأهل للخوض في قضايا مجتمعية بحسمها بالإغلاق والتهديد بالكفر لمن خالفها؛ باعتبارها الحق الذي لا يحيد عنه إلا هالك، استغلتها بالتالي وسائل الإعلام المحلية والعالمية بحثا عن مكاسبها في إثارة الجمهور بالتهويل والمبالغات الماكرة، والسخرية واللمز بتحويل أخطاء المفتين إلى ثابت ديني وسلوك مجتمعي.

هذه الحالة السعودية لا تختلف كثيرا عن واقع المجتمعات الإسلامية الأخرى، التي عانت من فوضى عارمة تضرب أصول الدين احيانا وليس فروعه؛ بل ربما يقوم بالإفتاء غير المتأهل بأبجديات العلم، وأحيانا من المجاهيل المتخفين في الظلام خلف الشبكات العنكبوتية ورسائل المحمول، ليحلل ويحرم ويخالف ما تفقت عليه الأمة، بالضال والشاذ من الأقوال المخالفة للعقل والشرع الحنيف، وليس ببعيد عنا فتاوى القتل والإبادة لغير المسلمين، وحتى المخالفين من المسلمين كما في العراق والصومال وباكستان وغيرها، إلى فتاوى التكفير للكتّاب والمفكرين، وانتهاءً بجواز إرضاع الكبير والتقبيل لغير المتزوجين وعدم إفطار المدخنين في نهار رمضان، وغيرها من بلايا الفتاوى ورزايا المسائل والقضايا.

لذا نلمس جميعا أن واقع الإفتاء اليوم بحاجة ماسة للتسديد والترشيد، وضرورة مأسسة الفتوى العامة بالمؤهلين علما وعدالة، خصوصا قضايا السلم والحرب، والمواثيق والمعاهدات، والمصالح العامة وشؤون الأمة وقضاياها المصيرية. إن هذا القرار الملزم بضبط الفتاوى لا يعني تمحوره حول الشأن السعودي فقط، بل شموله وتعديه سينعكس على الخارج بالرشد والاعتدال، كون الكثير من الفقهاء والمفتين خصوصا في الفضائيات العربية أما سعوديين أو من خريجي الجامعات السعودية، فالامتثال سيكون إما طاعة ملزمة أو محاكاة معلمة.

ويمكن أن نقارن شيوع الفتوى وتعدد منابرها اليوم وبين ما كان عليه حال الأمة في أول عصورها، بما يكشف للمتابع عمق الخلل المنهجي في التعامل مع نوازل الناس، وتجاسر همجي في التصدر لها، في حين كان سلف الأمة يعدونه خطرا هادما للدين.

واعتقد أن الفتوى اليوم التي كانت محط نظر فقهاء الصحابة وكبار التابعين وأئمة المذاهب يقلبون فيها الرأي ويجتهدون فيها الأيام، تستطيع أن تسمعها في برنامج فضائي تخرج من مفتيها على عجل ودون تقصي، لتبلغ الآفاق وتتلقفها الآذان دون تمحيص لحقيقتها أو دراية بمآلاتها أو تنزيل صحيح على واقعها، لهذا حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك بقوله: ((إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهّالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)).

لهذا كان من الضروري اليوم ان تبادر جميع المؤسسات الفقهية في جميع العالم بضبط مجالات الإفتاء، وتحديد المؤهلين القادرين على شروطها، ومعاقبة المخالفين والتشهير بالمتعالمين، حماية وحفظا لسياج الدين من الانتهاك.



آفة التهميش

التهميش المتعمَّد للأحياء هو بمثابة الموت البطيء لهم، بل هو قتل لأهم مكامن الحياة في نفس الإنسان، لا أجد أبشع ممن يمارس الإذلال والتهميش والتهوين، وتقزيم الكبير، بتحطيم بناء العلم في نفوس العلماء، وتهوين الرأي الصائب مقابل التفاهات الكلامية، وتقديم السفيه على الخبير المتمكن، صور قاتمة تُمارَس ضد الأفراد، تحبط أي طموح ونهوض يُراد له الخروج للعلن.

هذا التهميش على مستوى الأفراد، ولم أتطرق لتهميش المجتمعات والثقافات؛ الذي يشعل جمر الحقد تحت الرماد، وينذر بالثورة وقت الرقاد.

ولأن الفرد المسلم والمواطن الصالح في مجتمعنا العربي يعاني من هذه الآفة؛ أجد من المهم التعليق على هذه الحالة الواقعية والمتكررة، ولو بنفث الزفرات من الصدور المكبوتة المهمّشة، وبث الأمل من جديد في النفوس المحبطة، وتحصين الهمة من معاول الهدم والتحقير.

صور ومشاهد محزنة لشنق الأكْفاء بأيديهم، نراها في وسائل الإعلام، على سبيل المثال، عندما تستضيف النجم الفضائي ليتحدث عن كل شيء، من أزمات مالية حتى أحكام الطلاق والحج، والخبير المتمكّن والعارف الموثوق متروك ومُبعَد، بل نجعله يتمعّر كمدًا؛ لما يراه أو يسمعه من تخريف، وأحيانًا تجد التمجيد الهائل من المسئولين - وليس الإعلاميين- لفنان عرض لوحة، أو قدم أغنية، أو شارك بقصيدة، في مقابل التهميش لمن أنجز كتابًا نفيسًا، أو قدّم اختراعًا عظيمًا، أو توصّل لدواء ناجع، ولا أطلب المكافأة مع الفنان فهذا أمر غير متحقّق، ولا حتى اللاعب أو الرسّام أو الواعظ الجماهيريّ، ولكن إبراز النجاح دون تهميشه، ورمي فتات الثناء على هؤلاء؛ حتى لا نخسر حماسهم في الإبداع، وإنتاج الحلول، والسهر على احتياج الناس وهم نائمون.

أما عقدة الخبير الأجنبيّ فما زالت - منذ عقود- تحتل في نفوس الكثير من المتنفذين والإداريين مصداقية، وقبولا مطلقًا، بالرغم من أن هناك - وعلى بعد كيلو مترات- مَن يقوم بدور هذا الخبير، بكفاءة عالية، وبأقل التكاليف، ودون جلبه من وراء البحار، في حين نجد مبدعينا ومخترعينا - في مجتمعات الخبراء المجلوبين من الغرب- يُكرّمون ويُقدّمون ويُعترف بإنجازهم، دون استحياء لكونهم غرباء عن بلادهم، والقائمة تطول في ذكر هؤلاء المهمّشين في الأوطان.

هذه الصور ليست كل الحكاية، ولن تنتهي أحداثها وصورها من المجتمع في القريب، بل هو مسلسل طويل، يتنوّع ويتطوّر بشكل مذهل؛ كإنجاز تافه للمجتمعات المتخلفة، وأعتقد أن الدعوة لبقاء علمائنا في أبراجهم العاجيّة دعوة مقبولة، ما دام فيها الحفاظ على كيانهم الفكري من الاغتيال، لو نزلوا من تلك الأبراج، في لحظة من البراءة الخادعة.

أ. جمال سلطان

كاتب ومحلل سياسي مصري.



مراهقة حضارية

عندما أعلنت وزيرة بريطانية، قبل سنوات، أنها قررت ترك الوزارة، واعتزال العمل السياسي برمته؛ من أجل التفرغ لأسرتها وشئونها، قابل الإعلام العربي هذا الخبر بمزيج من الدهشة، وربما الاستنكار، رغم أن مثله ليس جديدًا ولا فريدًا في العالم الغربي، فقد تكرر مرارًا، من شخصيات نسائية مختلفة.

واللافت أنه في الوقت نفسه، كانت بعض الدعوات الطريفة والعجيبة، في العالم العربي، تتحدث عن أهمية مشاركة المرأة في العمل السياسي، ويحاولون تصوير الأمر، على أن هذه المشاركة أصبحت من شروط النهضة والتقدم الاجتماعي الآن، وفي بعض البلدان التي لم تعرف تجربة مشاركة المرأة المباشرة في العمل السياسي، أصبح الحديث أكثر عاطفية، والقارئ لما ينشر أو يكتب، يتخيل أن العقبة الكأداء الوحيدة؛ التي تحول دون انطلاقة الأمة كلها، إلى العلياء ومصاف العالم الأول، هي وصول المرأة إلى صندوق الانتخاب.

وأما القدامى من أهل المشاركة السياسية للمرأة أمثالنا نحن في القاهرة، فإنهم ينظرون إلى مثل هذه السجالات، بمزيج من الدهشة ومتعة الترفيه، إذ إن نصف قرن أو أكثر على هذه المشاركة، لم تثمر أية ثمرة إيجابية في التنمية الاجتماعية أو الحضارية، أو حتى التنمية السياسية نفسها، بل هناك إجماع، على أن تجربة المشاركة السياسية للأمة جميعًا قد تراجعت.

كما أن عدد أعضاء البرلمان من النساء، تراوح دائمًا بين اثنين إلى خمسة، من بين أربعمائة وخمسين عضوًا، الأمر الذي كان يستدعي دائمًا تدخل السلطة؛ من أجل تعيين عدد منهن في المجلس؛ لاكتمال الشكل الجمالي، وتناسق "الديكور"، وفي كثير من العالم العربي "المتحضر"!، أعني الذي تشارك فيه المرأة في الانتخابات النيابية والرئاسية وغيرها، نجد أن نسبة غياب المرأة أو حضورها لا تؤثر على الإطلاق، إلا في حدود ضيقة للغاية.

فنسبة الانتخابات العربية ثابتة تقريبًا، من تسعة وتسعين في المائة، إلى ثمانية وتسعين في المائة، وهذه ليست نكتة أبدًا، وإنما هو الواقع الذي نعيشه ونراه، فالحاصل أن أزمة مجتمعاتنا وتحدياتنا الحضارية أعمق جذرًا، وأعقد من مسألة مشاركة المرأة في صندوق الانتخاب، ولكن نزعة التقليد الساذجة للنماذج الغربية، والإحساس بالدونية تجاه النظم الاجتماعية الأخرى، هي التي تدفع بعض قطاعاتنا النسائية، والمحترفين من الجمعيات "الذكورية"، إلى وضع نمط غريب من الأولويات؛ التي لا تمت إلى واقعنا الاجتماعي والسياسي والحضاري بأية صلة.

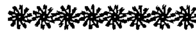
وهذه كلها، مما يسميه علماء الاجتماع، بالمراهقة الحضارية؛ التي تدفع قطاعات من المجتمعات الناشئة، إلى البحث عن تقليد المجتمعات الكبيرة أو المتقدمة؛ لمجرد إثبات الوجود، بقطع النظر عن موافقة الكلام أو الفعل للموقف المطروح واحتياجاته، ولذلك تجد أحيانًا في المجتمعات الغربية، حالات من الثورة والانتفاضة النسائية، على نمط الحياة الاجتماعية القاسي؛ الذي يفرض – مثلا- على المرأة العمل؛ لكي تأكل أو تسكن أو تتزوج.

وتطالب كثير من الاتجاهات النسائية، بعودة المرأة إلى المنزل؛ لتقوم بعملها الفطري والحيوي، في تكوين أسرة، وتربية جيل جديد، والإحساس الآمن بالأمومة، بينما في بعض بلادنا، نجد هناك من تناضل؛ من أجل أن تفرض على المرأة "قيد العمل"، وهو قيد فعلي، يحرمها من كثير من حقوقها الإنسانية الفطرية، في حياة أسرية هادئة، وإحساس بدفء الأمومة، واطمئنان إلى كفالة المجتمع لحقوقها وأمنها المادي، من خلال منظومة تشريعية وقانونية وأخلاقية "عرفية".

وكذلك نجد من تناضل من أجل الدخول في صخب الحياة السياسية، على الرغم من أن الحضور السياسي للمرأة ليس وقفًا على صندوق الانتخاب، بينما نجد أن النساء في المجتمعات التي تجاوزت مرحلة المراهقة والنزق، تبحث الآن بعمق، في مجمل التجربة الإنسانية التي خاضتها، ويبحث علماء الاجتماع والأخلاق والدين هناك، عن مخرج من هذه المحنة.

ومن خلال هذه المراجعات، تتعالى الأصوات، بين الحين والآخر، إلى تحجيم مشاركة المرأة في السياسة؛ لأنها ليست نزهة ولا ترفيهًا، ولا من قبيل تزجية وقت الفراغ، وإنما هي صراعات واستحقاقات مُضْنِية، عصبيًّا وأخلاقيًّا واجتماعيًّا، وتمثل في كثير من الأحيان شروخًا خطيرة.

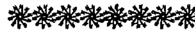
ولا شك، في أن هناك فارقًا كبيرًا، بين أن يفرض عليك الظرف الاجتماعي والتاريخي معتركًا، وبين أن تطلبه طلبًا، إننا في حاجة إلى إعادة النظر في أولويات حياتنا، الاجتماعية والسياسية والثقافية وغيرها، وفق رؤية ذاتية ناضجة وراشدة ومتزنة، وبعيدة عن أهواء النزق الشاذ، وأهواء المراهقين حضاريًّا والمراهقات.



التنصير في العالم العربي

كنت عائدا من سفرة في العاصمة البريطانية؛ لحضور ندوة فكرية، وكان خط الرحلة يمر وجوبًا بجزيرة مالطا، وهي جزيرة صغيرة في البحر المتوسط، تقع بالقرب من الشواطئ الليبية، وعلى مقربة أيضًا من شاطئ جزيرة صقلية الإيطالية، وهي معروفة بشكل أكبر لعرب المغرب العربي، وقليل من أهل المشرق من يعرفونها، بحكم الموقع الجغرافي. وكانت هذه الجزيرة إحدى حواضر الإسلام، وحتى الآن ما زالت لغتها وأسماء أحيائها تحمل معالم العربية الواضحة، مثل أحياء "سليمة" والمدينة، والرباط، وهي تُنطق كما هي مكتوبة أمام القارئ الآن، عربية فصيحة، مع بعض التكسير بسبب العجمة، ومفردات اللغة هناك مترعة بالألفاظ والتراكيب العربية. مالطا تشهد على الدوام أفواجًا من الشباب العربي الهائم على وجهه، من ليبيا أو تونس أو مصر، الذي يهرب إلى هناك، بحثًا عن العمل، أو بحثًا عن سبيل إلى الدخول إلى إيطاليا عن طريقها، والغالبية الأعم من هذا الشباب من قليلي الثقافة، والمسحوقين اقتصاديًّا، والعاملين في مهن متدنية، قضيت يوما في التجول بالجزيرة حيث كثرة الكنائس بصورة ملفتة للنظر، وشعارات الصليب، والصور المنسوبة للمسيح والسيدة مريم، في كل مكان يقابلك، من محلات البقالة الصغيرة، إلى معارض السيارات، إلى جدران الحافلات العامة، إلى مداخل البيوت. وفي المساء التقيت به، شاب عربي كادح، يبحث عن فرصة عمل، ما إن اطمأن إلى ملامحي حتى اقترب مني، وعلى الفور فاتحني بالموضوع، أخرج لي من حقيبته الصغيرة كُتيبًا أنيقًا، في طباعة فاخرة، ولا تصدمك فيه على الفور علامات الصليب المعتادة، أو الأيقونات النصرانية المعروفة، وإنما كأنك تطالع مجلة عربية عامة، قلبت في الكُتيب سريعًا، وجدته منشورًا تنصيريًّا، مترعًا بالخداع والأكاذيب، في صورة رسائل مرسلة من أشخاص مسلمين، في مصر واليمن والخليج والمغرب والجزائر والأردن وغيرها. تسأل المجلة عن دقائق العقيدة النصرانية والمجلة تجيب، ولا يوجد اسم واحد من السائلين نصرانيًّا، وإنما أسماء إسلامية من النوع الفاقع، مثل (محمد وأبو بكر وعلي وعبد الرحمن، وفاطمة وعائشة وخديجة)، وكانت الإجابات مدهشة؛ لأنها تضع القواعد الإسلامية، ثم تحاول ملأها بضلالات الشرك، مثل التأكيد على أن "الله أحد، لم يلد، ولم يولد"، ولكنها تستطرد بوضع استثناء المسيح، بتفاصيل لا يحتملها عقل، وعلى هذا النحو من التلبيس يسير الكتيب، وواضح أنه مصاغ بطريقة مقصود بها الشباب العربي المسلم تحديدًا، وفي الكتيب عناوين وأرقام هواتف وإذاعات وغيرها. حدثني الشاب، عن أن اثنين من الشباب العرب قابلاه، في أحد الشوارع في العاصمة فاليتا، وعرضا عليه المساعدة، ودعوه إلى غداء "فاخر جدًّا"، على حد تعبير

الشاب المذهول، وكانا في شدة اللطف، وقال: إنه لم يتصور أبدًا أنهما مسيحيان، حتى آخر لحظة، وحتى الكتيب الذي أعطياه إياه، قال: إنه كان يظنه كتابًا دينيًّا إسلاميًّا، حتى ارتاب في بعض الجمل والكلمات، وقال: إنه واضح أنهم متفرغون لهذا العمل، وأخبروه أنهم من بلد عربي، حددوه بالاسم. قضيت مع الشاب بعضًا من الوقت؛ الذي يسمح به موعد رحلة العودة، وأوضحت له أوجه التضليل والخداع، فيما هو مكتوب، وفي السلوك الذي اتخذوه معه، ثم فارقته، عائدًا إلى القاهرة، ورحت أقلب في عجلة، في أكوام الصحف؛ التي تراكمت على مكتبي أثناء سفري، فوقعت عيني على أكثر من خبر من الجزائر، يتعلق بجدل إعلامي وبرلماني، عن عمليات التنصير؛ التي تتم في مناطق البربر، وخاصة المناطق الأكثر معاناة، اقتصاديًّا واجتماعيًّا. وأن أحد الاستجوابات أرفق تقريرًا يقول: إن هناك سبعة من الجزائريين، يتم تحويلهم إلى النصرانية يوميًّا، من قبل منظمات أجنبية عديدة، تنشط وسط "خراب" المواجهات الدموية، والمحن الاقتصادية، على الفور، أمسكت قلمي، ووجدت أنه ربما من المناسب، أن أبعث بتلك القصص، إلى المؤسسات الدعوية والإغاثية العربية، إن الخطر لم يعُد هناك في أدغال إفريقيا، وجنوب السودان، أو أطراف آسيا، وإنما بدأ الإصرار على الاختراق، في عمق ديار العرب والمسلمين.



الخلط والجهل آفات يجب التخلص منها

من الظواهر المرضية، والآفات الفكرية؛ التي تنخر فى صفوف الحركة الإسلامية، ثمانية، أجملناهم فى المقالة السابقة، نبدأ بهم كالتالى:-

الأولى: الخلط بين الثوابت والمتغيرات، أو بين المبدأ والمنهج:

هذا الخلط هو أول ما يُفسد على أبناء الحركة الإسلامية نظرتهم لمفاهيم تتعلق بالمبدأ الذي يفصل نظام القيم فى الإسلام، وتوضح مضامين الرسالة، وهي مفاهيم تتعلق بماذا؟، لا بكيف؟، ومفاهيم أخرى تتعلق بالمنهج؛ من حيث طرائق التطبيق، ونظم التغيير، وهي تتعلق بكيف؟، لا بماذا؟.

وهنا؛ نتيجة هذا الخلط، تتوقف أية تجديدات فى الوسائل والمناهج؛ لعلة الثبات والإصرار عليها؛ حيث تعتمد الوسائل كمبادئ أو العكس، ومما يؤدي للجمود الخلط الحادث عند البعض، بين ثوابت الإسلام كرسالة وثوابت الحركة كتنظيم، حيث تجب القداسة للأول، بينما لا تحمل الثانية شيئًا من ذلك، بل يمكن تعديلها وتغييرها، طالما لا ترتبط بثوابت الدين (كالاسم والمستهدفات والمناهج والوسائل والمسارات والشعارات وغيرها).

فمثلا شعار الإسلام هو الحل، يعني أن الإسلام كدين يرشدك لحلول كل المشكلات، لكنه لا يعني أن نستغني عن العقل والتفكير؛ لأن هذا مزلق فكري؛ لأن العقل هو الأداة التي ستُخرج من الشرع الأحكام والتشريعات، ونتج عن هذا إفساد وتعطيل لهدف أساسي للحركة الإسلامية؛ حيث حاولت واستطاعت - لحد ما- أن تُخرج الدين من نطاق الإصلاحات الجزئية (تصحيح العقيدة – تصحيح العبادة - الوعظ والإرشاد)، إلى نطاق الإصلاح الكلي، أي التغيير الشامل للسياسة والاقتصاد، والتربية والتعليم، والثقافة؛ لتكوين مجتمعات لا تضارب فيها بين الدنيا والآخرة، ولا بين العلم والدين، ولا بين الأهداف والوسائل: (فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ) (آل عمران: ١٤٨).

ثانيًا: الجهل فى فهم العلاقة بين التربية والتغيير:

وأخطر ما تكون عند القادة؛ الذين تسيطر على كثير منهم فكرة أن عملية التغيير والتحول، القائمة على التدافع، لا يمكن أن تتم قبل ان يستكمل جموع العاملين فى الحركة الإسلامية تزكية نفوسهم، وتربيتها إيمانيًّا وروحيًّا!، وهو ما يبدو معقولا لأول وهلة، لكنه غير صحيح؛ لأن فيه إهدارًا كبيرًا لقدرات الأمة، وتعطيلا لأفرادها، وتأخيرًا فى تقدمها لمشهد الصدارة!.

فالصحابي الجليل أبو محجن الثقفي (رضي الله عنه)، كان مولعًا بشرب الخمر، مشتهرًا به، وكان سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه)، قد حبسه فيه، فلما كان يوم القادسية، وبلغه ما يفعل المشركون

بالمسلمين، ألح على أم ولد لسعد - كان محبوسًا لديها- أن تفك وثاقه؛ ليقاتل مع المسلمين، وتعهد لها أن يرجع لوثاقه بعد المعركة!.

فحمل على المشركين حملة صادقة، حتى قال سعد: "لولا أن أبا محجن فى الوثاق لظننتُ أنه أبو محجن، وأنها فرسي"، هكذا كان الصحابى الجليل مرتكبًا لكبيرة، أي لم يستكمل مراحل التربية بعد، ورغم ذلك لم يمنعه قادة الإسلام من الخروج فى الجيش للجهاد؛ الذي هو ذروة سنام الإسلام، إقرارًا بقوته وكفاءته وحبه للجهاد، ونقطة ضعفه كانت الخمر، ولم نسمع أن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، منع صحابيًا عن الجهاد لذنب أو كبيرة، فما بالك بالمهام الدعوية؛ التي يشترط لها البعض اكتمال التربية؛ التي ليس لها حدود أو تعريف!.

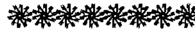
فشرط النجاح أن تتلازم حالتا العمل والتربية، وكيف ننسى أن العمل والأداء والتكليفات هي جزء من التربية المنشودة لأفراد الصف؛ الذين هم أدوات التغيير المنشود.



سيد سابق.. نموذج لصناعة الرواد

هناك شخصيات إسلامية لم يُعرف عنها الثراء في التأليف أو الكتابة، أو حتى الانخراط في العمل العام، حتى لو كان نشاطًا علميًا، ومع ذلك كانت لها بصمة كبيرة في مسار الإحياء الإسلامي الكبير؛ الذي عاشته الأمة، خلال نصف القرن الأخير كله، على وجه التقريب، من هذه الأسماء التي تعلَق بالذهن، ويصعب نسيانُها، العالم الجليل الراحل الشيخ سيد سابق، لم تكن لي معرفة كبيرة بهذا العالم الجليل، فقط كنت من ملايين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها؛ التي مثل كتاب "فقه السنة" أحد أركان مكتبته الصغيرة، وحتى بعد أن كبرت، كان هذا الكتاب البسيط أحد أهم دعائمها. لم يتيسر لي اللقاء به سوى مرة واحدة، كان فيها يعاني آثار الشيخوخة، وإرهاق السنين، ويقاوم بصلابة تراكم المتاعب والأمراض، ثم تُوُفِّي (رحمه الله)، ولم أُكمل مشروعي المأمول معه، وعندما سمعتُ بخبر وفاته حزنت مرتين، حزنت أولا لأنني فشلت في تعجيل اللقاء الأهم معه، قُبيل وفاته، حيث كنت مهتمًّا مع بعض الأصدقاء، باستجماع شهادات تاريخية من رموز الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، وقد اتصلت بالفعل بعدد من أصدقاء الشيخ، ومن جيرانه، في حي مدينة نصر، حيث استقر به المقام، وكان يعطي درسه الأسبوعي، بين المغرب والعشاء. أحيانًا كانت صحة الشيخ لا تسمح بمثل هذا الحوار، وأحيانًا أخرى كانت تصرفنا الهموم إلى آخرين، من شيوخ الدعوة والحركة، تتسارع خطانا نحوهم؛ خشية أن يفارقونا قبل سماع شهاداتهم، حتى كان قضاء الله أسرع من تدبيرنا لمقابلة حوارية مع الشيخ (رحمة الله عليه)، والحزن الآخر لفقدنا عالمًا جليلا، أثرى بعطائه وجهده حياتنا الدينية والفكرية، وكان كتابه الفذ "فقه السنة" علامة من علامات الدعوة الإسلامية، في النصف الثاني من القرن العشرين. لقد كان هذا الكتاب فتحًا جديدًا في "تقريب" الفقه الإسلامي من عامة أهل الإسلام، حتى أصبح ركنًا أساسيًا من أركان مكتبة أية أسرة مسلمة معاصرة؛ لسهولة أسلوبه، وبعده عن المصطلحات الفقهية الصعبة والمتخصصة، واعتماده على ما أجمعت عليه الأمة، أو ما ذهب إليه رأي الجمهور، وابتعاده ما استطاع عن الغرائب والفرائد. والحقيقة أن حالة الشيخ سيد سابق وكتابه تمثلان دلالة هامة، على قيمة ارتباط الفقه بالوعي الحركي، في الدعوة الإسلامية، وحياة المسلمين عامة، فصاحب فكرة هذا الكتاب هو الشيخ حسن البنا (رحمة الله عليه)، ولم يكن فقيهًا متفرغًا، على ما كان له من العلم والفضل، ولكنه كان صاحب بصيرة حركية ورسالية مدهشة، عينٌ له على الكتاب، وعينٌ على واقع المسلمين، عرَف زمانه، وعرَف حاجاتِ أهله، وعرف طاقاتِ من حوله، فبدأ يوظف هذه الطاقات حسب الحاجات، وحسب القدرات. ومما يؤثر عن الشيخ سيد سابق: أنه

ظل حتى آخر عمره، كلما ذَكر كتابه "فقه السنة"؛ الذي كان في بداياته مجرد محاضرات يلقيها على الشباب، قال: إنني حتى الآن كلما قلبتُ في هذا الكتاب أتعجب: كيف ألفته منذ خمسين عامًا أو يزيد، ولولا أن مخطوطه ما زال عندي ما صدقتُ أنني مؤلفه، وهذا يدلك على روعة وميض التوهج الذي كان يسري في أبناء ذلك الجيل، ولكن، أيضًا، هذا يدلنا على تقصير من الأجيال اللاحقة دون شك، عندما عجزنا ـ طوال عقود طويلة- عن استيعاب الموهوبين والمتوهجين علميًّا وفكريًّا؛ من أجل أن نصنع من بينهم روادًا في كل فن، وأعلامًا في كل مجال. لقد غابت عنا تلك اللمحة العميقة والخاطفة؛ التي تصل بسرعة وسهولة، إلى معادن الذهب من الأجيال الجديدة، وتحتضنهم، وتبث فيهم طاقات التميز والتفرد، والسبق والسمو، كما أن الانقسام والتباين عاد من جديد، بين النشاط العلمي الشرعي وبين الاهتمام بواقع المسلمين، ونهوضهم، وتحدياتهم الحضارية والسياسية والاقتصادية وغيرها، وبالتالي افتقدنا إلى الكتابات العلمية الرائدة؛ التي تواكب اللحظة، وتستشرف المستقبل، وافتقدنا تلك النماذج الفذة من المؤلفات الجديدة؛ التي تجد الملايين من المسلمين يحتفون بها، ويُقبلون على اقتنائها، وتكون ركنًا ركينًا من خزانات الكتب، في بيوتهم ومكاتبهم. أخشى أن أقول: ضاعت البوصلة منا في مجال العطاء العلمي، فقلت البركة، رحم الله العالم الصابر، سيد سابق؛ الذي امتُحن في علمه، فوفقه الله، وامتُحن في صبره على المحن، فثبته الله، وجزاه عن أمته ودينه خير الجزاء.



الإعلام الجديد.. الطفرة والإنجاز

في أعقاب رحيل قوى الاستعمار عن العالم الثالث، ومنه معظم العالم الإسلامي، منذ أوائل النصف الثاني من القرن العشرين، وما تلاه، تولت الحكم في كثير من هذه البلدان نخب عسكرية، من الضباط الصغار، استطاعت أن تقفز على السلطة الرخوة، في ذلك الحين، بعضها بالتواطؤ مع قوى أجنبية صراحة، وبعضها بغض الطرف عن تحركاتها، باعتبارها تقطع الطريق على قوى أخرى "راديكالية" أو إسلامية، كانت مؤهلة للوصول إلى الحكم. وكانت هذه النخب العسكرية تفتقر إلى الوعي الثقافي والفكري، كما تفتقر بطبيعة الحال إلى الخبرة السياسية، وبالتالي واجهت مشكلة معقدة مع مجتمعاتها؛ التي كانت تمور بالقوى الوطنية، الثائرة ضد الاستعمار، والنخب المثقفة، والنخب السياسية المتمرسة على النضال السياسي المركب، والجدل الاجتماعي المفتوح، فلم تكن النخب العسكرية التي قادت الانقلابات، وسيطرت على مقاليد الحكم، بقادرة على مجاراة هذه الخبرة (الاجتماعية والسياسية والنضالية) العميقة، ولم تكن - بحكم تكوينها وخبرتها العسكرية- بقادرة على الدخول في حوار جاد، أو جدل خلاق، تطرح من خلاله مشروعها للنهضة، بل إنهم كانوا يفتقرون إلى المشروع النهضوي بالفعل. فلجأ بعضهم إلى البرامج السياسية للأحزاب السابقة، وخاصة الراديكالية منها، وانتقَوا منها بعض أفكارها، ووجدوا من يوفق لهم بينها؛ لتقديم برامج جديدة لنهضة شعوبهم ومجتمعاتهم، وكان من نتيجة هذا الخوف من الحوار الوطني العميق والحر، أن لجأ العسكريون إلى الإعلام؛ لكي يقوموا بتأميمه، وتحويله إلى جهاز دعائي محض، يمجد هذه النخبة الجديدة، ويفرض الإيمان بعبقريتهم وبسالتهم، على عموم الشعب، دون نقاش أو تفصيل، باعتبار أن الإعلام هو رسالة من طرف واحد، وهو السلطة، وعلى الطرف الآخر أن يستمع، ولا مجال له للسؤال أو النقاش، ناهيك عن الرفض أو المعارضة. وعندما ظهرت المنشورات السرية - للتعبير عن آراء من لا آراء لهم- كانت تشن حملات أمنية هستيرية، على من يقوم بطبع المنشور أو توزيعه، ومن هنا تحول الإعلام إلى آلة للقمع النفسي والفكري للشعوب، وأصبح يمثل الدعامة الثانية من دعائم نظم حكوماتِ ما بعدَ الاستقلال، حيث كان "الأمن" هو الدعامة الأساسية، ورغم أن تحولات عديدة جرتْ في الحياة السياسية والاجتماعية، في العالم العربي والإسلامي، إلا أن وعي السلطة بالإعلام ظل كما هو، عندما تم التأسيس له، في مرحلة ما بعد الاستعمار، أي مجرد آلة قمع فكري ونفسي، مملوكة للسلطة وحدها. وكان طبيعيًّا أن يكون وزير الإعلام في هذه النظم مجرد راعٍ للأمن الفكري والدعائي للاستبداد، هذا بالإضافة إلى دوره، كمسلٍّ للحاكم، ومدغدغٍ لعواطفه، منْ خلال الحفلات التي تُعقد له، والمهرجانات التي لا تنقطع،

والتي تتغزل في عبقريته وعظمته، وعميق تفكيره، وبعد نظره؛ الذي يُبهر العالم أجمع، وكان طبيعيًّا أن يرى هذا النوع من الإعلام أن أية كلمة نقد في السلطة هي خيانة عظمى، وأي اعتراض على قرار أو موقف للسلطة هو إهانة للوطن وللدولة، باعتبار أن الحاكم يختزل الوطن كله في شخصه، فهو الوطن، والوطن هو. وكم من صحافي أو إعلامي عربي تعرض للبطش والسجن، أو الموت، أو النفي؛ بسبب أنه حاول خرق مقررات السياسة الإعلامية في بلده، والسجون شاهدة، والمنافي، وأعواد المشانق، والدماء التي سالت في مكاتب الصحف، أو غرف الفنادق، وعلى الرغم من أن مساحة الحرية قد اتسعت رويدًا رويدًا، في العقود الأخيرة، إلا أن الانقلاب الحقيقي حدث مع انتشار ظاهرة البث الفضائي. لقد أحدثت ظاهرة القنوات الفضائية الجديدة ثورة هائلة، في التركيبة السياسية والإعلامية، في العالم العربي؛ لأنها ببساطة، ألغت احتكار النظم العسكرية والديكتاتورية لآلة الإعلام الجبارة، بل حولت الإعلام من آلة للقمع الفكري والنفسي للشعوب، إلى ساحة للحوار والجدل والقبول والرفض، وأصبح المجتمع - لأول مرة- مشاركًا في الفعل الإعلامي، وليس مجرد متلقٍّ أو مستمع أو مشاهد. وهنا جُن جنون العقليات العسكرية، وحرس الإعلام البائد؛ الذين ما زالوا يفكرون بعقلية "مُسلِّي الحاكم، والمسبح بعبقريته"، ومن هنا كان ضروريًّا على كل القوى النبيلة، في هذه الأمة، أن تتضامن مع هذه الثورة الإعلامية الجديدة، وأن تتسامح مع ما يقع من بعضها من هفوات أو سقطات؛ لأنه - رغم هذه السقطات- فإن الذي لا شك فيه أنها تُعبِّد طريق الأمة، عن قصد أو غير قصد، إلى آفاق أكثر عدلا وحرية واستنارة.



الهوى عندما يحكم الموقف الفكري

كان الشيخ محمد الغزالي (رحمة الله عليه)، موفور الحماسة، جياش العاطفة، فيما يتعلق بقضايا الإسلام، وهموم المسلمين، حتى كان مشهورًا عنه سرعة البكاء، وقرب الدمعة، وكانت هذه الحماسة وخوفه على شباب الأمة تدفعه أحيانًا إلى شيئ من العجلة، وإطلاق آراء قاسية، أو مثيرة للجدل بين أهل العلم، وإن كانت ترضي معسكر العلمانيين واليسار وأضرابهم، عندما يتصورون أنها آراء تدعم مواقفهم، أو تحط من مواقف خصومهم الإسلاميين. وكنا نعرف ذلك - بحكم الخبرة والمراس- في تعليقات الصحف اليسارية والعلمانية؛ حتى قبل أن نعرف ما قاله الشيخ بالضبط أو نسمعه، بل حتى قبل أن نقرأ ما يكتبون عما قاله الشيخ، وكما يقولون في الأمثال: إن الخطاب يُعرف من عنوانه، فكنا نعرف الحكاية كلها تقريبًا من الوصف الذي يطلقونه على الشيخ، فإذا قالوا في تقديم الخبر أو التعليق بأنه الإمام الكبير، أو العالم المستنير، عرفنا أنه قال ما ظنوه موافقًا لهواهم، أما إذا قدموه بأنه فقيه التطرف، وإمام الإرهابيين، عرفنا أنه نكل بهم، وكشف باطلهم، وقال ما يخالف رأيهم، وما يقض مضاجعهم. وهذه الأوصاف كلها قيلت في الغزالي بالفعل، مرات عديدة، دون أدنى حرج من التناقض العجيب، في الموقف من الشيخ، ومن أشهر هذه التناقضات عندما تحدث الشيخ في بعض قضايا السنة، وبعض الأحكام المتعلقة بسفر المرأة بدون محرم، أو موقفه من الفصل بين الجنسين، ونحو ذلك من اجتهادات، خالفه فيها آخرون، كتب العلمانيون عنه ما يشبه قصائد الغزل، في علمه ووعيه، وشجاعته واستنارته، وسعة أفقه وقوة حجته، ومكانته في الأمة الإسلامية، وكيف أنه الإمام المجدد، وأن الأمة في حاجة ماسة إلى مثل هذا الفقيه، صاحب الأفق الواسع، ولم يبقَ إلا أن يصنعوا له تمثالا؛ تخليدًا لذكراه. ثم بعد ذلك عندما طلبت بعض المحاكم شهادته، في قضايا متعلقة ببعض رموز التطرف اليساري أو العلماني، وأدلى بشهادته أمام المحكمة، وأدان تطرفهم واعتداءهم على قيم الإسلام وثوابته، وقال ما يراه حقًّا في دين الله، هاجت عليه نفس الصحف والأقلام العلمانية اليسارية، ووصفوه بأنه خط الدفاع الأول عن الإرهاب، بل فقيه الإرهاب، وكتب بعضهم يقول: هذا هو الرجل الذي كنا نظنه مستنيرًا وعقلانيًّا، استبان لنا منه أبشع وجوه الظلامية والتشدد!. ولم يكن الشيخ الغزالي (رحمة الله عليه) وحده الذي شهد هذا التناقض المدهش في كتابات العلمانيين واليساريين عنه، وعن آرائه ومواقفه، فكذلك فعلوا ويفعلون حتى الآن مع غيره، وأذكر أن شخصية العلامة الشيخ يوسف القرضاوي، عرفت الكثير من هذه المتناقضات، فإذا قال كلامًا وافق هوى العلمانيين واليسار، وظنوه داعمًا لرؤيتهم في بعض القضايا، وصفوه بأنه العالم الكبير، والفقيه المستنير، والإمام الحجة،

أما إذا قال ما يخالف هواهم، أو يقض مضاجعهم، وصفوه بأنه فقيه الإرهاب، ومنظر التطرف!. وأذكر أن الشيخ يوسف عندما كان له موقف شجاع وقوي من رواية "وليمة لأعشاب البحر"، ونعى على من يستهينون بعقائد الأمة وقيمها ومقدساتها، وطالب بالتصدي لهذه الموجة المستهترة، المتسترة بثوب زور، ينتسب إلى الإبداع، هاجمته الصحافة اليسارية والعلمانية بعنف، وتزعمت هذه الحملة عليه في مصر جريدة حكومية جديدة، يرأس تحريرها صحفي شيوعي معروف. وبعد ذلك بأسابيع فوجئ الناس بعناوين بارزة، في الصفحة الأولى من الجريدة ذاتها، للصحفي الشيوعي ذاته، تنقل عن الشيخ القرضاوي ما ظنه أنه تأييد لدعوته إلى ما أسموه "التربية الجنسية"، ووصفوه بأنه العالم الكبير، والداعية الشهير.. إلى آخر هذه الأوصاف الجميلة!. وجدير بالذكر، أن مثل هذا الموقف المتناقض لا يتعلق بالأشخاص وحدهم، بل بمختلف قضايا الدين والشريعة وأحكامها، ولقد كان القرآن الكريم يصف مثل هذه المواقف بأنها "مرض"، وأنها من سوء الظن بالله؛ لأن أصحابها لم يقفوا بعدُ على أرضية الإيمان الصلبة والأساسية، ألا وهي التسليم لله وكتابه وسنة رسوله، سواءً وافقت أهواءنا أم خالفتها، أما غير ذلك فهو تأليه لهوى النفوس، وجعلها الحكم والحاكم على دين الله وشرعه. قال (تعالى): (وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۞ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۞ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) (النور: ٤٩- ٥٢).



التجربة الإسلامية في تركيا والجزائر

هناك مقولة تتردد أحيانا في الوسط الإسلامي العربي، مفادها أن الإسلاميين العرب أقل صبرًا على معاناة السياسة وتعقيداتها، والحقيقة أن ملاحظة التجارب السياسية الخصبة لحركات وتيارات إسلامية غير عربية، يمكن أن تكون شاهدًا يعزز من صحة هذه المقولة، مع بعض التحفظ، المقارنة الأكثر حضورًا، والأكثر شيوعًا، تتمثل في التجربتين: التركية والجزائرية.

في التجربة الأولى كان هناك تحدٍّ حضاري وسياسي، شديد الوطأة على أصحاب التوجه الإسلامي، لم تكن المشكلة سياسية فقط، وإنما أيضا حضارية؛ لأن مصطفى كمال - الملقب بأتاتورك- كان يحارب كل ما ينتمي إلى الحضارة الإسلامية، وخاصة ملامح العروبة فيها، لدرجة أنه منع الأذان باللغة العربية، كما غير حروف الكتابة من العربية إلى اللاتينية، وناهيك عن قرارات وتوجيهاته الأخرى، العنيفة والعجيبة، مثل تحريمه أنواعًا من اللباس للرجال، وفرض نوعيات أخرى، ونحو ذلك.

ومفروغ منه أن الكماليين كانوا الأكثر عنصرية، فضلا عن معاداة الدين ذاته، وقد تأسست حياة سياسية صارمة على هذا العنف الكمالي، وكان على الإسلاميين أن يتحسسوا خطاهم وسط هذا الظلام الدامس، والحصار المطبق، حتى إن كلمة "شريعة" إذا أطلقها أحدهم كانت كافية لإدخاله السجن بضع سنين، هذه المعاناة وطدت خطى الإسلاميين على طريق الصبر والإبداع السياسي المتنوع، والاشتباك مع حياة سياسية عنيفة ومعقدة ومعادية، ليس على المستوى السياسي فقط، وإنما على المستوى الحضاري والهوية ذاتها، كما أسلفنا.

واستفاد الإسلاميون من تطور العلمانية التركية، من الكمالية المتطرفة إلى العلمانية الليبرالية لأكثر اعتدالا، مما أتاح لهم فرصة الحضور السياسي الجيد، وتحمل قسطهم من المسئولية في إدارة الدولة، ومحاولات تحقيق نهضة أو تنمية، أو وقف الفساد الإداري والاقتصادي، ورغم كل الإغراءات بالتحول إلى العنف المسلح، وسهولة اتخاذ مثل هذا القرار، ووجود المبرر الأخلاقي، المتمثل في العنف الكمالي شديد التطرف.

إلا أن الحكمة كانت غالبة على وعي الإسلاميين الأتراك، فأصروا على اختيار معاناة طريق السياسة، بتعقيده وتركيبه ومثابراته الضرورية، وهو إصرار واختيار أربك حسابات العسكر، وأفسد مخططات الكماليين، وجنب تركيا دوامات من العنف والدماء، كانت هناك أطراف في السلطة مستعدة للخوض فيها إلى أبعد مدى.

وفي هذا الخضم كانت هناك تيارات إسلامية لا تتفق مع التيار الإسلامي المسيس، وجماعات إسلامية لها تصوراتها المختلفة للدعوة وخدمة الإسلام ونهضة الأمة، وبعضها كان يعطي صوته في الانتخابات لتيارات ليبرالية، وليس للإسلاميين، والمدهش أن هذا الخلاف لم يدفع الإسلاميين إلى خوض صراعات تصفية فكرية أو سياسية أو اجتماعية فيما بينهم، وإنما مضى كل منهم في سبيله، يحترم كل منهم اختيار الآخر، ولكنه يختلف معه فيه.

على الجانب المقابل كانت التجربة الجزائرية متميزة بالعصبية الزائدة؛ التي تصل إلى حد التشنج السياسي، من القطاع الأوسع من الإسلاميين، وكان هناك استعجال في الموقف، وقفز فوق المراحل، فالتجربة الإسلامية كلها كان عمرها قصيرًا، لا يتجاوز فعليًّا العقدين، كما أن الخبرة السياسية محدودة، وبالتالي عجزت الحركة عن قيادة العمل السياسي، في واقع معقد وشديد الاضطراب.

وكان من السهل جذبها إلى خضم صراع دموي مرعب، كان يتمناه العسكر؛ الذين يدفعون فاتورته من مال الشعب، ودماء الشعب، ومستقبل الشعب، كما كان هناك ما يشبه الحرب الأهلية بين الإسلاميين أنفسهم، على صعيد الفكر والتوجه السياسي، وربما كانت تلك الحرب أكثر مرارة من حروبهم الأخرى.

قد تكون هذه المقارنات بين التجربة التركية والتجربة الجزائرية فيها بعض الاختزال أو التحامل، ولكن المؤكد أن التجربة الإسلامية في تركيا جديرة بالدراسة والتأمل، من قِبل الإسلاميين العرب، وحقيقة بأن نخوض في عمقها وخلفياتها التاريخية والاجتماعية، لكي نثري خبراتنا في إدارة حياة سياسية معقدة ومركبة، ولكي نتفادى الكثير من مزالق الطريق وخداعاته.



الحجاب يعرّي أوربا!

أخذت قضية الحجاب أبعادًا جديدة شديدة الخطورة في أوروبا، في أعقاب الاعتداء الإرهابيّ؛ الذي قام به متطرف ألمانيّ، ضد المواطنة المصريّة "مروة الشربينيّ"، المرافقة لزوجها، طالب الدكتوراه، في ألمانيا، وهي الحادثة التي هزت ألمانيا، الواقعة الجديدة تعطي مؤشرًا واضحًا، على خطورة عمليّات التحريض ضد الحجاب؛ التي انتشرت في أقوال قيادات سياسية أوروبية رفيعة، مثل رئيس الجمهوريّة الفرنسيّ "ساركوزيه"، والمستشارة الألمانيّة "ميركل".

وكانت فرنسا قد بدأت - منذ ولاية "شيراك"- في التمهيد لتحريم لبس الحجاب، وشكلت لجنة بالفعل، بدعوة من الرئيس شيراك، وانتهى الأمر بالترتيب لإصدار قانون، يحظر الحجاب في المؤسسات التعليمية والمؤسسات الرسمية، ولإحساس اللجنة والنخبة الفرنسية كلها بخطورة المسألة، وفضائحيتها، للدولة التي أسست العلمانية في المدنية الحديثة.

رأت اللجنة، أن تضم إلى الحجاب شارات الصليب، أو القلنسوة اليهودية، مع الفارق الكبير بين الأخيرتين، كمجرد رموز دينية للبركة، أو الاعتزاز بالهويّة الدينيّة، وبين الحجاب، كفريضة دينيّة على المرأة المسلمة، بما يعني أن منع لبس القلنسوة مجرد تضييق على "إعلان انتماء"، بينما منع لبس الحجاب للمرأة المسلمة هو تمامًا كمنعها من أداء الصلاة، محض اعتداء على حريتها الدينية، في صميمها، وشتّان الفارق بين الحالتين.

كما أن القلنسوة والصليب كانا منتشرين قبل ذلك، ولم تقلق علمانية فرنسا، فلماذا انتبهت لهما الآن بعد الحجاب؟، ثم إن الإدارة الفرنسية رفضت أن يسري الأمر على الراهبات المتدينات، ولم يتم نزع حجابهن في المدارس والمؤسسات الأخرى، المسألة محرجة للغاية للمجتمع الفرنسيّ، والمجتمع الأوروبيّ كله، ولعله ليس أدل على ذلك من اللغة شديدة الفجاجة؛ التي استخدمها الرئيس الفرنسي - المشهور بلياقته وذكائه- عندما تحدث عن الحجاب، ووصفه بأنه "ظاهرة عدوانيّة"، وهو تعبير يكشف مدى الغيظ؛ الذي ينتاب النخبة الفرنسيّة، من شدة تمسك المسلمين بدينهم، رغم كل النكبات والنكسات؛ التي يعاني منها الإسلام والمسلمون، في أنحاء الدنيا.

ثم وصل العداء ذروته، بخطاب الرئيس الجديد "ساكوزيه" في البرلمان، بأن الحجاب لن يكون له وجود في فرنسا، مشكلة الحجاب لا تتصل أبدًا بالعلمانية، فهي تتيح لكل ذي دين أن يدين بما يراه، وأن يعبر سلميًّا عن آرائه، طالما لا تعتدي على الآخرين، ولكن الحجاب يمثل مشكلة مع الثقافة والهويّة الغربيّة، بجذورها المسيحيّة اليهوديّة.

ولقد كان الظن هناك أن المهاجرين المسلمين - بعد جيلين أو ثلاثة على الأكثر- سيكونون قد اندمجوا تمامًا في الهويّة الفرنسيّة أو الغربيّة، بما يعني تنصرهم أو تهودهم - نقولها بصراحة، وبعيدًا عن لغة المداهنات؛ التي تتحدث عن الاندماج بالمواربة- ولكن الذي حدث أن الانكسار الذي عاشه الجيل الأول تحول إلى صحوة في الجيل الثاني، ثم تحول إلى تحدٍّ في الجيل الثالث، بل إنه أصبح يكتسب أرضية جديدة، من المهتدين الفرنسيّين والغربيّين، والذين يُقدر عددُهم اليوم - في فرنسا- بقرابة المائة ألف فرنسيّ الأصل.

وصحيح أن مظاهر التمرد على الاندماج المطلوب، والمخطط له على مدار عقود طويلة، تتعدد وتتنوع، من سلوك المسلم في صلاة الجمعة تحديدًا، إلى ظاهرة صوم رمضان؛ التي تشد انتباه المجتمع الغربيّ بصورة مدهشة، إلى خصوصية طعام المسلم، وطريقة ذبح الذبائح، حتى إن المصطلحات العربية الإسلامية - المعبرة عن الحلال والحرام- أصبحت جزءًا أصيلا من اللغة والثقافة الغربية، وآليّة من آليّات اقتصاد السوق الأوروبيّ.

صحيح أن ذلك كله موجود، ولكن يبقى أن الحجاب هو "الراية" الأكثر تحديًا للاندماج المقصود، والأكثر رفضا له، إنهم يعتبرونه مثل العلم؛ الذي يرفع فوق الأراضي المحررة، في المواجهات الحربيّة، لا بد من تنكيسه بأيِّ ثمن.

والمؤسف أن بعض الكتاب العرب، وبعض من يعتبرون أنفسهم من "رموز" الجالية العربيّة في فرنسا، هاجموا تمسك المسلمات بالحجاب، واعتبروه يضر بالوجود الإسلاميّ هناك، وهذا تبجح وادّعاء فارغ، يقول به من لا يرى الحجاب دينًا من حيث الأصل، وترى ذلك في أسرهن وبناتهن، فكيف به يعظ ويفتي في "وضع الحجاب"، وكذلك أولئك السماسرة؛ الذين يتحدثون باسم الجالية هناك، ويركبون موجة التعايش والاستنارة؛ للتزلّف إلى النخبة الفرنسيّة، ومؤسساتها الرسميّة، على حساب الإسلام وشريعته وأهله، على هؤلاء "السماسرة" أن يُمسِكوا عليهم ألسنتهم، ويكُفوا عن الإسلام والمسلمين أذاهم.



العلمانيّة في العراء!

كان الأمر مثيرًا للدهشة، عندما قرّر الاتحاد الدوليّ لكرة القدم "الفيفا"، منع ما أسماه استخدام الرموز الدينيّة، في التعبير عن الفرح بالنصر أو إحراز الأهداف، وقد حدث ذلك بعد أن انتشرت ظاهرة سجود اللاعبين المسلمين، بعد نجاحهم في إحراز الأهداف، أو تحقيق الفوز في المباريات، صحيح أن الفيفا تراجع بسرعة عن هذا القرار المعيب، وقرّر أنه لا يتدخّل في هذا الأمر، وهو متروك لسلوك اللاعبين التلقائيّ، وقد تراجع الاتحاد الدوليّ بعد إدراكه أنّ موجة من الغضب الشديد اجتاحت الأندية والاتحادات العربيّة والإسلاميّة، من القرار المتشنِّج والعصبيّ.

وأنا لا أفهم سرَّ هذا التحرُّش المتوالي بأيّ مظهر إسلاميّ أو رمز إسلاميّ، كانوا قديمًا يقولون أن لا دين في السياسة، فلما تديّن الرياضيّون قالوا: لا دين في الرياضة، ولمّا ظهر التميّز الثقافيّ ومدارس نقديّة أدبيّة وفكريّة قالوا: لا دين في الثقافة، وإن المؤسّسات الثقافيّة ليست هيئات دينيّة، ولمّا ظهرت المؤسّسات الاقتصاديّة الإسلاميّة، ونجحت، وانتشرت على نطاق واسع، قالوا: لا دين في الاقتصاد، فالدين شيء والفكر الاقتصاديّ شيء آخر، وأخشى أن نصل إلى حد أن يقولوا: لا دين في الدين ذاته، وكلُّ شخص له دينه الخاصّ به.

وكان هذا التحرُّش بمظاهر التديُّن - التي انتشرت بين الرياضيّين ولاعبي الكرة بشكل خاص- قد بدأت في تركيا قبل سنتين تقريبًا، والقصّة كما ذكرتها وكالات الأنباء، أن فريقًا تركيًّا في لعبة كرة القدم، فاز في مباراة مهمّة في الدوري الكُرويّ، وكان فوزه في هذه المباراة يعني أن يصعد من درجة أدنى - في مستوى المسابقات- إلى درجة أعلى، وعلى ما أذكر أنّه صعد من أندية الدرجة الثانية إلى الأولى أو نحو ذلك، المهم أنّ فرحة غامرة شملت لاعبي الفريق، وهم بطبيعة الحال شبّان مسلمون عاديّون.

فما كان منهم عقب إطلاق الحكم لصافرة النهاية معلنًا فوزهم إلا أنَّهم سجدوا جميعًا لله شكرًا، في أرض الملعب؛ تعبيرًا عن شكرهم لله، أن وفَّقهم لهذا الإنجاز؛ الذي رأوا أنّه مهمّ جدًّا في حياتهم الرياضيّة، إلى هنا وكان الخبر عاديًّا، وهو يحدث في ملاعبنا بشكل دائم، بل في الملاعب الأوروبيَّة والعالميَّة، حين يرسم بعض اللاعبين علامة الصلاة المسيحيَّة بيدهم، إذا أحرزوا أهدافًا، أو فاز فريقهم. ولكنَّ الذي ليس عاديًّا في هذا الخبر هو توابعه، إذ هاجت الدنيا "العلمانيّة طبعًا" في تركيا، وانتفض اتحاد كرة القدم التركيّ، وأرغى ناس وأزبدوا، وشنَّعت صحف يساريَّة وليبراليَّة، وشهَّرت بالحادثة الجلل، ووصل الفزع بالنادي الذي ينتمي إليه اللاعبون، إلى أن أعلن أعضاء مجلس إدارته

بالكامل استقالتهم من النادي؛ اعتراضا على "إدخال الدين في الرياضة!".

ولم يقف الأمر عند هذا الحدِّ، بل إنّ الشركة التي ترعى الفريق إعلانيًّا، وتنفق عليه، قرّرت رفع يدها، والتوقُّف عن رعاية الفريق والإنفاق عليه، وهذا يعني نوعًا من الإفقار والتجويع، وربما حلّ الفريق وتسريحه بالكامل؛ كل هذا لأن اللاعبين أظهروا مسحة إيمانيَّة، تُعبّر عن فرحتهم بتحقيق إنجاز رياضيّ مُعيّن. وكنت أرى هذا الذي حدث في تركيا من مظاهر الغلو العلمانيّ المتطرّف، يوضّح لنا إلى أيّ مدى تصل "العلمانيّة" بأبنائها في العالم الإسلاميّ، إذا هم تمكَّنوا من سُدَّة الحكم، وعَلَوا رقاب الناس، إنهم يقولون لنا الآن: إنّ العلمانيّة تعني الاستنارة والتحرُّر وحقوق الإنسان والديمقراطيّة والحرب على الاستبداد.

ولكنّ الحقيقة المشاهدة أن العلمانيّة تتحوّل، كما تجلّت في هذه الحالة، إلى أقسى وأمرّ ألوان الاستبداد والقمع، ومحق الحريّات العامّة، والظلاميّة الحقيقيّة في الفكـــر والممـــارسة مع المخالف، وإهدار أبسط حقوق الإنسان، ولقد طالما حاولوا التخفيف من حقيقة عدائهم الصريح للدين ذاته، تحت ستار أنَّهم يعادون - فقط- بعض السلوكيّات؛ التي تسيء إلى الدين، أو سلوك بعض المنتسبين للتديُّن، ثم لا تلبث حتى ترى الحرب على الدين ذاته واضحة صريحة، ويظلّ الحصار يضيق شيئًا فشيئًا على الدين وأهله معه، حتى يدفنوه من واقع الناس وحياتهم إن استطاعوا.

وكنت أتصوّر أن العلمانيّة التركيّة حالة شاذّة في عدائها للدين، وخصومتها مع الإسلام تحديدًا، حتى جاء موقف الاتحاد الدوليّ لكرة القدم؛ ليؤكد على أن العلمانيّة تحمل في ذاتها فيروسات التطرف ضد الدين، والخصومة مع أهله، ولا يقلِّل من تلك الحقيقة تراجعه بعد ذلك عن قراره المتعصِّب، تحت ضغط الخوف من انتشار الغضب في العالم الإسلاميّ.



الخطاب لا يُعرف دائمًا من عنوانه!!

كان صديقي شديد الانزعاج من الكتاب الذي رآه منشورًا في معرض القاهرة للكتاب، ويحمل عنوانًا مسجوعًا، على عادة بعض الكتّاب الإسلاميين، وخاصة إخواننا من التيار السلفي، فكان عنوان الكتاب "الإجهاز على التلفاز"، ورأى الرجل أن هذا شطط غير معقول، وتسطيح للمسائل، وخروج على العصر، زمانًا ومكانًا وتحضرًا، وهذا يمثل إساءة للإسلام والفكر الإسلامي.

قلّبت في الكتاب، وفي صفحاته، وفي فهرسه العام، ولفت انتباهي أن الكاتب، وهو داعية سلفي أحترم جهوده، والكثير من كتاباته، لفت انتباهي أن طرحه لا يتعلق بالتلفاز كجهاز وتقنية، وإنما يتعلق بالمنهجية التي تحركه، والغايات التي يقصد إليها، والوسائل التي ينتهجها لتحقيق ذلك، وهو في هذا كله يرى أن المسلم لن يمكنه التأثير في هذا المزيج، وأن ما يُطرح إنما هو معادٍ له منهجيًّا وفكريًّا وأخلاقيًّا، وهو مجرد متلقٍّ، أو بمعنى آخر "أسير"، تُلقى عليه برامج غسيل المخ، وأنه لا قِبل للشخص بتحدي هذه الإمكانيات الجبارة؛ التي يتحرك بها ذلك الجهاز العجيب.

والكاتب يفنّد آراء من ينكر عليه ذلك، سواء من يقول: إنه سيستخدمه للبرامج العلمية أو الأخبار، أم غير ذلك، وكان الانطباع الذي خرجتُ به من الجولة السريعة في الكتاب، أنه ينظر إلى التليفزيون باعتبار أنه أداة في يد خصومه الفكريين والسياسيين؛ ليمارسوا من خلاله عمليات غسيل المخ، في حين لا تتاح له فرصة التفاعل الحقيقي أو الوجود الحقيقي من خلال هذه الوسيلة، أو أنه معزول عنها، ولا قيمة لرأيه، أو حتى وجوده، وبالتالي فالحل كما يراه هو مقاطعة التليفزيون، وهذه وجهة نظر تخالفها أو توافقها، إلا أن محاولة تفهم بواعثها وخلفياتها من شأنه أن يجعلك أكثر قربًا من دوافع صاحبها ومبرراته، وأكثر احترامًا لرأيه، مهما بدا بعيدًا عما تراه أنت.

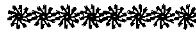
وأغلب الظن، أن فكرة هذا الكتاب ومادته قد أُعِدَّت قبل انتشار الفضائيات الإسلامية العديدة؛ التي تملأ سماء الإعلام العربي الآن، وحققت قبولا وحضورًا واسعًا، قد يقنع مؤلف الكتاب بأن التلفاز لا يستحق الإجهاز!!، والموقف السلبي من البث التليفزيوني أو الإذاعي كانت تقوم به دول وأحزاب، كانت -وما زالت- تُسمى تقدّميّة، وذلك من خلال عمليات التشويش على القنوات التليفزيونية أو الإذاعية، الموجهة إلى الجمهور الذي تحكمه؛ حتى لا يصل تأثيرها الفكري والنفسي إليهم، وأحيانًا تقصف مواقع البث أو تفجرها.

واللافت أن مثل هذه المشكلة لا تراها بهذه الحدة، في المجتمعات التي تعرف انفتاحًا حقيقيًّا، في القنوات الإعلامية، ومشاركة جماهيرية، وحوارًا إنسانيًّا جادًّا بين قوى المجتمع، وإنما تكون أكثر حدة

في البلدان التي تعرف ما يمكن وصفه بالقمع الإعلامي، مثل ما يحدث في تونس، أو ليبيا، أو ما شابه أو قارب!.

ولذلك، لا بد من تأمل واقع المشكلات قبل الحكم عليها وفق ظروف أحوال ومواقع أخرى، وهذا في الحقيقة ما يحدث اللبس في تصور بعض ما يُطرح من أفكار وآراء أو حتى فتاوى، وواقعة كتاب "الإجهاز على التلفاز" تكشف عن أن بعض الخطاب الإسلامي لا يمكن الحكم عليه من مجرد عنوانه أو لافتته، على طريقة المثل الشائع "الخطاب يعرف من عنوانه"، وإنما يحتاج الأمر إلى تأمل مضمون الخطاب، وربما بواعثه وقضيته، وهذه المسألة مهمة للغاية، خاصة في مجال الفتوى والتواصل بين المفتي والمستفتي، بحيث تكون القضية مجال الفتوى واضحة الملابسات عند من يفتي فيها؛ حتى لا يكون كلامه في وادٍ، والقضية المثارة في وادٍ آخر.

وأذكر أن الشيخ محمد عبده (رحمة الله عليه) كان أهل الترنسفال "جنوب إفريقيا الآن" قد أرسلوا إليه في مطلع القرن العشرين، يستفتونه في وجود بعض أهل البلاد من المسلمين يلبسون "البرنيطة"؛ التي يلبسها الإنجليز المحتلون؛ فما الرأي في ذلك، فأجاب الشيخ بإجابة عجيبة، تحدث فيها عن إمكانية أن تكون البرنيطة تحمي من حرارة الشمس، فلا حرج فيها إذاً!، ولقد كان من الواضح أن الإجابة فيها شيء من الهروب من واقع الفتوى وخلفياتها؛ لأن من بعثوا بالسؤال لا يتحدثون عن حر الشمس وفوائد البرنيطة، وإنما يتحدثون عمن يتشبه بالغزاة المحتلين لبلاد المسلمين ويقلدهم، ولو وضع الشيخ المسألة في هذا المسار، لكان التصور مختلفًا، وكذلك الفتوى قطعًا.



معركة اليونسكو.. والتفسير التآمري للأحداث

التفسير التآمري للأحداث هو إحدى العلامات الفارقة في الجدل الثقافي والديني، في المنطقة العربية، طوال نصف قرن على الأقل، وبطبيعة الحال هو موضع اتهام دائم للعقل العربي، وفي الحقيقة فإن المداومة على استخدام فكرة التفسير التآمري للأحداث العالمية، يعطي مؤشرًا سلبيًّا على القدرة العقلية والتحليلية للإنسان العربي المعاصر، هي - بدون شك- مؤشر على حال من الكسل العقلي، والتبسيط المخل للأمور والوقائع، والبحث عن مجرد "مشجب"، نعلق عليه أحيانًا خسائرنا، أو أخطاءنا، أو تقصيرنا في المشاركة في الأحداث، والإسهام الفعال في توجيهها.

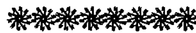
لكن السؤال الذي يطرح نفسه دائمًا: هل النزوع المتعجل إلى التفسير التآمري للأحداث خصيصة لصيقة بأصحاب الفكر الديني أو الإسلامي، أم إنها حالة ثقافية ومناخ ثقافي منتشر في عالمنا العربي، ويقع فيه أو يُصاب به مختلف التيارات الفكرية والثقافية، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، الجديد في المسألة هذه الأيام هي أن الاتهام لم يعد موجهًا إلى الفكر الإسلامي وحده، كما كان سابقًا، وإنما أصبح موجهًا إلى الفكر الليبرالي العربي كذلك.

وكانت المناسبة التي فرضت هذا الحال الجديد هي التنافس الثقافي على قيادة المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم "اليونسكو"؛ التي شهدت منافسات شديدة الوطيس، طوال عدة أشهر، تُوّجت بأسبوع ملتهب، انتهى إلى فوز مرشحة من بلغاريا، وخسارة المرشح المصري، فاروق حسني، وزير الثقافة، التنافس في منظمة اليونسكو مثل أي تنافس في أية انتخابات، تصاحبه عمليات تسويق أدبي، وعلاقات عامة مكثفة، وإبراز نقاط الضوء لدى كل مرشح، وكذلك لا مانع من الإشارة إلى ما يعتبره منافسوه نقاطًا سلبية، وفي النهاية يفوز من يدير معركته الانتخابية بشكل صحيح.

ومن الطبيعي أن تنتهي المنافسات بفائز واحد وخاسرِين، وعلى الذين لم يوفقوا أن يراجعوا أوراقهم، ويدرسوا التجربة بعقلانية؛ لمعرفة أسباب التقصير، أو أسباب فوز المنافس، تمهيدًا لأية منازلات مقبلة، ولكن الذي حدث أن تيارات ثقافية مصرية وعربية عديدة، تنتمي إلى الليبرالية أحيانًا، وإلى اليسار الفكري أحيانًا أخرى، حولوا المسألة إلى مؤامرة كبرى على العرب والمسلمين.

والبعض توسع في الحكاية، فجعلها معركة بين الشمال والجنوب، ورغبة من الشمال في الهيمنة على الجنوب، ومنع أي مرشح من الجنوب من أن يجلس على كرسي منظمة دولية مرموقة بهذا الشكل، إلى آخر هذا الخطاب الكلاسيكي القديم للقوميين العرب، أيام "الهوجة" القومية واليسارية، في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، والذي تم تصديره هذه الأيام لقطاع من الليبراليين العرب؛

الذين طالما هاجموا الفكر الديني وأصحابه، بأنهم من أصحاب التفسير التآمري للتاريخ والأحداث.
والغريب أن المفكرين الإسلاميين جاهدوا طويلا بالكلمة؛ من أجل أن يعمقوا الإدراك في العقل العربي الجديد بقضية الغزو الثقافي، والهيمنة الثقافية الغربية على العالم العربي والإسلامي، ومخاطر تلك الهيمنة، وكان الفكر الإسلامي يواجه دائمًا بالسخرية والاستهزاء من تلك القضية، وتسمع كثيرًا عن العالم الذي أصبح قرية واحدة، وأن الثقافة مشترك إنساني عام، وأن فرضية الغزو الثقافي لا تملك وجهًا من الحق والحقيقة، الآن نسمع من نفس هؤلاء الذين كانوا ينتقدوننا على حديثنا عن الغزو الثقافي، نسمع منهم ترداد كلماتنا نحن، وحديثًا متواصلا عن الغزو الثقافي، والهيمنة الثقافية الغربية.
وقناعتي الكاملة أن التفسير التآمري وإن صح في مواقع أخرى، إلا أنه في هذه الواقعة، واقعة انتخابات اليونسكو الأخيرة، غير صحيح بالمرة، ولا يمكن تفسير الأمر بمثل هذا الخطاب الدعائي السطحي، عن صراع الشمال والجنوب، فالشمال هو الذي رحب بانتخاب شخصيات عربية لقيادة وكالة الطاقة النووية، وقيادة الأمم المتحدة ذاتها، ومنظمات دولية أخرى مرموقة.
المسألة هي أخطاء في إدارة تنافس ثقافي ودبلوماسي معقد، وربما التوصيف غير الحصيف للمرشح المصري، بأنه مرشح العرب والمسلمين، وهي إشارة في المجال الثقافي لها أبعاد سلبية، لا تخدم صورة مرشح لرعاية الثقافة العالمية، بكافة تياراتها، كما إن المؤسسات الدولية في اختياراتها لا ترتبط كثيرًا بالمعادلات الداخلية، المعمول بها في دول العالم، وخاصة العالم الثالث، ومنه كثير من دولنا العربية والإسلامية.
وإنما هناك دائمًا معايير مختلفة، منها السيرة الشخصية للمرشح، ومدى ما يتمتع به من إيمان بالحرية والإبداع وحقوق الإنسان، ونضاله من أجل حياة أفضل، وابتعاده عن كل ما يمس الشرف والنزاهة والشفافية، وبطبيعة الحال هناك معايير أخرى يمكن تسييسها، ولكن تبقى السيرة الذاتية للمرشح هي الحكم والفيصل والمرجع لاختيارها للمنصب الدولي، وهذا ما توفر للمرشحة البلغارية بكل وضوح، وغاب عن المرشح المصري.



الاستفتاء السويسري .. والمسئولية الإسلامية

الاستفتاء الذي أجرته سويسرا مؤخرًا، حول مشروع قرار بحظر بناء مآذن للمساجد المقامة هناك، مثل عارًا على أوروبا كلها، وليس سويسرا وحدها، وكشف عن أن أفكار اليمين المتطرف تتغلغل بقوة في أماكن كان يُظن أنها أبعد ما يكون عن التطرف ومعاداة التعددية الدينية، فسويسرا التي كانت تباهي بأنها بلد الحياد التاريخي، سياسيًا ودبلوماسيًا ودينيًا وقوميًا، هي ذاتها التي تشهد هذا التحول الخطير.

بطبيعة الحال الاستفتاء الشائن انتهى إلى الموافقة على حظر بناء المآذن في سويسرا، حيث صوت له ما يقرب من ٥٧٪، في الوقت الذي لم يفكر فيه أحد أن يطرح مشروع قانون لحظر بناء أبراج الكنائس هناك، وهي إشارة طائفية واضحة، وزيرة الخارجية السويسرية حاولت أن تخفف من وقع "العار" بأن قالت: إن الاستفتاء ليس ضد الجالية المسلمة في البلاد، دون أن تذكر تفسيرًا لمعنى هذا الاستفتاء أصلا، وضد من يتوجه إذًا، وهذه سابقة مثيرة للدهشة، أن يتم جعل مسألة متعلقة بالمباني وشكلها معروضة لاستفتاء دستوري في عموم البلاد، وليس وفق عملية توافقية لتخطيط المدن مثلا.

التقارير التي نشرت حول الموضوع أشارت إلى أن عدد المسلمين في سويسرا يصل إلى قرابة نصف مليون، في بلد تعداده يتجاوز الخمسة ملايين ونصف المليون نسمة، وأن سويسرا بكاملها لا يوجد فيها سوى أربع مآذن، وهذا ما يحير بالفعل، هل أربع مآذن في جميع مناطق سويسرا تمثل هذه الأزمة الدستورية أو السياسية؛ التي تستدعي أن يتم تنظيم استفتاء شعبي عام عليها، وإذا قلنا بأن هذا مطلب اليمين المتطرف، فكيف وافق البرلمان السويسري على الفكرة من أساسه، وكيف وافقت الحكومة، إلا إذا كان هناك ميل لهذا الحظر، ومحاولة للهروب من مسئولية تنفيذه، بالتستر في الاستفتاء.

على كل، فالأمر ليس كله شرًا، بل إن ردود الفعل الأوروبية واسعة النطاق مثلت نقاطًا إيجابية؛ للتنبيه إلى خطورة مثل هذه الأفكار المتطرفة، وتغلغلها في المجتمع الأوروبي، فلم يتوقف الأمر عند رفض الفاتيكان لهذا القانون، وإنما تعدى إلى احتجاجات رسمية في بريطانيا وألمانيا وفرنسا والنمسا وبلاد أخرى.

كما أصدرت منظمات دولية كبيرة بيانات تندد فيها بهذا الاستفتاء ونتائجه، منها البيان العنيف لمنظمة العفو الدولية؛ التي عبرت عن صدمتها لإقرار حظر المآذن، محملةً الحكومة والبرلمان السويسريين المسئولية عن ذلك "لكونهما سمحا منذ البداية بإجراء هذا الاستفتاء العنصري التمييزي المخالف للدستور، حسب نص البيان ؛ خاصة أنه ما زال مسموحًا ببناء أبراج الكنائس، وطالبت المنظمة

الدولية في بيانها كلا من المحكمة الفيدرالية السويسرية والمحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان بإبطال هذه النتيجة؛ التي "تتعارض مع الاتفاقيات الدولية؛ التي سبق لسويسرا أن أقرتها، ومنها الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان؛ التي تكفل الحرية الدينية".

فمثل هذه البيانات وردود الفعل تكشف عن أن القطاع الأوسع في أوروبا يشعر بالقلق الحقيقي من تنامي مثل هذه الأفكار والنزعات المتطرفة دينيًا، ويعني لنا نحن المسلمين أن جسور التواصل الحضاري والإنساني لم تغلق أو لم تدمر مع العالم الغربي، وأن هناك فرصًا لتعزيز روح التسامح والتفاهم الديني والإنساني بين الشرق والغرب، وهو ما يفرض علينا مسئولية أخلاقية وحضارية كبيرة، لعل أبرز ما فيها هو ضرورة إبعاد النزعات العاطفية والانفعالية عن التعاطي مع مثل هذه المظاهر، وأن تكون ردات الفعل الإسلامية تجاه هذه التحركات التي يهيجها اليمين المتطرف أكثر عقلانية ومسئولية، وأكثر التزاما بالقوانين والأعراف الدولية، لأن ردات الفعل العصبية والمتهورة تقدم خدمة جليلة لليمين المتطرف؛ الذي نواجهه هناك، ويعزز مكانته بمثل هذه الانفعالات الغاضبة وغير المحسوبة.

وللأمانة، فإن التصريحات وردود الأفعال التي صدرت من جانب ممثلي الجالية الإسلامية في سويسرا، أو المؤسسات الإسلامية الأخرى في عواصم أوروبية عديدة، كشفت عن وعي كامل بهذه الحقيقة، وأن الوجود الإسلامي في أوروبا اكتنز خبرات إنسانية وحضارية وسياسية عميقة، بتعايشه مع تلك المجتمعات، على مر العقود الماضية، وأنه نجح في تلافي الأخطاء التي كانوا يقعون فيها في تجارب سابقة، غلب فيها صوت الغضب والعاطفة على صوت العقل والمسئولية، نعم، نواجه خطر انفلات روح أوروبية متعصبة، من خلال أحزاب اليمين المتطرف، لكننا نقابل أيضًا أصوات أكثر حضورًا، ما زالت متمسكة بروح التسامح، والبحث عن التعايش السلمي بين الشعوب والديانات، وعلينا أن ندعم هذه الأصوات، ونعزز معها جسور التواصل.



عندما تكون الليبرالية حربًا على الشعوب!

لا أجد معاندة واستهتارًا بالمنطق لدى مشتغل بالفكر والكتابة مثلما أجده في النخب الضيقة جدًّا من المثقفين العرب، المبعثرين في عواصم عربية مختلفة، يدَّعون أنهم يشكلون تيارًا ليبراليًّا، وأن التيار الليبرالي هو الأمل لحل مشكلات الأمة، وبعضهم - مثلما حدث في القاهرة- رفع شعارًا مُضحكًا أسماه "الليبرالية هي الحل"، وذلك في مواجهة دعوات التيار الإسلامي؛ الذي قدم نفسه تحت شعار "الإسلام هو الحل".

والمشكلة في أن النخب العربية المتآمرة على كل نبيل وجميل في هذه الأمة، والمتحالفة مع كل معادٍ لها ولحضارتها - في الداخل والخارج- تريد أن تقدم شذوذها عن روح الأمة، وخياراتها الشعبية والتاريخية، بالتمسح في شعار الليبرالية، والحقيقة أن هذا قدم أسوأ دعاية لليبرالية في العالم العربي، فإذا كانت الليبرالية قد وُلِدت في المجتمع الأوروبي، كتيار نضالي، ودعوة للتحرر والاستقلالية في الداخل والخارج، ودفاعًا عن الحريات والتعددية، فإن مدَّعي الليبرالية العرب مشَوا على النقيض التامِّ لكل ذلك، فهم يقدمون الليبرالية على أنها التبعية الكاملة للآخر.

والمؤسف أنهم يقدمون ذلك بصورة شديدة التطرف، فهم يستقبحون أي حديث عن كرامة وطنية مثلا، أو حديث عن مجد تاريخي للأمة، أو حديث عن حضارة عربية إسلامية رائعة عرفها التاريخ، هم يسخرون من هذا الكلام كله، وعندما تحدثهم عن "هوية" فأنت في عرفهم ترتكب حماقة، وإذا كانت الليبرالية دعوة للحرية والتعددية واحترام إرادة الشعوب؛ فإن النسخة العربية من الليبرالية تقف ضد هذا الأمر على طول الخط، فهي تدعو - صراحة- إلى محاصرة القوى السياسية والفكرية التي لا تعجبهم، وخاصة القوى الإسلامية.

وبعضهم ينشر ما يشبه بلاغات أمنية تحريضية، كرجال شرطة ضد مخالفيهم في الرأي، وبعضهم كتب ونشر الكثير من المقالات التي تدعو إلى حرمان المجتمع من الديمقراطية، أو على الأقل تأخير منح الشعوب العربية هذا الحق، لماذا؛ لأنها لو أخذت حقها في الاختيار فسوف تختار الإسلاميين، وهذا يعني - في عرفهم- أنها شعوب لم تنضج بالقدر الكافي لكي تنال شرف الديمقراطية، وبمنطق هذا الكلام، فإن الشعوب العربية لن تكون راقية أو متحضرة أو مؤهلة للديمقراطية إلا إذا أعلنت أنها ستختار هذه النخبة الضيقة المعزولة، المنتسبة إلى شعار الليبرالية.

وعلى الجانب الآخر فإن هذه النخب ترى أنها مثل "الحاكم العسكري"؛ الذي يحكم بموجب قوانين استثنائية أو قوانين طوارئ، فهو لا يحترم المجتمع الذي ينشط فيه، أو يدعي أنه يعمل من أجله، ولا

يحترم مشاعر الجمهور العام، فضلا عن إهانته المتعمدة لكل عزيز لديه أو مقدس، ولذلك تجد أهم وأكبر معارك دعاة الليبرالية العرب هي ضد شعوبهم، فهم يشجعون كل ناعق بسباب لدين الأمة أو مقدساتها، بل إن بعض إخوانهم في عواصم عربية مشرقية يعلنون الحرب صراحة على عروبة البلاد، وانتمائها الإسلامي، ويرون أن "الوطن" له تاريخه المنفصل عن العرب، ومجده الخاص به.

بعضهم في حوار تليفزيوني شهير هاجم شخصية علمية مرموقة قالت: إنها "عربية الهوية"، فقالوا له: إن عليه إذًا أن يرحل، ويهاجر إلى "جزيرة العرب"، هكذا بكل فجاجة واستهانة بالمشاعر، والمدهش أنهم لا يلتفتون أبدًا إلى أن مثل هذا الطعن المتتالي لمشاعر الأمة والجمهور العام، والعداءُ الصريح لانتمائه أو هويته لا يمكن أن يؤسس لهم أي ثقل شعبي أو جماهيري، بل سيظلون فئة شاذة منبوذة في المجتمع، لا جذر لها ولا قبول ولا مستقبل أيضًا، هم لا يأبهون لذلك.

وقد جرى حوار محدود بيني وبين صديق ليبرالي عربي، أراه من أوسطهم وأعقلهم، فقال لي: إنه يعتقد بأن مستقبل أية نهضة في العالم العربي إنما تكون بتحالف الإسلاميين والليبراليين، وكنت أستشعر الصدق في كلامه على رغم غرابته، فقلت له: إذا كانت هذه هي النوايا فإن السلوك كله يكذب هذه النيات الحسنة، وإذا كانت هذه الترهات، ونصرة كل باطل، ضد دين الأمة وتاريخها وهويتها، هي من فعل بعض المتطرفين في الجانب الليبرالي - كما قال- فعلى "العقلاء" منهم أن يعلنوا مراجعات فكرية جادة، تؤسس لهذا الوعي الجديد، وتعزل هؤلاء المتطرفين الأعلى صوتًا فيهم، قبل الحديث عن مستقبل ونهضة ووجود من حيث الأساس، فهل تراهم يفعلون؟!.



حوار نعم.. اختراق لا !!

قبل عدة سنوات، وفي أعقاب الأحداث المثيرة التي تلت كارثة الحادي عشر من سبتمبر الشهيرة، تسربت تقارير صحفية من دوائر غربية عديدة، توضح أن "الدين الإسلامي" أصبح في بؤرة اهتمام الأجهزة السياسية والمخابراتية في كثير من الدول الغربية، وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية بالطبع، حيث وضح أن "الإسلام" أصبح في بؤرة اهتمام العالم بصورة لم يسبق لها مثيل، على المستوى الشعبي وعلى المستوى الرسمي.

التقارير التي تسربت أفادت معنى مشتركًا في الخطط الغربية الجديدة، وهو أن التصادم مع الحالة الإسلامية وضح أنه غير مُجدٍ، بل قد يعمق من مشاعر العداء مع الغرب، ويكسب المتشددين زخمًا شعبيًّا أكثر، وبالتالي كانت الرؤية الجديدة تنحى باتجاه "احتواء" الحالة الإسلامية، وأذكر أن هذا الاحتواء أتى صريحًا على لسان مسئولة كبيرة في الخارجية الأمريكية وقتها، وهي "بولا دوبريانسكي"، وهي وكيلة وزارة الخارجية الأمريكية للشئون الدولية، وحاصل اقتراحها هو العمل على احتواء الحالة الدينية في العالم الإسلامي، عن طريق الدعم المالي لمن يتعاطفون مع الرؤى الغربية الحضارية.

والتقرير تحدث بوضوح وصراحة شديدة عن "دفع أموال" إلى بعض المفكرين والشخصيات الدينية التي تروج للقيم العصرية، والتسامح، والحوار الثقافي، ونحو ذلك في المحيط الإسلامي، وقد أكد على كلام "دوبريانسكي" مسئول كبير آخر في الخارجية الأمريكية، مضيفًا أن الخطة تهدف إلى جذب المزيد من رجال الدين إلى برامج "التبادل الثقافي والأكاديمي" التي تمولها الولايات المتحدة، التقرير الذي لم ينتبه له كثيرون رغم أن وكالات أنباء كبرى بثته حينها جاء مثيرًا في صراحته؛ لأنها كانت المرة الأولى - في حدود علمي- التي تتحدث فيها دوائر غربية مسئولة عن دفع "رِشوَة" لرجال دين ومفكرين مسلمين؛ من أجل الترويج للقيم التي يوافق عليها الغرب، وتخدم مصالحه.

نعم، هناك حالات قائمة لشخصيات دينية عربية مسلمة في الولايات المتحدة تتقاضى رواتب من الإدارة الأمريكية؛ لتقديم ما يسمى "خدمات" ثقافية ودينية لمؤسسات أمريكية حساسة، مثل وزارة الدفاع، ولكن هذه هي المرة الأولى التي يُطرح فيها صراحة البحث في وضع آليات منتظمة ومؤسسية لرشوة رجال الدين والمفكرين المسلمين؛ من أجل الترويج للقيم "العصرية" الغربية، وكسوتها بكساء إسلامي مصطنع، مثل هذه الخطط والأفكار الغريبة الخطرة والمثيرة تدعونا إلى إعادة النظر في بعض النشاطات التي تبدو "بريئة"، رغم إمكانية احتوائها على مخاطر فادحة على الوعي والفكر الإسلامي، وعلى مستقبل الأجيال المسلمة، وخاصة النشاطات التي عرفتها بعض المؤسسات الأكاديمية

الغربية بدعوى التسامح الديني، والتعاون الحضاري، والحوار الثقافي، ونحو ذلك.

وهي تتركز الآن على شخصيات تهتم بالفكر الديني، أو لها اهتمامات بالشأن الديني مباشرة، خاصة وأن بعض هذه الجهود حقق اختراقات مهمة في بعض بلدان الأطراف، مثل إندونيسيا وماليزيا، عن طريق مفكرين أثاروا ضجة قبل سنوات، بحديثهم عن بشرية الوحي، وإنكار السنة، ونحو ذلك، وجدير بالذكر أن هذا الأسلوب الخطير في اختراق النشاطات الإنسانية، ليس جديدًا في ساحات الصراع المفتوحة، وإنما جرت تجربته بنجاح في فترات الخمسينيات والستينيات من هذا القرن، في الدوائر الثقافية والأدبية، أثناء الحرب الباردة، والصراع مع القوى اليسارية الناشطة أدبيًّا وثقافيًّا في ذلك الوقت.

وقد كشفت الأيام والاعترافات كيف أن المخابرات الأمريكية كانت تمول نشاطات بعض الشخصيات والجمعيات الأدبية الداعية إلى الحوار والحداثة، وبعض المجلات الأدبية مثل مجلة "حوار"؛ التي اندثرت بعد الفضيحة، وكذلك مجلة "شِعر"، وكيف كان يتم تمويل مؤتمرات ولجان حوار ثقافي في العاصمة الإيطالية "روما" وغيرها، دون أن يدري كثير من "الطيبين" ما يتم ترتيبه وتوجيهه من خلال هذه النشاطات.

جدير بالذكر أن هذه الجهود الجديدة تتم في الوقت الذي تتعرض فيه المؤسسات الإسلامية المستقلة الخيرية والدعوية لحرب ضروس؛ بهدف إرهابها وإرباك مجهوداتها إن لم يكن إغلاقها بالكامل، وهذا ما يَزيد من القلق من قدرة الأفكار الجديدة على اختراق الحالة الإسلامية بيسر وهدوء.



م .محمد الحمداوي

رئيس حركة التوحيد والاصلاح المغربية.



إعجاب المريدين.. قد يضعف المسئولين!

إنه لشيء مُفرح أن نرى الشباب المتعلّم والمثقّف، المتحمّس للالتزام، والمتعطّش للمعرفة، والتوّاق لحمل المشعل، يجتمع حول العلماء والمفكّرين وقادة الإصلاح، بكلّ إخلاص واحترام وتقدير وتبجيل، ولكن ما يشوّش على هذه الصورة الجميلة أن نرى بعض الشباب يسمع من شيخه أو قائده، دون أن يعقّب، ودون أن يميّز أو يمحّص الأفكار ومضامينها، أو يناقش الفكرة، أو ينبّه إلى جوانب الضعف فيها.

وأنا أتكلّم عن هذا الموضوع بعد أن عاينتُ بعض الحالات التي بلغ فيها الوضع هذا المدى، وإن خاض القائد أو العالم في أمور خلافيّة، أو في أمور بعيدة عن مجالات تخصُّصه، وإن تكلّم على سبيل الجزم في أمور قد يخالف فيها المنطق، ومعطيات الواقع، ومسار التاريخ، وقوانين الطبيعة، فإنّ جمهوره لم يتعلّم إلا أن يُسَلّم له بما يقول، وأن يتقبّل منه كلّ أفكاره بكلّ تسليم، ودون نقاش، وكأننا بذلك نعيد إنتاج عبارة بعض المتصوفة: "من قال لشيخه لم يفلح أبدًا".

ولئن كان البعض في معالجته لهذه القضيّة يتوجّه بالدرجة الأولى إلى الأتباع، وإلى المرؤوسين؛ من أجل حثّهم على التحلّي بروح النقد والتفكير المبصر، وهذا أمر جيّد، فإنني ارتأيت أن أتوجّه إلى كلّ إنسان، مسئول أو قائد أو زعيم أو شيخ أو رئيس، أو أيّ إنسان له أتباع ومعجبون ومريدون، بأن يستشعر أنه بالقدر الذي يحرص على أن يربّي فيهم روح الاحترام والتقدير والتبجيل، والتأدّب في حضرة العلماء والمشايخ، أو القادة والمسئولين، يجب أن يربّي فيهم أيضًا الحسّ النقديّ؛ الذي لا يتنافى أبدًا مع التأدّب والاحترام.

إنّ على العالم أو المفكّر أو القائد أن يعلم، أنّ مناقشته في أفكاره ونظرته للأشياء ليست أبدًا تطاولا عليه، ولا عدم تقدير لعلمه ومكانته، ما دامت في حدود الأدب واللياقة والاحترام، بل إنها أخذ وعطاء بينه وبين تلامذته، وتعاون بين الزعيم وأتباعه، وبين الرئيس ومرؤوسيه، وأن اختبار الأفكار، وتمحيصها، وتقليب النظر فيها، هو الوسيلة الفعّالة لتسديدها وتقويتها، باستدراك جوانب الضعف فيها، بل إنها التعبير الحقيقيّ عن التفاعل والتجاوب مع أفكار القائد أو العالم.

ونستحضر هنا مثالين اثنين، من قصص الصحابة مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم):

الأولى تتلخّص في حديث تأبير النخل، والثانية في مشورة الحباب بن المنذر في بدر، ففي الوقت الذي نجد في القصة الأولى أنّ القوم الذين أخذوا برأي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعدم تأبير النخل دون مناقشة، بالرغم من علمهم بأهميّة التأبير والتلقيح، وامتثلوا دون أن يتبيّنوا، ما إذا كان

ذلك وحيًا أم إنّ المسألة تدخل في إطار أمور دنياهم، القابلة للتمحيص والنظر العقليّ، فما كانت النتيجة إلا أن جاء شيصًا.

أمّا في الثانية؛ فإننا نجد أنّ الحباب بن المنذر عندما نزل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في بدر قبل الماء، جاءه، فقال له: أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدّمه أو نتأخّر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟، فلما أجابه رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "بل هو الرأي والحرب والمكيدة"، أشار عليه بتغيير المكان، واستحسن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رأيه، وكان أحد أسباب النصر.

ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) بذلك يرسم المنهج الذي على القائد أن يلتزمه مع أتباعه، في احترام آرائهم، والأخذ بها، كما في الحالة الثانية، وأيضًا في تربيتهم على التمييز بين مجال تخصُّصه ومجال تخصُّصهم، كما في الحالة الأولى.

إنّ زرع رُوح النقد عند الأتباع، وتربيتهم على مساءلة الأفكار، ليس فقط في مصلحة هؤلاء الأتباع، بل إنّ المستفيد الأوّل هو القائد نفسه؛ إذ إنه بذلك يحيط نفسه بنقّاد ومفكّرين قادرين على التعاون معه، وتدعيم أفكاره وتسديدها، وتحصينه من الغرور، أو من تغرير المريدين، وكلّ قائد يعمل على أن لا يحيط نفسه إلا بالمريدين المعجبين؛ الذين يُسَلِّمون بأيّ شيء يقوله، والمستعدّين للقبول بكلّ ما يصدر عنه؛ فإنه قد دقّ بنفسه أوّل مسمار في نعش نجاحه وتفوّقه، وقد حكم على نفسه وعلى أفكاره ومشاريعه وأتباعه معه بالتوقّف، بل التخلّف عن مواكبة حركة التجديد.



بين المراجعات المبكرة والتراجعات الاضطرارية

لقد ارتبطت كلمة المراجعات الفكرية في أذهان الكثيرين، بالفكر الثوري أو الانقلابي، وبالجماعات أو التنظيمات التي تتبنى العنف وسيلة للتغيير، واعتبرت التنظيمات السلمية التي لا علاقة لها بالعنف، أو تلك التي تخلت عنه، أنها غير معنية بأية مراجعة، ما دامت وسائلها سلمية، وأهدافها معلنة، وعملها في الوضوح.

والحقيقة أن عملية المراجعة وجب أن تكون عملية مستمرة ودائمة ومتواصلة، لا تنقطع أبدًا، ووجب أن تعم جميع التنظيمات، وكل الحركات؛ لأن عملية النقد الذاتي والمراجعة لا ترتبط ضرورتها وأهميتها فقط بحركات العنف والتطرف، بل إن كثيرًا من إخفاقات بعض الحركات الإسلامية، وما تعانيه من احتقانات داخلية، ومشاكل تنظيمية، وأحيانًا انشقاقات واضطرابات، يرتبط بضعف وضآلة ثقافة المراجعة في أوساطها.

ولذلك؛ فإنه لا يحق لأية حركة إسلامية تحترم نفسها، أن تغتر بكونها قد بلغت النضج النهائي، بمجرد أنها آمنت بالانتقال من التشدد إلى الاعتدال، ومن التطرف إلى الوسطية، ومن العنف إلى السلم، ومن السر إلى العلن، وأنها غير معنية بعد ذلك بقضية المراجعة والنقد الذاتي، بل إنها مدعوة دائمًا إلى البحث عن الأفضل والأحسن والأجود، وهي مدعوة إلى التمحيص الدائم، والاختبار المتواصل لبرامجها وأفكارها وممارساتها على أرض الواقع؛ لأنه لا يُعقل أبدًا أن تبقى هذه الحركات جامدة ومتوقفة عند مرحلة تاريخية بعينها، لا تريد أن تجدد في فكرها إلا بعد الوصول إلى حافة الأزمة.

والمراجعات نوعان: فإما أن تكون استباقية مبكرة، وإما أن تكون اضطرارية متأخرة.

فالمراجعات الاستباقية تكون مبنية على استقراء الواقع، ورصد التحولات والتطورات، سواء في داخل التنظيم أم في محيطه، تتوقع البلاء قبل وقوعه، وتسأل عن الأزمة قبل حدوثها، على منهج الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان، كما ورد عنه في صحيح البخاري أنه قال: (كان الناس يسألون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنّا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير؛ فهل بعد هذا الخير من شر؟

فالسؤال عن الشر والانسداد قبل وقوعه يساعد على الاستعداد والتهيؤ المسبق، ويعمل على إيجاد المخارج والبدائل لمختلف الاحتمالات المتوقعة، وبذلك تأخذ المراجعات وقتها الكافي للمناقشة المستفيضة، والدراسة المتأنية، والتفكير الرصين، في ظروف عادية، تسمح باتخاذ القرارات الأقرب إلى الصواب بكل أريحية، بعيدًا عن الضغوط الداخلية أو الخارجية، ومن ناحية أخرى تأخذ وقتها

الكافي لإقناع الصف الداخلي ورصه، والإجابة عن الأسئلة المطروحة، فتقي التنظيم من الاحتقان الداخلي، ومن الارتباك، وتقي الأعضاء من الإحباط أو التذمر.

وأما المراجعات المتأخرة والاضطرارية، فتأتي بعد الوصول إلى حالة الانسداد والاحتقان الداخلي، والوصول إلى حالات الصراع والشقاق، وربما الانشقاق، أو تحت الضغط الخارجي، والتضييق الأمني والسياسي، أو من السجون والمنافي، فتأتي متأخرة، وبعد فوات الأوان، فيؤدي التنظيم ثمن ذلك غاليًا، وحتى القرارات الناتجة عنها تأتي مرتبكة ومتسرعة ومنفعلة، مما يُحدث ارتباكًا في الصف الداخلي، وتشككًا في قرارات القيادة، هل جاءت بناءً على قناعات راسخة، ومبنية على أسس متينة، أم هي تعبير عن الخضوع والتنازل والاستجابة للضغوط، مما يتسبب في نشر أجواء من الريبة وانعدام الثقة، وربما الإحباط والتذمر في صفوف الأعضاء.

وللتدليل على هذه الخلاصات نقتصر بالأساس على النموذج التركي؛ فبالرغم من أن هذا النموذج لم يكن يومًا يتبنى العنف، وكان دائمًا العمل السلمي هو خياره الإستراتيجي، إلا أنه لم يعتبر ذلك يعفيه من خوض المراجعات اللازمة، فضلا عن أنه حسم منذ البداية - وبشكل مبكر- مسألة التعامل مع الدولة، فلم يكن يضع نصب عينيه لا إسقاط الدولة، ولا إقامة الدولة الإسلامية، ولا استعادة الخلافة العثمانية، إنما كان كل عمله وجهده مركزًا - في هذه المرحلة- على إصلاح هذه الدولة القائمة، والانتقال بها من نظام علماني يعادي الدين ويحاربه، إلى نظام يتعايش مع الدين ولا يعاديه.

وبالرغم من حصول حزب العدالة والتنمية على رئاسة الجمهورية، وحصوله على الأغلبية، وانفراده بتشكيل الحكومة، وسيطرته على البرلمان، إلا أنه لم يغترَّ بذلك، ولم يتسرع، بل إنه حريص كل الحرص على أن يستمر بخطواته الثابتة، وأن يحسب المعادلة بشكل جيد، مع اليقظة الكاملة لكل تغير يحصل عليها، بالسلب أو الإيجاب، والاستعداد الدائم للتعامل معها، أو تعديلها، بما تسمح به موازين القوى، على أرض الواقع.



خوف الغالب من ثقافة المغلوب

القرار السويسري بمنع بناء الصوامع في مساجد المسلمين المقيمين على أراضيها هو نتاج للحملة التي يقودها الغرب؛ لتخويف أبنائه من زحف الثقافة الإسلامية، وإحداث حالة فوبيا من الإسلام والمسلمين في صفوف مجتمعاته، في محاولة لبناء حاجز نفسي بينهم وبين الإسلام، وحالة المنع هذه ليست مقتصرة على سويسرا وحدها، بل تأتي في سياق حالة غربية تكاد تكون عامة، كما رأينا في فرنسا حين منعت الحجاب في المدارس، ومثلما رأينا من تلكؤ في الاستجابة لطلب انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، وكلها حالات تبرَّر بالخوف من الإسلام.

إن استدعاء هذه الحالات لا يندرج في إطار التحريض ضد الغرب، ولا يدخل في مجال البكاء وندب حظ المسلمين، وزرع اليأس والإحباط، بقدر ما يشكل ذلك كله قضايا تستوجب التأمل، في اللحظة الحضارية التي تعيشها الأمة اليوم، ومؤشرات دالة في رصد مسارات التحول والتفاعل الحضاريين، وعلامة فارقة مع المرحلة التي كان فيها الغربُ الغالبُ والمتفوق، مصدرًا رئيسًا للقيم العالمية والكونية، مقابل عالم إسلامي مغلوب ومهزوم وخاضع، يعيش حالة من الانبهار والافتتان بهذا الغرب وبقيمه، إلى حد الهوس والاستلاب الفكري.

وهي مرحلة كان فيها جزء كبير من نخبة البلاد العربية والإسلامية، لا يرى سبيلا للخروج من حالة التخلف إلا باتباع الغرب الغالب وتقليده، ولا يرى مسارًا للنهوض إلا باعتناق الفكر المادي الغربي، وتجاوز للفكر الديني، ولا سبيل لبناء دولة الحق والقانون إلا باعتناق العلمانية الغربية، ولا سبيل لتحقيق التحضر والتمدن إلا بتقليد نمط الغرب في العيش، غير أن المؤشرات المشار إليها سابقًا تؤذن بوضع حد لحالة الافتتان هاته يومًا بعد يوم، وأن أبناء المسلمين - بمن فيهم أولئك الذين تربوا في المجتمعات والمدارس والجامعات الغربية- أصبحوا أكثر اعتزازًا وتشبثًا من ذي قبل بانتمائهم للإسلام، بل أصبح أبناء الغرب أكثر إقبالا وتعرفًا على الدين الإسلامي وثقافته وقيمه.

فإذا كانت كفة الميزان على المستوى العسكري والاقتصادي والمادي ما زالت تميل لصالح الغرب، فإن المعادلة على المستوى الثقافي تبدو مختلفة، وإن القاعدة التي تقول بأن المغلوب مولع دائمًا بتقليد الغالب، بدأت تتكسر، بل تنقلب في الاتجاه الآخر، ذلك، أن الأمر لم يقف فقط عند انتهاء افتتان المغلوب بقيم الغالب، بقدر ما انتقل الإعجاب بقيم المغلوب، بعد انتفاء موانع الإكراه، وانبساط الحريات إلى أفراد ومجتمعات هذا الغالب، وهو ما ترجم إلى حالة النزوع نحو الأيديولوجيات اليمينية الآخذة في التصاعد، بشعاراتها العنصرية، وأفكارها المتطرفة، مما جعل زعماء الغرب مستعدين لفعل

أي شيء؛ للحيلولة دون اتساع ظاهرة إعجاب الغــــــربيين بالثقــافة الإسلامية، وإقبالهم المتزايد عليها.

إن هذه الخلاصات لا ينبغي أن يُفهم منها أن ثقافتنا قد غَلبت، وأن المعركة الحضارية قد حُسمت، وإنما هي وقائع تستصرخ المفكرين والمثقفين ومنتجي المعرفة؛ من أجل النظر في الأفق الإستراتيجي للقضية، انطلاقًا من التأمل في هذه الإشارات التي يجب التقاطها، وهذه المؤشرات؛ التي تدلنا وتنبهنا إلى بداية انعطافة جديدة، في مسار معركة التدافع الحضاري مع الغرب.

إننا اليوم بصدد مرحلة جديدة، تجاوزت فيها الأمة مرحلة الدفاع والتحصين ضد الانبهار والافتتان، لتقبل على مرحلة يجب على النخبة المثقفة أن تتحمل فيها مسئوليتها التاريخية، وذلك عن طريق العمل المتواصل، والاجتهاد المستمر؛ من أجل إنتاج فكر إسلامي إنساني مستوعب، وبلورة خطاب قادر ليس فقط على تفنيد دعاوى أعداء الإسلام وخصومه، ومؤكد على البراءة من التشدد والغلو، ولكن أيضًا مركز ومؤكد بالأساس على معاني التعارف بين الشعوب والأمم.

وذلك مصداقا لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: ١٣)، والتعارف الذي يشمــــل الحوار والتلاقح والتبادل بين الثقـــافات، سينتقل بالتدافع الحضاري من مجال ردة الفعل ضد الانتهاكات والامتهانات؛ التي تتعرض لها حقوق المسلمين ومقدساتهم، وهي أمور ضرورية على كل حال، إلى مجال التدافع القيمي الثقافي الفكري المبادر بالفعل.



الإسلاميون ومعارك الاستنزاف المنهِكة

يبدو أن هناك وصفة جديدة أصبحت جاهزة ومعدة لمواجهة الحركات الإسلامية المشاركة، وتتمثل في جرِّهم إلى معارك ثنائية، أو إلى حالة استقطاب تنافرية منهِكة، تستنزف جهودهم، وتُظهرهم أمام الرأي العام وكأنهم بعيدون عن هموم الشعب الذي اختارهم، وعن قضاياه اليومية التي يعاني منها بشكل مباشر، وبالتالي يتم إلباسهم نفس الصورة السائدة في الساحة السياسية، والتي أصبحت تنطبع على الكثير من الفاعلين السياسيين، ومن الأحزاب السياسية، وهي صورة المدافع عن المصالح الحزبية والمواقع السياسية، بعيدًا عن معانقة قضايا وهموم الشعب، خاصة الاجتماعية منها والاقتصادية، وكل ما يرتبط بقضايا التنمية.

ولعل مثال الحالة الفلسطينية يجسد بوضوح هذه الوصفة، التي تحاول أن تجعل كلا من فتح وحماس في نفس الخانة، ونفس الموقع، وذلك بتصوير الاختلاف الحاصل بين المشروعين السياسيين هناك إلى مجرد خلاف بين فصيلين سياسيين، حول المواقع والمناصب والمصالح الحزبية، حتى يتم تحييد صوت الشارع وصوت المواطن عن هذه المعركة، ونفس الصورة يتم الترويج لها في المشهد اللبناني، حيث يتم إلباس الاختلاف الحاصل في المشاريع السياسية هناك لباسَ صراعٍ طائفي، حتى يكون تعاطي المواطن مع هذا الحراك على أساس الولاء الطائفي، وليس على أساس المناصرة للمشروع السياسي.

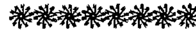
أما في النموذج المصري فإن السعي هناك حثيث لتحوير الحراك السياسي الجاري هناك، وتحويله إلى مجرد صراع بين جماعة الإخوان المسلمين والحزب الوطني الحاكم، حول نمط الحكم، وأن الصراع حول قضية التوريث، مجرد صراع حول السلطة، وأن كل ذلك لا يهم الشعب المصري؛ الذي يعاني من المشاكل المرتبطة بالخبز والفقر والبطالة وأزمة السكن، وأن جماعة الإخوان المسلمين في ذلك - مثلها مثل الحزب الحاكم- بعيدة عن هموم الشعب وقضاياه الحقيقية، وكلاهما يتصارعان حول السلطة، لا أقل ولا أكثر.

أما في المغرب فإننا أصبحنا نرى وكأن هناك محاولات حثيثة من بعض الأطراف لاستنساخ هذه الوصفة واستيرادها؛ من أجل مواجهة الإسلاميين الذين اختاروا نهج المشاركة، وقد رأينا كيف مرت انتخابات ٢٠٠٩م، الجماعية، وكيف تمت صناعة حزب جديد، وتهيئته في اللحظة الأخيرة خصيصًا؛ من أجل الإيقاف التعسفي لأي تقدم انتخابي يمكن أن يحققه حزب العدالة والتنمية المغربي.

ومن ثم، انطلقت المنافسة غير الشريفة وغير المتكافئة، في محاولة لجر الإسلاميين إلى معارك ثنائية، تستنزف جهودهم، وتصرفهم عن معركتهم ضد الفساد والمفسدين، وعن الاهتمام بالقضايا

الاجتماعية والاقتصادية وقضايا التنمية، نحو الانشغال بالمعارك حول المقاعد والتحالفات والبلديات ومجالس المدن؛ التي يتم انتزاعها منهم، وتسليمها للوافد الجديد، وبذلك يتم إظهار إسلاميي المغرب كذلك في صورة المدافع عن المصالح الحزبية فقط، بعيدًا عن الهموم الحقيقية، والقضايا الحقيقية؛ التي يرزح تحتها المواطن العادي، أو الكتلة الناخبة؛ التي تنتظر حلولا لمشاكلها ومعاناتها، وليس متابعة فصول المعارك والصراعات السياسية؛ التي قد لا تزيدها إلا نفورًا وعزوفًا عن الشأن السياسي برمته.

وبناءً على ما سبق، يجب الانتباه والحذر من الانجرار نحو معارك الاستنزاف المنهِكة، أو السقوط في فخ الصورة النمطية الجديدة؛ التي يُراد رسمها عن الحركات الإسلامية، وذلك بتسويقها في مظهر المهتم فقط بالمواقع والمصالح الحزبية الضيقة، وأنا لا أقصد بذلك التخلي عن معركة الإصلاح الديمقراطي والإصلاح السياسي، بل أشدد على ضرورة العمل من أجل الحفاظ على المكتسبات التي تحققت في هذا المجال، وعلى ضرورة السعي الحثيث من أجل تحقيق المزيد، ولكني أقصد عدم الاقتصار عليها، والاستغراق فيها، والانشغال بها عن بقية القضايا الحيوية؛ التي تلبي انتظارات الناس، وتجيب عن أسئلتهم ومشاكلهم ومعاناتهم.



المفكر الرسالي

الفكر هو الوقود الذي يمد المجتمعات بالطاقة والحيوية والنشاط، والحياة والاستمرارية في العطاء، فهو في الحقيقة إنما يُعتبر بالنسبة للمجتمعات والأمم بمثابة الروح من الجسد؛ إذ إن أي مجتمع أو أمة إذا ما استهلكت أفكارها، وانتهى رصيدها الفكري والروحي، انتهت وتلاشت وماتت واضمحلت وتحللت، تمامًا كما يتحلل الجسد بعد مفارقة الروح، وما من مشروع مجتمعي إلا ويستمد قوته، وقدرته على الصمود والنمو والتطور والاستمرار، من قدرة الفكر المؤطر له على تحصينه وتوجيهه، وإمداده بالقوة الفكرية، والطاقة الروحية والمعنوية اللازمة، وبعناصر التفوق المادي والحضاري.

ولا سبيل لأي مشروع للمحافظة على الوهج الذي يكتسبه - في مرحلة التأسيس والانطلاق- ما لم يستطع مواصلة التجديد لأطره ومقولاته، ويبدع في وسائله وآلياته، ولا سبيل لتجديد وتطوير الأطر الفكرية، والمقولات المفاهيمية، ما لم ينهض المفكرون المنتسبون إليه بوظيفتهم؛ التي لا تقتصر على إنتاج الأفكار وحسب، بل تمتد إلى واجب الانخراط الفعلي في تنزيل هذه الأفكار في الحياة اليومية للناس.

فعلى امتداد تاريخها الطويل أنجبت الأمة مفكرين وعلماء، وإنتاجات فكرية وعلمية كثيرة، غير أنه عند التأمل في هذه الأفكار، وفي منهج منتجيها، يمكن التمييز بين نوعين من التفكير، ونموذجين من المفكرين:

١) نموذج انشغل بإنتاج الأفكار المغرقة في التجرد، والمقطوعة عن سياقها، المعزولة عن محيطها، حيث بقي صاحبها في أبراجه العاجية، وانزوى المقتنعون بها في فضاءاتهم الخاصة، يلقون باللائمة على العوائق البنيوية، وعلى الشروط الاجتماعية؛ التي تحول بين أفكارهم وبين جمهور الناس وعامة الأمة.

٢) ونموذج آخر سقط في الاختزال والتجزيئية والسطحية، حيث فضل، بدعوى الارتباط بالواقع الاجتماعي، البقاء أسير المحافظة على الوضع القائم، ومجاراة ما يجري في الواقع.

وإلى جانب هذين النموذجين، نجد نموذجًا آخر تميز بنَفَسِه الرسالي؛ حيث استطاع الموازنة والتوفيق بين التطلع للمثال والنموذج المنشود، وبين الارتباط بالواقع وتحدياته ومتطلباته.

ولذلك؛ فإننا اليوم حين نتأمل اللحظة الحضارية التي تعيشها الأمة، وهي تبحث عن مرتكزات انطلاقة جديدة لفعل حضاري، فإننا نجد أنها تستوجب إنتاج ذلك النموذج الرسالي في التفكير،

بمعنى التفكير الابتكاري الخلاق، وإنجاب النموذج المبدع من المفكرين؛ الذين يمكن أن نسميهم بالمفكرين الرساليين.

لأن الأمة ليست في حاجة إلى من يفكر ويبث أفكاره بمنطق قل كلمتك وامضِ وحسبُ، ولا حتى ذلك القادر - إلى جانب التفكير- على الإقناع والتأثير فقط، وإنما حاجة الأمة بالأساس إلى نوع خاص من المفكرين، المفكر الرسالي الذي أرجو أن يحظى من قِبل جميع المهتمين بمزيد من الدراسة والتأمل، بمعنى ذلك الذي يحمل هَمَّ رسالتها، ويضع فكره في خدمة مقاصدها، ويحرص على انسجام أفكاره معها، باعتبار هذه الرسالة هي التي تمثل كينونتها، وسر وجودها وتميزها.

والمفكر الرسالي هو بمعنى من المعاني، واستنادًا إلى التحديد السالف، هو ذلك الفاعل الاجتماعي؛ الذي يتميز بنشاطه الذهني والفكري، وبحدسه وخبرته وبُعد نظره، وبسَعَة علمه، واتساع معارفه، وكذا بقدرته على إنتاج وتوليد الأفكار والحلول والمخارج، وقدرته - بعد ذلك- على البيان والتوضيح، والإقناع والتأثير، وصنع الفعل، وإلهام الناس على اتخاذ المواقف والانحيازات؛ التي تمليها طبيعة انتمائهم، وضرورة وجودهم، واستمرار كينونتهم.

فالمفكرون الذين يتميزون بهذه المواصفات، هم القادرون على التأسيس والبناء، ثم الرعاية والقيادة والإرشاد والتوجيه للفعل الحضاري لأمتهم، باعتبارهم النخبة المفكرة، الناظرة في عمق الماضي وعبَره، والمستوعبة لإشكالات الحاضر وإكراهاته، والقادرة على استبصار تحديات المستقبل وآفاقه، ومن ثم فهي القادرة على تنوير الأفهام، وإزالة الأوهام، وتوضيح السنن، وإنارة الطريق، والقادرة على شحذ الهمم، وتحريك الإرادات، وبث العزائم، الكفيلة بخلق الحركية والديناميكية الاجتماعية، اللازمة لأي فعل حضاري.

ومن هذا المنطلق تبرُز الأهمية التي تكتسيها رسالة المفكر ومسئوليته؛ إذ المفكرون أو النخبة المفكرة، إما أن يكونوا نبراسًا في طريق مجتمعهم، يَهتدِي بهم في طريق الإنجاز والرقي الحضاري، وإما أن يكونوا عامل ارتكاس وتضليل للمجتمع بأكمله، يقودونه إلى منزلقات ومهالك، لا أول لها ولا آخر، إما أن ينتجوا فكرًا متوازنًا متكاملا ناضجًا، إيجابيًّا وبنّاءً، وإما أن ينتجوا فكرًا متطرفًا متشنجًا متهورًا، مهلكًا وهدامًا؛ لأن المفكر بقدر تأثيره من خلال ما ينشره من معارف وأفكار لتنوير المجتمع وإصلاحه، فإنه يرسل رسائل سلوكية تكون أكثر تأثيرًا في المجتمع، سواءً بالإيجاب أم بالسلب.

وبالرجوع إلى السيرة النبوية سنجد أن عظمة رسالة الإسلام، بالإضافة لربانية مصدرها، ترجع أيضًا لعظمة أخلاق صاحبها (صلى الله عليه وسلم)، كما شهد له بذلك الله (تعالى)، في كتابه العزيز؛ حيث قال (سبحانه): ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻



محمد عبده والنموذج المادي الغربي

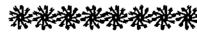
إن المتأمل في المشاريع المجتمعية المطروحة في الساحة الإسلامية، يكاد يجدها متفقة تمامًا - وربما إلى حد التطابق- عندما يتعلق الأمر بتشخيصها لأوضاع أمتنا المتدهورة، والمكانة المتردية التي انحدرت إليها حضارتنا، بين الأمم والحضارات الأخرى. غير أنه سَرْعَان ما يلاحظ أن هذا التطابق لا يفضي بالضرورة بهذه المشاريع إلى نفس النتائج والخلاصات، بل يجدها سَرْعَان ما تفترق بين من يتبنى الحل الجذري والتغيير الكلي، وبين من يتبنى منهج الإصلاح التدريجي والبناء التراكمي.
فالحركات والمشاريع التي اختارت منهج التغيير الجذري تنطلق من الرفض الكامل للواقع جملة وتفصيلا، وترفض الدخول في مناقشة تفاصيله أو التمييز بين سلبياته وإيجابياته، بل تعتبر ذلك مضيعة للوقت وتأخيرًا للحل ودخولا في المتاهات، وترى أن الحل الأمثل والأصلح لمعالجة هذه الأوضاع هو الثورة عليها، من أجل تغييرها من الأصل ومن القواعد.
ومن أجل بناء النموذج الصحيح على أسس متينة والبدء فعلا من نقطة البداية وليس من نقط أخرى، فتركز على إدانة هذا الواقع ورفضه بما فيه، وربما تنظر إلى كل عمل يروم إصلاح هذا الواقع أو تقويمه، على أنه عمل يؤخر الثورة ويعرقلها، ويطيل عمر هذا الواقع، ويمده بأسباب البقاء والاستمرار.
وبذلك فإن هذا الخيار يضع بين أيدي أنصاره هدفًا واضحًا بسيطًا ومفهومًا لجميع الفئات، وهو الثورة على النموذج الموجود من أجل بناء النموذج المنشود، وهذا الوضوح في الهدف والبساطة في الطرح، هو ما يكسب هذا الخيار قدرة أكبر على التعبئة، وجعلهم في كامل الجاهزية والجندية، وعلى أهبة الاستعداد، إلى أن يتم الانتصار والحسم وتقوم الثورة ويتحقق الهدف.
غير أن المشكلة الكبيرة لهذا الخيار ولأنصاره، هي أنه يجد نفسه مضطرًا لمفاصلة هذا الواقع ومقاطعته؛ بسبب أنه حكم عليه بالفساد الكامل، وبانعدام الأمل في إصلاحه، فيعتزل المشاركة في أي إصلاح تدريجي، ويتحول إلى طائفة أو جماعة انتظارية، فضلا عما يقع فيه أنصار هذا الخيار مع الوقت ومرور الزمن. وعند طول الأمد وتأخر النصر. من سيطرة اليأس عليهم ، وفقدان الرجاء في أي تغيير أو إصلاح.
أما المشاريع والحركات التي اختارت منهج الإصلاح والبناء التراكمي، فتنطلق من الاعتراف بالواقع بسلبياته وإيجابياته، ثم تسعى إلى إصلاحه وفق سنن التدرج والمرحلية والتراكم في الجهود؛ من أجل إصلاح ما فسد وتقويم ما اعوجّ، ومن خلال الدفع في اتجاه جلب المصالح وتكثيرها، ودرء المفاسد وتقليلها، رافعة شعار: (إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ...) (هود: ٨٨)، معتمدة على منهج التدرج في

التنزيل، وعلى فقه الموازنات بين المصالح والمفاسد، وفقه الأولويات في التعامل مع الواقع.

فتحض أنصارها وأتباعها على المبادرة إلى القيام بالإصلاح في كل الأحوال، وألا يدخروا أي جهد في سبيل ذلك، كما تحضهم على الصبر ومكابدة عناء المدافعة المستمرة مع الواقع وتحدياته، ومع الفساد والمفسدين، وتؤكد أن معركة التدافع مع الفساد وأهله لا تنتهي بوقت محدد، أو بظرف معين، إنما هي باقية ومستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولذلك فإن هذا الخيار المبنيّ على التدرج والمرحلية والبناء التراكمي، يبدو خيارًا أصعب من غيره، وله عدة مداخل ومقاربات في سعيه للحفاظ على إيجابيات وإنجازات الفاعلين الآخرين، سواء السابقين أم المعاصرين، من أجل استثمارها وإدماجها في مشروعه الحضاري والتكامل معها والبناء عليها، وتحقيق التراكم بين الأجيال وليس البدء من الصفر.

كما أن اعتماد هذا الخيار على منطق أو فقه الموازنات والدخول في التدافع اليومي ومجابهة الخيارات الصعبة، قد يجعل مستوى التعبئة والجاهزية والحماس أقل مما هو عليه عند الخيارات ذات النزعة الجذرية؛ ولذلك فإن الأمر يطرح على خيار الإصلاح والبناء التراكمي تحديًا أكبر من غيره، خصوصاً في تحديد المراحل وتدقيقها، وتوضيح الأهداف وتبسيطها، وتقريبها من الناس؛ لأن الوضوح هو الذي يولد الإيمان، والإيمان هو الذي يولد الحماس.



الحركات الإسلامية.. بين الاحتواء والإقصاء

يرتبط الحديث عادة عند سعي الأنظمة لاحتواء التيارات المعارضة، أو تلك المطالبة بالإصلاح والتغيير، بحتمية استسلام وذوبان هذه الأخيرة، وبالتالي اندثارها، وقد أخذت الحركات الإسلامية بدورها وقتًا لا يُستهان به، في تناول هذا الأمر، قبل أن تتجاوزه، وتقتحم تجربة العمل من داخل المؤسسات القائمة، وقبل أن تصل إلى القناعة بضرورة ممارسة العمل السياسي، كمدخل للإسهام في الإصلاح، ومحاصرة الفساد، وقبل أن تخوض تجربة التدافع، من خلال الاحتكام لقواعد الديمقراطية، وصناديق الاقتراع.

ومن جهتها؛ أخذت الأنظمة وقتها حتى تقتنع بضرورة الترخيص لهذه الحركات الإسلامية بتأسيس أحزاب سياسية، والسماح لها بالمشاركة - ولو بشكل تدريجي- فيما يشبه الاختبار، وذلك بعد مسلسل طويل من الحصار والتضييق ومحاولات الاستئصال، وبعد أن جربت في بعض البلدان كل خيارات الإقصاء والسجون والنفي؛ التي لم تؤدِّ سوى إلى مزيد من الشعبية والتعاطف مع التيار الإسلامي، فخرجت من ذلك كله مقتنعة بأن لا حل ولا مخرج لها من هذه المعضلة، إلا بالانفتاح على هذه الحركات، وفتح الباب أمامها للمشاركة.

وإذا كانت جُل هذه الأنظمة قد اقتنعت، أو اضطرت مكرهة لفتح باب المشاركة السياسية أمام التيار الإسلامي، فإن كثيرًا منها قد فعل ذلك في إطار أهداف قد سطرها، وسعى جاهدًا لتحقيقها؛ من أجل الاحتواء والترويض، أو التدجين والتهجين، أو ما شابه ذلك، من المصطلحات المعبرة عن إفراغ هذا التيار من هويته، وتحريفه عن أهدافه، ومساره في إصلاح المجتمع.

ولذلك تجد هناك من الإسلاميين من لا يزال مترددًا، بحكم توجسه من النوايا الحقيقية لهذه الأنظمة الحاكمة، وأهدافها من وراء فتح باب المشاركة السياسية، ومن الشروط التي تحكم المشهد السياسي عمومًا، في كثير من الدول العربية، مما يدفع بهم - نتيجة ذلك- إلى تفضيل خيار أخذ الحيطة والحذر، والابتعاد بالنفس عن هذه المشاركة، وأخذ مسافة كافية من الأنظمة؛ تفاديًا للاحتواء والترويض والإفراغ.

غير أن غالبية هذه الحركات، وبعد تجاوزها لمرحلة التأصيل الشرعي للمشاركة، تجاوزت أيضًا مرحلة الهواجس والمخاوف من الاحتواء والذوبان، لتتخطاهما إلى مراحل المشاركة والفعل، في المشهد السياسي، والتفاعل مع باقي الفاعلين، وإلى المدافعة والتدافع، والمنافسة والتنافس، على أساس البرامج والعمل في الميدان، معتمدة على رأسمالها، المتمثل أساسًا في النزاهة والمصداقية.

وإذا كان هدف عدد من الأنظمة هو إدماج هذه الحركات، المؤدي إلى اعوجاجها، ثم إخراجها، بعد الاحتواء والإضعاف، فإن الأمر لا يتوقف فقط على رغبة هذه الأنظمة، وإنما يتعلق قبل ذلك - وبالأساس- بمدى قابلية التيار الإسلامي للاحتواء والذوبان، خاصة وأن هذا التيار قد أثبت - من خلال عدد من التجارب، وفي محطات مختلفة- استعصاءه على ذلك، وأثبت أنه ينطلق من أهداف واضحة وراسخة، لا يحيد عنها، ويربي الأجيال الصاعدة فيه عليها.

فهل ستستمر الأنظمة في إصرارها على سياسات الاحتواء، ومحاولات التمييع والتضييق والحصار؟، أم إنه ليس هناك من خيار أمام العديد من الأنظمة العربية - إن أرادت التقدم بالبلاد إلى الأمام، واللحاق بالأمم المتقدمة والمتحضرة- إلا أن تقتنع بضرورة الإصلاح السياسي الحقيقي، والانتقال الديمقراطي الحقيقي، والتصدي للفساد بكل حزم، والضرب على أيدي المفسدين بقوة، وحماية التيارات الوطنية؛ التي خرجت من رحم الشعب، وتعبر عن نبضه حقيقة.

لقد برهنت بعض الأحزاب الإسلامية بالملموس، أن مآل المشاركة في الحياة السياسية لا يؤدي بالضرورة، كما يردده المقاطعون، إلى الاستسلام للواقع، والذوبان فيه، وبالتالي الاندثار والانقراض، وأعطت الدليل - في أكثر من مناسبة- على استعصائها على ذلك، بل قاوم أبناؤها، وصمدوا كثيرًا، أمام محاولات الإضعاف والإقصاء، وما زالوا يقاومون؛ ولذلك فإن شعار المرحلة؛ الذي يجب أن يرفعه تيار المشاركة في الحركة الإسلامية، في مختلف البلدان، حاليًا، هو إنجاح خيار الاندماج، والحذر من الاعوجاج، والصمود أمام محاولات الإخراج.



د. إبراهيم البيومي غانم

رئيس قسم الرأي العام بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية بمصر.



الأعداء الثلاثة للنهضة

يتواصل كفاح مجتمعاتنا الإسلامية، منذ قرنين أو يزيد، من أجل النهضة والتقدم، وقد اكتشفت أمتنا مبكرًا أعداءها الخارجيين؛ الذين احتلوا أراضيها، ومزقوا شعوبها، ونهضت حركات الجهاد لمقاومة الغزاة على الدوام، ولا تزال قوافل الشهداء تسير على درب مواجهة الأعداء الخارجيين.

ولكن ثمة أعداء آخرون للنهضة، لم تنتبه إليهم أمتنا بالقدر الكافي حتى الآن، وأكثر أولئك الأعداء خطرًا على الأمة، وتدميرًا لمستقبلها، ثلاثة: الاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، والتحلل الأخلاقي.

خطر الاستبداد يتمثل في ضيقه بالرأي الآخر الحر، وتقريبه للمنافقين والفاسدين، وإبعاده للصادقين، يتمثل في إحباط ذوي الرأي السديد، ومحاربتهم، وكلما قويت شوكة الاستبداد، ازدهرت شجرة الفساد، ومدت فروعها في كل صوب، وكلما ترعرع الفساد طفا الجهل على السطح، وغاص العلم نحو القاع؛ حتى تتعثر به الأقدام.

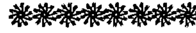
الاستبداد داء عضال، ولكن الإسلام جاء بدوائه الناجع، وهو "الشورى"؛ التي تُعلي من قيمة إرادة الجمهور، وتنزل عند مصلحة الجماعة، المعتبرة شرعًا، الشورى هي دواء الاستبداد في مجتمعاتنا، وهي طريق التوافق بين مختلف فئات الأمة؛ لأنها كما قال الأقدمون: "ألفة القلوب، ومسبار العقول، وسبب إلى الصواب".

العدو الثاني هو "الظلم"؛ الذي يبدو في شدة التفاوت بين أبناء المجتمع الواحد، في النصيب من الدخل القومي. هناك نسبة ضئيلة تحتكر القسم الأعظم من ثروات البلاد، دون جهد يُذكر، وفي المقابل هناك نسبة كبيرة تعاني الحرمان، وضيق ذات اليد، رغم الجهد الكبير؛ الذي تبذله في الإنتاج، ونتيجة لهذا الظلم، تظل حياة الأغلبية المظلومة مليئة المصاعب والمشكلات، وهو ما يحرم المجتمع من كثير من الطاقات والقدرات؛ التي يقضي عليها الحرمان، ويقتلها الفقر.

الظلم الاجتماعي داء عضال، ولكن الإسلام جاء بالعدالة الاجتماعية، دواءً ناجعًا له، وهذه العدالة جزء من "الاقتصاد السياسي"، ولا نعني بها "عدالة الرعاية الاجتماعية"؛ التي هي جزء من "الاقتصاد الاجتماعي"، والفرق كبير بينهما: الأولى تعني أن تتحمل الدولة الجزء الأكبر من عبء تحقيقها، وتهدف إلى الوقاية من الفقر، ومختلف أشكال الظلم الاجتماعي، أما "عدالة الاقتصاد الاجتماعي" فهي علاجية وليست وقائية، ويقع العبء الأكبر فيها على المجتمع ومبادراته التطوعية.

العدو الثالث للنهضة هو "التحلل الأخلاقي"، وهو يعني تدني أداء المجتمع في عمومه، وتدهور مستوى

مهارات أفراده، في القيام بالأعمال والوظائف المختلفة، فلا أحد يتقن عمله، أو يفي بوعوده، أو يكتفي بأخذ الأجر أو الثمن العادل؛ بل عكس ذلك هو الشائع. وهذا هو ما نقصده بـ"التحلل الاجتماعي"، هو حالة يكثر فيها الفساد، ويتراجع الإبداع، ويزدهر الكذب، والنفاق، والانحرافات السلوكية بأنواعها. التحلل الأخلاقي داء عضال كذلك، ودواؤه الإسلامي هو"الاستقامة"؛ وطريق الاستقامة يبدأ بالتربية وبالقدوة الطيبة، وبالتعليم الجيد، وبالإعلام الهادف، وبالثقافة الراقية، "الاستقامة" في مجتمعاتنا هي حبُّ حصيد "التربية" و"التنشئة"، في الأسرة، وفي المدرسة، وفي المسجد، وعبر وسائل الثقافة العامة والإعلام، فلننظر ماذا تقدمه هذه المؤسسات والوسائل، قبل أن نلقي اللوم على أبناء الأجيال الجديدة.



ترتيب مصادر تكوين الوعي الإسلامي

للوعي الإسلامي ثلاثة مصادر كبرى: أولها الوحي؛ الذي أُنزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، وسنته الصحيحة، وثانيها الفقه؛ الذي أنتجته عقول العلماء المجتهدين، انطلاقًا من مرجعية القرآن والسنة، وما يرتبط بهذا الفقه من أصول وفروع، وثالثها الاختيارات المؤسسية، والممارسات الاجتماعية؛ التي طبقها المسلمون حكامًا ومحكومين، عبر المراحل التاريخية المختلفة. ولا يستوي كل مصدر من هذه المصادر الثلاثة مع المصدرين الآخرين؛ لا من حيث الثبات والتغير، ولا من حيث الصحة والصلاحية. فالمصدر الأول (القرآن والسنة)، هو الأعلى منزلة، وهو أصل الشريعة، وفيه بيان الإرادة الإلهية، التي نزل بها الوحي على محمد - صلى الله عليه وسلم-؛ ليكون منهاجاً يهتدي به جميع البشر، في ترتيب شئون حياتهم، وفي تنظيم علاقاتهم ببعضهم، وفي تحقيق مصالحهم، العامة منها والخاصة، الدنيوية والأخروية، وهو أصل ثابت لا يتغير، وكامل لا نقص فيه، وصالح لكل زمان ومكان، هو أساس لما عداه من مصادر تكوين الوعي الإسلامي. والمصدر الثاني (الفقه)، هو حصيلة الفهم والاجتهاد؛ من أجل تنظيم الحياة اليومية، في ظل الاجتماع السياسي الإسلامي؛ بمختلف جوانب هذه الحياة؛ التي تشمل: العبادات، والمعاملات، والعادات والأعراف، والجنايات والجزاءات، وهو أيضًا حب حصيد اجتهادات المجتهدين؛ من أجل حل مشكلات الواقع، وإرشاد الناس إلى أفضل الطرق لتطوير مجتمعاتهم، وتحسين نوعية حياتهم، هذا المصدر يرد عليه النقصان؛ كونه من كسب البشر (المجتهدين)، وأكثره متغير، وقليله ثابت. ومن حيث الصحة والصلاحية، فإن بعضه صحيح صالح لبعض الأزمنة وبعض الأمكنة، وبعضه ليس كذلك؛ ويرد عليه التغيير، ويقبل - باستمرار- التجديد، ومن ثم يمكن أن نأخذ منه ونترك، ونقبل منه ونرفض؛ بضوابط النظر الفقهي، وشروطه المعتبرة. وأما المصدر الثالث (الاختيارات المؤسسية، والممارسات الاجتماعية)، فمنه نعرف القدر الذي تحقق بالفعل على أرض الواقع، من جملة الاجتهادات الفقهية؛ التي أنتجها المصدر الثاني (الفقه)، وبقياس ما تحقق، بما كان يجب أن يتحقق، نعرف حجم الفجوة بين "النظرية"، و"الواقع"، ومن هنا يمكننا أيضًا معرفة الأسباب التي أدت إلى هذه الفجوة، ولماذا ضاقت حينًا، واتسعت حينًا آخر. أما معيار الحكم على الممارسة، فهو بمدى اقترابها أو ابتعادها عن الإجماع الشرعي؛ الذي يحيط بها، في بيئة اجتماعية وسياسية معينة، وفي زمن معين، ولا شيء من معطيات هذا المصدر (الثالث) يتمتع بالثبات، ولا بالصلاحية لكل زمان ومكان؛ فكله من قبيل المتغيرات، وقليله صالح لبعض الأزمنة وبعض الأمكنة، وكثيره على عكس ذلك، ولا يتحمل اللاحقون وزر أخطاء السابقين،

في اختياراتهم وممارساتهم، وإنما هم يحملون أنفسهم ما لا طاقة لهم به، إن هم ظلوا على ما كان عليه أسلافهم، من أخطاء هنا أو هناك. ولا ترقى معطيات الوعي الإسلامي، المستمدة من الممارسات الاجتماعية، والاختيارات السياسية، إلى مستوى تلك المستمدة من الاجتهادات الفقهية، وهذه بدورها - رغم أهميتها- لا ترقى ولا تساوي المعطيات المستمدة من القرآن والسنة، وكلما كانت هذه العلاقة التراتبية واضحة في الأذهان، من حيث حجية كل مصدر، وإلزاميته، ووجوب العمل به، كان الوعي الإسلامي أكثر نضجًا، وأهدى سبيلاً.



وجوه الغربِ الأربعة في الرؤية

لا يزال الاتهام موجهًا للإسلاميين، بأنهم لا يملكون رؤية واضحة عن "الغرب"، وأنهم فقط معادون له، رافضون لحضارته الحديثة، ولأنظمته الديمقراطية، وللحريات التي ينعم بها أهله. ومع أن اجتهادات مفكري الإسلام، على مدى القرنين الأخيرين، ترد على هذا الاتهام بأقوى حجة، وأفصح بيان، إلا أن البعض - وخاصة من متطرفي العلمانيين، المنسحقين تحت أقدام الآخر الغربي- يعيدون تكرار الاتهام، رغم أنه لا يخفى عليهم أن عداء الغرب لنا أقوى، وكراهيته لشعوبنا وحضارتنا أعنف وأقسى، ورفضه لنهضتنا عليها ألف دليل، من الاحتلال العسكري لبعض بلداننا، ودعمه اللا محدود للكيان الصهيوني على حسابنا. ولفصل الخطاب في هذا الموضوع، يتعين التعرف على الملامح الأساسية لصورة الغرب، ومصادر تكوين هذه الصورة في الرؤية الإسلامية المعاصرة. لصورة الغرب أربعة وجوه أساسية، تبصرها الرؤية الإسلامية ولا تخلط بينها، كما لا تختزل أحدها لصالح الآخر. الوجه الأول هو "الاستعمار الظالم"؛ الذي احتل البلدان الإسلامية بالقوة الغاشمة، ونهب ثرواتها، وأذل أهلها، وانتهك حرماتِهم، وهذا الوجه مرفوض جملة وتفصيلا، ومقاومته بكل السبل المشروعة؛ بما فيها القوة المسلحة، فريضة ماضية حتى التخلص منه. الوجه الثاني هو "التقدم العلمي والتكنولوجي"، وهو ثمرة من ثمار الحرية، وحصيلة للجهود الفكرية، والاجتهادات العقليـــة، وهو وجه مقبول ومرحب به؛ ليس فقط لأنه مفيد عمليًا، وإنما أيضًا لأنه يتفق - في جوهره- مع الرؤية الإسلامية للعلم والتعلم، والابتكار والتجديد، والسعي الدائم لتحسين نوعية الحياة على وجه الأرض، في إطار مهمة الاستخلاف والعمران، ولا يرد على هذا الوجه استثناء، إلا فيما يتعلق بسوء استخدام المعرفة العلمية، وتسخيـــرها للإضرار بالجنس البشري؛ بإنتاج أسلحة الدمار الشامل، واستخدامها في حروب الإبادة الجماعية. الوجه الثالث هو "نمط الحياة"، أو طريقة المعيشة؛ التي تتجلى في أنماط سلوكية وعلاقات اجتماعية، يتصرف في ضوئها الأفراد والأسر والجماعات، وتصبغهم بصبغتها، وهذا الوجه مرفوض في أغلب جوانبه؛ إذ هو يعبر عن خصوصيات المجتمعات الغربية، ويعكس رؤيتها وفلسفتها في الحياة؛ التي تعتبر الإنسان سيدًا قاهرًا للكون، وأنه يحوز من الحق بقدر ما يحوز من القوة المادية. ومن هنا يأتي رفض المجتمعات الإسلامية لهذا الوجه؛ ليس لأنه يصطدم مع هويتها فقط، وإنما لأنه يضاد رؤيتها للحياة؛ التي ترى أن الإنسان سيد في الكون، وليس سيدًا له أو متسلطًا عليه، وأنه يحوز من القوة بقدر ما يحوز من الحق، ويقترب منه. الوجه الرابع هو "التبشير الديني"، وهو من بقايا وجوه الغرب في عصوره الوسطى، وهو وجه كريه يثير التعصب، وينشر الفتن، ويتسبب في إذكاء الحروب والنزاعات،

وهذا وجه ممقوت وغير مقبول، بأية حال من الأحوال، وإصرار بعض الدوائر الغربية على التمسك به – بدعاوى الحريات الدينية- لا يؤدي إلا إلى زعزعة الاستقرار، وإهدار الطاقات في غير طائل.

****

مصادر تكوين صورة الغرب ومصائرها

رسمنا - في المقال السابق- الملامح الأربعة الرئيسة لصورة الغرب، في الرؤية الإسلامية المعاصرة، وهي: الاستعمار، والتقدم التكنولوجي، ونمط الحياة الاجتماعية، والتبشير الديني.

ويسأل سائل: كيف تكونت هذه الصورة؟، والجواب هو أن هناك ثلاثة مصادر كبرى، أسهمت مجتمعة - وإن بنسب متفاوتة فيما بينها- في تكوين تلك الصورة، وهي:

١- العقيدة الإسلامية؛ التي تؤسس للمسلم رؤيته للعالم، على نحو شامل، بما فيه الغرب الحضاري والجغرافي، بوجوهه الأربعة المشار إليها، ومبادئ "العالمية"، و"وحدة الإنسانية"، و"الجهاد"، و"الوسطية" والشهادة على الأمم، تسهم في تكوين بناء الرؤية الإسلامية للعالم، على نحو يكون فيه الغرب جزءًا منه، وليس مهيمنًا عليه؛ ومن ثم فإن أوضاع الهيمنة؛ التي تمارسها القوى السياسية الغربية، على العالم الإسلامي، منذ أكثر من قرنين، ستظل مرفوضة، وتستنهض الهمم لمقاومتها، والتخلص منها، ومن هنا يأتي رفض الوجه الاستعماري للغرب.

٢. التاريخ؛ وهو يقدم الشواهد والأدلة على صدق إدراك الغرب، من وجوهه الأربعة، ويدخل التاريخ في تكوين الرؤية الإسلامية للغرب من زاويتين:-

الأولى: هي زاوية تاريخ الذات الحضارية المنتصرة، وهو تاريخ يبعث على الفخ؛ لأنه من صنع الذات الحضارية الإسلامية.

والثانية: هي زاوية تاريخ الهيمنة الغربية، والظلم الاستعماري؛ الذي حاق بالبلدان والمجتمعات الإسلامية، خلال القرنين الأخيرين.

وتتناقض الزاويتان في الوعي الإسلامي ولا تتعايشان؛ فتاريخ الذات هو نقيض تاريخ الخصم الحضاري.

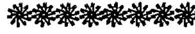
وعليه، ينشأ الشعور بتهديد الهوية؛ التي يدخل التاريخ في مكوناتها، ومن ثم تصبح الهوية الإسلامية غير مساوية لذاتها - لوجود المكون السلبي من تاريخ الهيمنة الغربية-، ومن هنا يتأتى رفض نمط الحياة الغربي؛ لأنه يصبح من مصادر تهديد الهوية الإسلامية الحضارية، بمعناها الشامل، وينضم هذا الأثر إلى أثر العقيدة، في دعم المقاومة، والتمسك بأصول الذات وهويتها.

٣. الواقع؛ وهو مليء بالمآسي والمظالم؛ التي تمارسها دول الغرب وحكوماته، ضد المجتمعات الإسلامية وشعوبها، حتى استقر في وجدان الأجيال الراهنة، أنه لا توجد أمة يسيء الغرب إليها، مثل الأمة الإسلامية؛ اقتصاديًا بنهب ثرواتها، وخاصة النفط والغاز، وسياسيًا بدعم أنظمة الحكم الاستبدادية،

المتحكمة في شعوبها، وعسكريًا بدعم العدو الصهيوني، واحتلال أكثر من بلد عربي وإسلامي (العراق - أفغانستان)، وإثارة النزاعات، وتغذية عوامل عدم الاستقرار، في عدد آخر (الصومال - السودان - لبنان).

هذا، إلى جانب دعم نشاطات إرساليات التبشير، واستغلال أوضاع الفقر والجهل والمرض، في بعض البلدان الإسلامية؛ لفتنة المسلمين عن دينهم، ومن هنا يتأتى رفض الوجه التبشيري للغرب، في مجتمعاتنا المعاصرة؛ لأنه - والحالة هذه- وجه استغلالي، ينضح بالانتهازية، ويمتهن كرامة الإنسان، عندما يستلِب إيمانه، لقاء بعض المساعدات المادية.

صورة الغرب لها أربعة وجوه في الرؤية الإسلامية، وليس وجهًا واحدًا، وترسمها ثلاثة مصادر لا مصدر واحد، ولكل وجه موقف، ولكل مصدر دور ومهمة، وستبقى ملامح الغرب في الرؤية الإسلامية ما بقيت العوامل التي تنتجها.



أولويّات مهمّات العلماء

يحتلّ "العلماء" مكانة متميّزة في حياة كلّ المجتمعات منذ الأزل، وقد رفع الإسلام شأن "العلماء"، وجعلهم أكثر الناس خشية لله (تعالى)، وجاء عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) أنَّ "العلماء ورثة الأنبياء"، ولمَّا كان الأنبياء (عليهم السلام) لم يورِّثوا درهما ولا دينارًا، وإنَّما ورَّثوا العلم، فإنَّ ما ورثه العلماء هو "العلم" أيضًا، فكيف يؤدّي العلماء مهمَّتهم، وما أولويَّات وظيفتهم؟.

لا يكون أداء العلماء لمهمَّاتهم فعالًا ونافعًا، إلا إذا كانوا متأسِّين بمنهج الرسول الأكرم (صلى الله عليه وسلم)، ومنهجه - الذي سار عليه العلماء الصالحون- ارتسم وفق ثلاث مهمّات، مرتَّبة حسب أهميَّتها، ووفق ما تحتاجه من جهد، كالآتي:

١. مهمَّة النقل والتثبيت:

والمقصود هو نقل أصول الإسلام المنزَّلة على نبيِّه كما هي (قرآنًا، وسنَّة صحيحة)، وتثبيتها في عقول ووجدان الأجيال المتعاقبة على مرِّ الزمن؛ كي تتربَّى في ضَوء هديها، وتلتزم بتوجيهاتها الكبرى، وقيمها العليا، وتتّخذها منهجًا للحياة، هذه هي المهمّة الأولى التي يتعيّن على جماعة العلماء في كل عصر، أن تنهض لأدائها على الوجه الأكمل، وللتبسيط؛ فإنَّ ما تحتاجه هذه المهمَّة لا يتجاوز ١٠٪ من طاقة العلماء - في جملتهم- في كلّ زمن.

٢ـ مهمَّة الدحض والتفنيد:

والمقصود هو ردُّ الشبهات، ودحض الافتراءات؛ التي يشنُّها أعداء الإسلام وشانئوه، ضدّ أصول العقيدة، ويحاولون بها النيل من مبادئ الرِّسالة، ويسعَون لتشويهها أو تلبيسها على المؤمنين، وهذه المهمَّة تستوجب جهدًا نقليًا وعقليًا مضاعفًا، من جماعة العلماء، ولكنَّها لا يجب أن تستغرقهم طول الوقت، وللتبسيط نقول: إنَّها تحتاج فقط من ٣٠٪ إلى ٤٠٪ من طاقتهم - في جملتهم- في كل زمن.

٣. مهمَّة الاجتهاد والتجديد:

والمقصود هو بذل الوسع في النظر في قضايا الواقع وتحدّياته، والتأمُّل في مسارات المستقبل واحتمالاته، بما يحقِّق المصلحة، ويدرأ المفسدة، أو بما يجلب النَّفع، ويدفع الضرر، بمقاييس الشريعة، وفي ضَوء مقاصدها العامة، وهذه المهمَّة تستوعب جلَّ جهد العلماء، ويتعيَّن أن تستنفد أكثر من نصف طاقتهم الذهنيّة والفكريّة (الاجتهاديّة).

إذا اختلَّت أولويّات مهمّات مجتمع العلماء عن هذا النسق الموصوف أعلاه، فستختلّ أحوال المجتمع، وتضطرب موازينه، وتقترب أحواله من الفساد بقدر ما تبتعد عن الإصلاح والصلاح، وسيكون العنوان الأوضح لهذه الأحوال المختلَّة هو "الفوضى والتأخُّر" ولا حول ولا قوة إلا بالله.

العمل الخيري.. مقصد عام وثابت للشريعة

من الأخطاء الشائعة، أن العمل الخيري الإسلامي مرادف للعمل الإغاثي المؤقت، أو مقصور على المساعدات العينية أو النقدية؛ التي يقدمها المحسنون لذوي الخصاصة، في أوقات الكربات، وعند اشتداد الأزمات.

وهذا الفهم خاطئ، بالرغم من أن الإغاثة والمساعدة العينية والنقدية للمحتاجين، من العجزة أو المأزومين والملهوفين، هي من أهداف العمل الخيري الإسلامي، ولكن للخير في المرجعية الإسلامية مقاصد أخرى، أعم وأشمل، وأكثر تأثيرًا في الحياة الاجتماعية.

إذا سلكنا مسالك استنباط المقاصد العامة للشريعة؛ التي قررها المقاصديون، بحثًا عن موقع العمل الخيري من هذه المقاصد، فسنجد أن العمل الخيري مقصد عام وثابت، من مقاصد الشريعة؛ بدلالة كثرة الأمر به، والحض عليه، ومدح فاعليه، والتحذير من مناوئيه، في كثير من آيات الكتاب العزيز، وأحاديث النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم-، وقد ورد لفظ الخير ١٨٠ مرة، في القرآن الكريم.

وورد لفظ "أخيار"، و"خيرات"، و"خيرة" ٨ مرات، في سياقات متنوعة، تربط "الخير" بجوانب أساسية من الحياة المدنية؛ التي يعيشها الناس، وفي مقدمتها: العلم، والعمل، والكفاءة والقدرة، والعدالة، والأمانة، والإنفاق، كما ورد في بعض الحالات ضمن سياقات (أقل عددًا)، تربطه بالحياة الآخرة. وغير ذلك من المناسبات الأخرى؛ التي يفيد اطراد ورود الأمر بعمل الخير فيها، والحض عليه، والثناء على من يقومون به، أن "العمل الخيري" مقصد عام - وثابت- من مقاصد الشريعة الغراء.

وليس العمل الخيري مقصدًا عامًّا وثابتًا للشريعة فقط، وإنما له مقاصد تابعة أخرى، تتمثل في توكيد الحرية، وتعزيز التمدين، وإعمار الأرض، وترسيخ السلم الأهلي، ومحاربة الفقر، والإسهام في بناء المجال العام، والمشاركة الإيجابية.

إن عمل الخير يطرح في النفس الارتياح والطمأنينة، ويطرح في المجتمع الاستقرار والسكينة، ويجعله مهيئًا لعيشة هنيئة، ولحياة أفضل، ويجعله مكانًا يسمح للناس بالإبداع والابتكار، والقيام بالمبادرات التي تستهدف تحسين نوعية الحياة، والتغلب على مشكلاتها، والإسهام في سعادة أهلها.

ويرتبط العمل الخيري الإسلامي بمفهوم الحرية، بأوثق رباط؛ فالعمل الخيري عندما يكون عطاءً بلا مقابل مادي، هو تحرير للنفس، إما من قيد الأثرة وحب التملك، وإما من قيود الآثام واجتراح الخطايا، وإما من قيد الكبر، واستعلاء النفس على الآخرين، ممن يشاركونها الانتماء إلى أصل واحد "كلكم لآدم، وآدم من تراب".

كيف ينظر المسلم إلى العالم؟

من أصول الرؤية العالميّة للإسلام: أنّ البشريّة بمختلف شعوبها وأممها صائرة - لا محالة- إلى التجمّع في وحدة إنسانيّة واحدة، وأنّه لا بدّ من السعي للوصول إلى هذه "الوحدة الإنسانيّة"؛ وهي وحدة لا تلغي خصوصيّات وفضائل التنوّع والتعدّد الثقافيّ والاجتماعيّ؛ الذي تمثّله الأمم والشعوب داخلها.

إنّ "الوحدة العالميّة" - من منظور إسلاميّ- لا تقوم على أساس اقتصاديّ أو سياسيّ أو دينيّ، بالمعنى الضيّق لكلمة دين، وإنما تقوم على أصول اجتماعيّة مغروسة في فطرة الإنسان، وأهمّها: الآدميّة والمساواة؛ فالآدميّة تنسب البشر جميعًا إلى أبٍ واحد، وأمّ واحدة (آدم وحوّاء)، والمساواة تعني أن كلّ إنسان يقف على قدم المساواة مع أخيه الإنسان، بغضّ النظر عن اختلاف الوطن، أو العرق، أو اللون، أو الثقافة.. إلخ.

تلك هي الأصول العامة التي يأمرنا الإسلام أن نبني عليها رؤيتنا للعالم، ويمكننا أن نوجزها في أربع كلمات، هي: عالميّة الرسالة، والوحدة العالميّة، والأُخوّة الإنسانيّة، والمساواة بين جميع البشر.

وحين يتعلّق الأمر بتنظيم علاقات المسلمين بغيرهم فثمّة مجموعة من الأسس المنظّمة لتلك العلاقة، ومن أهمها:

١-الدعوة للتعارف، وذلك في قوله (تعالى): (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات: ١٣)، والتعارف لا يكون من جانب واحد، وهو يتضمّن الاعتراف المتبادل، وإقرار التعدُّديّة الاجتماعيّة، والدينيّة، والثقافيّة، وهو ما نطلق عليه بلغتنا المعاصرة "الحوار" والاعتراف بالآخر.

٢-التعاون في كافّة مجالات الحياة؛ من أجل سعادة البشرية وخيرها، وتبادل المنافع، والتعايش الحضاريّ الخلاق، يقول الله (تعالى): (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) (المائدة: ٢).

٣-السلام، وهو اسم من أسماء الله الحسنى، وأصل كبير من الأصول التي دعا إليها الإسلام؛ لتنظيم العلاقات بين المسلمين وغيرهم، والوصول إلى "السلام" - أيضًا- هو غاية من غايات الدعوة الإسلاميّة، أمّا الحرب فلم تُشرَع في الإسلام إلا لردّ العُدوان.

٤-التسامح، وإعلاء الكرامة الإنسانيّة وصيانتها، فالإسلام يأمر أتباعه بأن يعاملوا غيرهم على أساس أنهم إخوة في الإنسانيّة، ولا يكمل إيمان المرء حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه.

٥-الوفاء بالعقود والمعاهدات، وهذه قاعدة عامّة أمر بها الإسلام في قوله (تعالى): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) (المائدة: ١)، ولا تقتصر هذه القاعدة فقط على الجوانب القانونيّة، وإنما تمتدّ لتصبح أداة من أدوات بناء وترسيخ ثقافة السلم والتعاون، على المستوى العالميّ، فضلًا عن المستويات المحليّة والإقليميّة.

إنّ النظرة المتفحّصة في أصول الرؤية الإسلاميّة للعالم، وفي تلك الأسس التي تنظّم علاقة المسلمين بغيرهم، تكشف لنا عن منظومة متكاملة من القيم الرفيعة، وأنها ليست قيمًا "إسلاميّة" فقط، بل إنسانيّة عامّة، كذلك تجد جذورها في عمق الفطرة البشريّة؛ التي فطر الله الناس عليها.



أصالة السلام الإسلامي العالمي

السلام الذي ينشده الإسلام يبدأ من ذات الفرد. من النفس التي بين جنبيه. فإذا كان الإنسان/الفرد غير قادر على أن يحقق السلام مع نفسه؛ بأن يسلمها لله وحده، كي يحررها من كل ما سواه؛ فإنه سيكون عاجزاً عن العيش في سلام مع غيره من بني الإنسان أفراداً كانوا أم جماعات. منشأ السلام العالمي في الرؤية الإسلامية كما يقول الشهيد سيد قطب هو "النفس الإنسانية".

هذا السلام الإسلامي لا يمكن أن يكون حاصل علاقات القوة بين بني البشر، وإنما هو ينبع من أعماق النفس أولاً، ومن التزام الضمير بمبادئ الحق والعدل، ومن نفور الفطرة السليمة من الظلم ومن العدوان على الغير وأكل أموالهم بالباطل ليس لسبب إلا لأنهم ضعفاء. مثل هذا السلام الذي يكون حصيلة علاقات القوة لا يكتب له الدوام؛إذ سرعان ما ينقلب إلى حرب طاحنة عند أول لحظة تتغير فيها موازين القوى المادية.

السلام الإسلامي يقوم على أساس أن "الحق هو الذي يبرر القوة، ويشرع استخدامها". حين أن دعوى السلام الأمريكي/الصهيوني اليوم تقوم على أساس أن القوة هي التي "تخلق الحق وتحميه"؛ وهو المبدأ نفسه الذي قام عليه "السلام الروماني" في العهود القديمة.

يتدرج بناء السلام عبر الدوائر المحيطة بالنفس من: من الفرد، إلى الأسرة، إلى الجماعة الوطنية، إلى الأمة، ومنها إلى الإنسانية بمجموعها.

وفي إطار الجدل الدائر حالياً حول أهمية "الإسلام" كعامل أساسي في إمكانية حدوث التوافق -أو الصدام- بين عالمنا الإسلامي وأمريكا وأوروبا والغرب بصفة عامة، فإنه لا بد من تجاوز الأسباب التاريخية التي أدت في السابق إلى المآسي، وجرت إلى الحروب والمنازعات المتبادلة، وذلك لأننا نرى- كمسلمين- أن التحولات العالمية التي اجتاحت كافة المجالات العلمية والسياسية والفكرية، وأسقطت كثيراً من البنى التقليدية وأدت إلى تراجع مفاهيم كثيرة تنتمي إلى الماضي؛ كل ذلك يعني أنه يجب أن تتجدد العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب، على نحو يدفع هذه التحولات العالمية نحو مزيد من الارتقاء بالإنسان وبالقيم النبيلة، وبتحسين نوعية الحياة لكافة الشعوب والأمم.

إن قيم الإسلام ومبادئه تحض -كما سبق أن ذكرنا- على المضي في إقامة علاقات السلام، والتعاون، وتبادل المنافع، والعمل لخير الإنسانية، وبناء ثقافة عالمية أساسها الاحترام المتبادل، وهناك في الواقع ما يدعو إلى هذا الاتجاه وما يؤيده في الوقت نفسه: هناك مشروعات ومبادرات فكرية وثقافية صدرت عن جهات رفيعة المستوى في الغرب تخدم الاتجاه الذي نؤمن به.

هناك - كذلك- المصالح الاقتصادية المتبادلة بين البلدان الإسلامية والبلدان الأخرى غربية وغير غربية. ويدعونا الإسلام إلى إقامة العلاقة مع المخالفين لنا في الدين على أساس المصلحة الاجتماعية والاقتصادية المشتركة؛ التي تقوم على أساس الاحترام والتكافؤ، والتعاون على ما فيه خير الإنسانية، والسلام العالمي العادل. فالسلام غاية إسلامية سامية.



مستقبل العالم في السلام الإسلامي

هل ستظل الصراعات المسلحة تتحكم في مصائر الشعوب والأمم؟، أليس لهذه الصراعات من آخر تنتهي معه المآسي التي تتسبب فيها لأعداد كبيرة من بني البشر؟.

حارت عقول الفلاسفة والمصلحون منذ قديم الزمان، في كيفية التوصل إلى "سلام عالمي"، وعلى أي أساس يقوم؟، وحلم كثير من حكماء العلماء والمفكرين بمستقبل للعالم يعمه السلام والأمن؛ خالٍ من الخوف والحرب.

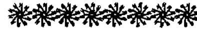
ولا يزال مستقبل العالم بين "متفائل" بإمكانية حلول سلام عالمي عادل، بين مختلف شعوب الأرض، ومتشائم يرى أن الصراع سيبقى ما بقي الإنسان على وجه الأرض، وما بقيت نزعات العدوان وحب السيطرة تدفع البعض لانتهاك حقوق الآخرين.

ويمدنا الإسلام برؤية شديدة التفاؤل بمستقبل أفضل للبشرية، فهو من ناحية يتضمن إدانة ودحضًا لكافة أطروحات الانقسام، والعنف، والقبح، والظلم وكل ما يؤدي إلى شقاء الإنسان، ومن ناحية أخرى يتضمن دعوة ملحة وصريحة لاحترام كرامة الإنسان وحقوقه الأساسية، ولمد جسور التعارف التعاون والمحبة والسلام والأمن والرخاء والحرية، والعدالة لبني البشر جميعًا، وفيما بينهم.

لنأخذ - مثلًا- فكرة "صدام الحضارات"؛ التي يطرحها البعض كحدث واقع، أو قادم في مستقبل النظام العالمي، إن هذه الفكرة من منظورنا الإسلامي لا تخدم السعي المشترك نحو مستقبل أفضل للبشرية، إنها - في حقيقة الأمر- تعبير عن أن الغرب في حضارته المعاصرة ليست لديه سوى قابلية محدودة للتعامل مع القيم الإنسانية "الجماعية"، وليست لدى بعض قواه على الأقل قابلية للاعتراف بحقائق "التعددية الثقافية"، ولا هو مقتنع بثراء تلك القيم والحقائق، وفائدتها في بناء مستقبل أفضل للعالم، ومن حسن الحظ أن هناك من يطرح - في المقابل- فكرة "حوار الحضارات"، "وتعايش الثقافات".

إن تحدي السلام العالمي يتطلب جهودًا مكثفة ومخلصة من كافة الأطراف، وعلى كافة المستويات ابتداءً من أن يكف الإعلام الغربي عن رسم "إسلام كاريكاتوري" لا صلة له بالإسلام الحقيقي، وأن نؤكد نحن في العالم الإسلامي على عالمية الإسلام، وقيمته الخاصة بالعدالة والتراحم، والتسامح، وصولًا إلى وضع إستراتيجيات جماعية، وتصورات مستقبلية؛ للانطلاق بها نحو المستقبل، في إطار فكري يعتمد على الحوار والتعددية، والنقد البناء، والقبول بالآخر؛ من أجل اكتشاف المبادئ الحضارية المشتركة بين بني الإنسان أينما كانوا، في الشرق أم في الغرب، في الشمال أم في الجنوب.

إن الخطوات نحو مستقبل أفضل لا بد أن تمر - من منظورنا الإسلامي- ببلورة القيم الإنسانية المشتركة، والإقرار بالتعددية الثقافية والدينية، والتعاون على إزالة مصادر الصراع، والقضاء على أسباب التوتر والعنف واختلال أوضاع السلم والعدالة، ولا بد أن تقوم - كذلك- على بناء ثقافة عالمية مشتركة، وبعيدة عن هيمنة القوة العارية من الأخلاق، وأبشع أنواع هذه القوة هي القوة الصهيونية؛ التي اغتصبت فلسطين، وحولتها إلى ساحة صراع مفتوح يهدد مستقبل العالم كله.



صراع الأفيال في الصومال

يئِن الصومال ذو العشرة ملايين مسلم (تقريبًا) من فوضى غياب الدولة، والتشرذم والحرب الأهلية، منذ سنة ١٩٩١م، ولا تكاد نيران الحرب بين أبنائه تهدأ حتى تشتعل من جديد.

إن ما يجري قبالة السواحل الصومالية - منذ عدة سنوات- وتصفه وسائل الإعلام الغربية والصهيونية بأنه "قرصنة بحرية"، لا يدخل بأية حال من الأحوال تحت هذا الوصف؛ وإنما هو ممارسة حق الدفاع الشرعي عن سيادة الوطن الصومالي، في مواجهة أعمال السطو، أو بالأصح أعمال القرصنة الدولية؛ التي تمارسها جهات أجنبية متعددة، مستغلة ضعف الدولة الصومالية، وعدم قدرتها على حماية مياهها الإقليمية.

لقد استقر العرف الدولي على اعتبار القرصان عدوًّا للجنس البشري؛ لأن أفعاله موجهة في الحقيقة ضد الجماعة الدولية بأسرها، وقد عرف اتفاق جنيف سنة ١٩٨٥م، القرصنة في المادة ١٥ منه، وهي تعتبر أن القرصنة عبارة عن "إتيان أعمال إكراه، أو تبييت النية لإتيان تلك الأعمال في البحر العام، دون وكالة مشروعة، وخارج نطاق اختصاص أية دولة".

إذا نظرنا إلى جميع الأعمال التي توصف بأنها قرصنة صومالية، فسنجد أنها لا ترتكب بنية النهب أو السلب، والدليل هو أنه لم تُنهَب سفينة واحدة حتى الآن، من عشرات السفن التي تعرضت لهجمات الصوماليين، وفي رأي د. إبراهيم نصر الدين، العميد السابق لمعهد الدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة، أنه "لو كان الغرض من الاختطاف تمويل الحرب في الصومال، لكان الأفضل سلب حمولة السفينة الأوكرانية؛ التي تحمل على ظهرها ٣٣ دبابة حديثة".

هذا فضلًا عن أن معظم هذه العمليات لا ترتكب في البحر العام، وإنما في المياه الإقليمية للصومال، وعلى نحو ما تذهب إحدى الدراسات الأجنبية؛ فإن "سُفنًا أوروبية وآسيوية وإفريقية تقوم بأنشطة صيد مكثفة في مياه الصومال، ويزعم بعض القراصنة أن أنشطتهم تستهدف حماية الموارد الطبيعية للصومال، وأنه ينبغي النظر إلى أموال الفِدَى على أنها ضريبة شرعية".

إن الأعمال التي تناهض نشاط السفن الأجنبية في المياه الإقليمية في الصومال تُعتبر - في نظر كثيرين من خبراء الشئون الإفريقية والقانون الولي- من أعمال الدفاع الشرعي عن النفس؛ لحماية الثروة السمكية للصومال، ولمنع السفن الأجنبية من إلقاء النفايات النووية على السواحل الصومالية، أو لتحصيل رسوم مرور عنوة في المياه الإقليمية في الصومال، ما دامت لا توجد حكومة مستقرة وقادرة على تحصيل هذه الرسوم، وهذا استنتاج لافت للنظر، وإذا وضعناه تحت مجهر التأمل فسنكتشف

أبعادًا أخرى، ليست مرئية حتى الآن في الأزمة الصومالية المزمنة، والآخذة في التوسع.

فالتواجد الأجنبي المكثف في مياه الصومال - بدعوى مواجهة أعمال القرصنة- له أهداف أخرى، في مقدمتها نهب ثروات الصومال، وخصوصًا من اليورانيوم، وتكريس حالة الفوضى الاحتراب الداخلي حتى لا تقوم للصومال الموحد قائمة، وإبقاؤه في وضعية "الدولة الفاشلة" لتبرير هيمنة القوة الأمريكية علي هذا البلد العريق، وتحويله إلى قاعدة عسكرية على الجانب الغربي للمحيط الهندي، في إطار التنافس المكتوم بين الولايات المتحدة وفرنسا؛ التي لا تزال تتمتع بنفوذ واسع في القرن الإفريقي، عبر قواعدها العسكرية في جيبوتي وجزر القمر.

السؤال الآن هو: ماذا يُراد بالصومال أكثر من البلاء الذي يعانيه أهله، منذ ما يقرب من عشرين عامًا؟، والجواب باختصار هو أنه: يُراد به ألا يخرج من هذه الدوامة؛ حتى تترسخ القواعد العسكرية الأمريكية على أراضيه، وفي مياهه، وخصوصًا بعد الفشل الذريع الذي مُنِيَت به أمريكا - حتى الآن- في أفغانستان وفي العراق، ويراد به أن يكون ساحة مفتوحة لدفن النفايات النووية التي تنتجها الدول الصناعية، ولا تستطيع دفنها في أراضيها نظرًا للاحتجاجات التي يقوم بها أنصار البيئة، ومناهضو التسلح النووي.

وليس بعيدًا أن تصب كل هذه الأهداف الاستعمارية في خانة حرب قادمة، في مدخل البحر الأحمر؛ كي تُحكِم القوى الغربية والأمريكية تحديدًا سيطرتها عليه نهائيًا، وكالعادة فإن الخاسر الأول والأخير في هذا الصراع البائس هو الصومال، والعرب، والمسلمون، وصدق المثل الإفريقي الذي يقول: "عندما تتصارع الفيلة فإن العُشْبَ هو الذي يئن"، والعُشبُ هنا هو "أبناء الشعب الصومالي"، كان الله في عونهم.



«العالمية» هي خصوصية الإسلام في حقوق الإنسان

يقول الله تعالى في محكم آياته، مخاطبًا النبيَّ الأكرمَ، سيدَنا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: ١٠٧)، والعالَمون ليسوا فقط كلَّ بني آدم، في كل زمان ومكان، وإنما هم عالَم الإنس، وعالَم الجن، وعوالم الحيوانات والجمادات، كل منها له حظ من الرحمة المهداة للعالمين، سيد الأولين والآخرين، وعليه فإن كل خير جاء به، ودعا إليه، وحض على التنافس فيه، لا يقتصر على جنس دون آخر، بل يشمل كل العالمين؛ ليذوقوا من نعمة الإسلام، وليتعرفوا عليه عمليًا، قبل أن يطالَبوا بالإيمان به، وبعد أن يطالَبوا به، سواء أجابوا داعي الله، أم أعرضوا عنه ولم يجيبوه.

لكن الجدل حول حقوق الإنسان في النظرية الإسلامية يتجه اتجاهات شتى، منها ما يؤكد الخصوصية والفرادة التي تميز الرؤية الإسلامية لحقوق الإنسان، بمعنى أنه يحصرها في صنف معيَّن من البشر، وربما في مناطق جغرافية دون غيرها من العالم، ومنها ما يؤكد تطابقها تمام الانطباق مع النظرية الأوربية السائدة، باعتبارها نظرية عالمية، ومن ثم يرفض أنصار هذا الاتجاه وجود خصوصية لنظرية حقوق الإنسان الإسلامية.

أصحاب الاتجاه الأول يظلمون الرؤية الإسلامية لحقوق الإنسان؛ إذ يحبسونها في إطار ضيِّق، ويُعطلون رسالتها العالمية، وأصحاب الاتجاه الثاني يتجاهلون جوهر هذه الرؤية وعمقها الإنساني، ويحاولون تقريبها من الرؤية الغربية، المفتقدة لهذا العمق الإنساني، في كثير من جوانبها.

وفي رأينا أن الخصوصية الكبرى لمفهوم حقوق الإنسان في الرؤية الإسلامية تتمثل في "الشمول والعالمية"؛ فقد جاءت الشريعة بتقرير كل أنواع الحقوق المدنية والدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية، الجماعية منها والفردية من جهة، وجاء الخطاب من جهة أخرى باحترام هذه الحقوق وحمايتها وضمانها، شاملًا لكل بني آدم، أو لكل إنسان بوصفه إنسانًا، وبوصفه إنسانًا فقط لا أكثر من ذلك ولا أقل، بل تمتد هذه الحقوق - في جوانب كثيرة منها- لتشمل الحيوان والجماد والبيئة، في منظومة متجانسة ومتناغمة.

إن خصوصية حقوق الإنسان في النظرية الإسلامية هي في "عالميتها"؛ إذ إن خطاب التكليف بها وبحمايتها موجه للآدمي، بموجب كونه إنسانًا، وليس ثمة حق واحد دينيًا كان أو مدنيًا، سياسيًا أو اجتماعيًا، مقرراً للمسلم وحده، ومحظوراً على غيره، وهذه الخصوصية أيضًا هي في شمولها لكل أنواع الحقوق. التي عرفتها المواثيق والإعلانات العالمية لحقوق الإنسان، في صيغها الحديثة والمعاصرة.

إن مصطلح حقوق الإنسان - المستعمل في الخطاب المعاصر- يشير إلى مجموعة الحقوق والمطالب

الواجب الوفاء بها لكل البشر، على قدم المساواة، دونما تمييز فيما بينهم لأي سبب كان. ولكن هذا التعريف العام ليس مسلمًا به لدى المجتمعات المختلفة؛ ذلك لأن نوع هذه الحقوق يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالتصور الأساسي عن الإنسان ذاته، فإذا كان الإنسان فردًا حرًا ذا كرامة وقيمة، ويمتلك العقل والضمير، ويمتلك القدرة على الاختيار الأخلاقي، والتصرف السليم، ويملك أيضًا الحكم الصائب على ما هو في مصلحته، فإن حقوق هذا الإنسان سوف تنبني على أساس هذا التصور، وسيكون التمتع بها على قدر ما يتمتع به الإنسان (الفرد أو الجماعة) من قوة.

والواقع يشهد بوجود كثير من صور التمييز الفعلي بين بني البشر، إضافة إلى انتهاك أبسط حقوقهم، وليس ذلك إلا نتيجة من نتائج الثقافات الاستبدادية والعنصرية، كتلك التي ظهر فيها من يقول: إنه "شعب الله المختار"، أو إن شعبًا من الشعوب فوق الجميع، أو إنه يحمل عبئًا تجاه الأجناس الأخرى البدائية المتخلفة، باعتباره جنسًا أرقى.وكلها نزعات ظهرت وترعرَعت في الثقافات الوضعية، وتركت آثارها على علاقاتها مع أصحاب الثقافات الأخرى، ولا مستقبل لحقوق الإنسان إلا إذا تطابقت مع أصولها التي قررها الإسلام.



الشيخوخة المبكرة والخوف من الجديد!!

الظلم والعدوان والفساد والاستبداد وإهانة كرامة الإنسان وتدمير البيئة، والتحلل الأخلاقي واستغلال القوي للضعيف، وكثرة النزاعات والحروب، وفقدان الأمن والسلام؛ كل ذلك من مظاهر اختلال الواقع العالمي وابتعاده عن القيم التي دعا إليها الإسلام وحض على التمسك بها. تلك المظاهر هي التي تفسر وجود فجوة كبيرة تفصل هذا الواقع عن تلك القيم الإسلامية-الإنسانية.

إن وجود فجوة بين "الواقع والمثال" أو بين "النص والممارسة" أمر طبيعي إذا كانت تلك الفجوة في حدود معقولة ومقبولة ، أما الفجوة التي نتحدث عنها هنا فهي كبيرة جداً، وآخذة في الاتساع؛ الأمر الذي يزيد الأوضاع العالمية اختلالاً من منظورنا الإسلامي.

فبدلاً من أن يتم توظيف الثورة الهائلة في نظم الاتصالات ونقل المعلومات في تعميق التعارف بين الشعوب والأمم، نجد أن هناك عدم اكتراث بهذا الأمر، وأحياناً يتم تسخير هذا "التقدم" في تعميق الفوارق بين الأمم والشعوب، والسخرية من بعضها البعض، وخدمة أغراض سياسية ضيقة، ومصالح أنانية مادية، وفرض المعرفة بطرف وتجاهل التعرف على الأطراف الأخرى من الشعوب والأمم.

وعوضاً عن تنمية علاقات التعاون وتبادل المنافع بالقسط والعدل؛ ما زالت أشكال الاستغلال ونزعات الاحتكار والاستئثار هي الغالبة؛ نشهدها على مستويات مختلفة عالمية بين الشمال والجنوب، وإقليمية بين القوي والضعيف، ومحلية بين الغني والفقير. هناك على سبيل المثال في جنوب شرق آسيا والباسفيك أكثر من ثلث الأطفال تحت سن الخامسة يعانون سوء التغذية و١٧٠ مليون إنسان يعيشون تحت خط الفقر حسب التقارير الدولية.

وبدلاً من أن ينعم العالم بالسلام والأمن والتسامح؛ نجد الحروب مشتعلة، والصراعات متفجرة، والمنازعات الدولية والإقليمية محتدمة؛ تغذيها نزعات أنانية، وانقسامات عرقية ودينية، وطموحات سياسية لا تنتمي إلى عصرنا الراهن وإنما لعصور بائدة، كما تغذيها نزعات للسيطرة والهيمنة الثقافية تحت شعارات متعددة من قبيل النظام العالمي الجديد والعولمة؛ والتي هي ليست أكثر من اتجاه نحو نوع من الاختزال الثقافي وفرض هيمنة القوي على الضعيف.

أما الوفاء بالعقود والمعاهدات، والاستفادة من ذلك في بناء وترسيخ ثقافة السلم والتعاون، فالفجوة هائلة بين المبدأ والتطبيق، وقد شهد عالمنا طيلة القرن العشرين، وحتى الآن لا يزال يشهد كثيراً من الانتهاكات، والنكث بالعهود، والمواثيق، بدافع من شهوة عدوانية، أو ممارسة لغطرسة القوة. وأوضح الأمثلة التي تفضح هذا الاختلال في الواقع هو الظلم الفادح الواقع تحت سمع الشرق والغرب بالشعب الفلسطيني ومقدسات الأمة الإسلامية في فلسطين.

الفهرس

د.أحمد الريسوني

د. عصام البشير

د. محمد أبو فارس

الشيخ: حمزة منصور

الداعية الدكتور فتحي يكن

د. محمد منير الغضبان

د. جابر قميحة

د. محمد جمال حشمت

د. مسفر بن علي القحطاني

أ. جمال سلطان









نتواجد
دار الأمة للنشر والتوزيع
009612784178
دار الاندلس الخضراء / جدة
02/6815027

للتواصل
00966563221022
alomah@gawab.com

الموزعون
00966563221022
00966554481905

